اسماعيل جوهري

مفاسد الحرام

في المال والطعام

١-٢



دار الهادي



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/ ٠١ ـ ٨٩٦٣٢٩/ ٠٣ ـ فاكس: ٥٤١١٩٩ ـ ص.ب: ٢٨٦/ ٢٥ غبيري ـ بيروت ـ لبنان

Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

مفاسد الحرام
في المال والطعام
١ ـ ٢

مفاسد الحرام
في المال والطعام
١ ـ ٢

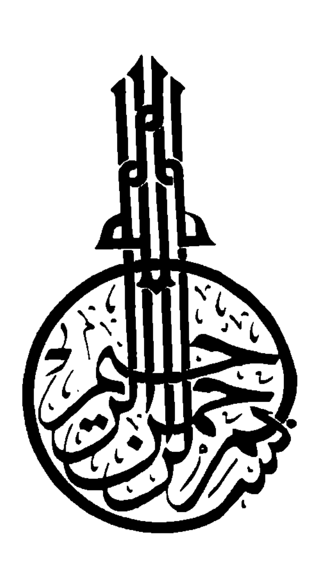
تأليف

اسماعيل جوهري

تعريب

زهراء يگانة





الجزء الأول

المقدمة

تواضع الدين الإسلامي كما يعرف قراؤنا الكرام على تصنيف الذنوب والآثام حسب آثارها ونتائجها في مجموعتين، يطلق على إحداهما تسمية كبائر الذنوب، وتتأطر الثانية بإطار الصغائر. وتختلف كل من الكبائر والصغائر فيما بينها أيضاً بسبب تباين تأثيرها ونتائج الإتيان بها، وقد أتىٰ بعض النخبة من الكتّاب على ذكر هذا الموضوع في مؤلفاتهم مع ذكر تفاصيل تامة تخرج عن نطاق بحثنا هذا[1].

ومما لا ريب فيه هو أن الحكمة الإلهية السديدة حددت لكل من تسول له نفسه أن يرتكب خطيئة ـمهما كانت مرتبتهاـ عقاباً وكفارة معينة تتلاءم مع شدة الإثم المرتكب أو ضعفه. ويستثنىٰ من هذه القاعدة المذنب إن تاب إلى الله سبحانه وتعالى وفاز بقبول توبته من قبل ربه.

وقد نوه الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام إلى هذا الموضوع في قوله:

«كلما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون»[2].

١ـ خصّ بعض مراجع التقليد ـعلى سبيل المثال لا الحصرـ موضوع الكبائر بفصل في نهاية «باب التقليد» من رسائلهم العملية.

٢ـ الأصول من الكافي، الكليني، المجلد الثاني، ص ٢٧٥؛ علل الشرائع، الشيخ الصدوق، المجلد الأول، ←

إذن، إستحداث الذنوب التي لم يكن بنو الإنسان قد ألفوا ارتكابها من ذي قبل يأتي على المرء بأمراض وبلايا حديثة لم يجر مثلها عليه حتى تلك الأوان.

وفي حديث آخر، قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

«إن المؤمن لينوي الذنب فيحرم رزقه»[١].

يتجلىٰ لنا من هذا الحديث أن المؤمن إن أضمر في قلبه النية على ارتكاب الإثم فإنه سيواجه عواقب أقرها له الله سبحانه وتعالى عقاباً لما أضمر ـ ولو لم تتبلور نيته في صيغة فعلية ـ كأن يحرم رزقه جزاء له لما نوى من فعل السوء[٢]. ولقرائنا الأعزاء ـ إن رغبوا في التفصيل بشأن نمط ما يواجهه الإنسان من آثار دنيوية أو عواقب أخروية جراء إتيانه بكل فعل مشين ـ مطالعة المؤلفات التي تتناول جزاء الأعمال وعواقب الآثام بالبحث. وسنجول بأفكارنا هاهنا في رحاب عدة أدعية وروايات وآيات تؤدي بإجمال المعنىٰ أعلاه:

جاء في دعاء اليوم الأول من شهر رمضان المبارك:

«.. واغفر لي الذنوب التي تغيّر النعم، واغفر لي الذنوب التي تنزل النّقم واغفر لي الذنوب التي تقطع الرجاء، واغفر لي الذنوب التي تديل الأعداء، واغفر لي الذنوب التي تردُّ الدعاء، واغفر لي الذنوب التي يستحق بها نزول البلاء، واغفر لي الذنوب التي تحبس غيث السماء، واغفر لي الذنوب التي تكشف الغطاء واغفر لي الذنوب التي تعجل الفناء واغفر لي الذنوب التي تورث الندم، واغفر

← ص ٢١٠؛ الأمالي، الشيخ الطوسي، ص ٣٣٣؛ بحار الأنوار، المجلسي، المجلد ٧٠، ص ٣٤٣، ح ٢٦، طبعة بيروت.

١ ـ عقاب الأعمال، الشيخ الصدوق، ص ٢٤١، بحار الأنوار، المجلسي، المجلد ٦٨، ص ٢٤٧، ح ٦، طبعة بيروت.

٢ ـ يختلف الفقهاء في آرائهم بشأن تأثير النية في الأفعال والعواقب، وللاطلاع على آرائهم راجع كتب الفقه الاستدلالي، باب النية.

لي الذنوب التي تهتك العِصم..»[1].

وفي الدعاء الذي علّمه الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام لكميل بن زياد، سمي بدعاء كميل، نقرأ قولهعليه السلام:

«.. اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تغيّر النعم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء، اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء..»[2].

ويقول أمير المؤمنين عليعليه السلام في عبارة أخرى من الدعاء ذاته:

«.. سيدي فأسألك بعزتك أن لا يحجب عنك دعائي سوء عملي وفعالي..».

وجاء في دعاء عرفة:

«إغفر لي الذنوب التي تغيّر النعم، واغفر لي الذنوب التي تورث الندم واغفر لي الذنوب التي تورث السقم، واغفر لي الذنوب التي تهتك العِصم واغفر لي الذنوب التي ترد الدعاء، واغفر لي الذنوب التي تحبس قَطْر السماء واغفر لي الذنوب التي تعجل الفناء، واغفر لي الذنوب التي تجلب الشقاء، واغفر لي الذنوب التي تظلم الهواء، واغفر لي الذنوب التي تكشف الغِطاء واغفر لي الذنوب التي لا يغفرها غيرك يا الله»[3].

قال الإمام الصادقعليه السلام:

«إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل وإن العمل السيئ اسرعه في صاحبه من السكين في اللحم»[4].

وفي رواية أخرى: جاء عن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال:

١ـ مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي (طاب ثراه)، ص ٢٢١.

٢ـ مفاتيح الجنان، القمي، ص ٦٣.

٣ـ مفاتيح الجنان، ص ٢٥٦.

٤ـ اصول الكافي، الكليني، المجلد ٣، ص ٣٧٤.

«إن الله أوحىٰ إلى داود إنَّ أدنى ما أنا صانع بعبد غير عامل بعلمه من سبعين عقوبة باطنية أن أنزع من قلبه حلاوة ذكري»[1].

ونقرأ في ثنايا كتاب نهج البلاغة عبارة ضمن خطبة القاصعة عن الإمـام علي عليه السلام، قال فيها:

«واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم في المثلات بسوء الأفعال وذميم الأعمال فتذكروا في الخير والشر أحوالهم واحذروا أن تكونوا أمثالهم..».

وقال الإمام الباقر عليه السلام:

«إن الرجل ليذنب الذنب فيدرأ عنه الرزق».

وفي حديث آخر روي عن الإمام الباقر عليه السلام، قال:

«إن العبد يسأل الله الحاجة فيكون من شأنه قضاؤها إلى أجل قريب أو إلى وقت بطيء، فيذنب العبد ذنباً، فيقول الله تبارك وتعالى للمَلَك: لا تقض حاجته واحرمه إياه فإنه تعرض لسخطي واستوجب الحرمان مني»[2].

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«ما أنعم الله على عبد نعمةً فسلبها إياه حتى يذنب ذنباً يستحق بذلك السلب»[3].

وروي عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله قوله:

«يا عباد الله، إحذروا الانهماك في المعاصي والتهاون بها فإن المعاصي تستولي الخذلان على صاحبها حتى توقعه في رد ولاية وصي رسول الله ودفع نبوة نبي الله، ولا تزال أيضاً بذلك حتى توقعه في دفع توحيد الله والإلحاد في

١ـ علل الشرائع، الشيخ الصدوق، المجلد ٢، ص ٥٦.

٢ـ الكافي، المجلد الثاني، ص ٦٧.

٣ـ المصدر السابق.

دين الله»[1].

كما جاء عنه صلى الله عليه وآله أنه قال:

«خمس إذا أدركتموها فتعوّذوا بالله جل وعز منهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوها إلّا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مَضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلّا أُخذوا بالسنين وشدّة المؤونة وجور السلطان، ولم يمنعوا الزكاة إلّا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله عز وجل وعهد رسوله إلّا سلط الله عليهم عدوهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، ولم يحكموا بغير ما أنزل الله إلّا جعل بأسهم بينهم»[2].

وقال صلى الله عليه وآله: «إتقوا الذنوب فإنها ممحقة للخيرات، إن العبد ليذنب الذنب فينسى به العلم الذي علمه، وإن العبد ليذنب فيمنع من قيام الليل، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به الرزق وقد كان هنيئاً له..»[3].

وقال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام:

«إذا كذب الولاة حبس المطر، وإذا جار السلطان هانت الدولة وإذا حُبست الزكاة ماتت المواشي»[4].

ومن الآيات التي تطرقت إلى موضوع بحثنا فإنها كثيرة ومنها:

﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم، كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق﴾[5].

١ـ بحار الأنوار، المجلد ٧، ص ٣٦٠.

٢ـ ثواب الأعمال، ص ٢٢٦.

٣ـ عدة الداعي، ابن فهد الحلي، ص ١٥١.

٤ـ الأمالي، الطوسي، المجلد ١، ص ٧٧.

٥ـ سورة غافر، الآية ٢١.

وكذلك الآية:

﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قَرنٍ مكناهم في الارض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾[1].

أو الآية: ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا، كذلك نجزي القوم المجرمين﴾[2].

و ﴿لقد كان لسبأٍ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كُلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وشيء من سدرٍ قليل. ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلّا الكفور﴾[3].

و ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم...﴾[4].

و ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم...﴾[5].

وتطالعنا سورة الشمس فيما يخص قوم ثمود في الآية (١٤):

﴿فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم فسوّاها..﴾.

وعديدة هي الآيات التي يدور رحاها حول هذا الموضوع وتؤكد جميعاً أن مرد فناء الشعوب والأقوام إنما يعود لطغيانهم والذنوب التي بدرت منهم، ولكن

---

١ ـ سورة الأنعام، الآية ٦.

٢ ـ سورة يونس، الآية ١٣.

٣ ـ سورة سبأ، الآيات ١٥ ـ ١٧.

٤ ـ سورة الأنفال، الآية ٥٢.

٥ ـ سورة الأنفال، الآية ٥٤.

أكثر هذه الآيات إثارة للدهشة قد تكون الآية: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القول فدمرناها تدميراً﴾[1].

***

نلخص مما سلف أن جزاء الذنوب والعواقب المترتبة عليها تختلف باختلاف مراتب الذنوب، فضرب منها وفضلاً عن كونه إثماً فإنه يهيئ الأجواء ويمهد السبيل لاقتراف ذنوب أخرى، ومن هذه الذنوب أكل المال الحرام والمشبوه الوجه. إن فاعلية الزاد الحرام في نفسية الإنسان من الوضوح ما يجعلنا في غنى عن الاستدلال على القول بأن تناول المحرمات يعتبر أعظم رادع وأقوى وازع يقطع على المرء دربه نحو نيل المواهب الإلهية.

لقد حذر الله عز وجل عباده في الكثير من آيات القرآن الكريم من السحت (المال الحرام)، ومن هذه الآيات:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلّا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم، إن الله كان بكم رحيماً. ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً، وكان ذلك على الله يسيراً﴾[2].

إن الآيتين الآنفتي الذكر تنهيان عن حيازة الملكية عدواناً والاستيلاء على الأموال ظلماً، ولكن نهج القرآن المجيد وآية فصاحته وبلاغته التي ينطوي عليها تقتضي انسياب بيانه البديع في سياق لغة القوم، وقد درج بين العامة تعبير «أكل فلان على فلان ماله» أي غبنه حقه بالباطل وإن أنفقه في غير الأكل. ولهذا ذكر القرآن الكريم تعبير ﴿لا تأكلوا أموالكم بينكم﴾ بينما أراد به سائر أنماط التصرف الأخرى.

ويذكر المرحوم النراقي في كتابه «معراج السعادة» في مقام الحديث عن أكل

١ـ سورة الإسراء، الآية ١٦.

٢ـ سورة النساء، الآيتان ٢٩ و ٣٠.

الحرام:

«هو الذي أنساها عهود الحِمى وهو الذي أهـواهـا في مـهاوي الضـلالة والردى»[1].

وقد روي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال:

«إن الذنوب كلها شديدة وأشدها ما نبت عليه اللحم والدم»[2].

وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث له: «إن اللقمة الواحدة تنبت اللحم»[3].

فكم من زاد محرم يعدّ الأرضية المناسبة لتبلور بعض الصفات الذميمة لدى الإنسان أو أنه يهون على المرء فداحة سائر المحرمات الإلهية خلافاً لما يؤديه تناول الحلال من الطعام في النفس البشرية.

وفي سياق كلام الإمام الحسين عليه السلام، عندما وجه خطابه في يوم عاشوراء إلى عسكر عمر بن سعد ناصحاً إياهم دون أن يترك نصحه فيهم أدنى تأثير، نأتي على قوله: «ملئت بطونكم من الحرام»[4]. والذي يثبت صحة ما ذكرناه أيضاً.

ومن الشواهد على هذا الموضوع أيضاً ما انساق على لسان عقيلة أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله، السيدة زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب عليهما السلام من عبارات في خطبة ألقتها في الشام، في مجلس يزيد بن معاوية حيث أشارت إلى هذه القضية قائلة:

«وكيف يرتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأزكياء ونبت لحمه من دماء

١ـ ص ٤٤.

٢ـ الأصول من الكافي، الكليني، المجلد ٢، ص ٢٦٩؛ بحار الأنوار، المجلد ٧٠، ص ٣١٧، ح ٥.

٣ـ بحار الأنوار، المجلد ٦٣، ص ٣١٥، ح ٧.

٤ـ تحف العقول، ابن شعبة، ص ٢٤٠؛ الملهوف، ابن طاووس، ص ٨٥ـ٨٨؛ بحار الأنوار، المجلد ٤٥، ص ٨، ح ٣٧.

الشهداء ونصب الحرب لسيد الأنبياء...»[1].

ثم قولها:

«وأكلت هند كبد حمزة فمنهم آكلة الأكباد ومنهم كهف النفاق ومنهم من نقر سنيتي الحسين (ع) بالقضيب..».

وفيما أوصىٰ به الإمام علي عليه السلام كميل بن زياد:

«يا كميل، إن اللسان يبوح من القلب والقلب يقوىٰ من الغذاء، فانظر فيما تغذي قلبك وجسمك، فإن لم يكن ذلك حلالاً لم يقبل الله تسبيحك ولا شكرك»[2].

وجاء في أحد الأحاديث القدسية قوله تعالى:

«لا يحجب عني دعوة إلّا دعوة آكل الحرام»[3].

وفيما أجاب به الرسول (ص) استفسار شخص سأله عما يتحتم عليه فعله بغية تحقيق رغبته في الفوز باستجابة دعائه، قوله:

«طهّر مأكلك ولا تدخل بطنك الحرام»[4].

وهناك آيات وروايات أخرى تشير إلى دور الزاد الحرام وفاعليته، يأتيكم ذكر بعضها في الفصل الأول من كتابنا هذا.

إن بعض المؤلفات التربوية تؤكد ضمن أبحاثها الدور الفاعل للزاد الحـرام

١ـ الملهوف، ابن طاووس، ص ١٠٩، طبعة قم؛ الاحتجاج، الطبرسي، المجلد ١، ص ٣٤؛ بحار الأنوار، المجلسي، المجلد ٤٥، ص ١٣٤، ح ١.

٢ـ بشارة المصطفى، الطبري، ص ٢٩؛ بحار الأنوار، المجلد ٧٤، ص ٢٦٨، ح ١؛ تفسير الشاه عبد العظيمي، المجلد ١، ص ٢١٦.

٣ـ عدة الداعي، إبن فهد الحلي، ص ١٢٨؛ وسائل الشيعة، الحر العاملي، المجلد ٧، ص ١٤٥، ح ٨٩٦٤، طبعة آل البيت (ع).

٤ـ عدة الداعي، ص ١٢٨؛ وسائل الشيعة، المجلد ٧، ص ١٤٥، ح ٨٩٦٥؛ بحار الأنوار، المجلد ٩٠، ص ٣٧٣، ح ١٦.

والمشبوه الوجه وأضرار كسب المال الحرام، وتستدل هذه المؤلفات على ذلك بذكر روايات أو سرد حكايات تؤيد صحة ما جاء على صفحاتها، إلّا أنه لم يتم إلى الآن تأليف كتاب مستقل يسلط الأضواء على هذا المرمى بالذات بغية حث القراء على بذل اهتمام أوسع لهذا الأمر الهام، وإن وجد مثل هذا الكتاب فإنني لم أطلع على وجوده وهذا ما جعلني أشمر عن ساعد الهمة رغم ضيق الوقت والمسند العلمي لأبحث عن الآيات والروايات والحكايات التي تدور حول هذا الموضوع فاستجمعتها في كتاب خاص عله يحمل بين طياته ما ينفع عباد الله وعسى مبادرتي هذه تحظى بقبول من لدن الباري تعالى. ويأتيكم الكتاب في فصول ثلاثة، هي:

الفصل الأول: مفاسد الطعام إن يكن من حرام.

الفصل الثاني: الإنفاق من المال الحرام.

الفصل الثالث: عاقبة استرزاق الحرام في يوم القيامة.

اللهم أغنني بحلالك عن حرامك وبطاعتك عن معصيتك وبفضلك عن سواك.

السيد اسماعيل جوهري

الفصل الاول

مفاسد الطعام إن يكن من حرام

يتضمن (٣٤) نصاً و (٤٠) حكاية مفيدة

لقد حرم الإسلام استغلال أموال تعود لمسلم أو كافر حفظ له هذا الدين المبين حرمة أمواله، دون كسب موافقة منه أو يقين برضاه عن ذلك[1].

وإن أعرب صاحب مال شفاهياً عن موافقته على التناول مما يعود له بينما يكون المرء قد تيقن من عدم رضاه قلبياً عن ذلك فحينئذ يتحتم عليه التحرز من تناول ذلك الطعام.

يجدر الذكر هنا أن العديد من آيات القرآن المجيد والأحاديث المروية عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام ـ وكما سلف الذكر ـ تتطرق إلى الحديث عن الاستيلاء ظلماً على أموال الآخرين ضمن عبارة «أكل المال»، كما أننا ألفينا استخدام هذا التعبير من قبل عامة الناس في حديثهم عن غبن الحقوق على مختلف ضروبه، وقد يعزى ذلك إلى أن التصرف بجميع أنماطه ينتهي في نهاية المطاف غالباً بتناول الطعام الحرام.

وسنستعرض في أحد الفصول القادمة ما ينجم من مآس عن كسب المال من غير وجوهه الشرعية أو عن غبن الآخرين حقوقهم وأموالهم. أما في هذا الفصل فإنكم تطالعون أحاديث عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام مما جاء في نهج البلاغة ومما روي عن سائر الأئمة الأطهار عليهم السلام وكذلك الآيات الشريفة التي تعنى بمفاسد تناول المحرمات والمشبوهات وهو من

---

١ ـ جاء في الجواهر: ولو كان كافراً محترم المال بلا خلاف بل الاجماع بقسميه إن لم تكن ضرورة والكتاب والسنة دالان عليه بل العقل أيضاً (راجع كذلك شرح اللمعة الدمشقية للشهيد الأول، تأليف الشهيد الثاني مع تعليقات السيد محمد كلانتر، المجلد السابع، ص ١٧).

أكثر مظاهر التصرف بمال الآخرين سوءاً وعبثاً في خلق الإنسان.

هنا نلفت انتباه قرائنا الأعزاء إلى مجموعة من الأحاديث والحكايات التاريخية التي تكشف عن دور وأضرار أكل الحرام والمشبوه.

يتضمن هذا الفصل (٣٤) حديثاً مروياً عن المعصومين عليهم السلام و (٤٠) حكاية تاريخية ذات عبرة أخلاقية مفيدة وكذلك ما تيسر من آيات كريمات في ذكر الزاد المحرم ومفاسده في المجتمع.

النص رقم (١):

قال الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في رسالة الحقوق:

«وأما حق بطنك فأن لا تجعله وعاءً لقليل من الحرام ولا لكثيرٍ وأن تقتصد له في الحلال ولا تخرجه من حد التقوية إلى حد التهوين وذَهاب المروّة وضبطه إذا همّ بالجوع والظمأ، فإن الشبع المنتهي بصاحبه إلى التخم مَكسلة ومثبطة ومقطعة من كل بر وكرم. وإن الري المنتهي بصاحبه إلى السكر مسخفة ومجهلة ومذهبة للمروة»[١].

النص رقم (٢):

عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، قال:

«ولا تدخلوا بطونكم لُعق الحرام، فإنكم بعين من حرّم عليكم المعصية وسهّل لكم سبيل الطاعة»[٢].

إن هذا الحديث يتضمن نهيه عليه السلام عن تناول الطعام المشبوه، وتحذيره عن التهوين بمقداره لأنه يترك أثره السيئ في الجسم وإن كان بقدر لعقة لا غير.

---

١ ـ تحف العقول، ابن شعبة، ص ٤٢١.

٢ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٥١.

النص رقم(٣):

وفي حديث آخر وجهه الإمام علي عليه السلام ضمن كتاب إلى عثمان بن حنيف الأنصاري[١] وهو عامله على البصرة وقد بلغه أنه دُعي إلى وليمة قومٍ من أهلها فمضى إليها، قال:

«أما بعد، يا ابن حُنيف فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها، تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجِفان[٢]، وما ظننت إنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفوّ، وغنيهم مدعو، فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم، فما اشتبه عليك علمه فالفظه، وما ايقنت بطيب وجهه فنلْ منه، ألَا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه؛ ألا وإن إمامكم قد اكتفىٰ من دنياه بطمريه[٣]، ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورعٍ واجتهاد، وعِفة وسداد، فوالله ما كنزت من دنياكم تِبراً[٤]، ولا ادخرتُ من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً...»[٥].

وهنا نسترعي انتباه القراء الكرام إلى عبارة:

«.. فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم، فما اشتبه عليك علمه فالفظه، وما

١ـ لقد أخذ الإمام علي (ع) على عامله استجابته لمثل هذه الدعوة التي لا يدعىٰ لها إلّا الغني ويكون الفقير العائل مجفواً، ولكنه لم يعن بهذا أن يحط من شأنه فهو وأخوه سهل بن حُنيف عامل المدينة المقرر من قبل الإمام (ع) كانا من أصحاب رسول الله (ص) ومن زمرة شيعة أمير المؤمنين علي (ع) الذين اخلصوا له بالولاء حتى نهاية عمرهم ولهذا لم يخامر المفكرين والعلماء قط أدنىٰ شك حول إخلاص هذين الأخوين وطيبهما أو سندية الروايات التي نقلاها.

٢ـ الجِفان جمع جَفنة أي القصعة الكبيرة.

٣ـ الطمر: الثوب البالي.

٤ـ التِّبر: الذهب غير المضروب أو غير المصوغ.

٥ـ نهج البلاغة، الكتاب (٤٥).

أيقنت بطيب وجهه فنَلْ مِنه...».

ثم أردف عليه السلام قائلاً:

«. ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع!! أوَ أبيتُ مبطاناً وحولي بطون غرثى[1]، وأكباد حَرّىٰ، أو أكون كما قال القائل[2]:

وحسبك داءً أن تبيت ببطنة وحولك أكباد تحنُّ إلى القِدِّ

واستطرد عليه السلام قائلاً:

«أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش؟، فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها، أو المرسلة شغلها تقممها، تكترش من أعلافها، وتلهو عما يراد بها، أو أتركَ سُدى، أو أهمل عابثاً، أو أجُرَّ حبل الضلالة، أو أعتسف طريق المتاهة، وكأني بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان؟! ألا وإن الشجرة البريّة أصلب عوداً والرواتع الخضرة أرق جلوداً، والنباتات البدرية أقوىٰ وقوداً، وأبطأ خموداً! وأنا من رسول الله كالصنو من الصنو والذراع من العضد، والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما ولّيت عنها، ولو أمكنت الفرص من رقابها لسارعت إليها، وسأجهد في أن أُطهر الأرض من هذا الشخص[3] المعكوس والجسم المركوس، حتى تخرج المدرة من بين حب الحصيد».

أمعنوا أيها القراء التفكير فيما يقوله أمير المؤمنين عليه السلام في عباراته: «فما

---

١ ـ غرثى: جمع غرثان أي جائعة.

٢ ـ وهو حاتم بن عبد الله الطائي.

٣ ـ ويقصد معاوية بن أبي سفيان.

خلقت ليشغلني أكل الطيبات...».

إن الإمام علياً عليه السلام، ينسب هذه القضايا إلى نفسه الزكية ولكنه جلي وغني عن الاستدلال والتفسير أنه يريد بذلك التلميح إلى الواجب الملق على عاتقنا جميعاً، إنه لا يعني بهذه العبارات أن ضرورة الاهتمام بالمزايا والخصائص التي أتى على ذكرها تخصه وحده، وقوله: «فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات» يدل على استنكافه من تشبه فعال بني البشر أجمعين بما تفعل البهيمة المربوطة أو المرسلة منها، فالأُولى لا هَمّ لها سوى تناول ما يتم توفيره لها من العلف، والأخرى يشغلها عن الدنيا وما فيها بحثها الدؤوب في القمامة تستجمع ما يمكنها تناوله أو تكسبح الأرض دون أن تكترث لحلية الطعام أو حرمته بل تقضم كل ما ينسجم مع طباعها وميولها وتشتهيه نفسها، إذ تسعى كلتاهما لتملأ كرشها من الأعلاف و «تلهو عما يراد بها» وأن ما يقدم لها من علف إنما يراد به سمنتها لتذبح بعدئذ وتستثمر لحومها، إنها تجهل عاقبة أمرها ولا ترى سوى حاضرها بل لا يهمها وضع ما تأكله من أين هو ولمن يعود.

فما أتعس حظ الإنسان لو أصبح شغله الشاغل طوال حياته الحصول على المال بغية التخلص من الجوع وتوفير ما يلذ من الطعام وما يدخل السرور إلى قلبه وقلوب أعضاء أسرته متجاهلاً أمر الاعتناء بحلية وجه تلك الأموال أو حرمته كمن ينهمك بأكل رقية سرقها مجيباً من ينهاه عن تناول ما يعود لغيره، بالقول: أتناوله تخلصاً من حمارة القيظ فإن طبعه يضفي علي بالبرودة وإن كان ملكاً لغيري.

النص رقم(٤):

جاء في نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام فيما يخص أكل الحرام والمشبوه:

«ولا ورعَ كالوقوف عند الشبهة ولا زهدَ كالزهد في الحرام»[١].

١ـ نهج البلاغة، قصار الحكم، الحكمة ١١٣.

يفسر الشهيد الأستاذ مرتضى المطهري هذا الحديث في كتابه «دروس من نهج البلاغة» بأن الاسترسال عند بروز الشبهة وعدم الاعتناء بها يدفع الإنسان نحو الحرام وأن اجتناب الحرام إنما يدل على سلامة النهج وطهارة المشرب.

النص رقم(٥):

كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول دوماً:

«ليس بولي لي من أكل مال المؤمن حراماً»[١].

النص رقم(٦):

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«ليجيئن أقوام يوم القيامة لهم من الحسنات كجبال تهامة، فيؤمر بهم إلى النار، قيل: يا نبي الله، أمصلُّون؟ قال: كانوا يصلون ويصومون ويأخذون وهناً من الليل، لكنهم كانوا إذا لاح لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه»[٢].

النص رقم(٧):

روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«لا يدخلُ الجنة من نبت لحمه من السحت، النار أولىٰ به»[٣].

النص رقم(٨):

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

١ـ بحار الأنوار، المجلد ١٠١، ص ٢٩٦، ح ١٧.

٢ـ مجموعة ورّام، إبن أبي فراس، المجلد ١، ص ١٦؛ بحار الأنوار، المجلد ٦٧، ص ٢٨٥، ح ٨.

٣ـ المسند، أحمد بن حنبل، المجلد ٣، ص ٣٩٩؛ ميزان الحكمة، الري شهري المجلد ٢، ص ٣٧٣.

«العبادة مع أكل الحرام كالبناء على الرمل (وقيل على الماء)»[1].

النص رقم(٩):

عن الإمام علي عليه السلام أنه قال:

«بئس الطعام الحرام»[2].

كما روي أنه عليه السلام قال: «أكل تمرٍ دَقَّلَ وشرب عليه الماء وضرب على بطنه، وقال: من أدخل بطنه النار فأبعده الله»[3].

إذن اكتفى مولى المتقين عليه السلام بأردأ التمر طعاماً تحرزاً من أن يدخل إلى بطنه الحرام فيبعده الله عنه.

الحكاية الأولى: «علي (ع) يلتقط الأترجة من يد ولده»

في «فضائل أحمد» عن أم كلثوم، قالت:

«يا أبا صالح لو رأيت أمير المؤمنين وأُتي بأترج فذهب الحسن أو الحسين يتناول أترجة فنزعها من يده ثم أُمر به فقسم بين الناس».

اجل، إن اللحم النامي على السحت ليحجب توبة صاحبه عن تقبلها من قبل الله سبحانه وتعالى[4].

النص رقم(١٠):

وقال عليه السلام لقائل بحضرته، «أستغفر الله»: «ثكلتك أمك، أتدري ما

١ـ عدة الداعي، ص ١١٠؛ بحار الأنوار، المجلد ٨١، ص ٢٥٨، ح ٥٦ وكذلك المجلد ١٠٠، ص ١٦، ح ٧٣.

٢ـ بحار الأنوار، المجلد ٧٤، ص ٢٠٩، ح ١.

٣ـ بحار الأنوار، المجلد ٤٠، ص ٣٤٠، ح ٢٦ وكذلك المجلد ٦٣، ص ٤١٢، ح ٩.

٤ـ بحار الأنوار، ج ٤١، ص ١١٣.

الاستغفار؟ إن الاستغفار درجةُ العليين، وهو واقع على ستة معانٍ: أولها الندم على ما مضىٰ، والثاني العزم علىٰ ترك العود إليه أبداً، والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة، والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيّعتها فتؤدي حقها، والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد، والسادس تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله»[1].

الحكاية الثانية: «آثار تجنب السحت»

قال البعض: «أن أبا «عبد الله بن مبارك» كان بستانياً يعمل بأجر في حقل ما، جاء ذات يوم صاحب الحقل وطلب إليه أن يحضر له فوراً مقداراً مما حلا مذاقه من الرمان، فلبىٰ مبارك أمر سيده الذي أخبره بعد أن ذاق الرمان أنه حامض وطلب منه أن يأتيه برمان غيره.

جاءه مبارك عدة مرات برمان سرعان ما يخبره سيده بعد كل كرة يذوقه فيها أنه يفقد الحلاوة فيأمره أن يذهب ليعود إليه بما أراد...

شعر صاحب الحقل أخيراً بالضيق فالتفت إلى مبارك قائلاً: إنك لا تميز الرمان الحلو من الحامض رغم الفترة التي قضيتها في العمل في حقلي هذا.

أجابه مبارك: صحيح ما تقول يا سيدي، إنني أعمل في هذا الحقل منذ فترة ولكنني لم أذق من رمانه بعد لأطلع على مذاق ثمار كل شجرة وأميز حلوها عن حامضها. إنك يا سيدي عهدت إلي بأمر الحراسة والسقاية ولم أستأذنك التناول من ثمار هذا الحقل.

استولت الدهشة على صاحب الحقل الذي كان يختبر مبارك فتيقن من صدقه وتعلق به وأحبه حتى زوجه ابنته فرزقه الله إثر طيب رزقه وصدقه في

---

١ ـ نهج البلاغة، الحكمة (٤٠٩).

التعامل بولد بار سماه عبد الله ذاع صيته على كر الغداة ومر العشي إلى الآن، وروي عنه في ذكر مناقبه:

جاء عبد الله بن مبارك من يخبره أنه علم فيما رآه في منامه أنه لم يبق من حياة هذا العارف الشهير أكثر من سنة واحدة. أجابه عبد الله بن مبارك: لقد أطلت علينا المقام وعلينا أن نجتر عذاب الهجران ونذوق مرارة الفراق لسنة أخرى»[1].

النص رقم(11):

قال الإمام علي عليه السلام:

«ياكميل، القلب واللسان يقومان بالغذاء، فإن لم يكن ذلك من وجهه وحله لم يتقبل الله لك تسبيحاً ولا شكراً».

الحكاية الثالثة: «شريك بن عبد الله»

ورد شريك بن عبد الله، وكان عالماً زاهداً في منتهى درجات الفضل والورع، على الخليفة العباسي المهدي يوماً فاقترح عليه المهدي أن يشغل منصب قاضي القضاة في بغداد.. رفض شريك اقتراحه نظراً لعدالته وورعه وعلمه بجبروت المهدي وظلمه هو ورجاله..

ولما رأى منه المهدي ذلك أمره أن يعلّم أبناءه، لكن شريكاً رفض هذا الاقتراح أيضاً لعزوفه عن معاشرة الملوك وأبنائهم ومنادمتهم.

عند ذلك طلب إليه المهدي أن يتقبل دعوته لتناول الغداء معه ليفيض على مجلسه بنصائحه فتقبل شريك دعوته مرغماً، وبعد تناول الطعام توجه طاهي قصر الخلافة إلى المهدي فقال:

---

١ ـ تفسير الخواجة عبد الله الأنصاري، المجلد ١، ص ٤٣، بتصرف.

«ليس يفلح الشيخ بعد هذه الأكلة أبداً».

لقد صدق ظن الطاهي إذ دبت مفسدة هذه الأكلة من طعام الحرام في نفس شريك الذي تقدم بعد فترة إلى الخليفة باقتراح تسلمه منصب القضاء وتوليه شؤون تعليم أبنائه.

ذات مرة أراد شريك تسلم راتبه في مستهل الشهر فماطل متصدي الأمر عن دفع راتبه وأخذ يؤجل الدفع كل يوم لتاليه.. إحتج شريك على تصرفه فقال له مسؤول الشؤون المالية بامتعاض أنه ما باعه قمحاً ليبدر منه مثل هذا الإلحاح لاستلام راتبه.

أجابه شريك أنه باع هذه الوزارة ما هو أعظم شأناً من القمح فقد باعها دينه باستناده في قضائه إلى ما يخالف تعاليم ربه.

آل أمر شريك وعاقبة فعاله ليلعنه الإمام الصادق عليه السلام ويسأل الله أن يخلع لحمه عن جسده في يوم القيامة بأمشاط من النار[1].

أجل، لقد تغيرت أطوار شريك بن عبد الله رغم أنه لم يتناول من السحت والزاد الحرام سوى مرة واحدة فانقلبت سريرته وتعكر صفو فؤاده إثر ذلك حتى غدا في زمرة وعاظ السلاطين وفقد سعادته الأخروية بفاعلية تلك الأكلة.

الحكاية الرابعة: «عدم التوفيق لإقامة صلاة الليل»

روى نجل المرحوم الشيخ عباس القمي (رحمهما الله) ـ وكان زاهداً من أصحاب المنابر ـ عن أبيه (صاحب كتاب مفاتيح الجنان) أنه قال:

ذات مرة تركت مدينة قم قاصداً «همدان» لأمر ما فاستضافني فيها أحد

---

١ ـ التكامل في الإسلام، أحمد أمين، المجلد الأول، ص ٢٣٠، بتصرف.

الثقات، وفي ليلة من الليالي أخبرني صاحب الدار أنه مدعو لتناول العشاء مع أحد معارفه وطلب مني أن أصطحبه، ولما واجه امتناعي ألح علي بقبول الدعوة قائلاً: إن اصطحابك لي يحسن إلي ولسمعتي، وبهذا استدرجني لما أراد..

على أية حال لبيت الدعوة في تلك الليلة وتناولت الطعام في دار مضيفه إلّا أنني وخلافاً لما عهدته في نفسي من خفة في الاستيقاظ لأداء صلاة الليل لم أصح من النوم إلّا وقد آذنت فرصة أداء صلاة الصبح على الانقضاء فأسبغت الوضوء متعجلاً وأديت صلاة الصبح، ثم استغرقت في أفكاري أبحث عن سبب حرماني من مناجاة ربي في تلك الليلة. لم أهتد للدافع مهما أطلت التفكير ولم أجد الوازع إلّا فيما تناولته من طعام عشاء في الليلة المنصرمة.

سألت صاحب الدار بعد عودته إليها عن مهنة مضيفنا في الليلة الفائتة..

أجاب (وكان ذلك في عهد الشاه المقبور): إنه المصرف المسائي ثم أردف يشرح لي أن المصارف تتعامل بالربا صباحاً ثم يستأنف هذا الشخص المهمة مساء.

آلمني ما سمعت فعتبت عليه لدعوته إياي إلى مائدة مثل هذا الشخص ولكن دون جدوى فقد حدث ما حدث..

قال نجل الشيخ (رحمهما الله): الملاحظة التي يهمني أن أنوه إليها هي أن والدي قال: لقد حرمت بعد ذلك من التوفيق لإقامة صلاة الليل لأربعين ليلة رغم ما بذلته من جهد[١].

النص رقم(١٢):

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

---

١ ـ روى ذلك الحاج السيد «محسن مير باقري» نقلاً عن المرحوم حجة الإسلام والمسلمين «ميرزا علي محدث زاده».

«الجنة مُحرمة على جسدٍ غذي بالحرام»[1].

النص رقم(١٣):

وقال ﷺ أيضاً:

«لا يشم ريح الجنة جسد نبت على الحرام»[2].

النص رقم(١٤):

عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال:

«ليس من شيعتي من أكل مال امرئ حراماً»[3].

النص رقم(١٥):

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«ترك لقمة الحرام أحب إلى الله من صلاة ألفي ركعة تطوعاً»[4].

النص رقم(١٦):

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال:

«من أكل مال أخيه ظلماً ولم يرده إليه أكل جذوة[5] من النار»[6].

لقد حقّ على من يأكل السحت أن يحجب دعاؤه عن الاستجابة.

---

١ ـ إحياء العلوم، الغزالي، المجلد ٢، ص ٨١.

٢ ـ إرشاد القلوب، الديلمي، المجلد ١، ص ١٠٧.

٣ ـ المصدر السابق.

٤ ـ عدة الداعي، ص ١٠٢، بحار الأنوار؛ المجلد ٩٠، ص ٣٧٣، ح ١٠.

٥ ـ الجذوة: قطعة غليظة من الحطب فيها نار بغير لهب.

٦ ـ الأصول من الكافي، الكليني، المجلد ٢، ص ٣٣٢، ح ١٥؛ بحار الأنوار، المجلد ٧٢، ص ١١٩، ح ٢٤.

النص رقم(١٧):

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إذا أراد أحدكم أن يستجاب له فليطب كسبه وليخرج من مظالم الناس، وأن الله لا يرفع إليه دعاء عبدٍ وفي بطنه حرام أو عنده مظلمة لأحد من خلقه»[١].

النص رقم(١٨):

قال النبي صلى الله عليه وآله:

«من أكل لقمة حرام لم تقبل له صلاة أربعين ليلة ولم تستجب له دعوة أربعين صباحاً، وكل لحم ينبته الحرام فالنار أولىٰ به، وأن اللقمة الواحدة تنبت اللحم»[٢].

آثار ومفاسد أكل الحرام في بني إسرائيل

جاء في أخبار بني إسرائيل أن القحط والجدب ألمّا بهم سبع سنين متتالية حتى آل أمرهم ليأكلوا العظام والميتة والفضلات من القمائم، والأدهىٰ من ذلك أن وضعهم المأساوي اضطرهم لتناول لحوم أجساد المتوفين منهم.. كانوا يلجأون إلى الجبال ويتضرعون عندها إلى الباري تعالىٰ عساه أن يقرّ أعينهم بهطول الأمطار، فهبط الوحي الإلهي إلى نبيهم ليسأل الناس عما دعاهم ليرفعوا أيديهم متضرعين إلى الله وقد أذنوا لأنفسهم بأكل ما حرمه وملء بطونهم من الحرام فلو يمشوا في الأرض حتى تفقد أرجلهم القدرة على السير ويرفعوا

١ـ بحار الأنوار، المجلد ٩٠، ص ٣٢١، ح ٣١.

٢ـ بحار الأنوار، المجلد ٦٣، ص ٣١٤، ح ٧.

العبارة الأخيرة: «وكل لحم ينبته الحرام» ذكرها الغزالي في إحياء العلوم، المجلد ٢، ص ٨١؛ وكذلك الملا مهدي النراقي في «جامع السعادات».

أيديهم حتى تلامس السماء ويتضرعوا إلى الله إلى أن تكلّ ألسنتهم، لا يستجيب الله دعاءهم. وإن يبكوا ويتوسلوا إليه حتى تسير الأنهار من دموع أعينهم لن ينالهم شيء من رحمة ربهم وشفقته لأنهم أبوا أن يسلموا أموال الناس إلى أصحابها.

عندئذ تنبه بنو إسرائيل إلى أهمية تسليم الأموال إلى أصحابها فرفعوا العدل والإنصاف شعاراً لهم وأدركوا حقيقة يوم القيامة فغشيتهم غمائم الرحمة وهطلت عليهم الأمطار حتى ارتوت المزارع والصحاري وأينعت فنجوا بذلك مما عانوا منه من ضيق وحرمان[1].

لقد خاطب الله عبده النبي موسى عليه السلام منذراً أنه لا يستجيب دعاء من ملأ بطنه من السحت.

كما يروىٰ أن النبي موسىٰ عليه السلام خرج يوماً لقضاء حاجة فمر بشخص يرفع يديه إلى السماء باكياً متأوهاً.. وعند عودته أبصر الشخص ذاته وهو يتضرع على نفس الحال. سأل النبي موسىٰ عليه السلام ربه استجابة دعائه فإنه عبده وقد أتاه يتضرع إليه على هذا النحو..

هبط الوحي من قبل الله سبحانه وتعالى على موسىٰ عليه السلام يؤكد له أن هذا الشخص وإن يرفع يديه حتى يمسك بهما السماء ويبكي حتى تنقطع أنفاسه ويدعو الله بقدر أهل الأرض جميعاً لما نال رحمته ولما استجيب لدعائه..

تساءل موسىٰ عليه السلام عن السبب في عدم استجابة دعائه فأجيب استفساره بأن هذا الشخص يصر على مواقفه الجائرة وسلوكه الظالم ويحتفظ بالحرام في بيته ويملأ بطنه من السحت.

العجب كل العجب أنهم عندما فتشوا داره وجدوا فيها ستة عشر درهماً. إذن لا بد من اجتناب السحت (المال الحرام) والاحتراز عن اعتبار مال الغير

---

١ ـ منهاج الشارعين، المرحوم ميرداماد، ص ٣٠٢، بتصرف.

مال الذات وتجنب الظلم وغبن الحقوق لكي نكف الأنفس شر تعسر الحساب فهي معرضة له دون محيد ولنقيها مغبة الحيرة التي تعتملها عند ترقب العذاب، وذلك بالركون إلى الإنصاف والمروءة في سلوكنا وفي تعاملنا مع الغير وبالتفكير الدائم فيما تؤول إليه عقبانا في الآخرة.

فما من خطيئة أعظم شأناً عند الله من غبن المرء حقوق الآخرين لأنه الكريم الغفار يغفر للعباد من ذنوبهم ما تتعلق بصلتهم وإياه، والأمر ليس كذلك فيما يخص الآثام التي يرتكبها المرء في حق الناس إذ يفترض عليه من أجل كسب رضا الله أن يطلب الصفح ممن اقترف الذنب بحقه إن كان ما يزال على قيد الحياة أو يطلب له الغفران ويكثر من الدعاء له بعد كل فريضة صلاة يؤديها إن كان قد التحق بربه، على أن يرد ما اغتصبه من ماله لورثته، إن كان له ورثة ولإمام العصر (عج) أو نوابه إن لم يكن له ورثة لعله ينال المغفرة ويفلح بها إن فعل.

فقد روي عن الرسول ﷺ أنه كان يوصي كل من يظلم أحداً ولم يوفق لتحصيل الصفح منه في حياته أن يطلب له المغفرة كفارة لما أتى به من ظلم[1]، وذلك بعد إعادة المال لورثته إن كان قد لاقى المنية حتى تلك الأوان أو أن يدفع ما يسمى «رد المظالم» لذوي الفاقة إن فشل في العثور عليهم.

مواعظ نصح بها رسول الله (ص) أصحابه

النص رقم(١٩):

يروى عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أن رسول الله أتاهم (اهل الصفة)[2]

١ـ منهاج الشارعين، المرحوم ميرداماد، ص ٣٠٣، بتصرف.

٢ـ هم ضيوف رسول الله (ص)، كانوا قد هاجروا من أهاليهم وأموالهم إلى المدينة فأسكنهم رسول الله (ص) صفة المسجد وهم أربعمائة رجل وكان يأتيهم ويسلم عليهم بالغداة والعشي.

ذات يوم فمنهم من يخصف نعله ومنهم من يرقع ثوبه ومنهم من يتفلّى وكان رسول الله ﷺ يرزقهم مُدّاً من التمر في كل يوم فقام رجلٌ منهم فقال: يا رسول الله! التمر الذي ترزقنا قد أحرق بطوننا!

فقال رسول الله ﷺ: أما أنّي لو استطعت أن أطعمكم الدنيا لأطعمتكم ولكن من عاش منكم بعدي فسيغدىٰ عليه بالجِفان ويراح عليه بالجفان ويغدو أحدكم في قميص ويروح في أخرىٰ، وتنجدون بيوتكم كما تنجد الكعبة.

فقام رجلٌ فقال: يا رسول الله! أنا إلى ذلك الزمان بالأشواق! فمتىٰ هو؟

قال ﷺ: زمانكم هذا خيرٌ من ذلك الزمان، إنكم إن ملأتم من الحلال توشكون أن تملأوها من الحرام[1]..

النص رقم(٢٠):

قال رسول الله ﷺ:

«من مشىٰ إلى طعام لم يدع إليه فقد دخل سارقاً وخرج مغيراً»[2].

الحكاية الخامسة: «شأن الضيف إن لم يتلق الدعوة»

حلّ رجل -خلال سفرة قام بها- ضيفاً عند شخص آخر، وعندما حان موعد النوم، أتى المضيف ضيفه بلحاف صغير.. كان الضيف يشعر في حينه أن الجو لطيف فقال في نفسه: إن هذا اللحاف بمفرده يكفيني دثاراً.. لكنه بعد اللجوء إلى الفراش شعر بالبرد يدب في أوصاله شيئاً فشيئاً فأخذ بين الفينة والأخرى يقبض أطرافه أكثر من ذي قبل لعله يشعر هكذا بالدفء حتى أصبح مع اقتراب الصباح وكأنه كومة تحت اللحاف، وما أقسىٰ ما عاناه في تلك الليلة.

١-مستدرك الوسائل، النوري، المجلد الثاني، ص ٢٣٤.

٢-شهاب الأخبار، ص ٢٢٤، رقم ٣٩٨.

في الصباح.. توجه نحو المضيف وأنشده بيتين من الشعر باللغة الفارسية مفادهما:

(يعاهد الله كل من يأتيك ضيفاً، أن لا يعود لفعلته ثانية).

(ينكمش تحت الدثار حتى الصباح، فيغدو ذراعاً وإن كان ثلاثة في المساء).

أجابه المضيف ببيتين من الشعر معناهما:

(من سوّلت له نفسه أن يسافر كما فعلت، يذيقه الدهر الجور كما اجترت).

(يقبع تحت أوار داره إن أبىٰ، أن ينكمش من الثلاثة إلى الذراع كما صرت).

وبهذا منع المضيف ضيفه من إطالة الضيافة وتكليف أهل الدار بما لا يروق لهم.

إننا هنا ننصح قراءنا بإكرام الضيف لأن الإسلام رغم ما جاء في الحديث السابق خصّ إكرام الضيف بوافر الثواب وعظيم الأجر.

الحكاية السادسة: العدالة الإلهية والدقة في موافاة حقوق العباد

يسرد السيد نعمة الله الجزائري في باب أحوال ما بعد الموت، في كتابه «الأنوار النعمانية»، قصة رجل ذاق الفاقة في حياته ولما توفي استغرقت مراسيم دفنه ساعات مديدة منذ الصباح وحتى المساء نظراً لكثرة مشيّعيه.. وبعد ذلك لقيه ثلة منهم فيما يرى الرائي في منامه وسألوه: كيف وجدت فعل الله؟

أجابهم الرجل بأن الله قد غفر له خطاياه وأغدقه بوافر إحسانه ورأفته بعد أن استوقفه ليحاسبه حساباً دقيقاً ثم ذكر لهم مصداقاً من مصاديق دقة الحساب بأنه ذات يوم في حياته كان جالساً وهو صائم على عتبة حانوت صديقه وهو بائع للقمح، ولما طرق سمعه صوت الأذان تناول حبة من قمحه وانتصفها بأسنانه وحينئذ تنبه إلى أن القمح ليس ملكاً له فرمى الحبة المتكسرة على كومة القمح، وأنه أدرك دقة حساب ربه لعباده عندما انتقص من حسناته بقدر ما انتقصت الحبة من سعرها..

كما جاء في الكتاب نفسه بأن العبد يؤتىٰ به يوم القيامة إلى مكان مرتفع يشرف منه على الناس أجمعين فينادي المنادي أنه قد حان موعد الحساب فليتقدم كل من له في ذمة هذا الشخص مظلمة ويقتص منه.. إنَّ أشق ما يواجهه العبد آنذاك هو أن تقع باصرته على شخص يعرفه فيخشى أن يكون ذا مظلمة لديه فيطالبه بحقه.. يروىٰ أن المرء يغرم لكل سدس من درهم الفضة بسبعمائة ركعة صلاة حظيت بالقبول من قبل الله فتدفع لصاحب الحق[1].

الحكاية السابعة: «أنت في حل من نصيبي»

«إبتاع إبراهيم بن أدهم وهو ما يزال يقطن بمكة، تمراً من رجل ثم التقط تمرتين ملتصقتين كانتا عند قدميه على الأرض تصوراً منه أنهما من تمره فأكلهما.. وعندما جاء بيت المقدس وأقام فيها ورد ذات يوم «مسجد الصخرة» وكان من عادة الناس آنئذ أن يتركوا المسجد عند غروب الشمس.. إستتر إبراهيم في المسجد ممتنعاً عن الخروج، وعندما حل الظلام سمع صوت الملائكة وهي تتهامس: يحضر المسجد هذه الليلة إنسي من بني الإنسان..

أردف أحدهم: إنه العابد الزاهد إبراهيم بن أدهم..

قال آخر: أجل إن أعماله ترقىٰ كل يوم إلى السماء وتحظى بالقبول من لدن الله.

استطرد ثالث: ولكن طاعاته وعباداته ودعاءه لم تثمر منذ سنة لأنها جميعاً تمحى بسبب إهماله حساب تلك التمرتين.

تلو هذه المحادثة انهمكت الملائكة بالعبادة حتى الصباح.. وفي الصباح حضر المتصدي لشؤون المسجد وفتح الأبواب.. خرج إبراهيم من المسجد وترك بيت المقدس يقصد مكة، ولما حضرها توجه إلى ذات المكان الذي ابتاع منه التمر قبل سنة فوجد فيه شاباً يبيع التمر.. تساءل أين يجد شيخاً طاعناً في

---

١ ـ پند تاريخ (عبرة التاريخ)، خسروي، المجلد الأول.

العمر كان يبيع التمر قبل عام في ذلك المكان فأخبر أن الشيخ قد التحق بربه وأن هذا الشاب هو نجله..

إتجه إبراهيم نحو الشاب وطلب منه أن يحلّله بعد أن سرد عليه جزئيات ما جرىٰ له.

قال الشاب: أنت في حل من نصيبي إلّا أنني لي أم وأخت هما الآن في الدار..

ذهب إبراهيم إلى دارهم ودق الباب.. فتحت الباب امرأة عجوز تتكئ على عصا.. حياها إبراهيم فردت العجوز تحيته وسألته عن غايته..

سرد عليها إبراهيم حكايته، فقالت العجوز: أنت في حل من نصيبي.

وهكذا نال إبراهيم الحلية منها ثم من ابنتها وعندها ترك مكة عائداً إلى بيت المقدس.. وفي ليلة كان يبيت فيها في مسجد الصخرة سمع ملكاً يقول لسائر الملائكة: إن هذا الرجل إبراهيم بن أدهم الذي لم يحظ بثمرة عبادته ودعائه ما يقارب السنة.. لقد تقبل الله سبحانه وتعالىٰ أعماله واستجاب دعاءه.

إنهمرت الدموع من عيني إبراهيم فرحاً وابتهاجاً لما سمعه وما زال بعد ذلك يولي مأكله اهتماماً بالغاً اشتهر به»[١].

الحكاية الثامنة: «تناول الماء الملوث»

«عرف عن سماحة آية الله العظمى الشيخ مرتضى الأنصاري[٢] زهده

١ـ الدين في القصص، المجلد ٣، ص ٣٨.

٢ـ كان هذا الرجل العظيم وهو صاحب كتابي «المكاسب» و «الرسائل» أحد كبار مراجع التقليد في تاريخنا المعاصر وكتاباه القيمان: «المكاسب» في الفقه و «الفرائد» في الأصول يعتبران بمثابة سلّمي طلبة الحوزة العلمية نحو الاجتهاد فلا يحظون بهذا الشأن ما لم يتدبروا تماماً مضمون هذين الكتابين.. ولد الشيخ بذي الحجة من عام ١٢١٤ هـ. ق في مدينة دزفول بإيران وتوفي عام ١٢٨١ عن عمر يناهز (٦٧) سنة حيث دفن في الضريح الشريف بمدينة النجف الأشرف بالعراق.

وبساطته الخارقة. وقد ارتأينا هنا أن نسرد الحكايتين التاليتين عن شمائله وغط حياته لما لهما من صلة وثيقة بموضوع بحثنا:

١ ـ إبان مرجعيته (ره) كان يتولىٰ إدارة شؤون بيت المال بنفسه فيخرج منه ما يؤمّن به تكاليف معيشته وأسرته ولكنه كان مقداراً زهيداً لا يسد حتى حاجياتهم الضرورية فالتمست أسرته من أحد وجهاء العلماء وكان ذا حظوة واحترام لدى الشيخ الأنصاري ليحادث الشيخ عله يؤمّن مصاريف الأسرة بمقدار أكبر من المال.

جاء العالم إلى الشيخ وأخبره القضية وهو يرجوه أن يزود عائلته بما يسد حاجياتهم الأساسية من المال.

إلتزم الشيخ الصمت ولم يرد عليه إيجاباً أو نفياً، ولما عاد إلى الدار طلب من زوجته أن تغسل إزاره وتحتفظ بالماء المتسخ في إناء ففعلت ثم أخبرته بأنها احتفظت بالماء المتسخ في إناء كما أراد.

قال الشيخ: فاشربي هذا الماء إذن.

أجابت زوجته: وكيف لي أن أشرب هذا الماء الملوث والمتسخ وهو ما تأباه نفس الإنسان.

أردف الشيخ قائلاً: إن الأموال التي تحت تصرفي هي زكاة أموال الناس وتعود للمعوزين، فلا يجوز لي أن أمنحكم منها أكثر مما أمنح سائر الفقراء، فإن حقكم في بيت المال لا يزيد عن حقهم ولا فضل لكم فيه علىٰ غيركم.

٢ ـ أهدى الشيخ الأنصاري أحد التجار من مقلديه إزاراً ثميناً فريداً من نوعه يقي سمكه من يتأزر به برد الشتاء، فقبّل يد الشيخ وأسبل الإزار على كتفيه.

في اليوم التالي.. حضر التاجر صلاة الجماعة بإمامة الشيخ الأنصاري

فوجده يتأزر بذات الإزار البسيط الذي لا يليق حسب رأيه بشأن الشيخ فأتى الشيخ بعد الفراغ من إقامة الصلاة وسأله عن الإزار الثمين الذي أهداه إياه قبل يوم.

أخبره الشيخ بأنه باع الإزار واشترى بثمنه إثنتي عشرة عباءة بسيطة ليتأزر بها من لا يملك إزاراً لشتائه.

قال التاجر: سيدي، الإزار كان لك فقد ابتعته لك بالذات كي تتأزر به لا أن تبيعه لتبتاع به ما يكتسيه المعوزون.

قال الشيخ: «إن ضميري لا يقبل ذلك».

أجل أبىٰ صاحب النفس الزكية أن يتأزر بإزار ثمين وهنالك من يطلب إزاراً بسيطاً لشتائه فلا يجده»[1].

الحكاية التاسعة: «أكلة الحرام»

بينما كان الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام معتقلاً في سجن المنصور الدوانيقي، لا يتناول فيه من الطعام إلّا القليل، جاءت السجن يوماً امرأة من النساء الصالحات توالي أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وهي تحمل للإمام رغيفين من الشعير صنعتهما من وجه شرعي فبعثتهما إليه على يد السجان.

أخبر السجان الإمام عليه السلام بأن الصالحة فلانة وهي من الموالين له قد أهدته هذين الرغيفين وهي تقسم بحلية وجههما وتلتمس الإمام أن يتناولهما.

رفض الإمام عليه السلام الهدية وأعادها إلى المرأة وهو يشدد على علمه بحلية الطعام ولكنه لا يجوز له تناوله لأنها بعثته إليه على طبق حرام (ويقصد على يد

---

١ ـ كتاب المكاسب مع تعليقات السيد محمد كلانتر، الجلد ١، ص ١٢٩.

السجان)[1].

سجايا من يطلب العلم لمنافعه الدنيوية

إن من يطلب العلم بغية تحصيل منافعه الدنيوية تسول له نفسه إتيان الأعمال التالية:

١ـ معصية الله.

٢ـ ظلم الأدنين.

٣ـ مؤازرة الظالمين.

٤ـ إطاعة السلاطين والحكام.

٥ـ مجادلة العلماء بغير حق.

٦ـ الاستعلاء على العامة.

٧ـ طلب العلم بهدف الحصول على الجاه والمكانة الدنيوية والمناصب الحكومية.

٨ـ عدم الالتزام بالعمل بما يعلم.

٩ـ التكبر والزهو.

١٠ـ الحسد.

١١ـ ضرب الأدب والتزاماته عرض الحائط.

١٢ـ الكذب.

١٣ـ ترك قراءة القرآن والتهجد.

١٤ـ إهمال الحقيقة والتقاعس عن انتشال النفس من لجج شبهات الملحدين.

١٥ـ عدم الإيفاء بالعهد.

١ـ لطائف الطوائف، ص ٤٤.

١٦ـ إساءة معاملة الناس.

١٧ـ ترك زيارة العلماء المتقين، وعدم الرغبة في الاستفادة من التقرب إليهم.

١٨ـ توجيه الإهانات لرجال الدين ومراجع التقليد واستغابتهم.

١٩ـ منادمة الفسقة وأرباب الدنيا وإكالة المدح والثناء إليهم.

٢٠ـ إهمال أداء الصلاة في أول وقتها وكذلك إقامة الصلاة في المسجد والمساهمة في صلاة الجماعة.

٢١ـ عدم تجنب الطعام المحرم والمال اللاشرعي.

سجايا من يطلب العلم إرضاءً لله

نجد فيمن يطلب العلم إرضاءً لله السجايا والطباع الآتية:

١ـ الحلم.

٢ـ الوقار.

٣ـ التواضع إزاء الاستاذ والتلميذ.

٤ـ تطابق عمله مع علمه وكلامه.

٥ـ تجنب الظلم.

٦ـ الركون إلى الصمت.

٧ـ مطالعة العلوم الدينية والانكباب عليها بغية زيادة التبصر والتفقه في أحكام الدين.

٨ـ البكور في الاستيقاظ وإحياء الليل بين أداء لصلاة الليل والتهجد بقراءة القرآن أو الاستغاثة بالأئمة الأطهار عليهم السلام.

٩ـ تقوى الله.

١٠ـ الرأفة بالمؤمنين.

١١ـ الحذر من إتلاف الوقت.

١٢ـ إجتناب معاشرة أهل السوء والمشجعين على ارتكاب الآثام.

١٣ـ اكتساب العلوم من حملتها المؤمنين.

١٤ـ التحلي بالتواضع والبساطة.

١٥ـ الابتعاد عن الحسد.

١٦ـ إتساع البصيرة وسداد العقل.

١٧ـ الصدق.

١٨ـ المثابرة والجد في طلب العلم.

١٩ـ التزود بالعلم بغية اكتساب القدرة على إرشاد الآخرين إرضاءً لله.

٢٠ـ المثابرة على زيارة ولقاء المتقين من العلماء والتقرب إليهم ومحبتهم من صميم القلب.

٢١ـ التنزه عن التدنس بالإثم أو بحب الدنيا.

٢٢ـ الدأب في سبيل انتشال النفس من أشراك الملحدين وشبهاتهم.

٢٣ـ أداء الصلاة في مستهل وقتها وحضور المسجد لا سيما بهدف أداء صلاة الجماعة.

٢٤ـ الالتزام بالعهود والمواثيق والوفاء بها.

٢٥ـ العمل على تسديد النصح بأسلوب ودي للآخرين.

٢٦ـ الرضا بمشيئة الله.

٢٧ـ التحلي بالأدب والالتزام به في كافة شؤون الحياة.

٢٨ـ حب الحسنات وأدائها، من قبيل: مساعدة الفقراء ورعاية الأيتام وعيادة المرضىٰ.

٢٩ـ العمل علىٰ نشر العلم وتعليمه للآخرين.

٣٠ـ عدم متابعة العلوم التي تضرّ بالدين.

٣١ـ مجاراة الناس فيما لا يمس حدود طاعة الله.

٣٢ـ التنزه عن تناول ما حرم من طعام وإن لذ وطاب.

٣٣ـ الاقتناع بالزاد الحلال وإن شح وقلّ وعدم التمادي والإفراط في تناوله وإن توفر وكثر.

الاستنتاج: لابد أن نعلم أن الزاد الحلال والطيب شأنه في صقل الروح الإنسانية وتزكية النفوس واكتساب القدرة على ترقية العلوم والمعارف شأن الزيت الصافي في المشكاة يزيد من نورها وإشعاعها خلافاً لما حرّم من الطعام فإنه كالزيت المشوب بالماء أو الغبار والتراب يخفت من نور المصابيح ويخنس إشعاعها.

وفي هذا السياق ارتأينا أن نسرد الحكايات التالية من واقع الحياة زيادة في الإيضاح.

الحكاية العاشرة: الزاد الحلال وقوة البصيرة

كان يعيش في أحد الأرياف القريبة من مدينة رشت الواقعة في شمال إيران رجل مؤمن تقي يكتسب قوته من زراعة المحاصيل في أرضه الزراعية.. إعتاد هذا الرجل المؤمن أن يخرج الحقوق الشرعية من دخله ليدير دفة معيشته بما تبق منه.. كان يأبى الطعام ما حرم منه وما اشتبه عليه أمره، وتراه دوماً منهمكاً بعبادة ربه وأداء الحسنات مما آل إلى تطبعه بطابع روحي خاص وصفاء نفسي فريد كشف الحجب عن بصيرته فغدا كما يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«لو تكاشفتم لما تدافنتم»[1].

ذات يوم برزت لديه الحاجة إلى الاستفتاء حول شأن من الشؤون الدينية

١ـ عيون أخبار الرضا (ع)، الشيخ الصدوق، ص ٢١٦؛ بحار الأنوار، المجلسي، المجلد ٧٤، ص ٣٨٣، ح ١٠.

فترك قريته يقصد المدينة التي وصلها عند الظهر فحضر صلاة الجماعة في أحد المساجد بمدينة «رشت» لأداء فريضة الظهر ثم زار أحد معارفه من علماء المدينة في داره..

سأل الرجل مضيفه بعد الاستفسار عن صحته وأحواله: سيدي، إنني لم أر في مدينتكم أناساً في هذا اليوم إلّا القليل منهم إذ لم تبصر عيناي مهما أجلت النظر سوى حيوانات من قبيل: البقار، الحمير، الثعالب والذئاب.

تنبه العالم فوراً لوضعه الروحي فسأله:

هل تناولت طعاماً؟

أجاب: لا.

دفع العالم بشيء من النقود إلى خادمه وأمره أن يحضر له طعاماً من السوق رغم توفر الطعام في داره، تناول الضيف طعامه وجلس بعد ذلك إلى العالم هنيهة يتبادلان الحديث بعد أن استفسر عن مسألته الدينية وأتاه الجواب الوافي عنها ثم نهض وانصرف.

ولما جاء السوق رأى الناس على حالتهم الإنسية فعاد إلى الدار وأخبر العالم الديني بما رأى.

شرح له العالم الديني أن الله قد تفضل عليه ووهبه القدرة على تبصر الحقيقة مثوبة له علىٰ إيمانه وورعه عن تناول الحرام والمشتبه الوجه من الطعام وعلى اهتمامه بتطبيق الأحكام الشرعية، ولهذا فإنه يرى الناس على حقيقتهم فيبصر المحتال ثعلباً والظالم ذئباً والمؤمن خروفاً (لأن الخروف حيوان أليف ومفيد على الإطلاق)، وهكذا سائر الناس. إن هذا الفضل الإلهي نزل عليه إثر انكبابه على عدم تناول ما لا يحل وجهه من الطعام.. وأما هذه الكرة فقد أبصر الناس بظاهرهم الإنسي لأنه تناول طعاماً مشبوه الحلية أعد له من السوق فسلبه

صفاء نفسه وأخفت نور قلبه لبرهة، وعليه أن يقتصر كما اعتاد على تناول الزاد الحلال فتعوف نفسه كحاله إلى الآن الطعام الحرام ليعود إلى ما كان عليه ثانية[1].

الحكاية الحادية عشرة: «ما أقل الحجيج وأكثر الضجيج»

جاء أبو بصير الإمام الباقر عليه السلام ـ وهو أحد أصحابه ـ اثناء مراسيم الحج فقال للإمام: «ما أكثر الحجيج وأعظم الضجيج».

وكان أبو بصير مكفوفاً وقد تراءى إليه من الضوضاء المشتدة أن الحجيج كثيرون وأن هذا الضجيج العظيم إنما هو صدى تضرعهم وإنابتهم إلى الله.

أجابه الإمام الباقر عليه السلام: «**بل ما أقل الحجيج وأكثر الضجيج**»، ثم سأل أبا بصير إن كان يرغب في استيضاح كلامه وتصديقه بأن يرى الحقيقة رؤية العين.

أومأ إليه أبو بصير بالايجاب، فأخذ عليه السلام بيده ودعا له الباري عز وجل لتبصر عيناه، ثم أمره أن ينظر إلى الحجاج..

ما أن نظر أبو بصير إلى حشود الحجاج حتى رأى فجأة رتلاً كبيراً منهم وقد ظهر على هيئة القردة والخنازير بينما يسطع نور المؤمن من بينهم وكأنه نجم متلألئ في غمرة الظلام[2].

يرى المؤلف أن الإمام الباقر عليه السلام أعلن عن غفلة المسلمين عن الغاية المرجوة من اجتماعهم خلال مراسيم الحج العظمى واكتفائهم بها كفريضة خاوية من المعاني والأهداف.

أجل، لقد نطق الإمام الباقر عليه السلام بهذا الحديث إبان حكومة طاغوت زمانه الخليفة الأموي العاشر هشام بن عبد الملك وهو الذي اعتاد على أداء هذه

---

١ ـ التكامل في الإسلام، أحمد أمين، المجلد الأول، ص ٢٣٠، بتصرف.

٢ ـ مناقب آل أبي طالب، إبن شهر آشوب، المجلد ٤، ص ١٨٤، بتصرف في العبارات.

الفريضة متمسكاً بتكبره وأنفته العجيبة حيث قيل أنه اصطحب خلال إحدى السفرات التي حج فيها إلى بيت الله الحرام، من الثياب المتنوعة والزاهية ما اضطر إلى تخصيص ثلاثمائة ناقة لحملها.

لقد كان الإمام الباقر عليه السلام يريد لهذا الاجتماع الهائل أن ينعقد سنوياً كما ينبغي له لتكون هذه الفريضة العبادية السياسية مظهراً من مظاهر صلابة المسلمين وقوتهم بوحدتهم ومفخراً من مفاخر دينهم، ولتحقيق هذا الهدف يتعين استثمار موسم الحج للتعبير خلاله عن التعاليم والمبادئ الإسلامية والكشف عن الأيادي الشيطانية المتمثلة بالطواغيت وأعوانهم.

إذن ينبغي أن نتجنب وبشدة غض النظر عن المفهوم الحقيقي لهذه الفريضة وعن أدائها على أنها عبادة جوفاء خاوية، ولنعلم أن وصية الإمام الباقر عليه السلام الضمنية هذه باتت مهملة ما لم تستثمر هذه المراسيم للإفصاح عن المفاهيم الإسلامية السامية.

الحكاية الثانية عشرة: «أثر اللعقة من طعام الحرام»

يروىٰ أن «بايزيد البسطامي» كان لا يستشعر لذة القيام بالعبادات رغم السنوات التي قضاها من حياته منهمكاً بأدائها. سأل يوماً أمه ـ بعد أن أخبرها بأنه لا يستذوق حلاوة القيام بالعبادات رغم أدائه لها ـ أن تمعن التفكير بذلك الزمان عندما كان ما يزال جنيناً في أحشائها أو طفلاً رضيعاً، هل تناولت طعاماً مما حرم أم لا؟!.

فكرت الأم ملياً بهذا الشأن ثم قالت: بني، في يوم من الأيام وأنت ما زلت جنيناً في بطني ذهبت إلى سطح الدار فوقعت عيناي على إناء طعام فلعقت منه لعقة دون تحصيل موافقة صاحبه..

فطن بايزيد إلى سر عدم استذواقه لذة أداء العبادات فطلب من أمه أن تذهب إلى صاحب الطعام وتسرد عليه الحكاية ثم تستحله وتكسب رضاه..

فعلت الأم ما طلب منها بايزيد فزارت صاحب الطعام وحصلت على حليته، وبعد هذا الحدث أخذ «بايزيد» يشعر بحلاوة العبادة ولذة أدائها.

الحكاية الثالثة عشرة:

«الشيخ الأنصاري والورع عن استغلال الزهيد من سهم الإمام»

يقول أحد كبار العلماء: عندما كنت أحضر دروس الأستاذ العظيم الشيخ مرتضى الأنصاري في النجف الأشرف، رأيت في ليلة من الليالي، الشيطان في منامي يسير وقد أمسك بعدة لجم.. سألته: إلى أين؟ أجابني: أريد أن ألقي هذه اللجم في رقاب بعض الأشخاص.. لقد أوثقت بالأمس عاتق الشيخ مرتضى الأنصاري بأحدها وأخذت أسحبه به من الغرفة وحتى الزقاق، ولكنه ما فتئ أن ألقى اللجام جانباً في وسط الزقاق وحرر نفسه بذلك من قيدي..

عند الصباح.. زرت الشيخ الأنصاري وسردت عليه ما تراءى لي في المنام..

قال الشيخ: لقد صدق الملعون! ثم أخبرني أن الشيطان حاول قبل يوم أن يخدعه عندما طرأت لأسرته حاجة مبرمة إلى المال وكان لديه «قران أعجمي»[1] من أموال سهم الإمام ففكر في نفسه أن يستقرضه ثم يعيده بعد ذلك فأخذه وخرج من الدار.

قال الشيخ: عندما صرت إلى وسط الزقاق سألت نفسي أأنت واثق أن العمر سيمهلك حتى تؤدي دينك.. ندمت على ما فعلت وعدت إلى الدار ووضعت المال حيث كان[2].

جاء في الحديث:

---

١ ـ عملة إيرانية زهيدة كالفلس العراقي.

٢ ـ رجال العلم في عرصة العمل، ص ١١٢.

«أزهد الناس من اجتنب الحرام»[1].

يروى عن زاهد أنه قال: مذموم من قِبَل الله دون ريب من أكل السحت، ألا ترون أنه سبحانه وتعالى حرم على الإنسان دخول بيته جنباً؟! ألم يحـرّم مس القرآن وكتابته على المحدث رغم أن الجنابة والحدوث أمـران مـباحان؟ فكيف بمن انغمس في أكل المحرم والسحت؟ إنه ينبذ لا محالة من قبل الله فإنه لن يأذن له بورود حرمه[2].

النص رقم(٢١):

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إذا وقعت اللقمة من حرام في جوف العبد لعنهُ كُل ملك في السمٰوات والأرض، وما دامت اللقمة في جوفه لا ينظر الله إليه، ومن أكل اللقمة من الحرام فقد باء بغضب من الله، فإن تاب تاب الله عليه وإن مات فالنار أولىٰ به»[3].

النص رقم(٢٢):

كما قال صلى الله عليه وآله:

«إن أحدكم ليرفع يديه إلى السماء فيقول: يا ربِّ يا رَبِّ ومطعمه حرام، وملبسه حرام، فأي دعاء يستجاب لهذا وأي عمل يقبل منه، وهو ينفق من غير حل، إن حج حج حراماً، وإن تصدَّق تصدق بحرام، وإن تزوج تزوج بحرام، وإن صام أفطر على حرام، فيا ويحه. علم ان الله طيب لا يقبل إلّا الطيب، وقد قال الله

١ـ من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، المجلد ٤، ص ٣٩٥، ح ٥٨٤٠؛ وسائل الشيعة، الحر العاملي، المجلد ٢٧، ص ١٦٥، ح ٣٣٥٠١؛ بحار الأنوار، المجلسي، المجلد ٧٠، ص ٣٤، ح ٣٣.

٢ـ جامع الدرر، المرحوم الفاطمي، ص ٢٨٨.

٣ـ مكارم الأخلاق، الطبرسي، ص ١٧٣؛ بحار الأنوار، المجلد ٦٣، ص ٣١٤، ح ٦.

في كتابه: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين[1]﴾»[2].

موعظة:

إن دور أكل الحلال في تنوير القلوب وكذلك الزاد الحرام في حلكة النفوس وبالتالي في سلبها سعادتها، دور تام الفاعلية وهذا ما يحتم على طلبة السعادة أن يلحظوا وبدقة تامة ما يتناولونه من الطعام مخافة أن تتسرب إلى أجوافهم لقمة من زاد محرم في واقعه وإن دل ظاهره الشرعي على حليته، فسعادة الإنسان برمتها تكمن في صفاء قلبه، وتعاسته وشقاؤه وخسرانه الدنيا والآخرة منوط بفساد قلبه.

جاء في سفينة البحار عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، أنه قال:

«في الإنسان مضغة إذا هي سلمت وصحّت سلم بها سائر الجسد فإذا سقمت سقم بها سائر الجسد وهي القلب»[3].

حقاً، إن أكل الحلال يحصن القلب ويحفظ له سلامته بينما يفسدها الزاد المحرم. وتنص الروايات المتناقلة أن الطعام المحرم يفسد القلب كما يفسد الخل العسل، لأنه يثير فيه من التغيرات ما يسلبه قدرة التجاوب حتى مع مواعظ النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام.

ذكرنا فيما مضى أن الإمام الحسين عليه السلام لم يفلح في توعية مقاتلي عسكر الأعداء في يوم عاشوراء مهما سدد إليهم من نصح فاستطرد قائلاً:

«ملئت بطونكم من الحرام...».

جاء في تفسير الصافي نقلاً عن الإمام الصادق عليه السلام:

«فساد الظاهر من فساد الباطن ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته».

١ـ سورة المائدة، الآية ٢٧.

٢ـ التكامل في الإسلام، المجلد ١، ص ٢٣٠.

٣ـ الخصال، الشيخ الصدوق، المجلد ١، ص ١٨؛ بحار الأنوار، المجلد ٦٧، ص ٥، ح ٤.

إن السائرين على درب الحق والصراط المستقيم يخطون نحو نيل السعادة وقد جرت العادة أن يقدم إليهم من همّ بإغوائهم لقمة حرام ولو دون علمهم، وبهذا يفوز بانحرافهم عن جادة السعادة نحو طريق الضلال والشقاء لأن تناول الزاد المحرم دون علم وإن لا يترتب عليه إثم إلّا أنه يحتفظ بفاعليته ويترك أثره التكويني في قلب متناوله.

الحكاية الرابعة عشرة: «أكلة حرام أفسدت قلب شريك القاضي»

ينقل ابن خلكان عن أحوال شريك القاضي أنه كان رجلاً عالماً، عادلاً، ناطقاً، بليغاً لا يبارىٰ في النقاش، يقضي بين الناس في الكوفة بالعدل والانصاف حتى قرر الخليفة المهدي العباسي أن يستحكمه في دار خلافته، ولما كان على يقين أن شريكاً سيرفض هذا الاقتراح دعاه إلى دار الخلافة وقال له: «لابد أن تجيبني إلى خصلة من ثلاث».

قال شريك: «وما هنَّ يا أمير المؤمنين؟».

قال: «إما أن تلي القضاء أو تحدّث ولدي وتعلمهم أو تأكل أكلة».

فكر شريك في الأمر ثم قال: «الأكلة أخفهن على نفسي».

قدم الخليفة العباسي إلى الطباخ وأمره أن يصلح لشريك غداءً من المخ يحوي غدداً حرم أكلها. وبعد فراغ شريك في اليوم التالي من الغداء، قال القيم على المطبخ «يا أمير المؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد هذه الأكلة أبداً».

وبالفعل مال قلب شريك بعد ساعة من تناول ذلك الطعام المحرم لمصاحبة الخليفة وقرر أن يخبره بأنه فكر بالموافقة على اقتراحاته ما دامت جميعاً تأتي بالفائدة على المسلمين.

يذكر المسعودي في مروج الذهب نقلاً عن الفضل بن ربيع أنه قال: «.. فحدثهم والله شريك بعد ذلك وعلّم أولادهم وولي القضاء لهم».

الحكاية الخامسة عشرة: «العسل وابنة أبي الأسود الدؤلي»

سعى معاوية بن أبي سفيان بجد من أجل استمالة أصحاب أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فكان يرسل إليهم عادة الهدايا والتحف محاولاً فت عضد الإمام علي عليه السلام وتجريده من أصحابه.. كانت هداياه ومرسولاته تتكون من قِرَب عسل تمتزج أحياناً بمسكوكات تبهر أبصار عبيد الدنيا والدينار وتسدل غشاوة على أفئدتهم وبصائرهم، إذ سرعان ما يعتزلون نهج علي عليه السلام ليلتفوا حول معاوية..

ولكن هذا لا يعني أنه لم يكن بينهم رجال أوفياء تحصن الشهامة نفوسهم وتقي المروءة عقولهم شر الزلات، ولم يبدوا أبداً أدنى استعداد للاستغناء عن ظل الإمام عليه السلام الوارف ورعايته أو الخروج عن نهجه بدعم أعدائه، ومن هؤلاء الرجال صاحبه الفاضل المهتدي إلى أمر الله، «أبو الأسود الدؤلي»..

كان أبو الأسود الدؤلي يحضر المسجد يوماً عندما فوجئ برجل غريب دخل المسجد وأخذ يهتف باسمه منادياً له.. نهض أبو الأسود واتجه نحو باب المسجد حيث سلمه الرجل رسالته، فتحها فعلم منها أن مرسلها معاوية بن أبي سفيان وأن الرجل مبعوثه.. قرأ أبو الأسود الرسالة وأدرك منها أنه قد بعث بمقدار من العسل إلى داره.. طوى أبو الأسود الرسالة وأخذ يعدو نحو داره ولما دخلها وجد ابنته تلعق من العسل..

هتف أبو الأسود: يا بنتاه، لا تأكلي فإنه سم ناقع[1].

شرح هذا الصحابي الجليل لابنته أن معاوية قد بعث لهم بهذا العسل يريد به إغواءهم بحلاوته ليحرمهم من استذواق حلاوة حب علي عليه السلام والولاء له.

ما أن سمعت الفتاة كلام أبيها حتى أدخلت إصبعها إلى حلقها فتقيأت العسل

---

١ ـ سمٌ ناقع: بالغ قاتل.

ثم أنشدت هذه الأبيات:

أبالعسل المصفى يابن هند نبيع لك إيماناً وديناً

فلا والله ليس يكون هذا ومولانا أمير المؤمنينا

أمسك أبو الأسود بإحدى يديه الرسالة وبالأخرى يد ابنته فأتى مولى المتقين علياً عليه السلام وقرأ عليه ما أنشدته ابنته من أبيات الشعر.. سر الإمام بما سمع فدعا لها بالخير ووهبها العسل[1].

الحكاية السادسة عشرة: «لا يمضغ فمي طعاماً من غير مالي»

يتحدث أحد المقربين إلى الرسام الإيراني الشهير «كمال الملك» عن نمط حياة هذا الفنان قائلاً:

«.. كان يقيم في غرفة تلتصق ببناء دائرة الفنون الجميلة الحالية، لها نافذة تطل على الزقاق، وكل أثاثها قطع صغيرة من السجاد وفراشه المتكئ إلى الحائط يغطيه شرشف خاص كالخيمة.

كم من مفاتن وابداعات ومآثر فكرية وكلامية انبثقت من هذه الغرفة المصطبغة بالدخان فزينت القصور، وكم من أحاديث ودية مفعمة بنفحة الوفاء انطلقت من فم هذا الرجل النزيه..

عشق «كمال الملك» الحرية.. كان يرى أن بذرة حب الحرية لابد أن تنفلق في أفكار بني الإنسان جميعاً.. كان يشدد على ضرورة العمل على ترقية المستوى الثقافي والعلمي للناس عن طريق تأسيس المدارس ونشر الكتب وتشجيع حركة الترجمة.. وتطبيقاً لأفكاره هذه أسس مدرسة وانكب على ترجمة كتب لمؤلفين من أمثال جان جاك روسو.. كان شميم الحرية وطيب الإنسانية يفوح من مقالات «كمال الملك» وترجماته.. كان يرى أن الإنسان

١ـ جامع النورين، السبزواري، بتصرف.

بعيداً عن الحرية لا يجوز اعتباره كائناً متكاملاً.

كنت أرقب موقفه يوماً (في المدرسة) وقد أتاه الخادم ليقول له: لا نقود لدينا لإعداد طعام العشاء في هذه الليلة..

إعتذر إليه «كمال الملك» وهو يقسم أنه في حيرة من أمره فليفعل ما يرىٰ.. ثم اقترح عليه أن يعطيه شيئاً من ثيابه ليرهنه بتومان.

قال معاون المدرسة: سيدي، إنك على علم أن وزارة الثقافة قد بعثت لنا بأربعين توماناً لنؤمن بها نفقات إعداد مستلزمات الحفل.. لو سمحت أن نصرف منها ما يستلزم حتى يحين موعد استلام الرواتب فـ..

قاطعه كمال الملك قائلاً: لا تفعل ذلك فإن فمي لا يمضغ طعاماً من غير مالي»[١].

الحكاية السابعة عشرة: «طيب الطعام وفاعليته في استجابة الدعاء»

كان في الكوفة جماعة مستجابو الدعوة في أكثر الأحيان، فيدعون على كل والٍ أو حاكم جائر يرد الكوفة فيهلك. ولما وردها الحجاج بن يوسف الثقفي أقام فيها مأدبة كبرى دعاهم إليها جميعاً، فتناولوا فيها ما وسعهم..

بعد إتمام المأدبة قال الحجاج أنه أمن شر دعائهم عليه الآن لأنه ملأ بطونهم من زاد حرام، وتناول الزاد الحرام من دواعي حجب الدعاء عن الاستجابة.

الحكاية الثامنة عشرة: «تبديل الحاجة دون علم صاحبها»

إبتاع رجل شيئاً من التمر ثم عاد بعد هنيهة إلى حانوت التمار ليستبدله فوجد التمار غائباً عن حانوته.. استبدل الرجل تمره بتمر أفضل منه دون علم وموافقة صاحبه وانصرف إلى داره.

لم يرزق الرجل في تلك الليلة نعمة إقامة صلاة الليل (كعادته في كل ليلة)

---

١ ـ مجلة «الفن وبنو الإنسان» (هنر ومردم).

لأنه ما أفاق من نومه إلّا بعد فوات الأوان، فتألم لذلك بشدة.

وفي الليلة التالية أخبره شخص في منامه أنه لم يوفّق في الليلة المنصرمة لأداء صلاة الليل لأنه استعاض التمر بتمر أكثر جودة دون كسب موافقة صاحبه(١).

الحكاية التاسعة عشرة: «لن آكل الحرام ما دام الحلال متوفراً»

قال النبي عيسى عليه السلام لراع التقاه: انفدت عمرك في الرعي ولو جهدت في اكتساب العلم لصرت إلى أفضل من حالك هذه.

قال الراعي: يا نبي الله، تعلمت من العلوم قاطبة ستة أمور فقط، ألتزم دوماً بتطبيقها:

الأول: أن لا أتناول الحرام ما دام بإمكاني تناول الحلال وهيهات أن يشح الحلال لأحتاج إلى الحرام.

الثاني: أن لا أكذب ما دام بإمكاني التزام الصدق وهيهات أن يعسر عليّ الصدق لاحتاج إلى الكذب.

الثالث: أن لا أنشغل بعيوب الآخرين ما دمت أرىٰ عيوبي ولم أتم إصلاح عيوبي حتى الآن لأنشغل بعيوب غيري.

الرابع: لن آمن وسوسة الشيطان ما دام حياً، ولم يمت الشيطان بعد لأشعر بالأمان.

الخامس: أن لا أطمع بمال الخلق وما في خزائنهم قبل أن ينفد الخير من خزانة الخالق، ولم أجد خزانة الله خاوية إلى الآن.

السادس: أن لا آمن عذاب ربي قبل أن أجد قدميّ وقد استقرتا على أرض الجنة.

١ـ التكامل في الإسلام، المجلد الأول، ص ٢٣٠، بتصرف.

قال المسيح عليه السلام: «إنه لعلم الأولين والآخرين ما تعلمت»[1]. وستأتيكم تفاصيل هذه الحكاية لاحقاً.

ومن الحكايات التي تثبت لنا صدق نزول البلايا بالمرء إن أغفل عن أمر الحلال عند الاسترزاق، الحكايتان التاليتان:

الحكاية العشرون: «سلبت الناس حقهم قطرة قطرة لتلقيه في البحر وعاءً وعاء»

عاش في مدينة «جيلان» بإيران قبل عهود مضت تاجر ثري جمع من المال ثروة طائلة وهو يمتهن بيع النفط.. كان هذا التاجر يوصي خادمه دوماً بالقول: عند الشراء ضع سبابتي يديك عند فوهة الإناء لنحصل على مقدار أكبر من النفط.. ولكن عند البيع أدخل إصبعك في الإناء لتعطي مقداراً أقل بقليل!

كان الخادم يجيب: إن هذا الفعل خيانة وغش يا سيدي يضفي الحرام إلى مالك فيبيد شؤم الخيانة والغش جميع ثروتك.. عندها لا يجدي الندم والأسف فائدة ونفعاً، فما يدرّه عليك من نفع وضع السبابتين عند فوهة الإناء، وهل لهذه القطرات المعدودة قيمة تستحق لتمزج الحرام برأس مالك برمته؟!!

يقول التاجر: أيها الأحمق، إنها تجارة، وفي مهنة التجارة ينبغي أن لا نتساهل أو نتغاضى عن أدنى الأشياء.

فيعود الخادم النزيه لينصحه: وهل لجمع المال الحرام مصير يؤول إلى الخير؟ تنبه يا سيدي فقد تجرف الأمواج أموالك فجأة.

هتف التاجر: وأين أنا من البحر؟ كف عن هذا الهراء المفرط، ما عليك إلّا أن تشغل نفسك بأعمالك، ما شأنك والتدخل في مثل هذه الأمور؟!

قال الخادم: لم أنطق سوىٰ بما رأيته حقاً فافعل ما ترىٰ..

بعد ذلك جعل الخادم يطيع أوامر سيده على أن المأمور معذور.. بعد فترة

---

١ ـ دروس من التاريخ، ص ١٤٨.

من الزمن تناهى إلى التاجر خبر يحكي عن غلاء سعر النفط في منطقة «هشتر خان»، فدفعه طمعه ليسافر بحراً إلى هناك.. إبتاع زهاء ألف وعاء من النـفط وحمّلها سفينة سارت به إلى هذه المنطقة. كان يردد في الطريق القول لخادمه: سوف يكفينا بيع هذا المقدار من النفط ـ بعد عودتنا إلى ديارنا ـ مؤونة التجارة والعمل.. سوف أشتري المزارع وبعض الممتلكات لأقضي فـيها بـقية عـمري براحة ورفاه..

قال الخادم: سيدي التاجر، لماذا لم تستعن بقول «إن شاء الله»..؟

على أية حال سارت بهم السفينة وهي تمخر عنان البحر وفجأة هبت رياح عاصفة وثار البحر ثورة عاتية وفقد الربان سيطرته على السفينة.. كان التاجر الطماع يشعر أن قلبه يرتطم بجدار صدره كما ترتطم الأمواج بجدار السفينة.

صاح ربان السفينة: ايها التاجر، النفس تعزّ على الإنسان، علينا أن نخفف من ثقل السفينة لو شئنا إنقاذ حياتنا.

رمى التاجر أوعية النفط في البحر الواحد تلو الآخر حتى أتىٰ على آخرها، عله ينجو بحياته، وراح يقول لخادمه: نجاتنا بيد الله وحده... لما أُفرغت السفينة من الأوعية.. هدأت الامواج الثائرة بأمر من الله وسكن البحر ثانية.. عندها عض التاجر على إصبعه وجعل يضرب بيده على رأسه أسفاً على ما فاته..

كان الخادم يرقب الموقف فتقدم إلى سيده وقال: ايها التاجر، لم يعد للأسف والندم جدوى، كان عليك اتقاء مثل هذه البلية قبل وقوعها... سلبت الناس قطرة قطرة لتلقيها في البحر وعاء وعاء.

وهكذا يكون دوماً مصير إجحاف الكيل والغش في التعامل فليعتبر أولو الألباب[1].

---

١ ـ روضة الأنوار، العباسي.

الحكاية الحادية والعشرون: «لا تمتد يد اللصوص إلى المال الحلال»

مما جاء في روضة الأنوار للعباسي (القرن الحادي عشر) أن تاجراً من أهل التقوىٰ والأمانة والإنصاف يسمىٰ الحاج صمد عاش بمدينة كرمان في إيران، وكانت له معاملات تجارية مع أكثرية كبار التجار في المدن: مشهد، إصفهان، تبريز، يزد وشيراز، فيبعث إليهم اللفائف والسجاجيد واللُّبود ويتقاضى بدلها أمتعة أخرى. وبسبب الفوضى وانعدام وسائل النقل الحديثة كانت الحمولات التجارية والقوافل تتعرض غالباً إلى الإغارة فيسلب التجار بذلك أموالهم، وقلما تسلم قافلة وتصل إلى مأربها سالمة، ومع هذا أمن الحاج صمد طوال سنين مزاولته لمهنة التجارة شر قطاع الطرق.. ذات مرة أعد الحاج صمد حمولته وسار في قافلة تقصد مدينة مشهد يرافقه فيها تجار آخرون يعرفهم الحاج صمد وبعد اجتيازهم عدة مراحل من سفرتهم سأل التجار الحاج صمداً عن السر في عدم تعرض بضاعته وحمولاته التجارية حتى الآن لإغارة قطاع الطرق.

أجابهم الحاج صمد: لم أخن أحداً حتى الآن ولا أرضى لنفسي أن أجحف أحداً حقاً وإن كان بقدر دينار[1]، وأؤدي الخمس والزكاة ما استحق منها من أموالي كما يأمرني الشارع المقدس وأركن إلى الإنصاف في معاملاتي إذ أقنع بالعشر ربحاً، ولهذا يحفظ الله سبحانه وتعالى بضاعتي أثناء تنقلاتي وأسفاري ويؤمنني عوادي النهب.

لم يصدق رفاق الرحلة كلام الحاج، فأردفوا قائلين: إن تعرض القوافل إلى الإغارة أمر عرضي لا علاقة له بالحلال والحرام أو الإنصاف.

كانت الجماعة تتبادل هذا الحديث عندما وصلت القافلة إلى ينبوع فحطت رحالها عنده. وبعد تناول طعام الغداء أدى الحاج صمد صلاته واستسلم

---

١ ـ الدينار في العملة الإيرانية عملة ممسوخة وكانت بخسة جداً إذ لا تضاهي في قيمتها حتى الفلس.

للنوم.. ولما استغرق في نومه تهامس الزملاء وتآمروا على أن يخفوا بضاعة الحاج تحت الرمال على مسافة من الينبوع ليهزأوا به ويمازحوه بهذا النحو عندما يستيقظ من النوم فتكالبوا جميعاً على تنفيذ خطتهم، وهكذا طمروا بضاعة الحاج صمد تحت الرمال وعادوا إلى مقرهم عند الينبوع ليأخذوا قسطاً من الراحة..

في تلك الأوان أغار عليهم قطاع الطرق ونهبوا كل ما كان عند الينبوع من أمتعة وبضاعة ثم رحلوا يحملون غنائمهم، ولم يسلم من حمولة القافلة إلّا أمتعة الحاج صمد التي أخفيت تحت الرمال لإرهاب صاحبها والاستهزاء به.

أثارت هذه الحادثة دهشة الجميع وقد آمنوا بصدق كلام الحاج صمد في أن المال الحلال النقي من أدران السحت يسلم من إغارة اللصوص وقطاع الطرق ومن الحوادث التي تؤدي إلى فنائها.

الحكاية الثانية والعشرون: «الشيخ مرتضى الأنصاري يكتفي بالخبز غداء»

«كان الشيخ المرحوم الحاج مرتضى الأنصاري (أعلى الله مقامه الشريف) إبان تحصيله العلوم في إحدى المدارس الدينية بمدينة النجف الأشرف يقيم في حجرة مع أحد طلبة العلوم الدينية.

في يوم ما همّا بتناول الغداء بعد أداء الصلاة فلم يجدا في الحجرة ما يأكلانه سوىٰ قطع قد يبست من الخبز دونما مرقة أو شيء آخر، ولم يكن لدى أي منهما من المال ما يبتاعان به شيئاً من الطعام.

توجه زميل الشيخ إلى بقال الحي وابتاع منه قليلاً من الحلوىٰ على أن يسدد له ثمنها فيما بعد، فعاد بها إلى الحجرة ووضعها على السفرة إلى جانب الخبز..

سأله الشيخ: من أين لك هذه الحلوىٰ؟

أجاب: لقد اشتريته على أن أسدد ثمنه فيما بعد.

سأله الشيخ هل أنه على يقين من أنهما سيحييان حتى يتمكنا من دفع ثمنها لصاحبها..

وهكذا اكتفى الشيخ بالخبز وحده غداء بينما تناول صاحبه الخبز مع الحلوىٰ.

وفي نهاية المطاف نال الشيخ رتبة قيادة المرجعية العلمية والروحية للشيعة في العالم بأسره بينما أصبح زميله عالماً دينياً في أحد الأحياء.. وفي يوم ما زار زميل عهد الدراسة المرحوم الشيخ وسأله ما الذي أخذ بيده لينال هذا الشأن العلمي الرفيع؟

أجابه الشيخ الأنصاري: اكتفائي بالخبز وقناعتي به عندما عافت نفسي الحلوى»[1].

الحكاية الثالثة والعشرون: «سيدة موقرة ترفض معونة مالية من الشيخ المفيد»

«حُرم السيدان الرضي (جامع نهج البلاغة) والمرتضىٰ نعمة الأبوة وهما في مرحلة الطفولة من عمرهما فتعهدت أمهما السيدة فاطمة ابنة السيد ناصر بأمر إدارة شؤون حياتهما حتى بلغا مرحلة الدراسة، وكانت سيدة تقية، فاضلة اشتهرت بزهدها بين أهل زمانها.

في ليلة ما التقى الشيخ المفيد (ره) في رؤياه سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام وقد وردت عليه ممسكة بيدي الحسنين عليهما السلام، فقالت له:

«يا شيخ علمهما الفقه».

---

١ ـ نقش روحانيت (دور العلوم الدينية)، دواني، ص ١١٨.

قضى الشيخ يومه التالي مستغرقاً في أفكاره، مندهشاً من رؤياه. كان جالساً في مجلسه عندما أبصرت عيناه سيدة موقرة (فاطمة أم السيدين الرضي والمرتضىٰ) ترد المكان وهي تمسك بيدي ابنيها وهذا ما دعا الشيخ للقيام فوراً واستقبالها بكل احترام واجلال، فحيا السيدة بأدب تام. وصدقت رؤياه عندما قالت له السيدة:

«يا شيخ علّم ولديّ هذين العلم».

وهكذا تعهد الشيخ المفيد بمسؤولية تعليم وتربية ولديها متلهفاً وهو يشعر بمنتهى الغبطة والارتياح.

وفي يوم من الأيام قدّم الشيخ معونة مالية لهاتين الشخصيتين العظيمتين فوضعاها بدورهما تحت تصرف أمهما التي أعادتها في اليوم التالي إلى الشيخ. بررت هذه الاستاذة المبجلة سلوكها بأنهم يديرون شؤون معيشتهم من دخل سنوي يردهم عن إيجار أرض موروثة وأنهم يلتزمون القناعة نهجاً يعينهم على تطبيق برنامجهم الخاص وأن هذه المعونة المالية ستعود على ولديها برفاه نسبي ويفترض عليهم الاستغناء عنها والعودة إلى القناعة كما سلف بعد نفادها، الأمر الذي لا يطيقانه مما يوجه ضربة إلى تحصيلهما العلمي.

بارك الشيخ في هذه السيدة الجليلة الموقرة وباشر بتعليم ولديها اليافعين وهما من سلالة رسول الله صلى الله عليه وآله، ويعزى انتهاء سبيلهما بنيل تلك المكانة العلمية المرموقة إلى المساعي التي بذلها الشيخ المفيد في تعليمهما، والتربية الصالحة التي هيأتها لهما أمهما المؤمنة التقية، ومواهبهما الفطرية وتقواهما حتى لقّب أمير المؤمنين عليه السلام السيد المرتضى بعلم الهدى ونال السيد الرضي شرف جمع نهج البلاغة إلى جانب مؤلفات نفيسة أخرىٰ»[١].

١ ـ راجع سفينة البحار، القمي، ج ١، ص ٥٢٦.

حقاً لا يليق شأن القيادة الدينية إلّا بمن اتّسم بالتقوى والقناعة وعزة النفس، ولا يتعاظم دور أقلام العلماء إلى ما هو أسمىٰ من دماء الشهداء إلّا إذا ازدان أصحابها بهذه الشمائل فتغدو النظرة إلى سيماهم عبادة وينالون بحق شرف نيابة الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة الأطهار عليهم السلام.

وبهذا الشأن يقول الإمام علي عليه السلام:

«يا أبا ذر: لا يكون الرجل من المتقين، حتى يُحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه، فيعلم من أين مطعمه ومن أين مشربه ومن أين ملبسه؟ أمن حل ذلك أم من حرام؟ يا أبا ذر: من لم يبالِ من أين اكتسب المال، لم يبال الله عز وجل من أين أدخله النار»[1].

الحكاية الرابعة والعشرون: «لم أمس قرآن الإمام الصادق (ع) قط دون وضوء»

لما نال الشيخ مرتضى الأنصاري درجة الاجتهاد وحاز منصب قيادة المرجعية الدينية، أخذ الناس يهنئون أمه بهذه المناسبة.

كانت هذه الأم الجديرة تجيبهم: ما كانت الدهشة تنالني حتى لو ارتقىٰ ولدي مكانة النبوة فيما لو لم يكن نبينا الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله خاتم النبيين، نظراً لما تحملته من عناء في تربيته وتنشئته، فكيف أعجب لنيله شأن الاجتهاد.

كان الناس يعجبون لكلامها ويتساءلون هل أنها بذلت من أجله ما لا يبذله الآخرون في سبيل تربية أبنائهم؟!.

والأم تجيب: لا أعلم إن كنتم على استعداد وسعة صدر تمكنكم من فهم كنه متاعبي أم لا؟ ولكنني أذكر لكم على سبيل المثال أنني لم أرضعه من حليبي إلّا وقد أسبغت الوضوء.. لقد رأيت في المنام ذات ليلة الإمام الصادق عليه السلام وقد

---

١ ـ مكارم الأخلاق، الطبرسي، ص ٤٨٦؛ بحار الأنوار، المجلد ٧٤، ص ٨٨، ح ٢.

أهداني قرآناً، وعندما استفسرت أحد العلماء في اليوم التالي عن تأويل حلمي، أخبرني أن الله عز وجل سيهبني طفلاً يكون حافظاً لحدود القرآن، ولهذا لم أمس قرآن الإمام الصادق عليه السلام (وتعني رضيعها مرتضىٰ) قط دون وضوء.

وهذا بالضبط ما جعل «نابليون بونابرت» يقول: أن الأمهات يهزّن المهد بيد والعالم باليد الأخرىٰ.

ويتناقل الكثيرون حكاية الشيخ الأنصاري عندما جثا على ركبتيه حيال جثة أمه عند التحاقها بالباري سبحانه وتعالى وجعل يبكيها بكاء شديداً. قال له أحد تلامذته يريد تطييب باله: لا يلائم شأنك العلمي يا سيدي أن تذرف الدموع عند جثة عجوز.

أجابه الشيخ: ويحك، كأنك لم تفقه الشأن الرفيع للأم بعد.. لقد صيرتني تربية أمي الحكيمة ومتاعبها الكثيرة إلى الشيخ الأنصاري حيث قوّمت بنياني بيديها وإرادتها الصلبة، وهيأت لي تربيتها الأولية الأجواء لأنال هذا المنصب العلمي والعملي الشامخ.

الحكاية الخامسة والعشرون: «الأم وطهارة المَرضع»

ينقل الخطيب المشهور المرحوم حسن علي راشد نجل الملا عباس تربتي أنه:

«لم يقف كل من عرف المرحوم الآخوند ملا عباس تربتي على ما سأذكره عنه بتفاصيله التالية:

لقد رسم الكثيرون للمرحوم الحاج ملا عباس تربتي صورة في أذهانهم تتطابق مع ما لهذا الرجل السماوي من شأن وفضائل، فيتناقلون عنه ما يتناقله العامة عادة عن مثل هذه الشخصيات الفريدة. لقد كنت أنا وأمي وأخي وأختي وعمتي نشعر بالإجمال أن الملا يعيش في عالم لا يشهده أمثالنا.. عالم لا يرغب في محادثتنا عنه.. لقد سمعت من بعض الأشخاص أموراً خاصة ومبرهنة عن أبي إلّا أنني لم أكن بمستوى يؤهلني ليبثّني نجواه.

ومن البديهي أن من يحيا لأكثر من سبعين سنة يواظب خلالها منذ قبل بلوغه الحلم وحتى نهاية حياته على أداء جميع الفرائض والنوافل بدقة فائقة، لا يدنس نفسه بأي إثم ويكتفي من متطلبات معيشته بأدناها ويغض باصرتيه وأذنيه عن الرؤية أو عن سماع المباح فقد كان يتجنب النظر إلى المحلات ومعروضاتها عند اجتيازه السوق أو الطرقات ولم يصب أحداً بأذى قط بل يسعىٰ بما يفوق قدرة الإنسان العادي لخدمة الناس جميعاً دون تلكؤ أو تريث أو بقصد مقاضاة أجر على ما يبذل، ويتحاشىٰ دوماً الوقوع في شراك الأعمال المشبوهة، ويهدي تواً ما يهدىٰ إليه من بغال للتنقل بها أو بقار حلوبة أو جلابيب صوفية جديدة إلى غيره.

مثل هذا الشخص لا بد أن ينبثق في نفسه ـ نتيجة لما يتصف به من زهد وحب للعبادة وتقوى وضبط النفس ورباطة الجأش والاستقامة الدائمية على مدى الحياة ـ نور ساطع وتدعمه بشكل تلقائي طاقة روحية تستلزم مثل هذه الرياضات الروحية والعبادات والتقشفات النفسية وترك الدنيا، فلا ريب من ذلك كله. وقد يفلح في التوصل ولو إلى النزر القليل من هذا الانطباع كل من يتمتع بمثل هذه القابلية والنزاهة الذاتية والتكيف النفسي.

على أية حال، كان كل من يرى المرحوم والدي يعجب به وينجذب لحالته الروحية ونورانيته الذاتية وإن لم يكن قد عرفه أو رآه من ذي قبل. إذ لا ترهق مجالسته أحداً مهما طال أمدها، فلا يروق لمحادثه ترك المكان والافتراق عنه.

في عام ١٩٣٨م، زارني والدي في طهران، وكان العهد عهد استخفاف بمن يرتدي هندام علماء الدين فرغم أنه كان يرتدي جلباباً قطنياً ويضع على رأسه قبعة خاصة بسكنة أرياف وقرىٰ قطاع خراسان ويحتذي بما يحتذي به الخدم والعمال، إلّا أنه كان حيثما يذهب يتلقى التحية والاحترام من قبل جميع المارة رجالاً ونساءً دون استثناء ودون أن تكون لهم معرفة خاصة به..

في يوم ما وبينا كنا نتجه خلال شارع «شاه» نحو تقاطع «مخبر الدولة»،

إستوقفني شرطي عند اقترابنا من التقاطع ليطالبني بجواز الهندام وقد مر بأبي الذي كان يتقدمني ولم يعترضه بينما كان هندامي أكثر مدنية منه.. لم أكن أحمل جوازاً معي وكان ذلك سبباً في تجنّبي الخروج من الدار واضطرني خروج أبي لتلبية دعوة أحد أهالي خراسان المقيمين في منطقة شميران بشمال طهران لأرافقه ـ وقد عانىٰ رجال الدين في تلك السنة والسنة التي سبقتها وكذلك التي تلتها الكثير في هذا المضمار ولاقوا فيها من الصعاب والإهانات ما لا يطاق ـ، كان الشرطي يصر على مطالبتي بالجواز عندما شعر المرحوم والدي بأنني لا أتبعه فالتفت إلى الوراء وألقىٰ نظرة عليّ..

قال الشرطي على الفور: هل أنت برفقة هذا الرجل؟

أجبت: بلىٰ.

قال: فاذهب إذن.

أخلى الشرطي سبيلي والحال أن القلق كان يساورني منذ البدء مخافة أن يعترض درب والدي.

سبق لي أن ذكرت أنه كان يتجنب النظر إلى ما حوله عندما يجتاز السوق أو الشارع.. ذات مرة كنت أرافقه في مدينة مشهد المقدسة وكانت الساحة التي تحيط بالحرم الرضوي الشريف قد أقيمت حديثاً وهو حدث يلفت انتباه كل أحد كائناً من كان.. خرجت من الباب الغربي للصحن وأنا اصطحب أبي الحاج.. أخذت أحدثه عن الساحة الحديثة لكنه لم يرفع عينيه ليطل بهما على الساحة..

سألته: هل في النظر إلى هذه الساحة إثم تتجنبه؟

قال: لا، ليس بإثم.. ولكني أتجنب تشتت أفكاري.

وفي عام ١٩٣٨ عندما زارني لطمأنة بال أمي التي كانت تكابد الأسىٰ لامتناعي مجبراً عن زيارة مدينة «تربت». وكان يأبى النظر إلى حيث أشير

وأنا أعلن عن أسماء الأماكن والشوارع التي نمر بها ويكتفي بالنظر إلى موضع خطاه ليحدد مسيره..

ومما شهدناه نحن أفراد عائلته وظل غامضاً بالنسبة لنا إنه فارق الحياة صبيحة يوم الأحد المصادف ١٧ شوال من عام ١٣٦٢هـ.ق لساعتين بعد شروق الشمس وكان قد أدىٰ صلاة الصبح مستلقياً وهو موجّه نحو القبلة يقضي طور الاحتضار، إلّا أنه لم يفقد الوعي حتى آخر لحظة من لحظات حياته.. كان يتمتم بكلمات وعبارات تدل علىٰ أنه شعر بأنه سيفارق الحياة فزفر آخر أنفاسه وعبارة «لا إله إلّا الله» تنساق علىٰ لسانه..

وما أريد أن أقوله هنا أنه وبالضبط في يوم الأحد من الأسبوع الذي سبقه، إستلقىٰ مستقبلاً القبلة بعد أداء صلاة الصبح.. أسدل عباءته على وجهه ثم شعّ فجأة نور أضاء قامته من رأسه حتى أخمص قدميه كأنه زورة طيف الشمس تسربت من منفذ ما أو كشاف نور سلط ضوءه على ذلك المكان.. إنكشفت أساريره وتلألأ وجهه المصفر من شدة المرض حتىٰ بان عليه ذلك من تحت عباءته الرقيقة التي غطى بها وجهه.. إرتعد أولاً ثم قال: «السلام عليك يا رسول الله! هل قدمت لزيارة هذا العبد الضئيل الشأن»، ثم أخذ يسلم على الأئمة الإثني عشر الواحد تلو الآخر كما يسلم المرء على من يدخل عليه فرداً فرداً. وبعد ما حيا السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام وجّه سلامه إلى السيدة زينب عليها السلام ثم بكىٰ طويلاً وقال: جدتاه، إنني أبكيك كثيراً.

بعد ذلك وجه تحيته إلى أمه وقال: أماه، إنني أشكرك على ما أرضعتنيه من حليب طاهر زكي.. ظل والدي على هذه الحال ساعتين من الزمن، وعندها اختفى الضوء الذي سطع على جسمه وعاد وجهه إلى ما كان عليه من اصفرار بسبب مرضه.

لقد مر أبي بحالة الاحتضار في تلك الساعتين ذاتها من الأسبوع الذي تلاه، وفي أحد الأيام خلال الاسبوع الأخير قلت له: لطالما سمعنا أموراً عن الرسول

ﷺ والنخبة الصالحة وتمنينا لو حضرنا تلك المواقف واستوعبناها. إنني أود أن أفهم ما حدث وقد مرت هذه الحالة بك وأنت أقرب الناس بالنسبة لي؟

إلتزم أبي الصمت ولم ينبس ببنت شفة.

كررت طلبي تارة ثانية وثالثة بأساليب وعبارات أخرىٰ ولكنه فضل السكوت وأجابني في المرة الرابعة أو الخامسة: «كف عن إيذائي يا حسن علي».

قلت: إنني أردت أن أفهم الموقف، لا غير.

قال: لا أستطيع أن أشرحه لك.. لك أن تفهمه بنفسك.

لقد ظل هذا الأمر مبهماً بالنسبة لي ولأمي وأخي وأختي وعمتي حتىٰ هذه الساعة وأنا أخط هذه العبارات في صباح يوم الثلاثاء الخامس من شهر رجب من عام ١٣٩٥هـ.ق»[1].

النص رقم(٢٣):

قال الصادق عليه السلام:

«طوبىٰ لمن كانت أمه عفيفة»[2].

الحكاية السادسة والعشرون: «دور سلوك الأم وأثرها في الجنين»

تناهت إلى مسامعي كراراً حكاية من العهد القديم تسرد قصة طفل خرق قربة سقاء وألحق بذلك خسارة بالغة برأس مال المسكين الذي وجه شكواه

١ـ صحيفة «إطلاعات» الإيرانية، العدد الصادر في يوم الخميس المصادف ٢٤/١٠/١٩٩٠م (ربيع الثاني من عام ١٤١١هـ.ق)، مقالة «في ضيافة سكنة وادي الرفيق الأعلىٰ» بقلم «حسن علي راشد نجل الملا عباس تربتي»، القسم الثامن. وقد تم طباعة مجموعة هذه المقالات فيما بعد ضمن كتاب يحمل العنوان نفسه.

٢ـ بحار الأنوار، المجلد ٥، ص ٢٨٥، ح ٤.

مضطراً إلى أبي الطفل وكان من زهاد الحي ووجهائه.

دفع الأب للسقاء مقداراً من المال تعويضاً عما لحق بـه مـن ضرر فـتركه راضياً ممتناً ولكن الأب عاد إلى جناح الحريم من داره فالتقىٰ زوجته وقـص عليها ما حدث مؤكداً بأن سلوك ابنهما إنما هو ثمرة فعال أحـدهما دون ريب وقال:

لقد أطلت التفكير بما بدر مني على مر حياتي لعلني أجد ضمن فعالي ما قد يكون سبباً لما حدث، ورثه الطفل مني ولكن دون جدوىٰ. يجدر أن تفكري قليلاً وتمعني في ذكريات حياتك لعل تصرف ولدنا يكون ثمرة أحد فعالك.

أجابت الزوجة بعد برهة: لا أجد له باعثاً مهما ولجت أغـوار الذكـريات سوىٰ أنني ذات يوم وأنا حبلى أحمل هذا الطفل جنيناً بين أحشائي، إجتزت زقاقاً فمررت ببستان استقطب انتباهي له غصن شجرة رمان اكتظ بثماره وقد تدلىٰ من سوره، عصرت رمانة وأحدثت فيها ثقباً بإبرة وأخذت أمتص من مائها.. لقد تنبهت الآن إلى أثر ما فعلت ذلك اليوم في الجنين فآل أمـر ولدي ليفعل ما أتىٰ علينا بالخجل وحثا في وجهنا الرماد.

الحكاية السابعة والعشرون: «أثر الحليب في الطفل الرضيع»

عاد أبو المعالي إلى نيشابور بإيران بعد سنين طوال قضاها في مكة المكرمة والمدينة المنورة وكان يحكم بلاده في حينها «ألب أرسلان السلجوقي» ويتولى الوزارة فيها العالم الشهير «الخواجـة نـظام المـلك» الذي أسس لأبي المـعالي مدرسة نظامية وعهد إليه بأمر الخطابة والتدريس.

كان أبوه الشيخ أبو محمد عبد الله وهو من فضلاء أهل زمانه وأتـقيائهم، يطلب الرزق من مهنة الكتابة واستنساخ الكتب فجمع من رزقه الحلال مالاً اشترى به جارية تقية تحسن الأدب والسلوك وتزدان بالسجايا الحميدة، حملت

منه بعد فترة من الزمن، وبعد اطلاع الشيخ على أمرها، زاد من إشرافه على حلية مأكل العائلة حتى وضعت الجارية حملها فوصاها مؤكداً أن لا ترضعه من حليب سائر النساء فتذهب مساعيه بذلك سدىً.

والدقة إلى هذا الحد في تربية وتنشئة ذلك الرضيع (إمام الحرمين أبي المعالي) هي التي صيرته شخصية علمية، بارزة وفاضلة.

ورد الشيخ الحجرة في يومٍ ما، فوجد الجارية (أم الطفل) معتلة والطفل يبكي جوعاً لقلة ما رضعه من حليب. أبدت إحدى الجارات، وكانت تحضر دارهم، استعدادها لتهدئة الطفل فوضعت ثديها في فمه وأرضعته شيئاً من حليبها حتى سكت الطفل.

بلغ تأثر الشيخ منتهاه عند سماعه نبأ ما حدث فأخذ الطفل ونكس رأسه وهو يدعك بطنه ويرسل إصبعه في حلقه حتىٰ تقيأ الرضيع ما رضعه والشيخ يؤكد أن موت ولده أخف وطأة على قلبه من بقائه حياً فيما لو تكون طباعه قد تدنست بفساد أو عجنت مع حليب مجهول.

كان أبو المعالي يذكر أن فتوراً ما يعتريه في بعض الأوقات خلال مناقشاته ومناظراته وأنه يحتمل أن يكوَن ذلك من أثر ما تبقىٰ من حليب في أحشائه.

***

يكفينا بغية استبانة أثر الرضاعة والمرضع في تكامل الطفل ورقيه وتربيته أن نذكر أن نسب أبوي إمام الحرمين لم يرق إلى الشأن الذي يؤهله لنيل الاحترام من قبل أمثال الخواجة نظام الملك مما يدفعه لتأسيس مدرسة نظامية له أو يكسبه الحظوة من أحد كبار علماء الشيعة نظراً لانتسابه إلى أسرة من جماعة السنة لولا فاعلية طهارة مرضعه التي كانت بدرجة من التأثير أدت إلى ارتقائه سلم العلم وانتمائه إلى طائفة كبار العلماء.

إن الاهتمام بنمط التغذية وأسلوب تربية الطفل إلى جانب رعاية سائر

القضايا التي طالب الشرع الإسلامي المبين بالاعتناء بها منذ انعقاد النطفة من قبيل طهارة المولد وتحلي الأبوين بإيمان راسخ، كلها أمور تؤدي إلى رفد المجتمع بأمثال الشيخ مرتضى الأنصاري الذين يقضون حياتهم في العمل على إحياء مذهب الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ويكونون بتقواهم وزهدهم أسوة للآخرين، وهذا ما دفع الإمام موسىٰ بن جعفر الكاظم عليه السلام ليأبى الرضاعة من مئات المرضعات اللواتي استدعين لرضاعته. وكذلك الرسول صلى الله عليه وآله لم يستقر في حضن أي من المرضعات الأربعمائة عندما أقدمن على احتضانه إلى أن نالت شرف التعهد برضاعته المرضعة النزيهة حليمة السعدية.

لقد أكد رسول الله صلى الله عليه وآله صدق ما نذهب إليه حول وجود صلة وثيقة بين طهارة المرضع ومصير الطفل والأخلاق التي تنشأ لديه، بقوله:

«الرضاع يغير الطباع»[1].

من دواعي الأسف والأسى أن يتناسى شيعة الإمام علي عليه السلام في عهدنا الحالي آداب وتعاليم دينهم ويقذفوا بصغارهم الرضع في أحضان شياطين حديثة في غفلة منهم عما يؤول إليه مصير بنيهم حفاظاً على أمور واهية يتمسكون بها، من قبيل الحفاظ على رشاقة الجسم أو تجنب النحافة. إنهم وإن صدق ظنهم ـ بشأن إنتاج الحليب المجفف من حليب البقار أو الحيوانات الأخرىٰ ـ يضفون خصال هذه الحيوانات إلى أطفالهم، أما لو كان ذلك الحليب منتجاً من لبن غير لبن البقار أو من مركبات كيميائية خاصة فليحفظ الله المسلمين من شر هذه الحفنة من الكائنات الشبيهة بالإنسان لأنها ستتخذ رغم سيماها الإنسية سلوكاً أدنى من سلوك الحيوانات نتيجة نفورهم من الالتزام بالمفاهيم الدينية والقومية والوطنية، وهذا هو مكنون دعوة الإسلام لانتقاء مراضع الأبناء من أسر تتسم بالنجابة والعفة والنزاهة والأخلاق الحميدة التي

---

١ ـ بحار الأنوار، المجلد ١٠٠، ص ٣٢٣، ح ١٠، طبعة بيروت.

أوصى الدين بالتحلي بها، والتحرز من الحمقاء و...

نأمل أن يجهد الموالون للأئمة عليهم السلام وشيعتهم في الاهتمام بتربية أبنائهم وأن يتجنبوا إيداع بناة مستقبل الوطن والشعب في أحضان شيطانية وأن يبذلوا عناية تامة بنمط التغذية والسلوك قبل انعقاد النطفة وإبان فترة الحمل والرضاعة ليرفدوا المجتمع بالصالحين الأسوياء من دواعي افتخار وعزة أنفسهم وأسرهم(١).

سجايا المرضعة الصالحة

ذكرنا أن التعاليم الإسلامية وبغية الحفاظ على تنشئة الجيل نشأة طيبة، تشدد في حالة اضطرار الأسر إلى استئجار المرضعات بسبب شحة حليب الأمهات ـ مثلاً ـ على ضرورة توفر خصال كالجمال وحسن المحيا والخجل والتقوىٰ في المرضع المنتقاة، وعلىٰ تجنب المرضعة الحمقاء أو غير الجديرة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تسترضعوا الحمقاء».

وقال صلى الله عليه وآله في حديث آخر:

«تَوَقُّوا على أولادكم لبن البغيّة والمجنونة فإن اللبن يعدي»(٢).

كما نهىٰ صلى الله عليه وآله عن استرضاع اليهودية والنصرانية والملحدة والناصبية (المناوئة للأئمة عليهم السلام)، لأن خصالهن تترك الأثر البالغ في تقرير مصير الأطفال وسعادتهم أو شقائهم.

لقد اعتاد إراقة الدماء نمرود رضيع الفهود ونبوخذ نصر رضيع الكلاب والحجاج الذي تذوق طعم الدم في صغره، وستأتيكم حكاية هؤلاء

---

١ ـ نقلاً عن كتاب «پند تاريخ» (عبرة التاريخ)، المجلد الأول.

٢ ـ بحار الأنوار، المجلد ١٠، ص ٩٣، ح ١ وكذلك المجلد ١٠٠، ص ٣٣، ح ٩.

الأشخاص الثلاثة ممن أرضعوا من حرام على الصفحات التالية.

سأل علي بن جعفر أخاه الإمام موسىٰ الكاظم عليه السلام إن كان يجدر اتخاذ المرضعة الباغية، فأجاب عليه السلام بالنفي نظراً لسوء اللبن الناشئ عن البغي والزنا[1].

الحكاية الثامنة والعشرون: «الفهدة ترضع نمرود»

إن ما بدر من الملك العاتي نمرود من فعال إنما كان ـكما يؤكد المرحوم الشيخ علي أكبر النهاوندي ـ بتأثير من الحليب الذي رضعه، وإليكم التفاصيل بهذا الخصوص:

سأل الله عزرائيل هل أنه رغم كل هذه الأرواح التي أنجز مهمة قبضها رق لحال أحد وهو يقبض روحه؟ أجاب عزرائيل بأنه يرق لحال جميع العباد عندما يقبض أرواحهم ولكنه مأمور ومعذور. ولما سئل ملك الموت لمن رق قلبه في تلك الساعة أكثر من غيره، أجاب: عندما أرسلت في مهمة غرق سفينة تمتطي عنان البحر وقبض أرواح مستقليها، قبضت أرواحهم إلّا امرأة أنجبت تواً طفلاً وهي تتشبث الآن بلوحة عساها تنجو من الموت.

أمر الله ملك الموت أن يقبض روح الأم فقبض روحها وبات الطفل وحيداً جائعاً فرق الملك عزرائيل لحاله بشدة.

نوديت أمواج البحر لتجرفه نحو جزيرة لطيفة المناخ، وتلقت الرياح أمراً بأن لا تلقي عليه الغبار والأتربة، وخوطبت الغمام بأن تمنع أمطارها عن الهطول، ومنعت الشمس أشعتها الملتهبة عنه، وأمرت فهدة كانت قد ولدت تواً أن ترضعه حليبها حتى قوي عوده وتعلم المشي. عندئذ مرت بالجزيرة سفينة رآه مسافروها فحملوه معهم..

---

١ ـ مكارم الأخلاق.

نما الطفل وترعرع وارتقىٰ شأنه حتى استلم السلطان. وعندما أعلن النبي إبراهيم الخليل عليه السلام عن دعوته لعبادة الله هتف نمرود: أنا ربّ السمٰوات والأرض.. لابد أن أسلك طريق السماء لأقتل إله إبراهيم.

أمر نمرود بصنع صندوق كبير وتأهيل أربعة من النسور وتعليمها الطيران وهي تحمل الصندوق المربوط بأقدامها.. إستقر نمرود في الصندوق حاملاً معه الأقواس والنبال.. أطلقت النسور فطارت بنمرود نحو السماء حتى بدت له الأرض وكأنها درع صغير.. رمىٰ نمرود السماء بنبل يريد به قتل رب السمٰوات والأرضين!! وهو يتمتم: أنا واثق أنني قتلت إله إبراهيم.

لقد تأثرت سيرة نمرود بلبن الفهدة التي أرضعته إذ اكتسب خلقها وطباعها فعاد لا يطيق السماع عن وجود من أو ما يعلوه شأناً ومكانة.. كان يكاد ينفجر حنقاً وغيظاً عندما يتطلع إلى البدر في منتصف الشهر فينادي: من هذا الذي يقفز ويثب فوق رأسي، ثم يتسلق الجبال ويقفز عند وصوله إلى قمتها لعله يمسك القمر، ولن يكف عن القفز حتىٰ يقع على الأحجار مرهقاً.

الحكاية التاسعة والعشرون: «الشيخ فضل الله النوري وهاجس مرضعة ولده»

اشتهرت فيما يخص دور وأثر الرضاعة في تنمية الفكر الإنساني، حكاية نجل الشيخ الشهيد فضل الله النوري، والتي يتناقلها الثقات ومنهم المغفور له حجة الإسلام والمسلمين الحاج الآخوند القمي صاحب التعليقة على كتاب رسائل الشيخ الأنصاري (طاب ثراهما)..

يقول المرحوم القمي: عندما كنا نقيم بسامراء في عهد الميرزا الشيرازي (عليه الرحمة)، التقيت ذات يوم في الطريق الشهيد المصلوب الشيخ فضل الله النوري.. وجدته مكتئباً يساوره قلق شديد. إستفسرت عن السبب فقال: لقد وهبني الله قبل فترة ولداً لم يرزق لبن أمه فبحثنا له عن مرضعة ترضعه حتى عثرنا على امرأة تعهدت بالأمر.. لقد تنبهت اليوم إلى أنها ناصبية.. إنني

مضطرب للغاية أفكر فيما أفعله بهذا الطفل..

ترعرع الابن وشب وآل أمره ليغدو واحداً من رواد نهضة التشريع المشروط التي عارضها أبوه فساهم الابن في إعدام أبيه وأخذ يصفق معرباً عن سروره بمقتل أبيه إبان صلبه فنال بذلك تعاسة الدارين وأصيب في الدنيا بسهم من الغيب أرداه بيد إنسي قتيلاً فكيف بحاله في الآخرة؟!!.

غني عن التفسير أن اللبن الخبيث يترك في الإنسان أثره السلبي، وقد أتينا على ذكر قصة نمرود باعتبارها شاهداً على ما ذكرناه في بحثنا هذا.

الحكاية الثلاثون: «الحجاج بن يوسف الثقفي»

بعث الخليفة عبد الملك بن مروان، الطاغية الحجاج بن يوسف الثقفي (٤١ـ٩٥ هـ.ق) الى مكة وقد عهد إليه بمهمة قمع الثائر عبد الله بن الزبير. ولما كان عبد الله قد تحصن بالكعبة، رماها بالمنجنيق غير مبالٍ بهدمها ثم قتل عبد الله وبعث بالأسرىٰ ليلاً إلى الخليفة فكوفئ بإمارة العراق والحجاز التي دامت له عشرين عاماً أذاق آل علي خلالها مختلف المظالم.

يروىٰ أنه كان يأمر جلاوزته بضرب أعناق المناوئين له في مجلسه ولما يفرغ الجلاد من مهمته وتأخذ الأجساد المبتورة الرأس بالتخبط في دمائها يأمر الحجاج ببسط السفرة وصفّ أواني الطعام على الأجساد ويقهقه ضاحكاً وهو يتطلع إلى تخبطها فيقول بأن في تناول هذا الطعام لذة عظمى.

رفض الحجاج عند ولادته نهد أمه ولم يرضع منه حتى رطبوا جسمه وحلقه بدم النعاج لثلاثة أيام. قال أحدهم آنئذ أن أمر هذا الطفل سيؤول في المستقبل إلى إراقة الدماء. وصدق ظنه إذ قتل هذا الطاغية في بلاد العراق وحدها ثلاثة عشر ألفاً من أبنائها[1]. ويعلل المؤرخون انكبابه على ارتكاب

١ـ وقائع الأيام، القمي.

هذه الجرائم البشعة بتناول لبن تهيأ له من حرام.

الحكاية الحادية والثلاثون: «يزيد بن معاوية وهجو الفرزدق»

جاء في كتاب «جوامع النورين» أنه لما جيء لمعاوية بقلادة من المجوهرات كان قد أمر بصنعها ليزيد، ألقاها على نحر ولده، وكان الفرزدق يحضر المجلس فطلب إلى يزيد أن يهبها إياه فامتنع يزيد عن ذلك وهو يقول أن القلادة قد كلفت أباه مبلغاً طائلاً فكيف يهبها لغيره. حذّره الفرزدق بأنه إن امتنع عن ذلك فسيضطره لإنشاد قصيدة بشأنه يأتي فيها:

«وربما لبن الدايات غيّرها　　　من طبع آبائه غرَّ المسيامين»

أدرك يزيد فداحة ما نوى الفرزدق عليه فتخلىٰ عن القلادة ورماها إلى الفرزدق ووهبها إياه.

الحكاية الثانية والثلاثون: «إبن ملجم ومرضعته اليهودية»

لقد رضع ابن ملجم لبن يهودية ترك أثره فيه وأعده لاقتراف جريمة نكراء أنبأه بها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله كراراً فكان يأتي الإمام علياً عليه السلام طالباً إياه أن يقتله قبل إقدامه على مثل هذا الفعل الشنيع والإمام عليه السلام يمتنع قائلاً بأنه ما بدرت منه خطيئة تستوجب قتله.

وأخيراً استفحل فيه أثر لبن اليهودية ودفعه لقتل مولى المتقين علي عليه السلام رغم ما آثره به من ود وحنان ما شهده منه غيره من المسلمين.

الحكاية الثالثة والثلاثون: «رضيع الكلاب يقتل أمه»

لما كان بختنصر وليد الزنا، أتت به أمه بعد ولادته وتركته إلى جانب صنم يسمىٰ «نصر»، فسمي بختنصر (أي ابن نصر) فبخت في اللغة العبرية تعني

الابن.

عادت الأم في يوم آخر فوجدت عنده كلبة ترضعه وتلعق جسمه بلسانها فتنظفه به. قالت الأم: هنالك سر في هذه القضية.. إن هذا الوليد هيئ لأمر ما جعل الكلاب تتعهد بالحفاظ عليه.

لما تولى بختنصر السلطان كان أول ما بدر منه قتله أمه.. لقد حذّرها قبل خروجه من أنه سيقتلها إن خرجت إليه.. وفيما رأت الأم ولدها يتوسط الساحة وأصحابه يحومون من حوله، لم تطق الموقف فذهبت إليه وقالت له مؤنبة: ما هذا الأمر الذي أقدمت عليه؟!..

قاطعها بختنصر هاتفاً: ألم أمنعك من الخروج من الدار في هذه الليلة، ثم استل سيفه وقتلها به[1].

الحكاية الرابعة والثلاثون: «إستجابة الدعاء»

تذكر إحدى المؤلفات ذات المصداقية العلمية أن سلطاناً ما كان يبتلى بالرزايا كلما أجحف رعاياه حقاً فيأتي عليه بوابل دعائهم ولعنتهم.. ضاق السلطان ذرعاً بهذه الظاهرة فأخذ يستقصي سبيل خلاصه منها ويناقش بطانته حول طريقة تحقق له مأربه فأخبروه أن حلية المأكل تؤدي إلى استجابة الدعاء وأن أسلوب خلاصه من هذه الحالة هو الاحتيال في سبيل خلط زادهم بالحرام.

أعلن السلطان ذات يوم أنه سلّم بطانته من مستلزمات مجالس اللهو والطرب ما أمرهم بتقسيمها بين الرعية، وبعد أن حمل الرعية ما أصابهم منها إلى منازلهم وتناولوا منها حجب دعاؤهم عن الاستجابة ولم تعد لعنتهم لتصيب

---

١ ـ خزينة الجواهر، المرحوم الشيخ علي أكبر النهاوندي، بتصرف.

السلطان بأذىً مهما أذاقهم من ظلم وتعسف[1].

الحكاية الخامسة والثلاثون: «النبي أيوب (ع) آثر المبيت وحيداً»

يذكر كتاب «النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين» أن الشيطان لما همّ بإغواء النبي أيوب عليه السلام، كان الإخفاق نصيبه في كل حيلة يعتمدها حتى تنبه إلى طريقة تمكنه من إغواء النبي عليه السلام وهي إطعامه بلقمة من الحرام لأن الطعام المحرم يطفئ نور الإيمان في قلب الإنسان فتمهد حلكة قلبه السبيل أمام الشيطان لاستغفاله كما يشاء.

ولتحقيق مأربه المريب هذا، ظهر ذات يوم بمظهر طبيب لرحمة زوجة النبي أيوب عليه السلام وهي تشق طريقها نحو الصحراء تاركة المدينة وراء ظهرها. سأل الشيطان رحمة لماذا تقصد الصحراء وقد حان العصر.

أجابت رحمة وهي في غفلة من أنه الشيطان يريد استغلالها في سبيل إغواء النبي أيوب عليه السلام: لي في ناحية من هذه الصحراء زوج مريض، أذهب إليه لئلا يبات الليل وحيداً.

أخذ الشيطان يسأل رحمة عن مرض زوجها وهل أنه يشعر بكذا وكذا من الأعراض وتجيب رحمة بالإيجاب وقد نالتها الدهشة لحذاقة هذا الطبيب الذي شخص كافة أعراض المرض قبل أن يرى المريض.

بعد هنيهة، أردف الشيطان: أن معالجة زوجك بسيطة ميسورة للغاية يكفيك أن تذبحي نعجة دون ذكر اسم الله عليها وتطعمي زوجك المريض من لحمها فسينال الشفاء تواً بعد أن يتناول من ذلك اللحم.

قررت رحمة تنفيذ ما أوصاها به الشيطان، إلا أنها أرادت إخبار زوجها

١ـ تنسب هذه الحكاية أحياناً إلى الحجاج بن يوسف الثقفي كما جاء في هذا الكتاب أيضاً.

لتستأذنه في أمر إعداد النعجة.

إستفز نبأ اللقاء بين رحمة والطبيب، النبي أيوب عليه السلام، فقال لها ينبهها: ألا تعلمين أن ذبح الحيوانات دون ذكر اسم الله عليها والتناول من لحوم مثل هذه الحيوانات حرام.. إنه الشيطان أراد أن يذيقني طعاماً من الحرام بهذه الوسيلة ليتمكن من إغوائي ويحقق بذلك أمله. ثم استطرد عليه السلام: يا رحمة لن آذن لك بالمبيت معي ليلة أخرىٰ. إنني أخاف أن يذيقني الشيطان طعاماً من الحرام عن طريقك فيغلبني على أمري.

أمر النبي أيوب عليه السلام زوجته بالعودة إلى المدينة في اليوم ذاته.. ولما حل الظلام شكا همّه ووحدته لربه فأمره الله أن يضرب الأرض بقدميه فوراً لينبثق منها ينبوع يغتسل بمائه وينال الشفاء العاجل بذلك.. لم يبق لجراحه التي أصابته إثر مرضه أثر في جسمه وأعاد له الله سبحانه وتعالىٰ ما فقده أضعافاً مضاعفة[1].

الحكاية السادسة والثلاثون: «بائع يأبىٰ بيع طعام محرم»

كان يعيش في مدينة شيراز بإيران رجل لا تتعدىٰ ثروته الزهيد من رأس المال. قضى هذا الرجل حياته يسترزق من بيع الحساء والمحلبية..

يروىٰ أنه ذات مرة شاهد ـ وهو يعد المحلبية ـ قليلاً من عذرة الفئران داخل الطعام قد يكون رافق السكر فتنجس به الطعام كله.. فضل الرجل أن يلقي الطعام في القمامة علىٰ أن يبيعه للناس، فلماذا؟

لأن التعامل بالنجاسات وإطعامها للناس حرام، إنما مسألة بعيدة كل البعد

---

١ ـ نقلاً عن كتاب «منهاج السرور» أي: مائة وعشر حكايات للشيخ علي القرني الكلبايكاني، بتصرف.

عن المراوغة والتساهل لأن الله يصف عباده المؤمنين في الآية:

﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾.

إذن، لا إيمان للمسلم دون تحصن النفس بواسطة التضحية بها فكيف لا يشمل ذلك الافتداء بما يطيب للمرء من ماله. إن المؤمن ليضحي برأس ماله قاطبة في سبيل كسب رضا الله لأن إيمانه يلقنه أن الحاجة إلى الافتداء بالمال ابتلاء رباني، أما لو غاصت النفوس في بحر الأماني فإنها تأبى التغاضي حتى عن قول كلمة واحدة. فمن اغترب قلبه عن الإيمان لا يرجو نجاته في التضحية لأن الأمل بالنجاة منوط بالإيمان والقلب مستودع الإيمان والدليل إليه.. حقاً إن الإنسان ينبغي له أن يسجد تعبيراً عن شكره لله عندما يرىٰ أنه مضطر للتضحية بكل ما يملك في سبيل الله بل حتى بروحه:

«حرمة مال المؤمن كحرمة دمه»[1].

إن الإيمان يبعد عن قلوب يتصور أصحابها لأنفسهم مكانة مستقلة إزاء وجود الله وتتردد علىٰ ألسنتهم: شرفي، أسرتي، إسمي وشأني، وقد تسوّل لهم أنفسهم أن يتنافسوا مع الله في مكانته، أي غرور وأنفة خاوية هذه[2].

الحكاية السابعة والثلاثون: «معاتبة النفس علىٰ سلوكها»

يروىٰ عن أبي العالم الرباني المقدس الأردبيلي أنه بينما كان يهم بملء قربة بالماء من نهر جارٍ، إلتقط تفاحة من الماء وأكلها ثم ندم وأخذ يعذل نفسه لتناوله ما لم يستأذن مالكه بشأنه فأخذ يتابع مجرى النهر حتى وصل حقلاً للتفاح يخترقه النهر فجاء صاحب الحقل وأخبره بأنه تناول تفاحة كانت قد انسابت مع المياه ثم طلب إليه أن يبرئ ذمته بها.

---

١ ـ بحار الأنوار، المجلد ٧٤، ص ١٣٥، ح ٤٣.

٢ ـ تفسير سورة الحجرات، المرحوم الشهيد عبد الحسين دستغيب، ص ٣٨٢.

قال صاحب الحقل: لن أرضىٰ أبداً بذلك.

قال: أدفع لك ثمنها.

أصر صاحب الحقل علىٰ رفض طلبه ولما لاقى الإلحاح منه، قال: أرضىٰ بذلك شريطة أن ترضىٰ بالزواج من ابنتي وهي عمياء، صلعاء، خرساء، وعرجاء، وإلّا فلن أرضىٰ عنك.

عندما رأى الشاب أنه لا سبيل آخر أمامه لاستحصال رضا صاحب التفاحة قال ـ يدفعه شدة إيمانه وورعه ـ: «قبلت الشرط»، وبذلك أعلن عن رضاه بمثل هذه الزيجة.

في ليلة الزفاف.. وبعد عقد القران دخل غرفة عروسه فحيته عند دخوله فتاة فاتنة يباري جمالها البدر وتعلو وجهها عينان شهلاوتان وشعرها كالعنبر المرسل، ثم نهضت تستقبله بتواد ولطف.. خرج الشاب من غرفة العروس وأتىٰ أباها فقال له: إنها ليست الفتاة التي وصفتها لي !!

قال الأب: بل هي.. إنني لمّا رأيت إلحاحك في كسب رضاي لأكل تفاحة واحدة، إقترحت عليك هذا الاقتراح وكنت أنتظر منذ فترة شخصاً بمثل هذه الشمائل لأزوجه ابنتي.. لكنني أخبرتك أنها عمياء لأنها لم تر بعينيها قط رجلاً من المحارم، وقلت لك أنها صلعاء لأن شعرها لم ينكشف أبداً أمام المحارم، وكنت أقصد بخرسها أنها لم تكلم غريباً إلى الآن وبعرجها أنها لم تخرج من البيت من ذي قبل.

***

إذن، من الطبيعي أن ينشأ المقدس الأردبيلي هذه النشأة وقد ترعرع في كنف أب على هذا النهج.. أما أمه فإنها كانت تجيب استفسار من يوجه إليها السؤال عن سبب نيل هذا الشأن الرفيع من قبل ولدها، قائلة: لم أذق لقمة

مشبوهة أبداً.. وكنت أسبغ الوضوء في كل مرة قبل أن أرضعه.. لم ألق قط نظرة على المحارم، وبعد أن فطم عن الرضاعة بذلت ما بوسعي من جهد في سبيل رعاية شؤون النظافة والطهارة، وكنت أرقب أن لا يجالس سوى الطيبين من الأطفال.

جاء في كتاب «الروضات» نقلاً عن بعض المجتهدين أنهم رأوا المقدس الأردبيلي في المنام بعد وفاته وقد اكتسىٰ هنداماً فاخراً وبينما هو يخرج بخير مظهر من صحن الإمام علي عليه‌السلام سألوه: كيف نلت هذه المكانة الرفيعة؟!.

أجابهم: «حقاً كانت سوق فعالي هامدة لولا الولاء لصاحب هذه القبة المباركة»، قال ذلك وهو يشير إلى ضريح الامام عليه‌السلام.

توفي العالم الفقيه المقدس على الإطلاق مولانا أحمد بن محمد الأردبيلي الثقة الأمين والزاهد الأورع، ذات النفس القدسية والخلق الجميل بالنجف الأشرف في شهر صفر من عام ٩٣٣ هـ.ق فدفن في الحرم المقدس في الحجرة إلى الجهة اليمنىٰ من الضريح.

ويرىٰ صاحب كتاب «لؤلؤة البحرين» أنه: «لم يسمع بمثله في الزهد والورع».

ويقول المجلسي أنه (المقدس الأردبيلي) ينتمي إلى زمرة الذين تشرفوا بلقاء صاحب الأمر والزمان (أرواحنا له الفداء) وبسماع حديثه إذ روىٰ تلميذه أمير فضل الله ابن السيد محمد الأستر آبادي أنه ذات ليلة وهو يقيم في إحدى حجرات صحن الضريح الشريف بمدينة النجف خرج من حجرته بعد الفراغ من مطالعة دروسه فرأى المقدس الأردبيلي يتجه نحو الضريح وما أن اقترب من الباب الرئيس حتى انفتح قفله وهكذا الباب الثاني والثالث حتى ورد الحرم الشريف فسلم على صاحبه.

يؤكد الراوي أنه سمع صوتاً من القبر الطاهر يجيب المقدس الأردبيلي فأدرك أنه يحادث الإمام علياً عليه السلام حول مسألة ما ثم خرج يقصد مسجد الكوفة فأخذ تلميذه يتتبعه دون أن يشعر به أستاذه.. ولما اقترب من المحراب في مسجد الكوفة سمعه يتحدث إلى شخص ما حول المسألة ذاتها ثم عاد إلى النجف وتلميذه الراوي يتتبع قفاه وبينما هما على مقربة من مدينة النجف في طريق عودتهما انفلق الصبح فاقترب منه التلميذ وحياه وبعد سماع جواب تحيته أخبره أنه كان يتتبعه منذ لحظة دخوله الصحن وحتى تلك اللحظة، وأنه سمع ورأى كل شيء فهل يتفضل بأن يقصّ عليه جزئيات ما حدث ويخبره مع من كان يتحدث في الصحن الشريف وكذلك في مسجد الكوفة..

أبى المقدس الأردبيلي أن يحدثه بالأمر حتىٰ أخذ عليه المواثيق والعهود أن لا يبوح بشيء من هذا ما دام هو على قيد الحياة..

بعد أن أقسم له التلميذ بما أراد، قال المقدس الأردبيلي: يا ولدي عندما تستعصي لديّ بعض المسائل ألجأ ليلاً إلى حرم أمير المؤمنين عليه السلام فآخذ عنه جواب استفساري، وفي هذه الليلة زرته لأستفسر عن مسألة ما فأهداني السبيل إلى لقاء إمام العصر والزمان (عج) وهو يخبرني أن ولده المهدي يتواجد في مسجد الكوفة فأمرني أن أذهب إليه واطرح عليه مسألتي.. فذهبت إليه واستفسرت منه (عج) عن تلك المسألة[1].

ومن كراماته الأخرىٰ نقلاً عن تلميذه السيد نعمة الله الجزائري أنه ذات عام دبّ فيه القحط والغلاء اقتسم ما لديه من مؤونة مع الفقراء ولم يحفظ لنفسه أكثر من حصة واحدة، استفز تصرفه زوجته فعاتبته قائلة: أترضىٰ لابنك الجوع في هذه السنة الجدباء وتقاسم الفقراء مؤونتك؟

---

١ ـ منتخب الأثر، الصافي، الباب الثاني: فيمن رآه في الغيبة الكبرىٰ، ص ٤١٢، بتصرف.

لم يجبها المقدس الأردبيلي.. ذهب إلى المسجد معتكفاً، وانهمك فيه بالعبادة.. وفي اليوم التالي جاء رجل بحمولة عدة ناقات من القمح المرموق والدقيق الأبيض إلى باب داره وقال: أن صاحب الدار بعث بها إلى هنا وهو معتكف في المسجد.

وفي اليوم الثالث أتم المقدس الأردبيلي اعتكافه وعاد إلى الدار فأنبأته زوجته عن الجودة الفائقة للقمح والدقيق اللذين جاء بهما ذلك الإعرابي. خر المقدس الأردبيلي ساجداً، تعبيراً عن شكره وامتنانه للرزاق الذي وعد عباده في القرآن بـ ﴿أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾.

ويقول الملا صالح صاحب كتاب «حدائق المقربين» أن المقدس الأردبيلي استأجر دابة في مدينة الكاظمية ببغداد ليسافر بها إلى النجف ولم يكن صاحب الدابة برفقته فطلب إليه أحد أصدقائه أن يبعث معه رسالة إلى هناك.. إستلم المقدس الأردبيلي الرسالة ووضعها في جيبه، لكنه لم يمتط الدابة حتى وصل مدينة النجف وقد علل ذلك بأنه لم يستأذن صاحبها بشأن حمل هذه الرسالة.

كما يذكر عنه أنه لما كان يذهب لزيارة الإمام الحسين عليه السلام يركن إلى الاحتياط فيجمع في الصلاة بين القصر والإتمام وهو يقول: «طلب العلم فريضة وزيارة الحسين عليه السلام سنّة» وأن الزيارة لو أضرت بالفريضة ستكون معصية ويحتمل توافر ظروف النهي عما يضر بالفرائض.

ويكتب صاحب الروضات قصة زائر الضريح المقدس بالنجف عندما قال للمقدس الأردبيلي: هل تسمح أن تغسل ردائي هذا على أن تتقاضى بإزاء ذلك ما تطلب من أجر؟.. إنه تصور أن سماحته من الفقراء والمساكين لما رآه عليه من بساطة الهندام.

إستجاب الشيخ لطلب الرجل وحدد له موعداً في اليوم التالي وفي المكان ذاته ليأتي له بالرداء.. أتى المقدس الأردبيلي بالرداء إلى داره فغسله بنفسه

وعاد به إلى صاحبه في الموعد والمكان المحددين.. إستلم الرجل رداءه وهمّ بدفع الأجرة لسماحته إلّا أنه رفض ذلك.. بادر رجل كان يعرف الشيخ فعرّف الرجل على سماحته.. ألقى الرجل نفسه عند قدمي هذا العالم الجليل معتذراً عما بدر منه والمقدس الأردبيلي يقول: لا بأس عليك فحقوق الإخوة الدينيين أعظم من هذا.

النص رقم(٢٤):

جاء في الكافي بإسناده عن الباقر عليه السلام، «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حجة الوداع: «ألا أن الروح الأمين نفث في روعي أنه لا تموت نفسٌ حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله عز وجل وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء شيءٍ من الرزق أن تطلبوه بشيء من معصية الله فإن الله تبارك وتعالىٰ قسّم الأرزاق بين خلقه حلالاً ولم يقسمها حراماً، فمن اتقى الله وصبر أتاه الله برزقه، ومن هتك ستر الله عز وجل وأخذه من غير حلّه قصّ به من رزقه الحلال وحوسب عليه يوم القيامة».

بيان: النفث أي النفخ، والروع: القلب، أي أن جبرئيل الأمين نفخ في قلبي من قبل الله أنه لا يموت أحد حتى يكمل ما هو مقسوم من رزقه أي يستوفيه كاملاً ولا يبقَ منه شيء ثم يموت.

وقوله: واجملوا في الطلب أي ليكن طلبكم للرزق جميلاً بأن لا تسعوا في الطلب سعياً فاحشاً إلى أن تقعوا في الحرام.

وقوله: ولا يحملنكم استبطاء شيء، حاصل كلامه إذا أبطأ عليكم شيء من الرزق أو حسبتموه بطيئاً بأن لا يصل إليكم بالعجلة التي أنتم عليها لا يحملكم ذلك أن تطلبوه من الطرق المحرمة فإن الله تعالى قسّم أرزاق عباده بينهم حلالاً ولم يقسّم الحرام بينهم، فمن تعجل وأخذ من الحرام نقّص الله ذلك الرزق الحلال

عن الحرام الذي تناوله وحاسبه مع ذلك يوم القيامة»[1].

النص رقم(٢٥):

عن الكافي بإسناده عن الصادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله قال: لو أن أحدكم هرب من رزقه لتبعه حتى يدركه كما أنه إن هرب من أجله تبعه حتى يدركه. من خان خيانة حسبت عليه من رزقه وكتب عليه وزرها.

الحكاية الثامنة والثلاثون: «لِص حرم نفسه من رزق طيب»

ذات يوم ترك الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بغلته عند باب المسجد بعد أن ائتمنها عند شخص ما، ثم دخل المسجد فخلع الرجل لجام البغلة وأخرجه من رأسها وفرّ يحمل اللجام معه تاركاً البغلة عند الباب.

خرج أمير المؤمنين عليه السلام من المسجد وهو يمسك بدرهمين يريد دفعهما للرجل على أنهما أجرة عمله، فرأى البغلة عند الباب بينا افتقد لجامها فركبها وعاد إلى الدار ثم دفع الدرهمين إلى خادمه ليبتاع بهما لجاماً للدابة.

وفي السوق شاهد الخادم اللجام ذاته في يد شخص علم منه أنه اشتراه بدرهمين ممن سرقه. ولما عاد إلى الدار قص على الإمام عليه السلام ما حدث. أجابه الإمام عليه السلام «ان العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ولا يزاد على ما قدر له»[2].

استرزاق الحرام يمنع استجابة الدعاء

إن أقل ما يصيب النفس البشرية إثر تناول المرء من مال حرام هو

١ـ فروع الكافي، الكليني، المجلد ٥، كتاب المعيّة، ص ٨٠، ح ١؛ بحار الأنوار، المجلد ٥، ص ١٤٨، ح ١٣.

٢ـ معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، ص ١٥١.

احتجاب دعائه عن الاستجابة، وهذا ما يحتم على كل من يأمل باستجابة دعائه تطهير أحشائه من مأكل الحرام. ونعني بتطهير الأحشاء اجتناب تدنيسها بتناول المحرمات بل حتى ما يشتبه في أمره ووجهه الشرعي، وهذا ما يؤكده الكثير من الآيات والأحاديث إذ يخاطب الله عباده في أحد الأحاديث القدسية بما معناه: «عليك الدعاء والطلب وعلي الاستجابة فلن يحجب عني دعوة إلّا دعوة آكل الحرام».

وقد أوصى النبي محمد ﷺ المسلمين بتطهير أجوافهم من المأكل والمكسب الحرام وتجنب تناول حتى لقمة واحدة من أكل الحرام إن كانوا راغبين بتلبية دعواتهم واستجابة أدعيتهم. كما أكد الإمام الصادق عليه السلام أنه ينبغي لمن يأمل باستجابة دعائه تنزيه رزقه من الحرام، ويبرهن رسول الله ﷺ على ذلك بقوله: «ترك لقمة الحرام أحب إلى الله من صلاة ألفي ركعة تطوعاً»، وهنالك الكثير من الأحاديث الأخرى جاءت في هذا السياق وعلى الراغبين في الوقوف على الشروط والآداب التي تتطلبها استجابة الدعاء مطالعة كتاب عدة الداعي لابن فهد الحلي وسائر المؤلفات التي تتناول مثل هذه القضايا ما دامت الفرصة مسنوحة للالتزام بها.

النص رقم(٢٦):

قال الرضا عليه السلام:

«إن الله تبارك وتعالىٰ لم يبح أكلاً ولا شرباً إلّا لما فيه المنفعة والصلاح ولم يحرم إلّا ما فيه الضرر والتلف والفساد»[1].

تناول الدم وقساوة القلب

يتطرق الإمام الرضا في حديثه عن أسباب تحريم تناول الدم بعد تبيين ما

١ ـ بحار الأنوار، المجلد ٦٢، ص ١٦٦، ح ٤.

يسببه ذلك من اضطرابات جسمية فسيولوجية، قائلاً:

«.. ويُسيء الخُلق، ويورث القسوة للقلب، وقلة الرأفة والرحمة ولا يؤمن أن يقتل ولده ووالده»[1].

أثر الطعام

يتحدث أحد العرفاء عن أثر الطعام في النفس، قائلاً: تناولت حليب البغال عدة أيام لغاية المعالجة من حالة مرضية طرأت لديّ. لقد بلغ أثر هذا الحليب في نفسي حتى صرت عندما يهش أحد ما بغلة تسير أمامي، أتوقف أنا عن السير قبل الدابة.

الحكاية التاسعة والثلاثون: «النبي عيسى (ع) والراعي»

من المهن التي يزاولها ثلة من الناس في الحياة لتحصيل رزق طيب هي مهنة الرعي ورعاية الأغنام، فالراعي يكثر اختلاؤه بنفسه في الصحراء وتقل معاشرته للناس مما يجنبه مغبة الغيبة والكذب والبهتان ويكفيه شر النظر إلى المحارم وآلاف المعاصي الأخرىٰ إلى جانب كون الرعي مهنة نزيهة زاولها أكثرية أنبياء الله فترة من الزمن، ويبدو أن أكثر الرعاة ينتمون إلى زمرة الصالحين المؤمنين، وقد تكسبهم متابعة الأغنام في الصحراء عفوياً وبفاعلية ضمائرهم وعقولهم علوماً ما، ونحن هاهنا بصدد ذكر نموذج من هذه الحكايات:

قرأت في تاريخ النجف الأشرف أن النبي عيسىٰ عليه السلام مر في يوم من الأيام براعٍ في الصحراء وقد عرفه الراعي وأبدىٰ له احتراماً بالغاً وقدّم له من لبن خرافه ليتغدى منه، وخلال حديث جرىٰ بينهما سأله النبي عيسىٰ عليه السلام عما إذا تعلم في هذه البيداء شيئاً من العلوم الإلهية.

---

١ ـ فروع الكافي، المجلد ٦، ص ٢٤٢، ح ١؛ وسائل الشيعة، المجلد ٢٤، ص ١٠٠، ح ٣٠٠٨٣؛ بحار الأنوار، المجلد ٦، ص ١٠٠، ح ٢ وكذلك المجلد ٦٢، ص ١٣٤، ح ٢.

قال الراعي: نظمت لنفسي خمساً من المواعظ والأمثال، أضعها دوماً نصب عيني لآخذ بها خلال فعالي وأود أن أتعلم خمس مواعظ أخرى تنصحني بها فإنني في غنى عن أكثر من هذه المواعظ في هذه الصحراء.

قال المسيح عليه السلام: هات ما لديك من مواعظ أولاً لأعرف سياقها ثم أعلمك خمساً أخرىٰ.

لما ذكر الراعي نصائحه الخمسة للنبي عليه السلام كبّر النبي عليه السلام فيه همته، وقال له: دونك الحاجة إلى غيرها من الحِكَم فلو أن العلماء الثماني عشر ألفاً الذين خلقهم الله امتثلوا بهذه الأمثال وأخذوها بالحسبان في سلوكهم فسيغدون في غنى عن غيرها من المواعظ.

ونحن بدورنا ننقل للقراء تلك الأمثال آملين أن تأتي بتمام المنفعة على المؤمنين؛ وهي كما صنفها الراعي:

١ ـ لا أعصي الحق ما دمت قادراً على طاعته ولم يطرأ لي أن أعجز عن أداء واجب من الواجبات الإلهية.

قال النبي عليه السلام: أحسنت، فإن جميع الواجبات والفرائض الإلهية رهن بقدرة الإنسان واستطاعته على أدائها، إذ لا يحمّل الله عباده ما لا طاقة لهم به. فالصلاة تؤدىٰ بعد حصول الطهارة المائية وإن عسر ذلك يتمكن المرء من أدائها بطهارة ترابية، وله أن يؤديها دون الطهارتين لو عجز عن التوصل إلى الطهارة الترابية أيضاً. وكذلك القيام في الصلاة فإنه واجب لمن تيسر له ذلك فإن عجز العبد عنه فله أن يصلي جالساً أو مستلقياً إن عسر عليه الجلوس، وأن يكتفي بقول عبارة «سبحان الله» إن فقد القدرة على الإتيان بها على أي من هذه الحالات. وهكذا سائر التكاليف الشرعية فإنها فريضة على الإنسان ما دامت في استطاعته القدرة علىٰ أدائها.

إعلم أيها الراعي أنك لن يفوتك القيام بواجب قط ما دمت تطلب أداء

الواجبات الإلهية ما استطعت، ومن يهملها عن مقدرة يُلقَ وزرها على عاتقه. إن ترك المحرمات الإلهية يكون واجباً عند التمكن منه وإلّا تسقط الحرمة في الحالات التي يعجز فيها المرء عن ترك الحرام ويغدو ارتكابه مباحاً بل واجباً في بعض الحالات مثل شرب المسكرات، فإنه من المحرمات الأولية عند الباري عز وجل لكنه يباح لمن يتعرض للقتل في حالة تجنب شربها بل يصبح شرب المسكر واجباً عليه بغية الإبقاء على حياته. وهكذا كافة المحرمات الإلهية يغدو ارتكابها مباحاً عند الضرورة والاضطرار.

٢ـ قال الراعي: لن أكذب ما دام الصدق ميسوراً لي ولم ينسق الكذب بعد علىٰ لساني.

قال النبي عليه السلام: بوركت يا رجل، إن الكذب كذلك من المحرمات الإلهية فينبغي للمرء أن لا يكذب مختاراً ويجوز له ذلك في حالة الاضطرار بل دون ضرورة قصوى (في حالات محدودة ينص عليها الشرع) كنصيحة المستشير ووعد الزوجة ـ عند الحاجة ـ والخدعة في الحرب[1].

٣ـ لا آكل من الحرام ما دام أكل الحلال ميسوراً لي ولم أبتل بمثل ذلك حتى الآن.

بارك السيد المسيح عليه السلام فيه، وقال: لن يبتلىٰ بأكل السحت قط من قرر تجنبه، فقد أمر الله عباده باسترزاق الحلال لتسيير شؤون المعيشة.. إنه ليفتح أمامهم أبواباً أخرى إن شق عليهم الاسترزاق بالطرق المباحة، فمن أصاب الحرام إنما كان بطلب منه، وهذا ما يمكّن بعض عباد الله الصالحين من تلبية متطلبات العيش بطلب الحلال لهم ولأسرهم وبرأس مال زهيد، بينما تسلك ثلة ممن يتمتعون برأس مال يضاعف ما لديهم، درب الحرام فيقضي أحدهم وطره

١ـ قال رسول الله (ص): ثلاث يحسن فيهن الكذب: المكيدة في الحرب، وعدتك زوجتك والإصلاح بين الناس. (سفينة البحار، المجلد الثاني، ١ـ١٨).

من الحياة وهو يشبع نفسه وأسرته مما يدر عليه طلب الحرام فيأتي علىٰ نفسه بالجريرة والخسران في الدنيا والآخرة.

٤ـ لن أستقصي عيوب الآخرين ما دمت أرىٰ في نفسي عيباً.. إنني لأجد في نفسي الكثير من المعايب كلما نظرت إليها إلى اليوم بعين الإنصاف وهذا ما منعني عن إتيان الغيبة حتى الآن.

بارك النبي عليه السلام فيه وقال: لن يسلم من العيوب سوى ذات الله المقدسة سبحانه وتعالى وكما ذكرت لا يجدر بالمرء انشغاله بعيوب الآخرين ما دام يرىٰ في نفسه الكثير من السلبيات والعيوب.

٥ـ يمنعني الخجل عن إطراء الثناء لأحد ما دمت عبداً لذي الشأن المقدس، لأن الثناء والمدح لا يجدران في رأيي بغير الله الذي يجمع بين جميع الصفات الحسنة ويتنزه من كافة الصفات الذميمة.

بارك النبي عليه السلام فيه تارة أخرىٰ وقال: إن الصفات الحميدة وإن تحلىٰ بها الإنسان فإن مصدرها الذات الإلهية وينبغي أن يعود الثناء عليها للباري تعالى[١].

الحكاية الأربعون: «وهل للدعاء أن لا يستجاب؟!»

جاء في الكتاب ذاته عن مؤلفه أن أحد ثقاته الحجاج في حوالي العام ١٢٥٠هـ.ق سرد عليه الحكاية التالية:

زاملني في مدينة مكة المكرمة شخص ما وسألني: من أي البلاد أنت؟

قلت: من عراق العجم[٢]، ثم سألته: وأنت؟

١ـ منهاج السرور (مائة وعشر حكايات)، القرني الكلبايكاني، المجلد ٢، ص ٣١٠.

٢ـ يراد به منطقة أراك الحالية في إيران.

قال: من بلاد تقع في المغرب، تبعد عن مكة المكرمة مسيرة ستة أشهر.

سألته عن أحوال أهل بلاده، فقال: لا يقدر على أداء الحج منّا إلّا القليل لبعد المسافة ورهبة الطريق والبحر وما إلى ذلك من العراقيل، ولهذا تبنى على قبر كل من يرزق الحج منّا قبّة تصبح مزاراً للناس كقبور الائمة المعصومين عليهم السلام وأبنائهم. ثم أردف صاحبي قائلاً: مر بديارنا شخص من أبناء هذه البلاد فأكرمه أهلها وأخذ كل منهم يستضيفه يوماً ويجمع في داره جمعاً من الناس احتفاءً به. وفي أحد الأيام جرى الحديث عن جور الحاكم وقيل: لقد سبّ الحاكم اليوم فلاناً فلنذهب إلى المصلى وندعُ عليه ليعزل من منصبه.. قال الضيف وقد سلبته الدهشة لبّه: وهل أنتم على هذا القدر من الاعتزاز والثقة بدعائكم؟!.. أجيب: بلىٰ، إنه دأبنا الدائمي، وهل لكم دأب غير هذا؟!... قال: في ديارنا يبتر الحكام الأيادي ويقلعون العيون ويضربون الأعناق دون أن يصيبهم شيء جراء لعنتنا ودعائنا بالسوء عليه.

تهامس أهل المجلس فيما بينهم ثم أمسكوا به وألقوه خارج الدار وهم يقولون: إنصرف عنا قبل أن تحرقنا بلهيب نارك، وهل يعقل أن يحجب دعاء المظلوم عن الاستجابة؟!.

تنبيه: إعلم يا أخي العزيز، أن دعاء المظلوم ينال الاستجابة ولن يحجبه عن ذلك سوىٰ أكل ما يشتبه به فكيف بالسحت. وهذا هو سر احتجاب أدعيتنا عن الاستجابة في عهدنا المعاصر، إذ تؤكد الكثير من الأحاديث أن اللقمة الواحدة من الحرام لتحجب الدعاء عن الاستجابة لفترة تبلغ أربعين يوماً[1].

جاء في كتاب «سفينة البحار» في بيان لفظة «حلل»:

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

---

١ ـ منهاج السرور، ص ٣١٠.

«يا كميل إن اللسان يبوح من القلب والقلب يقوم من الغذاء فانظر فيما تغذىٰ قلبك وجسمك فإذا لم يكن ذلك حلالاً لم يقبل الله تعالىٰ تسبيحك ولا شكرك».

«الطعام المحرم من وجهة نظر الشيخ النهاوندي»

«ألا يا أخي العزيز، إعلم أن الجسم الإنساني ينهل قوته من الروح الحيوانية، والروح الحيوانية تنشأ من بخار منعقد من الدم، والدم بدوره ينتج من الغذاء، فما أن يرد الغذاء إلى الأحشاء ويتم هضمه وتوزيعه على الأعضاء والجوارح حتى ترغم الروح الحيوانية، الدخيلة في تكونه، هذه الأعضاء والجوارح على كل ما يليق وشأنها، فكل ما ينمو في عالمنا الواقعي من طعام طيب طاهر (حكم الشرع بحليته) يكتسب بدوره طابع الطيبة والطهر من أصله بل يكون أطيب وأطهر منه، كالورد له ذاتياً رائحة طيبة ويكون لما يستخلص من مائه نكهة معطرة تفوق رائحة الورد نفسه.

إذاً العين التي تترعرع قوة بصرها من مثل هذا الطعام لا تبصر إلّا الآيات الآفاقية الإلهية المتممة لمعرفة الله ولا ترىٰ إلّا الأولياء وهم السادة والعلماء والأخيار والأبرار والزهاد والعباد ولا تتفتح إلّا لقراءة القرآن والأحاديث والسنة، وهكذا سائر الأعضاء والجوارح من أذن، لسان، يد، قدم، قلب وغيرها. أما إذا ورد الأحشاء طعام محرم فإن أمرها سيؤول إلى ما تدل عليه الآية ﴿والذي خبث لا يخرج إلّا نكداً﴾[1]، فالخبيث لا يخرج عنه إلّا الخبيث، والإناء لا ينضح إلّا بما فيه.

ولو انتهلت الأعضاء والجوارح قوتها من طعام محرم وانعقدت فيها نطفة فمن الطبيعي أن يعتبر حرام المنشأ ولا يظهر من ابن الحرام ـ بطبيعة الحال أيضاً ـ إلّا المذموم من الفعال والأعمال. وقوة مثل هذه الروح المتكونة من حرام

---

١ ـ سورة الأعراف، الآية ٥٨.

ترغم العين عند ترسخها فيها على النظر إلى غير المحارم، واللسان على الغيبة وكذلك بقية أعضاء الجسم تنشطها نحو معصية الله.

إلّا أن مثل هذا الإنسان لا يتيسر له بلوغ ما جاء في الحديث النبوي الشريف المعروف: «خلقتم للبقاء لا الفناء»، لأن البقاء يستلزم جدارة تستحق هذه النعمة السرمدية الالهية، بل ينتهي مصير حرام المنشأ إلى عذاب أليم ونكال الجحيم، والحرمان من هذه النعمة الأزلية والابتلاء بالنقمة الأبدية هو الفناء بعينه. ويصدق حينئذ القول بأن «من مات فقد فات»، وإلّا فإن الفوت الحقيقي ليس من نصيب المؤمنين «المؤمنون لا يموتون بل ينتقلون من دار إلى دار». ويؤكد بعض المفسرين أن كلمة أبداً في الآية المباركة: ﴿ولا تصل على أحدٍ منهم مات أبداً﴾ إنما هي قيد يعود للفوت أي أنه «مات موتة الأبد»، ولن يكون الموت أبدياً إلّا إذا اقترن بالحرمان من نيل شأن الرضوان وبالابتعاد عن رأفة الرحمن والاقتران بالشيطان.

ويغنينا عن تحريم الحرام تأكيد الحديث النبوي الشريف على أن من يتناول لقمة من طعام محرم لن يستجاب له دعاء حتى أربعين يوماً، ولما كان للقمة الواحدة في الأحشاء مثل هذا التأثير فكيف بآثار الحرام في الأحشاء المليئة منه. نقول والله لن يفلح صاحبها حتى بالتوفيق للدعاء إذ بعدت الشقة بينه وبين الاستجابة وهي ثمرة الدعاء. وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام لمثل هذه الحالة في دعائه «اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء». وتذكر بعض الروايات أن هنالك قوماً يحشرون يوم القيامة على هيئة الخنازير وهم أكلة الحرام في دنياهم.

وقال النبي صلى الله عليه وآله: «ليجيئن أقوام يوم القيامة لهم من الحسنات كجبال تهامة، فيؤمر بهم إلى النار؛ قيل: يا نبي الله، أمصلّون؟! قال: كانوا يصلون ويصومون ويأخذون وهناً من الليل؛ لكنهم كانوا إذا لاح لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه»، أي لم يتورعوا عنه ويحسبوا حساب حرامه أو حلاله.

كما تطالعنا القدسيات بما أوصىٰ النبي داود عليه السلام بني إسرائيل به وهو أن لا يرد فاهم إلّا ما طاب من طعام ولا يخرج عنه إلّا ما حسن من كلام. وقد أكد الإمام الصادق عليه السلام أن ترك لقمة واحدة من حرام لأفضل عند الله من ألفي ركعة نافلة.

فاعلم يا أخي العزيز أن حق الأحشاء على الإنسان أن يجعلها وعاء للحلال لا إناء للحرام وأن لا يسرف عن الحد اللازم عند التناول إذ لا تدوم لذة الطعام والشراب الجيد والمتنوع لأكثر من شهيق وزفير ولا مذاقهما يستمر لأكثر من تقدم خطوة إلى الأمام فسرعان ما يغدو خبيثاً وغائطاً ينفر منه حتى الإنسان ذاته. وليس من الحكمة أن نلقي بأنفسنا في أحضان العقوبات الكثيرة والنكالات الوفيرة بغية هذه اللذة الآنية فنواجه يوم القيامة خالقنا العظيم والأنبياء والمرسلين والأئمة الطاهرين وعباد الله الصالحين بنفوس عمها الخجل ورؤوس نكسها الحياء، فاطلب في دنياك من العلوم ما يخص كسبك لتفوز فيها بحلال رزقك وطعامك.

واعلم يا أخي العزيز أنه ليس من سمو شأن عباد الله ترك الحرام والاستنكاف عن جعل الأحشاء وعاء له بل الشموخ في أن يبلغ المرء إثر الرياضات والمجاهدات الكثيرة والعراء من التقيدات، مكانة وشأناً يخوله لمعرفة الطعام المحرم وإن كان هكذا في واقعه وحلالاً في ظاهره.

يروي صاحب كتاب «زينة المجالس» في أحوال أحد المشايخ وهو الحارث بن الأسد المحاسبي المنقطع النظير بين أهل زمانه في زهده وتقواه وورعه وعبادته لله بأنه ورث عن أبيه ألف درهم لم يدن منها أبداً على أساس ما رواه من أن رسول الله قد أكد أن اختلاف الملة يمنع التوارث وأن أباه كان قدرياً. يروىٰ أنه عند وفاته كان لا يملك حتى درهم واحد فقد صده منتهىٰ ورعه عن التصرف في تلك الأموال الوفيرة. كان للحارث بن الأسد وريد في يده يظهر ويبجل كلما مد يده إلى طعام لم يحل له.

يروي جنيد البغدادي أنه دعا أبا عبد الله الحارث يوماً إلى داره بعد أن لاحت له آثار الجوع في سيمائه فأجاب المحاسبي دعوته. ولما قدم إليه طعام كان قد جيء به من مأدبة عرس إلى دارهم، تناول الشيخ لقمة منه ونهض فلفظ اللقمة في الدهليز وخرج. ولما سأله عند لقائه التالي به عن سبب نهوضه وامتناعه عن تناول الطعام دون مبرر، أجابه الشيخ بأن الله عز وجل ينبهه عندما يمد يده إلى طعام مشتبه في أمره بأن يتضخم وريد في يده وتتصلب مفاصله، تساءل الشيخ عن مصدر الطعام وجاءه الجواب بأنه جيء به من عند أحد أقاربه. وفي المرة التالية دعاه إلى الطعام ولما لاقت دعوته الترحيب من الشيخ، اصطحبه إلى الدار وقدم له قليلاً من خبز يابس.. فتناوله المحاسبي راغباً وهو يؤكد أنه من الأفضل استضافة الدرويش بخبز يابس ولكن بوجه باسم وصدر رحب.

جاء في كتاب روضات الجنات نقلاً عن «زينة المجالس» أن السبب في تلقيبه بالمحاسبي هو أنه كان دائم المحاسبة لنفسه والمراقبة علىٰ أعماله وفعاله. ونقلنا في الموضوع الثلاثين من الباب الرابع ضمن الحكاية (٩)؛ حديثاً عن دار السلام للمحدث النوري جاء فيه ذكر قدسيات نالها عدد من العلماء، منها أن بعضهم كانت لقمة الحرام أو اللقمة المشتبهة والمجهولة المصدر تزنق في حلقهم إن وردت فاهم فيعجزون عن بلع مثل هذه اللقمة.

ويروي مؤلف الكتاب المذكور قدسية أخرىٰ احتفى بها هذا الشيخ الجليل تفوق في شأنها القدسية السابقة أيما تفوق، إذ ينقل عن الشيخ «أحمد صد توماني» [١] أن تلميذاً من المتتلمذين على يد هذا الشيخ الجليل أطال النقاش معه خلال أحد دروسه فصاح به الشيخ متسائلاً ما باله يحضر الدرس جنباً ويجرؤ على قول الأراجيف، يقول الشيخ الراوي أن التلميذ التزم الصمت ثم

---

١ ـ لقب لطائفة إيرانية معروفة.

أخبرهم بعد أمد أنه كان قد نسي أن يغتسل في ذلك اليوم وقد حضر الدرس جنباً.

ويقول مؤلف الروضات بأن مثل هذه القدسيات فضل يؤتيه الله من يشاء وأن للرياضات الشرعية والمجاهدات البدنية مدخلية عظيمة للنيل والوصول إلى هذه الدرجة.

فيا أخي العزيز تأس بمثل هؤلاء العظام. ولو عجزت عن الرقي إلى مثل شأنهم اعتق نفسك على أقل تقدير مما اطمأننت لحرامه. وانك لو لم تبلغ الحلال الحقيقي فاجهد في طلب ما ظهرت حليته فواجبك لا يتعدى ذلك. إن التكليف بالحلال النقي في عهدنا إما مستحيل أو يستلزم عسراً وحرجاً شديدين وهذا ما نبذه شارعنا المقدس، وإن شئت أن تتنبه لمدىٰ شحة ما كان حلالاً نقياً من الطعام والمأكل، استمع إلى هذه الحكاية: جاء في خلاصة الأخبار بأن الشيخ عبد الله الزاهد ما انفك يبحث عن رزق حلال مدة طويلة دون أن يتيسّر له الوصول إليه حتىٰ أشاروا إليه بزاهد من أهل خراسان فسافر إليه الشيخ. دلّه الزاهد بدوره على مزارع أتاه الشيخ فطلب منه لقمة طعام مما حلل. اعتذر منه المزارع قائلاً: كنت ستنال ما أردت لو أسرعت قليلاً في المجيء أما الآن فإن طعامي مشتبه فيه؛ عندما كنت أنثر بذور منتوجي دخلت بقرتي أرض جاري فتبعتها وأعدتها وقد يكون شيء من التراب قد علق بقدميها وأنا الآن لست على يقين من حلية رزقي.

يقول شفيق البلخي بأنه عندما التقىٰ إبراهيم أدهم سأله كيف أصبح فأجابه بأنه يرحل كما يراه من جبل إلى جبل ومن مدينة إلى أخرى طلباً للرزق الحلال لأن السماء لا تفتح أبوابها لصلاة ولا لصيام ما لم يلتزم المرء بتناول الطعام المحلل.

فيا أخي العزيز تمعن إلى أي مدىٰ كان عباد الرحمن يتوخون الحيطة،

فالويل لنا نهيمن على الدابة بحمولتها دون التورع في أمر الحلال أو الحرام ثم ندعو المالك المتعال لاستجابة دعائنا. يكفيك مطالعة حكاية قابيل والسموم الأرضية لتستوعب الآثار الوخيمة التي يأتي بها تناول الطعام المحرم. يروىٰ أن جميع السموم الأرضية إنما تكونت من قيء آدم عليه السلام الذي تقيأه بعد التناول من ثمار الشجرة المنهية وما فضل منه في جسم آدم صار إلى نطفة قابيل وانتهىٰ به إلى قتل أخيه هابيل مع أنه كان من طعام نهي عنه نهياً تنزيهياً لا تحريمياً.

إشتهرت حكاية سلطان سأل عالماً عن سبب ظهور الخير في أبناء السلاطين والشر في أبناء العلماء فأجابه: إنكم وبسبب اختلاطكم بنا قد يصيبكم شيء من حلية طعامنا فتأتون حلائلكم وتنعقد لكم نطفة من طيب طعامنا، أما نحن فقد نتناول من حرام طعامكم ونأتي حلائلنا فتنعقد لنا نطفة من سوء يلحق أبناءنا.. والحق أنه نطق بكلام حكيم وجاء بدر ثمين.

فاعلم يا أخي العزيز، أن أفضل الصفات الإنسانية هي طلب الرزق من الكسب والمجاهدة فاطلبه من الكسب والتجارة فيما لو لم يكفك مؤونة الاسترزاق إرث من حلال الله. ودونك التصرف بالوجوهات الشرعية والصدقات وبيت المال»[1].

«المرحوم النراقي وطلب الحرام»

ومن رذائل القوة الشهوية: طلب الحرام وعدم الاجتناب عنه، ولاريب في كونه مترتباً على حب الدنيا والحرص عليها، وهو أعظم المهلكات، به هلك أكثر من هلك، وجل الناس حرموا عن السعادة لأجله، ومنعوا عن توفيق الوصول إلى الله بسببه.

ومن تأمل يعلم أن أكل الحرام أعظم الحجب للعبد من نيل درجة الأبرار،

---

١ ـ الشيخ المرحوم علي أكبر النهاوندي، خزينة الجواهر، ص ٢٢٤.

وأقوى الموانع له عن الوصول إلى عالم الأنوار، وهو موجب لظلمة القلب وكدرته، وهو الباعث لخبثه وغفلته، وهو العلة العظمىٰ لخسران النفس وهلاكها، والسبب الأقوىٰ لضلالتها وخباثتها، هو الذي أنساها عهود الحمى، وهو الذي أهواها في مهاوي الضلالة والردى، وما للقلب المتكون من الحرام والاستعداد لفيوضات عالم القدس! وأنّىٰ للنطفة الحاصلة منه والوصول إلى مراتب الأنس! وكيف يدخل النور والضياء في قلب أظلمته أدخنة المحرمات؟! وكيف تحصل الطهارة والصفاء لنفس أخبثتها قذارات المشتبهات؟!

ولأمر ما حذر عنه أصحاب الشرع وأمناء الوحي غاية التحذير وزجروا منه أشد الزجر.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن لله ملكاً علىٰ بيت المقدس، ينادي كل ليلة: من أكل حراماً لم يقبل منه صرف ولا عدل»: أي لا نافلة ولا فريضة[1].

وقال صلى الله عليه وآله: «من لم يبال من أين اكتسب المال، لم يبال الله من أين أدخله النار»[2].

وقال صلى الله عليه وآله: «كل لحم نبت من حرام فالنار أولىٰ به»[3].

وقال صلى الله عليه وآله: «من أصاب مالاً من مأثم فوصل به رحماً أو تصدق به أو أنفقه في سبيل الله، جمع الله ذلك جمعاً، ثم أدخله في النار»[4].

وقال صلى الله عليه وآله: «إن أخوف ما أخاف على أمتي من بعدي هذه المكاسب الحرام، والشهوة الخفية، والربا».

١ـ عدة الداعي، إبن فهد الحلي، ص ١١٠، طبعة تبريز؛ بحار الأنوار، المجلد ١٠٠، ص ١٦، ح ٧٢، طبعة بيروت.

٢ـ عدة الداعي، إبن فهد الحلي، ص ٥٥؛ بحار الأنوار، المجلد ١٠٠، ص ١٣، ح ٦٣.

٣ـ المحجة البيضاء، فيض الكاشاني، المجلد ٣، ص ٢٠٤؛ مجمع الزوائد، الهيثمي، المجلد ١٠، ص ٢٩١.

٤ـ الترغيب والترهيب، المجلد ٢، ص ٥٤٩.

وقال ﷺ: «من اكتسب مالاً من الحرام فإن تصدق به لم يقبل منه، وإن تركه وراءه كان زاده إلى النار»[1].

وقال الصادق عليه السلام: «إذا اكتسب الرجل مالاً من غير حله ثم حج فلبىٰ، نودي: لا لبيك ولا سعديك! وإن كان من حله، نودي: لبيك وسعديك»[2].

«إن كانت أعمالهم أشد بياضاً من القباطي فيقول الله عز وجل لها: كوني هباء. وذلك أنهم كانوا اذا شرع لهم الحرام أخذوه. وفي بعض الأخبار: أن العبد ليوقف عند الميزان، وله من الحسنات أمثال الجبال، فيسأل عن رعاية عياله والقيام بهم، وعن ماله من اين اكتسبه وفيم أنفقه حتى تفني تلك المطالبات كل أعماله. فلا تبقىٰ له حسنة. فتنادي الملائكة: هذا الذي أكل عياله حسناته في الدنيا، وارتهن اليوم بأعماله»[3]. وورد: «أن أهل الرجل وأولاده يتعلقون به يوم القيامة، فيوقفونه بين يدي الله تعالى، ويقولون: يا ربنا، خذ لنا بحقنا منه، فإنه ما علّمنا ما نجهل، وكان يطعمنا من الحرام ونحن لا نعلم فيقتص لهم منه»[4].

ينبغي لطالب النجاة أن يفر من الحرام فراره من الأسد ويحترز منه احترازه من الحية السوداء، بل أشد. وأنّى يمكنه ذلك في أمثال زماننا الذي لم يبق فيه من الحلال إلّا الماء الفرات والحشيش النابت في أرض الموات، وما عداه قد أخبثته الأيدي العادية، وأفسدته المعاملات الفاسدة! ما من درهم إلّا وقد غصب من أهله مرة بعد أولىٰ، وما من دينار إلّا وقد خرج من أيدي من أخذه قهراً كرة غب أولىٰ، جل المياه والأراضي من أهلها مغصوبة، وأنىٰ يمكن القطع بحلية الأقوات وأكثر المواشي والحيوانات من أهلها منهوبة، فأنّى يتأتى الجزم

---

١ ـ إحياء العلوم، الغزالي، المجلد ٢، ص ٨١؛ المحجة البيضاء، المجلد ٣، ص ٢٠٥.

٢ ـ الفروع من الكافي، المجلد ٥، ص ١٢٤، ح ٣.

٣ ـ إحياء العلوم، المجلد ٢، ص ٣٠؛ المحجة البيضاء، المجلد ٣، ص ٧٢.

٤ ـ إحياء العلوم، المجلد ٢، ص ٣٠؛ المحجة البيضاء، المجلد ٣، ص ٧٣.

بحلية اللحوم والألبان والدسوم، فهيهات ذلك هيهات! ما من تاجر إلّا ومعاملته مع الظالمين، وما من ذي عمل إلّا وهو مخالط للجائرين من عمال السلاطين.

وبالجملة: الحلال في أمثال زماننا مفقود، والسبيل دون الوصول إليه مسدود، ولعمري، أن فقده آفة عم في الدين ضررها، ونار استطار في الخلق شررها. والظاهر أن أكثر الأعصار كان حالها كذلك. ولذلك قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «**المؤمن يأكل في منزلة الدنيا بمنزلة المضطر**»[1]. وقال رجل للكاظم عليه السلام: ادع الله جل وعز أن يرزقني الحلال، فقال: أتدري ما الحلال؟ قال: الكسب الطيب. فقال: كان علي بن الحسين عليه السلام يقول: الحلال قوت المصطفين. ولكن قل: أسألك من رزقك الواسع، ومع ذلك كله، لا ينبغي للمؤمن أن ييأس من تحصيل الحلال، ويترك الفرق والفصل بين الأموال، فإن الله سبحانه أجل وأعظم من أن يكلف عباده بأكل الحلال ويسد عنهم طريق تحصيله[2].

النص رقم(٢٧):

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«**يا علي، خمسة تميت القلب: كثرة النوم وكثرة الكلام وكثرة الضحك وكثرة همّ القلب، وأكل الحرام يَطردُ الإيمان**»[3].

النص رقم(٢٨):

ومن وصايا لقمان لولده: «**يا بني، إنه قد أحصي الحلال الصغير فكيف**

١ـ الفروع من الكافي، المجلد ٥، ص ١٢٥، ح ٦.

٢ـ معراج السعادات، ص ٤٤٠ـ ٤٤٢، طبعة دار «هجرة» للطباعة والنشر بقم.

٣ـ مكارم الأخلاق، الطبرسي، الباب ١٢، الفصل ٣: في وصية النبي (ص) لعلي (ع).

بالحرام الكثير»[١].

استعرضنا حتى الآن نصوصاً وأحاديث عديدة فلنعرج على القرآن الكريم لنقرأ معاً بعض الآيات الشريفة حول النهي عن أكل السحت وتناول سائر المحرمات الأخرى:

النص رقم(٢٩):

١ ـ ﴿وآتوا اليتامىٰ أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم، إنه كان حوباً كبيراً﴾[٢].

شأن النزول:

روي أن رجلاً من بني غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ اليتيم طلب ماله فمنعه عنه، فخاصمه إلى النبي صلى الله عليه وآله فنزلت الآية ﴿وآتوا اليتامىٰ أموالهم...﴾ فلما سمع الغطفاني ذلك ارتدع وقال: أعوذ بالله من الحوب الكبير[٣].

التفسير:

كثيراً ما يحدث في المجتمعات البشرية أن يفقد أطفال صغار آباءهم بسبب الحوادث والنكبات والكوارث، فتلك الحالة كثيراً ما تقع، فإن المجتمعات السقيمة التي تعاني من صراعات وحروب ونزاعات داخلية مستمرة مثل المجتمع الجاهلي العربي يقع فيها هذا الأمر بنسبة أكبر ولذلك يكثر فيها عدد

---

١ ـ بحار الأنوار، المجلسي، المجلد ١٣، ص ٤٣١، ح ٢٣.

٢ ـ سورة النساء، الآية ٢.

٣ ـ الدر المنثور، المجلد ٢، ص ١١٧.

الأيتام وهو ما يجب أن تهتم به الحكومة الإسلامية، بل ويهتم به جميع المسلمين فيتكفّلوا أمر اليتامىٰ وشؤونهم.

وفي هذه الآية ثلاثة تعاليم بشأن أموال اليتامىٰ:

أ ـ ﴿وآتوا اليتامىٰ أموالهم..﴾: أي يجب أن يكون تصرفكم في هذه الأموال علىٰ نحو تصرف المؤتمن والناظر والوكيل لا علىٰ نحو تصرف المالك.

ب ـ ﴿.. ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب﴾: وهذا التعليم ـ في الحقيقة ـ يهدف إلى المنع مما قد يرتكبه بعض القيمين على أموال اليتامىٰ من أخذ الجيد من مال اليتيم وجعل الخسيس والرديء مكانه بحجة أن هذا التبديل يضمن مصلحة اليتيم، إما لأنه لا تفاوت بين ماله والبديل وإما لأن بقاء مال اليتيم يؤول إلى التلف والضياع.

ج ـ ﴿.. ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم..﴾، يعني لا تخلطوا أموال اليتامىٰ مع أموالكم بحيث تكون نتيجتها تملك الجميع أو أن المراد لا تخلطوا الجيد من أموالهم بالرديء من أموالكم بحيث تكون نتيجتها الإضرار باليتامىٰ وضياع حقوقهم. ولفظة (إلى) في العبارة جاءت بمعنى (مع) في الحقيقة.

د ـ ﴿.. إنه كان حوباً كبيراً﴾: إن الله سبحانه وتعالىٰ ولبيان أهمية هذا الموضوع والتأكيد عليه يختم الآية بقوله: ﴿إنه كان حوباً كبيراً﴾.

يقول الراغب في مفرداته: «الحوبة حقيقتها هي الحاجة التي تحمل صاحبها على ارتكاب الإثم» وحيث أن العدوان علىٰ أموال اليتامى ينشأ ـ في أغلب الأحيان ـ من الحاجة أو بحجة الحاجة، إستعمل القرآن الكريم مكان لفظة (الإثم) في هذه الآية لفظة (الحوب) للإشارة إلى هذه الحقيقة.

إن ملاحظة الآيات القرآنية المختلفة ـ في هذا السياق ـ تكشف عن أن

الإسلام يولي هذا الموضوع أهمية كبرىٰ، ويهدد الخائنين في أمـوال اليـتامىٰ بالعقوبات الشديدة، ويدعو القيمين على اليتامى بكلمات صريحة وجازمة إلى مراقبة أموالهم والمحافظة عليها مراقبة تامة، ومحافظة بالغة، ويأتي تفصيل كل هذا في نفس السورة في الآيات القادمة، وكذلك في ذيل الآية (١٥٢) من سورة الأنعام والآية (٣٤) من سورة الإسراء.

إن اللهجة القوية التي اتسمت بها هذه الآيات قد تركت من التأثير البالغ في نفوس المسلمين بحيث خـافوا أن يخـالطوا اليـتامىٰ وأن يشـتركوا مـعهم في طعامهم، ولهذا كانوا يهيئون طعاماً خاصاً لأنفسهم وأولادهم وطـعاماً آخـر لليتامىٰ ولا يخلطون طعام اليتامىٰ بطعامهم خشية الإجحاف بهم، وقد شـقّ هذا على الجميع، اليتامىٰ والأولياء ولهذا أمرهم سبحانه في الآية (٢٢٠) مـن سورة البقرة قائلاً: ﴿وان تخالطوهم فإخوانكم﴾، أي إن كان في مخالطتهم لطعام اليتيم بطعامهم خير ومصلحة لليتيم فلا بأس من ذلك[١].

النص رقم(٣٠):

٢ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلّا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم ولا تقتلوا أنفسكم، إن الله كان بكم رحيماً. ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً﴾[٢].

تمثل الآية الاولى في واقع الأمر القاعدة الأساسية التي تقوم عليها القوانين الإسلامية فيما يخص مسائل «المعاملات والمبادلات المالية»، ولهذا يستدل بها فقهاء المسلمين خلال أبحاثهم في كافة أبواب المعاملات والمبادلات المالية.

---

١ ـ الأمثل في تفسير كلام الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، المجلد ٣، ص ٧٩ ـ ٨١.

٢ ـ سورة النساء، الآيتان ٢٩ و ٣٠.

إن هذه الآية فيما تخاطب المؤمنين بقولها: ﴿يا أيها الذين آمنوا، لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل..﴾ تعلن عن أن التصرف في أموال الغير دون حق نطلبه إياه أو مبرر منطقي ومعقول، ممنوع ومحرم من وجهة نظر الإسلام. وقد أدرج الإسلام كل هذه الأمور تحت عنوان الباطل بمفهومه الواسع الكبير، والباطل يخالف الحق ويشمل كل ما يكون بعيداً عن الحق وكل ما لا هدف له ولا أساس.

ويضاهي هذا التعبير ما جاء في آيات أخرىٰ من آيات القرآن الكريم حيث تؤكد من باب ذم اليهود وذكر أعمالهم القبيحة:

أ ـ ﴿وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾[١].

ب ـ وتنهى الآية ١٨٨ من سورة البقرة عن جر الناس إلى الحاكم وأكل أموالهم بحجج واهية وغير منطقية، ممهدة الحديث عن ذلك بالعبارة ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾.

وعلى هذا الأساس يندرج تحت هذا القانون العام كل لون من ألوان العدوان، الغش، المعاملات الربوية، المعاملات المجهولة الخصوصيات وتعاطي البضائع التي لا فائدة لها بحكم العقل والمنطق، والتجارة بأدوات اللهو والفساد والمعصية وما شابهها.

إن العديد من الآيات والروايات التي تسمي القمار والربا وما إليهما «الباطل» إنما تعني بذلك ذكر مصاديق واضحة لهذه الكلمة لا حصرها بهذه الأمثلة.

إنه غني عن الذكر أن كلمة «أكل» تأتي في هذه الآيات والروايات بمعنىٰ التصرف بكافة أساليبه سواء كان ذلك بالأكل أو الاكتساء أو السكنىٰ أو

---

١ ـ سورة النساء، الآية ١٦١.

غيرها وهو تعبير رائج في اللغة العربية غير غريب عن الاستعمال.

أما قوله: ﴿إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ﴾ فإنه «استثناء منقطع»[1] عن القانون العام الآنف الذكر أي أن القانون العام لا يشمل الحكم السابق منذ البدء بل ذكر ضمنه بهدف التشديد والتنكير، وهذا الاستثناء بحد ذاته قانون عام يؤدي بنا إلى أن جميع المبادلات المالية والمعاملات التجارية التي سادت بين الناس تكتسب ـ فيما إذا تمت برضا الطرفين حسب رأي الإسلام ـ طابعاً معقولاً ومنطقياً يجعله يجوزها إلّا في حالات نهي عنها بوضوح رعاية لمصالح معينة.

والعبارة ﴿لا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾ في الآية، تنهى الإنسان عن قتل النفس وتحرم الانتحار. وظاهر هذه الجملة بقرينة قوله: ﴿إن الله كان بكم رحيماً﴾، أي أن رحمة الله ورأفته بعباده لم تنحصر في حدود منعه عن قتل الآخرين بل لم يجز له المبادرة لإبادة نفسه وإن كان برضا منه، وقد تم تفسير هذه الآيات في الروايات المنقولة عن أهل بيت رسول الله ﷺ بهذا المعنى أيضاً[2].

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: ما هي الصلة بين «قتل النفس» و «التصرف الباطل في أموال الآخرين»؟.

١ـ يأتي الاستثناء المنقطع في غالب الأحيان لتأكيد شمولية القانون العام ويصدق ذلك فيما يخص الآية المذكورة التي تعلن كذلك بأن تحريم التصرف الباطل في أموال الآخرين لن يسد أبواب تأمين مستلزمات المعيشة بوجه الإنسان بل له أن يؤمنها بمزاولة المعاملات الشرعية.

ولغوياً نعني بالاستثناء المنقطع «ما لم يكن المستثنىٰ بعضاً من المستثنىٰ منه نحو اكتمل الطلاب إلا كتبهم، وكقوله تعالى (لا يسمعون فيها لغواً إلّا سلاماً) فاللغو هو الكلام الرديء والسلام ليس بعضاً منه.

ومعنى انقطاعه لا يعني عدم وجود رابط بين المستثنىٰ والمستثنىٰ منه وإنما انقطاع صلة البعضية بينهما.. ولكن الاتصال المعنوي موجود». (الشامل، محمد سعيد إسبر وبلال جنيدي، ص ٩٣٢).

٢ـ راجع تفسيري «مجمع البيان»، ذيل الآية و «نور الثقلين» المجلد الأول، ص ٤٧٢.

والإجابة على هذا السؤال واضحة غنية عن الاستدلال العميق. إن القرآن وبذكر هذين الحكمين بشكل متتالٍ، يشير إلى حالة اجتماعية هامة وهي أن العلاقات الاقتصادية المالية بين الناس لو لم تتحكم فيها مبادئ قويمة وأن حرمان المجتمع من البنية الاقتصادية السليمة وشيوع حالة الظلم والتصرف اللامشروع في أموال الآخرين يؤدي إلى ابتلاء المجتمع بضرب انتحاري؛ فالى جانب انتشار الانتحار الفردي فيه تسوده حالة الانتحار الاجتماعي.

وتعتبر الحوادث والثورات التي شهدتها مختلف المجتمعات العالمية المعاصرة خير شاهد حي على هذه الحقيقة، وحيث أن الله عز وجل رؤوف بعباده، أنذرهم من خطر فناء المجتمع وانهياره إثر سيادة المعاملات المالية الغير قويمة فيه وتورطه باقتصاد سقيم.

كما حذر المسلمين قائلاً: ﴿ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه[1] ناراً﴾، أي أن من يعصي هذه الأحكام ويتجاهل هذا التحذير ويأكل أموال الآخرين بالباطل ودون استحقاق أو يقتل نفسه لم يصبه العذاب الأليم في الدنيا فحسب بل ستصيبه نار الغضب الإلهي في الآخرة أيضاً؛ وهذا هين على الله ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾[2].

النص رقم(٣١):

٣ـ ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدمَ ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه، إن الله غفور رحيم﴾[3].

١ـ صلى الشيء النار أو بها، فيها، عليها: سخنه وشواه وتعني في هذه الآية: الدخول إلى النار والاحتراق بلهيبها.

٢ـ تفسير «الأمثل»، ناصر مكارم الشيرازي، المجلد ٣، ذيل الآية.

٣ـ سورة البقرة، الآية ١٧٣.

إن الأغذية المحرمة التي ذكرتها الآية الكريمة أعلاه، لها كسائر المحرمات الإلهية فلسفتها الخاصة، وقد شرعت انطلاقاً من خصائص الإنسان جسمياً ونفسياً. والروايات الإسلامية ذكرت علل بعض الأحكام. والعلوم الحديثة أماطت اللثام أيضاً عن بعض هذه العلل ومنها أسباب تحريم تناول لحوم الميتة.

«والدم..»

المحرم الثاني في هذه الآية هو الدم، وشرب الدم له مفاسد أخلاقية وجسمية عديدة فهو وسط متأهب تماماً لتكاثر أنواع المكروبات.

والمكروبات التي تدخل الجسم تتجه أول ما تتجه إلى الدم وتتخذه مركزاً لنشاطها، ولذلك اتخذت الكريات البيض مواقعها في الدم للحيلولة دون توغل هذه الأحياء المجهرية في الدم المرتبط بكافة أجزاء الجسم.

وحين يتوقف الدم عن الحركة وتنشل الحياة فيه، يتوقف نشاط الكريات البيض أيضاً، ويصبح الدم بذلك وسطاً لتكاثر المكروبات دون أن تواجه عقبة في التكاثر، ولذلك نستطيع القول أن الدم ـ حين يتوقف عن الحركة ـ يكون أكثر أجزاء جسم الإنسان والحيوان تلوثاً.

ومن جهة أخرى ثبت اليوم في علم الأغذية، أن الأغذية لها تأثير على الأخلاق والمعنويات عن طريق التأثير في الغدد وإفراز الهرمونات.

ومنذ القدم ثبت تأثير شرب الدم على تشديد قسوة الإنسان، وأصبح ذلك مضرب الأمثال. ولذلك نرى الرواية عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، يقول:

«أما الدم فإنه يورث القسوة في القلب وقلة الرأفة والرحمة حتى لا يؤمن أن

يقتل ولده ووالده ولا يؤمن على حميمه ولا يؤمن على من يصحبه»[1].

«ولحم الخنزير..»

وثالث المحرمات المذكورة في الآية «لحم الخنزير»، فالخنزير حتىٰ عند الأوربيين المولعين بأكل لحمه يعتبر رمز التحلل الجنسي وهو حيوان قذر للغاية، وتأثير تناول لحمه في التحلل الجنسي لدىٰ الإنسان مشهود واضح.

إن حرمة تناول لحم الخنزير صرحت بها شريعة موسىٰ عليه السلام أيضاً وفي الأناجيل شُبّه المذنبون بالخنزير، كما أن هذا الحيوان يعتبر رمزاً للشيطان في القصص.

ومن العجيب أن أناساً يرون بأعينهم قذارة هذا الحيوان حتىٰ أنه يأكل عذرته، ويعلمون احتواء لحمه على نوعين خطرين من الديدان، ومع ذلك يصرون على أكله. إن دودة «التريشين» التي تعيش في لحم هذا الحيوان تتكاثر بسرعة مدهشة، وتضع في الشهر خمسة عشر ألف بيضة، وتسبب للإنسان أمراضاً متنوعة كفقر الدم، والغثيان، وحمى خاصة والإسهال وآلام المفاصل وتوتر الأعصاب، والحكة، وتجمع الشحوم داخل الجسم، والشعور بالإرهاق، وصعوبة مضغ الطعام وبلعه وعسر التنفس و...

وقد يوجد في الكيلو غرام الواحد من لحم الخنزير (٤٠٠) مليون دودة من هذه الديدان!! ولذلك أقدمت بعض البلدان الأوربية في السنوات الأخيرة علىٰ منع تناول لحم هذا الحيوان. وهكذا تتجلىٰ عظمة الأحكام الدينية بمرور الأيام.

ولو افترضنا أن العلم تطور بحيث نجح في القضاء على ديدان هذا الحيوان، فإن أضراره الأخرىٰ ستبقى سارية المفعول. وقد ذكرنا أن للأطعمة تأثيراً على أخلاق الإنسان عن طريق فاعليتها في عمل الغدد وإفراز الهرمونات. ومن هنا

---

١ ـ وسائل الشيعة، المجلد ١٦، ص ٣١٠.

تبق للحم الخنزير خطورته في التأثير على بروز حالة التحلل الجـنسي لدى متناوليه وهي صفة بارزة في هذا الحيوان ولعل تناول لحم هذا الحيوان هو أحد عوامل التحلل الجنسي في البلدان الغربية.

«وما أُهل به لغير الله..»

رابع المحرمات في الآية ﴿وما أهل به لغير الله﴾، وهي الحيوانات التي تذبح دون ذكر اسم الله عليها كالتي كانت تقدم قرابين للأصنام في الجاهلية.

وهل لذكر اسم الله أم اسم غير الله على الحيوانات قبل ذبحها أثر صحي في لحومها؟

للإجابة على هذا السؤال لابد أن نقول: يجدر بنا أن لا ننسى أنه لا يتحتم أن يكون لذكر اسم الله أو اسم غير الله أثر صحي لأن للتحريم في الاسـلام وجهات مختلفة قد تكون صحية، وقد يكون دافعه صقل النفوس أو الحـفاظ على بناء المجتمع. وتحريم لحوم هذه الحيوانـات له جـانب مـعنوي وأخـلاقي وتربوي، فهذه اللحوم تبعد الإنسان عن الله، وتـترك تأثـيراً نـفسياً وتـربوياً وسلبياً في متناوليها لأنها من سنن الشرك والوثـنية وتـعيد إلى الذهـن تـلك التقاليد الخرافية.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «.. أما الميتة فإنه لم ينل منها أحد إلّا ضعف بدنه، وذهبت قوته، وانقطع نسله، ولا يموت آكل الميتة إلّا فجأة»[١].

ولعل هذه المفاسد تعود إلى أن الجهاز الهضمي لا يستطيع أن يـصنع مـن الميتة دماً سالماً حياً. إضافة إلى أن الميتة مرتع أنواع المكـروبات، والإسـلام اعتبر الميتة مثلاً نجسة كي يتجنبها المسلم مثل باقي النجاسات فضلاً عن عدم تناولها.

١ـ وسائل الشيعة، المجلد ١٦، ص ٣١٠.

يجدر التنبه هنا إلى أن تناول لحم الميتة قد حرم لمن لم يقع عليه ظرف الاضطرار كمن يقف على هاوية الهلاك وسيهوىٰ فيها عند امتناعه عن تناول مثل هذا اللحم، ففي هذه الظروف ترفع عنه الحرمة كما تصرح بذلك الآية الآنفة الذكر، ولكن يحق له ذلك بقدر ما يرتبط به استمرار حياته وإنقاذ نفسه من مخالب الموت. لقد قطعت الآية الطريق أمام استغلال «حجة الاضطرار» بالتنبيه إلى كون المضطر ﴿غير باغٍ ولا عادٍ﴾ أي أن هذه الحلية لا يتمتع بها طلبة اللذة، والعادي هو المتجاوز للحد أي المتجاوز حد الضرورة اللازمة لإنقاذ حياته.

ذهب بعض المفسرين في باب معنى ﴿غير باغ ولا عاد﴾ إلى تفسير آخر لا يعارض التفسير الأول وقد يتضمن المعنى التفسيرين معاً، ويؤكد التفسير الثاني أن حلية تناول لحوم الخنازير وسائر اللحوم المحرمة تختص بمن لا يكون سفرهم الذي اضطرهم لتناول هذه اللحوم (مثلاً) سفر ظلم وتعدّ أو معصية، فالمسافرون لهدف ينطوي على ذنب ومعصية، لا رخصة لهم في تناول الأطعمة المحرمة حتى ولو اضطروا إلى ذلك، ولو تناولوها لثقل وزرهم، أي أن هؤلاء العاصين قد يستوجب عليهم عقلاً في أسفارهم المحرمة، أن يتناولوا من الأطعمة المحرمة، لكن هذا الوجوب لا يرفع عنهم المسؤولية.

والروايات التي تشير إلى أن الاستثناء المذكور لا يشمل مناوئي إمام المسلمين تؤيد هذا التفسير، كما تشير الأحاديث المتواترة حول صلاة المسافر بأن حكم القصر لا ينطبق على من كان في سفر باطل. وكافة الروايات التي تتناول الحديث عن هذين الظرفين تستدل على ذلك بقوله تعالى:

﴿فمن اضطر غير باغٍ ولا عاد فلا إثم عليه، إن الله غفور رحيم﴾.

تنويهات ضرورية:

١ ـ ما تم تحريمه في هذه الآية، ذكر تحريمها بتعبير آخر وفي حالات أخرىٰ

من القرآن الكريم، إذ أنها حرمت في سورتين مكيتين وفي سورتين مـدنيتين. لقد أعلن عن هذا التحريم أولاً في مستهل البعثة ثم أعلن عنه ثانية في أواخر الفترة التي قضاها الرسول ﷺ في مكة، وتكرر الإعلان في أوائل الهجرة إلى المدينة ثم أعيد التأكيد رابعة في أواخر حياة الرسول وفي سورة المائدة وهي آخر سورة أنزلت على الرسول ﷺ وقلما نزلت الآيـات عـلى هـذا النـحو بخصوص موضوع ما، وهذا ما يجسد الأهمية الفائقة والأخطار الفسيولوجية والسيكولوجية (الجسمية والنفسية) المتعددة للموضوع، وكذلك اتساع نـطاق تدنس الناس آنئذ بها.

٢ـ لم تقتصر المحرمات في الإسلام على هذه الأشياء الأربعة وكلمة «إنما» في هذه الآية لا تدل على الحصر الحقيقي بل إبطال التحريم الواهي الذي ابتدعه الناس في ذلك العهد استناداً إلى ما توارثوه من خرافات وأوهام، كأن يحرمون بعض الأطعمة وينسبون التحريم إلى الله ويعمدون عند قلة الطـعام إلى أكـل الميتة أو الخنزير أو الدم.

إذن الحصر هنا حصر إضافي لا حقيقي.

٣ـ واضح أن المراد بتحريم الدم في هذه الآية هو تحريم تناوله ولا يشمل حالات الاستفادة المعقولة من هذه المادة مـثل حـقن الدم لانـقاذ الجـرحـىٰ والمرضىٰ، كما لا يتوفر لدينا دليل على حرمة بيع الدم وشرائه بغية تحقيق مثل هذه المآرب لأنها حالات استفادة عقلائية مشروعة عامة.

النص رقم(٣٢):

٤ـ ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلّا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق، اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم

الإسلام ديناً فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾[1].

من المستثنيات التي تم تحريمها:

الميتة: ما تزهق روحه دون تذكية شرعية.

والدم: وهو ما تقصده الآية (١٤٥) من سورة الأنعام «أو دماً مسفوحاً» وقد كان أهل الجاهلية يطبخون الدم ويتناولونه.

ولحم الخنزير: ويراد به اللحم مع جميع ملحقاته أي الدسم والجلد والعظام والحليب ومشتقاته كالجبن و...

وما أهل لغير الله به: أي ما يذكر عليه اسم غير الله عند الذبح ويقصد به الذبائح التي كان الكفار ينادون عليها باسم اللات والعزىٰ وغيرها.

والمنخنقة: ما مات بكتم النفس حتى مفارقة الحياة، والخنق بشكل عام قد يكون ببادرة شخص ما كما كان يفعل المشركون ـ إذ يقتلون الخراف خنقاً ثم يتناولون لحومها ـ أو أن يكون عرضياً كما في الغرق أو استنشاق غازات سامة.

والموقوذة: التي تموت ضرباً إما بعصا أو بحجارة.

والمتردية: التي تموت إثر التردي (السقوط) من مكان مرتفع أو في بئر.

والنطيحة: التي تنطحها أخرى فتموت.

وما أكل السبع: التي افترسها وأكلها أو بعضها حيوان متوحش. ولو لم يكن للستة الأخيرة نفس سائلة فيما قبل فوتها تعتبر في حكم الميتة أما إذا تمتعت بنفس سائلة يجوز أكلها بعد تذكيتها، وهذا هو المراد بقوله: ﴿إلّا ما ذكيتم﴾ أي قطع الأوداج الأربعة (الحلق والمريء والودجين) أو ما يكون بحكمها في غير

---

١ ـ سورة المائدة، الآية ٣.

الناقة، أما في الناقة فإنه يعني النحر أي إيلاج السكين أو غيره في الشق تحت النحر. واعلم أن أدنى ما يدرك به ذكاة الحيوان أن تدركه بتحرك أذنه أو ذنبه أو تطرف عينه، وينص على ذلك ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام والإمام الباقر عليه السلام.

وما ذبح على النصب: أي ما ذبح على الأحجار التي نصبت حوالي البيت الحرام. والنصب مفرد الأنصاب وهي (٣٦٠) حجراً نصبها أهل الجاهلية حول الكعبة، كانت تنال منهم الاحترام فيقدمون لها القرابين ويشرحون لحومها عليها ثم يلطخون دماءها بهذه الأنصاب بقصد القربة وبعد انتشار الدعوة الإسلامية قال المسلمون: يا رسول الله كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم فنحن أحق بتعظيمه فأنزل الله سبحانه الآية: ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها..﴾. قيل أن المراد بالنصب هو الأوثان وتقدر «على» في الآية بمعنى «لـ» (كما في سلام لك من أصحاب اليمين، أي عليك) فتصبح غاية الآية تحريم ما ذبح قربة للأصنام. أو تفسر «علىٰ» بمعناها أي ما ذبح مسمّى على الأوثان.

فمن اضطر في مخمصة: يجوز للمضطر البائس أن يتناول من هذه الأطعمة عند جوعه وانعدام الطعام الحلال لديه.

غير متجانف لإثم: أي غير مائل إلى الإثم أو متعمد لذلك ولا مختار له ولا مستحل أو متلذذ فقد أبيح له ذلك قدر ما يمسك به رمقه بلا زيادة ويحفظ حياته عند المجاعة.

فإن الله غفور رحيم: فرحمته هي التي تبيح لعبده هذا القدر من الأكل فتستر عليه أكله فلا يؤاخذ به. فتضييق الوقت وإحراج العبد والتكليف بما لا يطاق أمور تنبذها الحكمة والمصلحة الإلهية وتتنافر بالتالي مع شأن ذات الله المقدسة.

عبرة: روي في حكاية الصالحين أن رجلاً استتر علىٰ أحواله فينم ظاهره عن سعة عيشه فلا يبوح لأحد بشيء من حقيقة حاله. كان يسكن في جواره

رجل غني له ولد إنما هو قرة عين أبيه. في يوم ما حضر الصبي دار جارهم الفقير فرآهم يعدون الطعام ثم يتناولونه دون أن يقدموا له شيئاً منه فعاد إلى دار أبيه ضجراً باكياً وقص ما حدث لهم. لم يكف الطفل عن البكاء رغم تنوع المأكولات التي قدمت له ويصر علىٰ طلب طعام الجيران. إحتار الأب في أمره فأرسل يطلب جاره وقال له معاتباً: وهل يصح أن يلحقنا من قبلك أذى؟

أجاب الرجل: حاشا لله، إنه سر أجدني مضطراً للبوح به الآن وكنت أريد كتمانه الى الأبد لولا وقوع هذا الحدث، فاعلم إننا تناولنا الطعام ولم نقدم منه لابنك لأن تناوله كان حلاًّ لنا وحراماً علىٰ أولادك.

قال الأب: سبحان الله، وكيف يكون الشيء حلاً لأحد وحراماً علىٰ آخر؟

أجاب الفقير مرتلاً الآية: ﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم﴾ وهو يؤكد أن طعامهم كان من ميتة أحلت لهم بسبب اضطرارهم لأكله بينما حرمت على جارهم لعدم اضطراره.

تأثر الجار لما سمعه وقال: وكيف يجوز أن أجهل وضع جاري وهو على هذه الحال؟!! ثم أقسم أنه لن يدعه يترك الدار قبل أن يناصفه جميع أمواله. وبالفعل ناصفها وإياه. ولما وافته المنية، رآه بعضهم في منامهم فسألوه عما فعل به ربه، فقال: نلت أعلى العليين عند ربي وهي مكانة الصالحين جراء لمواساة جاري.

تنويه: إعلم أن تناول الحرام لأعظم ساتر يصد عباد الله عن نيل درجة الأبرار وما فوقها ويمنع الاتصال بعالم الأنوار ويؤلف بين القلب والحلكة والظلام والخبائث والغفلة وينتهي بالنفس البشرية إلى أسفل الدركات، إلى حيث الهلاك والضلال، ويغيّب عهد الله عن العقول ويلقي بها في شراك الشيطان ضالة غافلة. حقاً، أين قلوب ترعرعت واستمدت قوتها من لقمة حرام من قلوب أضاءتها أنوار العالم القدسي؟! وكيف لنطفة نشأت من مال الآخرين المغتصب، أن تنال شأن الاستئناس بالله؟! وهل تسطع أنوار عالم النور الإلهي

على قلوب انغمست في لجج الطعام المحرم؟ متى يكون الصفاء نـصيب نـفس دنستها أدران الطعام المشتبه؟. ولهذا يخبرنا الرسـول ﷺ أن مـلكاً في بـيت المقدس ينادي كل ليلة عباد الله قائلاً بأن ربهم لا يتقبل سنة ولا فريضة ممن أكل الحرام.

وجاء في الحديث القدسي: «ومن لم يبال من أين يأكل لم أبال من أي باب أدخله النار».

إذاً لزاماً على كل عاقل أن يبذل قصارى جهده في الاهتمام بمعاشه، فالعبادة حسب الروايات سبعون جزءاً، أفضلها طلب الحلال. وجاء في حديث آخـر بأن العبادة عشرة أجزاء تتعلق تسعة منها بطلب الحلال.

والمحرمات ثلاثة أنواع: الأول: ما حرم ذاتياً كالكلب والخنزير وما إليهما.

والثاني: ما حرم عرضياً أي لعرض أصابه كالطعام المتسمم.

والثالث: ما حصل خلل في أخذه وعطائه مثل ما يؤخذ ظلماً وعدواناً وما يسرق أو يسلب خيانة ومكراً وحيلة أو ما يأتي من تدليس ورشوة و...

النص رقم(٣٣):

٥ ـ ﴿يسألونك ماذا أحل لهم، قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله، فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب﴾[١].

شأن النزول: روى سعيد بن جبير أن زيد الخيل وعدي بن حاتم الطائيين أتيا رسول الله ﷺ يستفتيانه وأخبراه أنهـما يـصطادان الحـيوانـات البريـة بالكلاب وسباع الطير فمن الصيد ما يدركانه قبل أن يفتك به فيذبحانه، ومنه ما

١ـ سورة المائدة، الآية ٤.

لا يدركانه قبل ذلك فيكون بحكم الميتة وقد حرمها الله، فما حكمها؟ فـنزلت الآية.

التفسير:

يسألونك ماذا أحل لهم: لما قدّم سبحانه ذكر المحرمات عقّبه بذكر ما أحل لهم فقال: يستخبرونك يا محمد ما الذي أحل لهم من المطاعم والمأكل.

قل أحل لكم الطيبات: وهي المحللات التي أذن لكم ربكـم في أكـلها مـن المأكولات والذبائح والصيد مما لم يرد بتحريمه كتاب ولا سنّة، وذكر اسم الله عليها. إذاً حرم عليهم ما كان يذبح مسمىً على الأصنام. والمـراد بـالطيبات: المحللات المذكاة بحسب الشرع. واضح أن المقصود مـنها مـا لم يـثبت الشرع تحريمه.

وما علمتم من الجوارح: أي الكـواسب مـن الكـلاب وهـو المـروي عـن ائمتنا عليهم السلام فإنهم قالوا هي صيد الكلاب المعلَّمة، خاصة أحله الله إذا أدركـه صاحبه وقد فتك به لقوله ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾. وروىٰ علي بن إبراهيم في تفسيره عن الإمام الحسين عليه السلام أنه عندما سئل عن صيد البزاة والصقور والفهود والكلاب، قال: «لا تأكل إلّا ما ذكيت إلّا الكلاب. قيل: فإن قتله؟ قال: كل، (أي ممـــا قـتل الكـلب) فإن الله يقول ﴿وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه﴾، ثم قال: كل شيء من السباع تمسك الصيد على نفسها[1] إلّا الكلاب المعلّمة فإنها تمسك على صاحبها. وقـال: إذا أرسلت الكلب المعلَّم فاذكر اسم الله عليه فهو ذكاته وهو أن تقول: بسم الله والله أكبر».

---

١ ـ أي أنها إن فتكت به قبل وصول صاحبها يحل لها الصيد دونه.

وروي عن الأئمة الهداة عليهم السلام أنهم حددوا تعلم الجوارح بحدود، منها:

١ـ إنطلاقها تطلب الفريسة عند إرسالها.

٢ـ عودتها عند مناداتها.

٣ـ إمتناعها عن أكل الصيد.

وفي المنهج، عن أبي رافع، قال: جاء جبرائيل إلى النبي صلى الله عليه وآله يستأذن فأذن له وقال: قد أذنا لك يا رسول الله. قال: «أجل ولكنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة» فنظروا فإذا في بعض بيوتهم جرو. أمر رسول الله أبا رافع أن يقتل كل كلب بالمدينة ففرت الكلاب إلى خارج المدينة. ولما نزلت الآية، جاءه الناس يسألونه كيف يصطادون وقد أمرهم بقتل الكلاب فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله فأنزل الله الآية تستثني ما ينفع منها فأباح لهم الرسول صلى الله عليه وآله كلاب الصيد والرعي والحراسة.

جاء في تفسير الشيخ أبي الفتوح الرازي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يحل ثمن الكلب ولا حلوان الكاهن ولا مهر البغي ونهى عن اقتنائها وإمساكها وأمر بغسل الإناء من ولوغها ثلاث مرات إحداهن بالتراب».

واتقوا الله: ولا تقربوا مما حرم تناوله.

إن الله سريع الحساب: سرعان ما يسألكم عن حلاله وحرامه.

جاء في نهج البلاغة: سئل الإمام علي عليه السلام كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم فقال عليه السلام: كما يرزقهم على كثرتهم. فقيل: كيف يحاسبهم ولا يرونه. قال: كما يرزقهم على كثرتهم ولا يرونه.

٦ـ ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن

اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه. إن الله غفور رحيم﴾[1].

لما ذكر الله سبحانه إباحة الطيبات عقبه بتحريم المحرمات ومنها:

الميتة والدم: أما الميتة فإنها ما يموت على الإطلاق من الحيوانات المحرم تناول لحومها أو ما يموت من المحللة لحومها دون تذكية شرعية. وأما الدم فإنه حرم على الإطلاق سواء كان من حيوان محرم اللحم أو محلل اللحم.

ولحم الخنزير: وذكر لحمه كما أشرنا سالفاً لأنه يمثل معظم ما يمكن تناوله من الخنزير وبقية أجزائه كالحليب و... تتبع اللحم في حكمها.

وما أهل به لغير الله: سلفت الإشارة إلى معناها.

تنويه: تنطلق الأوامر والنواهي الإلهية من الحكمة الواقعية والنفس الأمرية أي أنه تعالىٰ أمر بما يأتي على المجتمع البشري بالفائدة والصلاح ونهىٰ عما يفسده ويعيث فيه فساداً وعلمه إنما يرتبط بالغيب والوحي. بناء على هذا يكون للمحرمات الشرعية كتناول الميتة والدم ولحم الخنزير أثر وضعي، فبغضّ النظر عن الأضرار الجسمية المتأتية عنها يؤدي تناولها إلى قساوة القلب وفقدان الغيرة وانعدام الحياء فتكون آثارها في القلوب والأبصار وكذلك آثارها اللاإنسانية جلية واضحة.

لما سئل أبو جعفر الباقر عليه السلام عن سبب تحريم هذه الأشياء قال: «إن الله تبارك وتعالى لم يحرم ذلك على عباده وأحل لهم ما سوىٰ ذلك من رغبة فيما أحل لهم ولا زهد فيما حرمه عليهم ولكنه تعالى خلق الخلق فعلم ما يقوم به أبدانهم وما يصلحهم فأحله لهم وأباحه، وعلم ما يضرهم فنهاهم عنه وحرمه عليهم ثم أحله للمضطر في الوقت الذي لا يقوم بدنه إلّا به فأمره أن ينال منه

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ١٧٣.

بقدر البلغة لا غير ذلك... ثم قال: أما الميتة فإنه لم ينل أحد منها إلّا ضعف بدنه أو وهنت قوته وانقطع نسله ولا يموت آكل الميتة إلّا فجأة. وأما الدم فإنه يورث آكله الماء الأصفر ويورث الكلب وقساوة القلب وقلة الرأفة والرحمة حتى لا يؤمن على حميمه ولا يؤمن على من صحبه. وأما لحم الخنزير فإن الله تعالى مسخ قوماً في صور شتى مثل الخنزير و...»[1].

فمن اضطر: من أرغمه بؤسه وتعرضه للهلاك دون أن يجد ما يسد به رمقه.

غير باغٍ ولا عادٍ: شريطة أن لا يكون باغياً على غيره من المضطرين أو يكون ظلمه قد عرضه للهلاك كما في سفر المعصية وأن لا يكون طالباً للذة أو متجاوزاً حد سد الرمق.

فلا إثم عليه: يتستر الله عليه ولا يؤاخذه لتناوله منها على هذا القدر.

إن الله غفورٌ رحيم: تبيح رحمته ذلك للعباد في حال توفر الشرطين السالفين.

تحريم الخمر

الخمر في اللغة[2] يعني الستر وقد سمي الشراب خمراً لأنه يحجب الصواب عن العقل، وتحريمه بهذا المعنى يشمل كل ما يؤثر سلبياً في فاعلية العقل دون أن يكون للمادة الأولية مدخلية في هذا الأمر وبهذا يتضمن التحريم في هذه الآية تحريماً لجميع المسكرات سواء ما صنع منها من: العنب، الزبيب، الشعير، التمر، العسل و...، والحد المفروض على من لا ينتهي عنها سواء بمبادرته إلى شربها أو مجالسة متناولها وكذلك تناول حتى الماء، الفاكهة والغذاء في مثل هذه

١ـ علل الشرائع، المجلد ٢، ص ٤٨٣.

٢ـ راجع نهاية ابن الاثير، المجلد ٢، ص ٧٦٧؛ لسان العرب، المجلد ٤، ص ٢٥٥؛ قاموس اللغة للفيروز آبادي، مادة خمر؛ مجمع البيان، المجلد الأول، ص ٣١٥.

المجالس هو الضرب بالسوط (٢٥ ضربة).

ويستدل على وجوب تجنب المسكرات بأدلة أربعة هي: القرآن، السنة النبوية الشريفة، الإجماع والعقل.

أ ـ تحريم الخمر في القرآن:

﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمرُ والميسرُ والانصابُ والأزلامُ رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون* إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون* وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين* ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ جناحٌ فيما طعِموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين﴾[1].

شأن النزول: في شأن نزول هذه الآيات آراء فمنها ما يقول أن الله سبحانه وتعالى أنزل أربع آيات بشأن الخمر، هي:

١ ـ الآية **﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً﴾**[2]، نزلت في مكة المكرمة.

٢ ـ الآية **﴿قل فيهما إثمٌ كبير﴾**[3]، فنزلت جواباً على سؤال وجهه عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل إلى الرسول حول الخمر والميسر (القمار).

٣ ـ عندما تلا عبد الرحمن بن عوف ـ خلال صلاة تلت مأدبة عشاء أَمَّها

---

١ ـ سورة المائدة، الآيات ٩٠ ـ ٩٣.

٢ ـ سورة النحل، الآية ٦٧.

٣ ـ سورة البقرة، الآية ٢١٩.

بنفسه ـ سورة الكافرون دون ذكر كلمة «لا» نزلت الآية: ﴿..لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾[1].

٤ـ الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر...﴾ وفي مأدبة عشاء أقامها عثمان بن مالك حضرها سعد بن أبي وقاص، تناول فيها الحاضرون الخمر بعد الفراغ من تناول العشاء ثم أنشد سعد شعراً يتضمن هجو الأنصار فبادر أحد الحاضرين إلى كسر رأس سعد الذي شكاه إلى رسول الله ﷺ.

وقيل أن عمر بن الخطاب كان يقول: «اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً» فنزلت الآية من سورة البقرة ﴿يسألونك عن الخمر والميسر..﴾، فدعي عمر وقرئت عليه، فقال: «اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً»، فنزلت الآية من سورة النساء ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارىٰ..﴾ فدعي عمر ثانية وتليت عليه الآية، فقال: «اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً» فنزلت الآية (٩٠) من سورة المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ ثم تبعتها الآيات: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقعَ بينكم العداوة والبغضاء..﴾. دعي عمر وأبلغ بذلك فقال: انتهينا، انتهينا.

وقيل أنه لما نزل تحريم الخمر والميسر قال الصحابة: يا رسول الله ما تقول في إخواننا الذين مضوا[2] وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر؟ فنزلت الآية (٩٣) من سورة المائدة.

التفسير:

الخمر: ما يحجب الصواب عن العقل ويتضمن المسكرات بما فيها الشراب، الكنياك وماء الشعير وما إليها.

١ـ سورة النساء، الآية ٤٣.

٢ـ أي توفوا.

الميسر: القمار بأعم أنواعه مثل النرد، الشطرنج، الدومنا وأوراق اللعب وما شابهها.

الأنصاب: التماثيل التي نصبها المشركون حول الكعبة لعبادتها.

الأزلام: السهام (الأقداح) التي كان العرب يرمونها بغاية الاستقسام والتفأل قبل الخروج إلى سفر أو المبادرة إلى أي عمل آخر.

الرجس: الدنس والنجاسة والكراهة وكل ما تنفر منه العقول والنفوس أي أن الرجس هو ما يستقذره ويستكرهه كل من الشرع والعقل سواء كان الشيء عين النجاسة أم لا.

من عمل الشيطان: إنما نسب الله سبحانه وتعالىٰ شرب الخمر، لعب القمار، عبادة الأوثان واستقسام الأزلام، إلى الشيطان لأنه هو الذي يعظم شأنها عند الإنسان ويرغمه ـ إن وهنت إرادته ـ للاندفاع نحوها.

فاجتنبوه: إن الضمير في كلمة «اجتنبوه» إنما يعود إلى الرجس، وصيغة الأمر تدل على وجوب الاجتناب عنه لأن الاجتناب عنه يؤدي إلى الفلاح. ويكفينا دليلاً على حرمة الخمر أنه اقترن ذكره بعبادة الأوثان وصار معه في سياق واحد فكيف وقد دلت على تحريمه علانية الآية (٢١) من سورة البقرة والآية (٣١) من سورة الأعراف والروايات المتواترة واجماع المسلمين منذ عهد رسول الله ﷺ وحتى اليوم بل وإلى الأبد.

إن الهدف من تخصيص الخمر والميسر بالذكر هنا هو التحذير من وبالها وما يسببانه من فساد في الأمة وهما من حيث التحريم والإفساد يضاهيان الأنصاب والأزلام. أما الإشارة إلى الصلاة فإنها جاءت للاستدلال على الأثر السيئ الذي تتركه هذه الأمور في المشاعر وبالتالي في الصلاة وحجبها الإيمان عن القلوب، والصلاة عمود الدين وهي العلامة الفارقة بين الكفر والإيمان فكيف لا يحرم ما يفسدها ويخل بها. ولهذا عادت الآية بعد توضيح أسباب

التحريم للتشديد في التهديد بالقول ﴿فهل أنتم منتهون﴾.

إذاً يمكننا الاستدلال على تحريم الخمر في الشريعة الإسلامية بأدلة عشرة نستمدها من الآيتين (٩٠ و ٩١) من سورة المائدة، وهي:

١ ـ ذكر لفظة الخمر وعطف القمار عليها. وقد حرم القمار وهذا ما يدل على تحريم قرينه.

٢ ـ تشبيه شرب الخمر بعبادة الأوثان وهي رأس جميع المحرمات. إذاً شرب الخمر حرام أيضاً.

٣ ـ اعتبار تناول الخمر رجساً أي سوءاً ونجاسة. وتناول النجاسات حرام دون شك.

٤ ـ القول بأنه من عمل الشيطان، وكل ما يكون من عمل الشيطان يحرم الانصياع إليه.

٥ ـ الأمر باجتنابه وما يؤمر المسلم بتجنبه ينتمي إلى قائمة المحرمات.

٦ ـ شرب الخمر يبعد المرء عن التقوى وقد حرم ما يبعد الإنسان عن التقوىٰ.

٧ ـ دوره في سيادة العداوة والبغضاء بين المسلمين. وقد ثابرت الشريعة الإسلامية على تحريم ما يكون سبباً لانتشار هذه الحالة في المجتمع.

٨ ـ صده عن ذكر الله وكل ما يصد العبد عن ذكر الله حرام.

٩ ـ صده العباد عن الصلاة ويكون ذلك دون ريب سبباً لتحريمه.

١٠ ـ الأمر بالانتهاء والكف عنه وما يستوجب على المسلم تركه يكون بحد ذاته حراماً.

بعد النهي عن الخمر والميسر ومقارنتهما بعبادة الأوثان لأنهما من ألد أعداء

بني الإنسان، والتأكيد على أن اجتنابهما يحسن عاقبة المرء، أشار الباري تعالىٰ إلى مفسدتين تكمنان في شرب الخمر ولعب القمار، إحداهما اجتماعية تتمثل في سيادة العداوة والبغضاء بين صفوف المجتمع والأخرىٰ دينية وهي الصد عن ذكر الله وعبادته. ثم يأمر الله العليم المؤمنين بأسلوب بليغ بالحذر من مغبة السقوط في هاتين المفسدتين: فهل أنتم منتهون أي هل بقي بعد كل هذا التأكيد محل للتبرير والتشكيك بشأن ترك هاتين المعصيتين؟ فها هو التاريخ يحدثنا كيف أن عمر بن الخطاب الذي كان لا يجد في الآيات السابقة الحجة الشافية على تحريم الخمر (حسب تصريح عامة المفسرين) بسبب ولعه الشديد بالخمر، اقتنع بتحريمه بعد نزول هذه الآية.

﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾.

أي أطيعوا أمر الله إذ أمركم بترك الخمر والقمار وسائر المحرمات، وكذلك أطيعوا الرسول واحذروا من مخالفتهما لأنها تأتي عليكم بعذاب الله وعقابه فإن الناصح لنفسه أكثر مما ينصح الآخرين يكون ـ كما قال الإمام علي عليه السلام ـ أكثر الناس طاعة لربه، ومن يخون نفسه أكثر من أي شخص آخر يألف معصية خالقه أكثر من غيره.

والعبارة «فان توليتم» تعني الذين يهددون بالتنكر لأحكام الله وشريعته فبلاغ الرسول حجة عليهم تسلبهم فرصة التبرير والإتيان بالأعذار الواهية.

﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناحٌ فيما طعِموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين﴾.

ما هو يا ترىٰ سبب تكرر كلمتي «اتقوا» و «آمنوا» في هذه الآية؟ إن كلمة (اتقوا) الأولى تقصد التقوىٰ والورع عما حرم في الآية (٩٠) والثانية تريد

الثبات على ترك ما حرم، والثالثة التلبس بالتقوى في ترك جميع المعاصي وإتيان الحسنات. إذاً كلمة (اتقوا) الأولى: التقوىٰ في الإيمان بالله والإتيان بفرائضه والثانية: الإيمان بأن الثبات في اجتناب المحرمات هو خير للإنسان. ويختلف أصحاب التفاسير في الهدف المتوخىٰ من تكرار كلمة (اتقوا) اختلافاً كبيراً فيما بينهم مما يجعل مطالعة آرائهم خلال بحثنا هذا أمراً مرهقاً كما أنها لا تتضمن أي دليل اصيل ومقنع.

وللجواب عن الاستفسار عن سبب الاكتفاء بذكر الخمر والميسر في الآية (٩١) بينما تشير الآية (٩٠) إلى الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، نقول أن انتشار العداوة والبغضاء بين صفوف المجتمع إنما يعود غالباً إلى شرب الخمر ولعب القمار اللذين يصدان المسلمين عن طاعة الله ورسوله ـ بينما لا تسبب الأنصاب والأزلام مثل هذه المفاسد ـ فاقتضت الضرورة إعادة التأكيد على تحريمهما.

من الآثار الهدامة لتناول الخمر

يروىٰ عن الإمام علي عليه السلام أنه قال:

«إن الله لا يجمع الإيمانَ والخمر في جوف امرئٍ أبداً».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«شارب الخمر كعابد الوثن».

وقال صلى الله عليه وآله أيضاً:

«لعن الله الخمر وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها ومعتصرها، وحاملها والمحمولة إليه، وآكل ثمنها».

إحصائيات حول شرب الخمر

١ـ تدل معطيات إحصائية صدرت في بريطانيا بشأن الجنون الكحولي ومقارنته بمختلف ضروب الجنون علىٰ أنه في مقابل (٢٢٤٩) مجنوناً بسبب الإدمان على الخمر هناك (٥٣) شخصاً أصيب بالجنون لأسباب مختلفة أخرى[١].

٢ـ أثبت إحصاء آخر أجري في أميركا أن ٨٥٪ من المصابين بالأمراض النفسية هم من المدمنين على الخمر.

٣ـ في فرنسا يذهب كل يوم (٤٤٠) شخصاً ضحية للخمور[٢].

٤ـ جاء في إحصاء أجراه العالم «هوجو» نشره في مجلة (العلوم) بمناسبة الذكرى العشرين لتأسيسها، بأن ٦٠٪ من حالات القتل المتعمد و ٧٥٪ من قضايا الضرب والجرح و ٣٠٪ من الجرائم الخلقية (مثل الزنا بالمحارم) و ٢٠٪ من جرائم السرقة، سببها تعاطي المشروبات الروحية وعن هذا العالم أيضاً أن ٣٠٪ من الأطفال الجانحين ورثوا آثار الكحول من أبويهم.

ب ـ تحريم الخمر في السنة والأحاديث الشريفة:

تطالعنا السنة والروايات بأحاديث كثيرة في هذا الخصوص، ومنها:

١ ـ جاء في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن الله عز وجل حرم الخمر بعينيها فقليلها وكثيرها حرام كما حرم الميتة والدم ولحم الخنزير، وحرّم رسول الله صلى الله عليه وآله الشراب من كل مسكر، وما حرّم رسول الله صلى الله عليه وآله فقد حرّمه عز وجل»[٣].

١ـ كتاب ندوة الكحول.

٢ـ الآفات الاجتماعية في قرننا، ص ٢٠٥.

٣ـ الكليني، الفروع من الكافي، المجلد ٦، كتاب الأشربة، ص ٤٠٨، ح ٢.

٢ـ يروي كليب الأسدي أنه سأل الإمام الصادق عليه السلام عن النبيذ، فقال: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله خطب الناس فقال في خطبته: أيها الناس، ألا إن كُلَّ مسكر حرام، ألا وما أسكر كثيره فقليله حرام»[١].

٣ـ جاء في الخصال عن الإمام الباقر عليه السلام: «لعن رسول الله صلى الله عليه وآله في الخمر عشرة: غرسها، وحارسها، وعاصرها، وشاربها، وساقيها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، وآكل ثمنها»[٢].

ج ـ الإجماع في تحريم الخمر:

تتفق آراء جميع صحابة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وعلماء الدين والحكماء والعقلاء، المتقدمين منهم والمتأخرين، من كافة الملل والنحل على أن المسكر عامل فعّال يبث سمومه في الأخلاق فيفسدها وهو عدو لدود ينهش بمخالبه بني المجتمعات الإنسانية قاطبة. بناء علىٰ هذا حرم الإسلام تعاطيها وأوصى أتباعه بالتحرز من مرتكبي هذا العمل الشنيع الذي يهدم ٢٠٪ من حصانة النفوس. وتشير معطيات أحدث الأبحاث المتعمقة والتحقيقات الدقيقة إلى أن المحفز الأساس لارتكاب الزنا هو شرب المسكرات. وهذا ما دفع العالم المعاصر لشحذ الهمم في سبيل صد هذا السم النافذ عن تسخير المجتمع.

د ـ العقل وتحريم الخمر:

يقضي عقل كل واع لبيب بالانتهاء عن الخمر والمسكرات، والعقل هو أسمى رأس مال منح الإنسان ليأخذ بيده حتى ينال سعادة الدنيا والآخرة كما أنه يميزه عن الحيوان ليرقى الى مرتبة ﴿ولقد كرّمنا بني آدم﴾[٣] الرفيعة، إذ لن

١ـ الكليني، الفروع من الكافي، المجلد ٦، كتاب الأشربة، ص ٤٠٨، ح ٦.

٢ـ الشيخ الصدوق، كتاب الخصال، باب العشرة، ص ٤٤٤، ح ٤١.

٣ـ سورة الإسراء، الآية ٧٠.

تفلق بذرة القابليات البشرية فيه وتصقل نفسه من حلكة الجهل المخزية إلّا بفاعلية العقل، فوميض المعرفة لن ينبثق في مراتع الغفلة الظلماء إلّا بنور العقل، والعالم لن يفلح في العثور علىٰ درب الخير والصلاح إلّا بإرشاد العقل، ولا يتيسر اجتياز مهاوي الفتن والشر إلّا بقوة العقل أو يمكن تنظيم شؤون عالم الوجود إلّا بدراية العقل أو رفع لواء عزة الأوطان وفخرها واعتزازها إلّا في ظل زعامة العقل. إن العقل لخير دليل يحقق لنا السعادة والتقرب من الله بعبادته سبحانه جل جلاله وكل ما يخالف العقل ويشل فاعليته حرمه الإسلام، ويقول الشاعر:

شربت الخمر حتى زل عقلي   كذلك الإثم يفعل بالعقول

ولاستعمال الخمور والمسكرات وهي في واقع الأمر أم الخبائث والشرور، دور هام في الابتلاء بالحوادث المهلكة والإصابة بالحالات المرضية المختلفة، من قبيل: الصداع، الغثيان، البلادة، سوء الهضم وفتور الشهية، وكذلك الأمراض والطوارئ المميتة كالسكتة القلبية، الخناق، والأمراض التي تنال وطرها من الدماغ كالسكتة الدماغية، الصرع، الجنون، الاضطراب، الرعاش، والتشنج وكذلك أمراض وحالات مثل: آلام العين والأذن والأسنان، الإسهال الدموي، تورم الكبد والمرارة، اضطراب خفقان القلب، ضيق التنفس، تشوهات الجنين، الحمى الشديدة، الاستسقاء، حصى المثانة، حرقة البول، ضعف الأعصاب، آلام البطن، عجز الكليتين وأضرار كثيرة أخرىٰ.

ذم شارب الخمر:

١ـ جاء في الكافي «عن الإمام الصادق عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: شارب الخمر إن مرض فلا تعودوه، وإن مات فلا تحضروه، وإن شهد فلا تزكوه، وإن

خَطِب فلا تزوجوه، وإن سألكم أمانة فلا تأتمنوه»[1].

٢ـ عن ربيع الشامي: سئل أبو عبد الله الصادق عليه السلام عن الخمر، فقال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله عز وجل بعثني رحمة للعالمين ولأمحق المعازف والمزامير وأمور الجاهلية والأوثان. وقال: أقسم ربي أن لا يشرب عبد في الدنيا خمراً إلّا سقيته مثل ما شرب منها من الحميم يوم القيامة مُعذباً بَعد أو مغفوراً له»[2].

٣ـ أكد رسول الله صلى الله عليه وآله أن من يشرب جرعة من الشراب يبتليه الله لضعف إيمانه بخمسة أمور هي:

١ـ قساوة القلب.

٢ـ براءة جبرائيل وميكائيل واسرافيل وكافة الملائكة منه.

٣ـ براءة جميع الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام منه.

٤ـ براءة العلي الجبار جل جلاله منه.

٥ـ يؤول مصيره إلى ما أنذر به الله عز وجل من يعصي أوامره بأن مأواه جهنم كلما أراد الخروج منها أُعيد إليها ليذوق عذاب نار كفره[3] (إن لم يتب توبة حقيقية إلى الله في حياته).

جاء في تفسير العياشي أن أبا الصباح لما سأل الإمام الصادق عليه السلام عن النبيذ والخمر وهل أن كليهما حرام، أخبره أن النبيذ ليس كذلك لأنه ليس بمرتبة الخمر وأن الله عز وجل حرم الخمر بعينها فقليلها وكثيرها حرام كما حرم الميتة والدم ولحم الخنزير (قليلها وكثيرها)[4].

١ـ الفروع من الكافي، الكليني، كتاب الأشربة، المجلد ٦، ص ٣٩٧، ح ٧.

٢ـ المصدر السابق، ص ٣٩٦، ح ١.

٣ـ مستدرك الوسائل، المجلد الثالث، كتاب الأطعمة والأشربة، ص ١٣٧ /ح ١٥.

٤ـ تفسير العياشي، السمرقندي، المجلد ٣، ص ١٧٦.

تحريم القمار:

إن القمار يذهب بالأموال كما تذهب الخمر بالعقول، وزوال العقل والمال يؤدي إلى انتشار العداوة والبغضاء ويخل بنظام العالم بأسره، وهذا ما جعل الله سبحانه وتعالى يحرّم هذين الشرين بحكمته البليغة وبعلمه السديد بما تقتضيه المصلحة التامة. والميسر هو كما يدل عليه الحديث «كل ما قومر به فهو ميسر» يشمل تحريمه اللعب بكافة وسائل القمار، التعامل بها، صناعتها ومقاضاة الأجر على صناعتها بمختلف أنواعها: النرد، الشطرنج، الدومنا، أوراق اللعب وكل ما يقامر به ويراد منه الربح مثل المسابقات والالعاب البسيطة التي تكون مادتها الحصىٰ أو الطيور أو...، والأحاديث الواردة بشأن ذم القمار كثيرة عديدة، ومنها:

١ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«ومن لعب بالنَّرد فقد عصى الله»[١].

٢ـ وفي رواية أخرى قال صلى الله عليه وآله:

«ملعون من لعب بالأستريق، يعني الشطرنج، الناظر إليه كآكل لحم الخنزير»[٢].

٣ـ وقال صلى الله عليه وآله:

«النرد والشطرنج كلاهما ميسر»[٣].

٤ـ قال الصادق عليه السلام:

«إن اللاعب بالشطرنج مشرك والسلام على اللاهي به معصية»[٤].

ويذكر الشاه عبد العظيمي في تفسيره أن مجالسة من يلعب القمار أو يتعاطى

١ـ الفروع من الكافي، الكليني، كتاب الأشربة، المجلد ٦، ص ٣٩٦، ح ١.

٢ـ جامع الأخبار، السبزواري، فصل ١١٤.

٣ـ المصدر السابق.

٤ـ مستدرك الوسائل، المجلد ٢، كتاب التجارة، ص ٤٥٩، باب ٨٣، ح ٤.

الخمر أو يرتكب سائر المعاصي حرام[1].

القمار أعتى عوامل الفساد

في إحصائية أجريت حول الجرائم الناجمة عن لعب القمار نجد وللأسف الشديد بأن: ٩٠٪ من جرائم السرقة و ٥٠٪ من الجرائم الجنسية و ١٠٪ من حالات الفساد الخلقي و٣٠٪ من حالات الطلاق و ٤٠٪ من المبادرات التي ينجم عنها الضرب والجرح و ٥٪ من حوادث الانتحار إنما هي بسبب القمار[2].

أنواع القمار وتحريمها

لما نزلت الآية (٩٠) من سورة المائدة، سئل رسول الله ﷺ عن المقصود بالميسر وأي أنواع القمار قد حرمتها هذه الآية فأخبرهم إنها تضم كل ما تتم المقامرة به فتشمل حتى النرد والجوز.

وفي حديث له أكد الإمام الباقر عليه السلام أن تحريم القمار يتضمن النرد والشطرنج كذلك بل حتى الجوز الذي اعتاد الصغار آنئذ أن يلعبوا به.

إذاً القمار محرم بمختلف الوسائل والأدوات المعتمدة في لعبه سواء السابقة الانتشار أو ما سيتم صنعها أو اتخاذها أداة للقمار في المستقبل وتدل مطلق الآيات والروايات على تحريم الاستفادة من وسائل القمار حتى وإن كان ذلك للتسلية دون الربح والخسارة، بل ينطبق الأمر على النظر بقصد لعب القمار إذ يقول نبي الله ﷺ: «الناظر إليه كآكل لحم الخنزير» وفي خبر آخر «الناظر إليه كالناظر إلى فرج أمه».

إن هنالك أخباراً متنوعة وكثيرة لا حصر لها في باب تحريم الخمر

---

١ ـ راجع تفسير الشاه عبد العظيمي، المجلد ٣، ص ١٦٩ ـ ١٧٦.

٢ ـ ندوة الكحول، ص ٦٦.

والميسر وللراغب في الاطلاع عليها مراجعة كتب الحديث لدى كل من الشيعة والسنة.

وفي ختام الفصل الأول نلفت انتباه القراء الكرام إلى روايتين تتضمنان إرشادات تعليمية هامة حول هذا الموضوع:

١ ـ زار سويد بن غفلة يوماً الإمام علياً عليه السلام عند الغداء وكان الوقت قد تجاوز الظهر فرأى الإمام عليه السلام يجلس إلى السفرة وكما يقول: «في يده رغيفٌ أرى قشار الشعير في وجهه». ذهب سويد إلى خادمته وقال لها:

يا فضة ألا تتقين الله في هذا الشيخ؟ ألا تنخلون له طعاماً مما أرى ما فيه من النخالة؟

قالت: لقد تقدّم إلينا أن لا ننخل له طعاماً.

عاد سويد إلى الإمام عليه السلام وقص عليه ما جرى بينه وبين فضة فأنبأه أنه قد أخذ ذلك عن النبي الكريم صلى الله عليه وآله وهو يقول:

«بأبي وأمي من لم يُنخل له طعام».

٢ ـ قال الإمام الصادق عليه السلام متحدثاً عن النبي سليمان عليه السلام:

«ويأكل هو الشعير غير منخول»[١].

تجنب الطعام المضر

النص رقم(٣٤):

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «ما لي أرى الناس إذا قرب إليهم الطعام ليلاً تكلفوا إنارة المصابيح... ولا يهتمون بغذاء النفس بأن ينيروا مصابيح ألبابهم بالعلم ليسلموا من لواحق الجهالة والذنوب في اعتقاداتهم وأعمالهم»[٢].

---

١ ـ راجع كتاب «حديث تربيت كودک» (حديث تربية الطفل)، المجلد الأول، ص ٥٧.

٢ ـ شرح نهج البلاغة، المجلد ٢٠، ص ٢٦١.

الفصل الثاني

الإنفاق من السحت

يتضمن هذا الفصل (٢٢) نصاً وعدة حكايات قرآنية وتاريخية وأخلاقية

عند الإنفاق ينبغي على المسلم أن يتمثل بـالبستاني والفـلاح، إنهـما عـند إقدامهما على زراعة منتوج ما يثابران على استخدام البذور والحبوب السليمة التي يكون من شأنها أن تدر عليهم بمنتوج فائق الجودة، إذن لابد للمسلم أن يسعىٰ للإنفاق من حلال ماله وأطيبه، فالإنفاق من الحرام كـزراعـة البـذور الخاوية التي لن تنتج ثمرة طيبة قط. إلّا أن الإنفاق من مال حرام يأتي عـلى المرء بحد ذاته بعقابين: أولهما جزاء له على كسب الحرام والثاني لتصرفه بالمال بما لا يجوز له.

ينبه الله عز وجل في القرآن الكريم إلى هذه القضية فيما يخص الإنفاق بقوله الصريح:

﴿أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾[1].

وسيأتيكم لاحقاً في هذا الفصل بحثنا حول هذه الآية بينما نقرأ معكم هـنا بعض الروايات والحكايات حول الإنفاق من المال الحرام.

النص رقم (١)

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام بهذا الشأن في «رسالة الحقوق»:

«وأما حق المال فأن لا تأخذه إلّا من حلّه، ولا تنفقه إلّا في حله، ولا تحرفه عن مواضعه، ولا تصرفه عن حقائقه، ولا تجعله إذا كان من الله إلّا إليه وسبباً الى الله. ولا تؤثر به على نفسك من لعله لا يحمدك (ويقصد من لا يشعر بالامتنان

---

١ ـ سورة البقرة، الآية ٢٦٧.

لفضلك فيه أي الورثة) وبالحري أن لا يحسن خلافتك في تركتك ولا يعمل فيه بطاعة ربك فتكون معيناً له على ذلك، وبما أحدث في مالك أحسن نظراً لنفسه فيعمل بطاعة ربه فيذهب بالغنيمة، وتبوء بالإثم والحسرة والندامة مع التَّبِعة ولا قوة إلّا بالله»[1].

النص رقم(٢)

قال الكاظم عليه السلام:

«إن الحرام لا ينمىٰ، وإن نمىٰ لم يبارك فيه، وإن أنفقه لم يؤجر عليه، وما خلفه كان زاده إلى النار»[2].

الحكاية الأولىٰ: «الإمام الصادق والإنفاق من مال السرقة»

كان الإمام الصادق عليه السلام قد سمع غثاء الناس تعظم رجلاً وتكبر شأنه فأراد لقاءه من حيث لا يعرفه، فرآه قد أحدق به خلق كثير من غثاء العامة، فما زال يراوغهم حتى فارقهم فتبعه.

لم يلبث الرجل أن مر بخباز فتغفله فأخذ من دكانه رغيفين مسارقة فتعجب الصادق عليه السلام منه، ثم قال في نفسه: لعله معاملة (يقصد الشراء). ثم مر بعده بصاحب رمان فما زال به حتىٰ تغفله فأخذ من عنده رمانتين مسارقة فتعجب منه ثم قال في نفسه: لعله معاملة، لكنه عجب من أمره وقال: وما حاجته إذن إلى المسارقة؟!

ثم لم يزل يتبعه حتى مر بمريض فوضع الرغيفين والرمانتين بين يديه..

---

١ ـ تحف العقول، ابن شعبة، رسالة الحقوق، الحق ٣٤.

٢ ـ جامع السعادات، النراقي، ج ٢، ص ١٢٨.

تقدم إليه الإمام الصادق عليه السلام وسأله عن فعله، فقال له: لعلك جعفر بن محمد؟

قال عليه السلام: بلى.

فقال له: فما ينفعك شرف أصلك مع جهلك؟!!

فقال عليه السلام: وما الذي جهلت منه؟.

قال الرجل: قول الله عز وجل ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزىٰ إلّا مثلها﴾[1] وإني لما سرقت الرغيفين كانت سيئتين ولما سرقت الرمانتين كانت سيئتين فهذه أربع سيئات، فلما تصدقت بكل واحدة منها كان لي أربعون حسنة فانتقص من أربعين حسنة أربع حسنات وبقي لي ست وثلاثون حسنة.

أجابه عليه السلام: ثكلتك أملك، أنت الجاهل بكتاب الله، أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾[2]. إنك لما سرقت رغيفين كانت سيئتين ولما سرقت رمانتين كانت أيضاً سيئتين، ولما دفعتهما إلى غير صاحبهما بغير أمر صاحبهما كنت إنما أنت أضفت أربع سيئات إلى أربع سيئات ولم تضف أربعين حسنة إلى أربع سيئات.

جعل الرجل يلاحظ الإمام وهو ينصرف عنه ويتركه على هذه الحالة (مندهشاً مبهوتاً)[3] فقد أفحمه قول أبي عبد الله عليه السلام فيما بدر منه إثر اتباعه هواه وإعجابه برأيه.

١ـ سورة الأنعام، الآية ١٦٠.

٢ـ سورة المائدة، الآية ٢٧.

٣ـ وسائل الشيعة، المجلد ٩، الباب ٤٦: استحباب الصدقة بأطيب المال وأحله، ص ٤٧٦، ح ١٢٥١٣، بتصرف.

لقد آلى الإمام عليه السلام على نفسه أن يسرد هذه الحكاية على أصحابه لينبههم بأن مثل هذه التفاسير والتآويل الجاهلة والمستقبحة في الشؤون الدينية تـلقي بالبعض في هاوية الضلال وهم يجرّون غيرهم نحوها.

النص رقم(٣)

الإنفاق من بيت المال

جاء في كتاب بعثه الإمام علي عليه السلام إلى مَصقَلة بن هُبيرة الشيباني[١] وهو عامله على «اردشير خُرَّة»[٢] يذمه فيه لإجحافه حقوق المسلمين عند تقسيم الغنائم:

«.. بلغني عنك أمرٌ إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك، وأغضبت إمامك. إنك تقسم فيء المسلمين الذي حازته رِماحهم وخيولهم، وأريقت عليه دماؤهم، فيمن اعتامك من أعراب قومك. فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لئن كان ذلك حقاً لتَجدن لك عليّ هواناً، ولتخفن عنـدي ميزاناً. فلا تستهن بحق ربك، ولا تصلـح دنياك بمحق دينك، فتكون مـن الأخسرين أعمالاً.

ألا وإن حق من قِبلك وقِبلنا من المسلمين في قسمة هذا الفيء قسمة سواء يردون عندي عليه، ويصدرون عنه»[٣].

بيان: يقصد عليه السلام بالعبارة الأخيرة: «يردون عندي..» أي كأنهم يردون على ينبوع لينهلوا من مائه فيمنحهم على السواء دون امتياز لأحد على أحد، وهو

١ـ يطلق عليه العرفاء «الزنديق» لتظاهره بالإيمان واستبطانه الكفر، وحكايته مع مَعقَل بن قيس أحد الأوفياء من أصحاب الإمام علي (ع) معروفة.

٢ـ اسم مدينة في بلاد فارس (فيروز آباد).

٣ـ نهج البلاغة، الكتاب ٤٣.

لا يأبه من المنتهل من مائه ثم يصدرون عنه. والمـراد هـنا بـقوله عليه السلام أن لا يخص أقاربه ومعارفه بالأموال.

الحكاية الثانية: «علي (ع) لا يرضى الإنفاق من بيت المال»

قدم عقيل على الإمام علي عليه السلام في عهد خلافته فـقال الإمـام عليه السلام لولده الحسن: أكسُ عمك فكساه قميصاً من قمصه ورداء من أرديـته، فـلما حـضر العشاء وكان عقيل قد توقعه فاخراً وهو بضيافة خليفة المسلمين الوليّ عـلى بيت مالهم فإذا هو خبز وملح.

قال عقيل: ليس إلا ما أرىٰ؟!

قال عليه السلام: أوليس هذا نعمة الله وله الحمد كثيراً.

قال: أعطني ما أقضي به ديني وعجل سراحي حتىٰ أرحل عنك.

قال: فكم دينك يا أبا يزيد؟

قال: مائة ألف درهم.

قـــــال: لا والله ما هي عندي ولا أملكها ولكن اصبر حتى يخرج عطائي فأواسيكه ولولا أنه لابد للعيال من شيء لأعطيتك كله.

قال عقيل: بيت المال في يدك وأنت تسوفني إلى عطائك، وكم عطاؤك وما عساه يكون ولو أعطيتنيه كله؟

قال عليه السلام: ما أنا وأنت فيه إلّا بمنزلة رجل من المسلمين.

(كانا يتكلمان فوق قصر الإمارة مشرفين على صناديق أهل السوق وطال النقاش بينهما والإمام عليه السلام يؤكد أن لأخيه حقاً بأن يعينه على أمره من ماله الشخصي لا من مال المسلمين بينما يصر عقيل بأسلوب وبآخر على أن يتقاضىٰ

من بيت المـال ما يكفيه لقضاء دينه قبل انصرافه) حتى قال له علي عليه السلام: إن أبيت يا أبا يزيد فانزل إلى بعض هذه الصناديق فاكسر أقفاله وخذ ما فيه.

قال: وما في هذه الصناديق؟

قال عليه السلام: فيها أموال التجار.

قال: أتأمرني أن أكسر صناديق قوم توكلوا على الله وجعلوا فيها أموالهم.

قال أمير المؤمنين: أتأمرني أن أفتح بيت مال المسلمين فأعطيك أموالهم وقد توكلوا على الله وأقفلوا عليها؟.. ثم قال: إن شئت أخذت سيفك وأخذت سيفي وخرجنا إلى الحيرة فإن بها تجاراً مياسير فدخلنا على بعضهم فأخذنا ماله.

قال عقيل: أوَسارقاً جئت؟!

قال عليه السلام: تسرق من واحد خير من أن تسرق من المسلمين جميعاً.

قال: أفتأذن لي أن أخرج إلى معاوية؟

قال له: قد أذنت لك.

قال: فأعني على سفري هذا.

قال عليه السلام: يا حسن أعط عمك أربعمائة درهم[١].

الحكاية الثالثة: «الإنفاق من الحرام جذوة نار تلقى على الآخرين»

يروىٰ أن قنبراً غلام الإمام علي عليه السلام، جاء الإمام يوماً وهـو جـالس في مسجد الكوفة يحمل له عدة أردية صنعت من الذهب والفضة وهو يخبره أنه

١ـ بحار الأنوار، المجلسي، المجلد ٤١، ص ١١٣ـ ١١٤.

احتفظ بها لمولاه لمّا رآه يهب كل ما يصل إليه.

اشهر علي عليه السلام سيفه وهو يسأل قنبراً إن كان قد نوىٰ إلقاء جذوة من نار في داره! ثم وضعها تحت سيفه وقطعها إرباً إرباً حتى صارت إلى عدة وثلاثين قطعة.. بعد ذلك أمر أن يؤتىٰ بمن يقيمها ويقسمها عندئذ إلى حصص متكافئة. ولم يتم تقسيم القطع إلّا بعد تعيين اختلافها في الوزن والثمن لئلا يُبخس أحد حقه[1].

الحكاية الرابعة: «اجتمعت القطرات فصارت سيلاً»

يروىٰ أن بائعاً للبن كان يمزج لبنه بالماء ثم يبيعه للناس. في يوم من الأيام داهم السيل تلك المنطقة وجرف قطيع خرافه مع المياه، أخذ البائع يبكي خرافه وهو يقول: «إجتمعت تلك القطرات فصارت سيلاً»[2].

النص رقم(٤)

قالَ النبي صلى الله عليه وآله:

«إن الله تعالى طيبٌ لا يقبل إلّا الطيب، وأن يكون من أكرم ما يملكه»[3].

النص رقم(٥)

وقال صلى الله عليه وآله:

«لا تزول قدمُ عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل عن اربعٍ:

١ـ دروس من التاريخ، ص ١٤٤، بتصرف.

٢ـ منتخب قواميس الدرر، ص ٣٥.

٣ـ مجمع البيان، الطبرسي، الجلد ٩، سورة الحديد، ذيل الآية ٥٧.

عن عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفي ما انفقه وعن حبنا أهل البيت»[١].

الحكاية الخامسة: «رعاية المبادئ الأخلاقية في حفظ بيت المال»

كان يهود بني قريظة يستغلون جميع الفرص المواتية لتوجيه ضرباتهم إلى الرسول ﷺ والحكومة الإسلامية، وفي السنة الخامسة للهجرة قاموا بمد يد العون خفية للمشركين إبان غزوة الخندق بينهم وبين المسلمين.. ولما انتصر المسلمون في هذه الغزوة ولىٰ هؤلاء اليهود كالأفاعي الجريحة نحو أوكارهم (قلاعهم) التي حوصرت لخمسة وعشرين يوماً بأمر من النبي ﷺ، وأخيراً تم إعدامهم جميعاً بحكم أصدره في حقهم جريح الغزوة «سعد بن معاذ»[٢].

وما يلفت الانتباه في هذا الحدث، أنه في نهاية هذه الغزوة وقعت غنائم وفيرة بيد المسلمين وكانت أزواج النبي ﷺ يعانين شظف العيش، فسألنه من عرض الدنيا وطلبن منه زيادة في النفقة، وتشير الأدلة أن حفصة (إبنة عمر بن الخطاب) كانت أكثر الأزواج إلحاحاً في الطلب.

رفض رسول الله ﷺ طلبهن لضرورة رعاية الإنصاف والعدالة في تقسيم بيت مال المسلمين ولأنه مسؤول عن الإسلام والمسلمين ولابد أن يحيا حياة بسيطة لئلا يشعر الفقراء والمعدمون بالحطة ولكن أزواج الرسول ﷺ مافتئن يطلبن الزيادة في النفقة فآلىٰ رسول الله ﷺ منهن شهراً فقال ﷺ لحفصة: «هل لك أن أجعل بيني وبينك رجلاً»، قالت: «نعم». فأرسل إلى عمر، فلما دخل عليهما، سرد النبي ﷺ عليه ما جرىٰ وطلب منه التحكيم في القضية.

لما سمع عمر ذلك استشاط غضباً فصفع حفصة، أثار سلوك عمر اعتراض

---

١ ـ كتاب الخصال، الشيخ الصدوق، المجلد الأول، ص ٢٥٣.

٢ ـ جاءت تفاصيل مجريات هذا الحدث في كتاب «اعلام الورى» للطبرسي، ص ١٠٢ وفي تفسير الميزان، المجلد الأول.

رسول الله ﷺ الذي ترك المجلس إعلاناً عن مخالفته[1].

تذكر بعض المؤلفات أن الرسول ﷺ اعتزل نساءه شهراً حتى نزلت الآيات التالية:

﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتنّ تردن الحياةَ الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكنَّ واسرحكنَّ سراحاً جميلاً. وإن كنتنَّ تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكنَّ اجراً عظيماً. يا نساء النبي من يأتِ منكنَّ بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين، وكان ذلك على الله يسيراً. ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾[2].

هكذا كان رسول الله ﷺ يركن إلى رعاية الأمانة بل الحيطة في الحفاظ على بيت المال فرضي لنفسه أن يعتزل نساءه شهراً كي يؤنّبهن، إلّا أنه لما رأى جنوح عمر إلى العنف إزداد غضباً لتجاهل الآداب الخلقية من قبل عمر الذي صفع حفصة على ذاك النحو مع أنها ابنته.

الحكاية السادسة: «علي بن أبي رافع والعقد»

التصرف بمال الغير خيانة

يروىٰ عن علي بن أبي رافع ـ مسؤول بيت مال المسلمين في عهد خلافة الإمام علي عليه السلام ـ أنه كانت هنالك بين الأموال التي احتواها بيت المال عقد من اللؤلؤ جيء به من البصرة. ذات مرة بعثت إليه زينب بنت أمير المؤمنين عليهما السلام بمن يستعير لها العقد عدة أيام لتتزين به يوم عيد الأضحىٰ فأجابها علي بن أبي رافع أنه يعيرها إياه عارية مضمونة (يعوض المستعير الضرر في حالة تعرض المستعار للتلف)، فاستعارت عليها السلام العقد لثلاثة أيام متقبلة هذا الشرط.

وقعت عينا الإمام علي عليه السلام على العقد في نحر ابنته، فسألها من أين أتت به،

١ـ تفسير «مجمع البيان»، الطبرسي، المجلد ٤، ص ٣٥٣.

٢ـ سورة الأحزاب، الآيات (٢٨ـ ٣١).

فأجابت أنها استعارته عارية مضمونة لثلاثة أيام من علي بن أبي رافع لتتزين به في العيد على أن تعيده له بعد ذلك.

إستدعى الإمام علي عليه السلام علي بن أبي رافع وسأله إن كان يخون المسلمين في بيت مالهم، فأجابه بأنه يستعيذ بالله من أن يقدم على الخيانة، فسأله عليه السلام، إذن كيف أعار العقد لابنته. أجاب رافع بأن ابنته طلبته عارية لتتزين به يوم العيد فأعاره لها عارية مضمونة لثلاثة أيام وأنه يتحمل مسؤولية إعادته، إلّا أن الإمام عليه السلام أمره بإعادته إلى محله في ذات اليوم منذراً إياه أنه سيعاقبه شر عقاب لو بدر منه مثل هذه البادرة ثانية، وأنه كان سيقطع يد ابنته كما تقطع أيادي اللصوص باعتبارها أول امرأة بادرت للسرقة من بين نساء بني هاشم لو كانت استعارت العقد عارية غير مضمونة.

تناهىٰ نبأ ما جرىٰ إلى مسامع زينب عليها السلام فسألته ألا يحق لها وهي ابنته أن تستفيد عدة أيام من ذلك العقد. أجابها عليه السلام ناصحاً لها بأن الإنسان يجب أن يتجنب الخروج عن صراط الحق بفعل هوى النفس وتمني القلب.

ثم أنه عليه السلام أردف يتساءل وهل أن نساء المهاجرين وهن يكافئنها قد تزيّنّ بمثل هذا العقد لتطلب هي التزين به لئلا يتدنىٰ شأنها دون شأنهن[1].

النص رقم(٦)

عن النبي صلى الله عليه وآله:

«من كسب مالاً من حرام فاعتق منه كان ذلك عليه إصراً»[2].

بيان: كان إصراً أي أنه أضاف على إثمه بكسب الحرام إثماً هو التصرف اللامشروع بأموال الغير والامتناع عن ردها لأصحابها.

١ـ نقلاً عن كتاب «پند تاريخ» (عبرة التاريخ)، خسروي، المجلد الأول، ص ١٣٧.

٢ـ لآلئ الأخبار، المرحوم الشيخ محمد نبي التوسيركاني.

النص رقم(٧)

من كلام للإمام علي عليه السلام:

«والله لأن أبيت علىٰ حسك السعدان مسهداً، وأجرّ في الأغلال مُصفداً، أحب إليَّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام، وكيف أظلم أحداً لنفسٍ يُسرع إلى البلىٰ قفولها، ويطول في الثرى حلولها.

والله لقد رأيت عقيلاً، وقد أملق حتى استماحني من بركم صاعاً، ورأيت صبيانه شُعث الشعور، غبر الألوان من فقرهم، كأنما سوّدت وجوههم بالعظلم[١]، وعاودني مؤكداً وكرّر علي القول مُردداً، فأصغيت إليه سمعي فظن أني أبيعه ديني وأتبع قياده مفارقاً طريقي، فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها فضج ضجيج ذي دنف من ألمها. وكاد أن يحترق من ميسمها. فقلت له: ثكلتك الثواكل، يا عقيل، أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه، وتجرّني إلى نار سجرها جبارها لغضبه. أتئن من الأذى ولا أئن من اللظىٰ. وأعجب من ذلك طارقٌ طرقنا بملفوفة في وعائها ومعجونة شنئتها كأنما عُجنت بِريقِ حية أو قيئها: أصلة أم زكاة أم صدقة، فذلك محرم علينا أهل البيت. فقال: لا ذا ولا ذاك، ولكنها هدية، فقلت: هبلتك الهُبول، أعن دين الله أتيتني لتخدعني، أمختبط أنت أم ذو جنة أم تهجر. والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها علىٰ أن أعصي الله في نملة أسلبها جُلبَ شعيرة ما فعلتُه، وإن دنياكم عندي لأهون من ورقةٍ في فم جرادة تقضمها، ما لعلي ولنعيم يفنىٰ، ولذةٍ لا تبقىٰ، نعوذ بالله من سبات العقل، وقُبح الزلل، وبه نستعين»[٢].

١ـ العظلم: الوسمة: نبات عشبي من الصليبيات يُصبغ به.

٢ـ نهج البلاغة، الكلام ٢١٥.

النص رقم (٨)

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«إن أعظم الحسرات يوم القيامة حسرة رجل كسب مالاً في غير طاعة الله فورثه رجل فأنفقه في طاعة الله سبحانه، فدخل به الجنة ودخل الأول به النار»[١].

النص رقم (٩)

وقال عليه السلام:

«إن أخسر الناس صفقة وأخيبهم سعياً رجل أخلَق بدنه في طلب ماله ولم تساعده المقادير على إرادته، فخرج من الدنيا بحسرته، وقدِم على الآخرة بتبعته»[٢].

النص رقم (١٠)

عن سُماعة قال:

«سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل أصاب مالاً من عمل بني أمية وهو يتصدق منه ويصل منه قرابته ويحج ليغفر له ما اكتسب وهو يقول: إن الحسنات يُذهبن السيئات، فقال أبو عبد الله: إن الخطيئة لا تُكفّر الخطيئة ولكن الحسنة تحطُّ الخطيئة»[٣].

النص رقم (١١)

عن محمد بن يحيى قال:

---

١ ـ نهج البلاغة، قصار الحكم، الحكمة ٤٢٩.

٢ ـ نهج البلاغة، قصار الحكم، الحكمة ٤٣٠.

٣ ـ الفروع من الكافي، الكليني، المجلد ٥، ص ١٢٦، ح ٩؛ تهذيب الأحكام، الطوسي، المجلد ٦، ص ٣٩٦، ح ١٨٩؛ بحار الأنوار، المجلد ٩٣، ص ٢٣٦، ح ٣٤.

كتب محمد بن الحسن إلى أبي محمد المجتبى عليه السلام: رجل اشترى من رجل ضيعة أو خادماً بمال أخذه من قطع الطريق أو من سرقة هل يحل له ما يدخل عليه من ثمرة هذه الضيعة أو يحل له أن يطأ هذا الفرج الذي اشتراه من السرقة أو من قطع الطريق؟ فوقّع عليه السلام: لا خير في شيء أصله حرام ولا يحلّ استعماله.

وتوضيح قوله: «من ثمرة هذه الضيعة»؛ الضيعة العقار والمراد به هنا البستان[1].

النص رقم(١٢)

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «إذا اكتسب الرجل مالاً من غير حله ثم حجّ فلبّى نودي: لا لبيك ولا سعديك وإن كان من حله فلبّى نودي: لبيك وسعديك»[2].

النص رقم(١٣)

قال الصادق عليه السلام:

«كسب الحرام يبين في الذرية».

توضيح: كأن المراد أن كسب الحرام يظهر أثره في ذريته وأولاده بأن يصيروا بعده فقراء أذلاء بين الناس كما شاهدنا ذلك كثيراً، ويحتمل أن يكون المراد صيرورتهم من الأشقياء والأشرار والفجار ويحتمل أن يكون المراد كليهما[3].

النص رقم(١٤)

عن الصادق عليه السلام قال:

---

١ ـ الفروع من الكافي، المجلد ٥، ص ١٢٥، ح ٨؛ تهذيب الأحكام، المجلد ٧، ص ١٣٨، ح ٨٥.

٢ ـ الفروع من الكافي، المجلد ٥، ص ١٢٦، ح ٣؛ تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ٣٦٨، ح ١٨٥.

٣ ـ فروع الكافي، المجلد ٥، ص ١٢٦، ح ٤.

«قال رسول الله ﷺ: إنّ أخوف ما أخاف علىٰ أمتي من بعدي هذه المكاسب الحرام والشهوة الخفية والربا».

بيان: لعل المراد بالشهوة الخفية الأعمال الحسنة التي يؤتىٰ بها لإرضاء الشهوات الحيوانية كأكثر الأعمال الدينية التي يأتي بها أبناء زماننا لأجل الأغراض النفسانية كحضور الجماعات لكسب الجاه عند إمام الجماعة والاستفادة من مقامه أو أمواله، مع أنَّ هذا الإمام إذا حرمه يوماً من نواله يغتابه وينسب إليه كل عيب، أو حضور الجماعة لأجل المعروفية بالتقدس عند الناس، وكبناء المساجد والقناطر، والإنفاقات والإطعامات وترتيب مجالس العزاء لأبي عبد الله الحسين روحي وأرواح العالمين له الفداء لأجل التظاهر وذكر الاسم والصيت بين الناس أو للرياء والسمعة وهذه كلها من الشهوة الخفية، ومع ذلك يتوقع الثواب من الله عز وجل ويحسب أنه يحسن صنعاً، وهكذا الحال في أكثر العبادات الصادرة من أبناء هذا الزمان كالحج وزيارات قبور الأئمة عليهم السلام وكذا التظاهر بالدين والفضيلة وكذا الصعود على المنابر وإيراد الخطب بالألفاظ البديعة المليحة، فإن الإتيان بأكثرها في هذا الزمان لا يكون إلّا للشهوة الخفية كحب المال والاشتهار والجاه والمحبوبية عند الناس لا لله تعالى»[1].

النص رقم(١٥)

في التهذيب بإسناده عن ابراهيم بن أبي البلاد قال: أوصى اسحاق بن عمر عند وفاته بجوارٍ له مغنيات أن يبعن ويحمل ثمنهن إلى أبي الحسن عليه السلام، قال إبراهيم: **فبعت الجواري بثلاثمائة ألف درهم وحملت الثمن إليه فقلت له: أنَّ مولىً لك يقال له إسحاق بن عمر أوصىٰ عند وفاته ببيع جَوارٍ له مغنيات وحمل الثمن إليك وقد بعتهن وهذا الثمن ثلاثمائة ألف درهم.**

١ـ فروع الكافي، المجلد ٥، ص ١٢٤، ح ١؛ بحار الأنوار، المجلد ١٠٠، ص ٥٤، ح ٢٦.

فقال: لا حاجة لي فيه. إن هذا سحت وتعليمهن كفرٌ والاستماع منهن نفاق وثمنهن سحت.

أقول: يستفاد من بعض الروايات المتقدمة أن السعي في طلب الرزق لا يؤثر في ازدياده مع أنا نرى بالعيان أن من يسعىٰ سعياً كثيراً في طلب المال بأن يحصّله من الطرق المحرمة كالربا والرشا وأخذ أموال الناس ظلماً وغير ذلك يزيد أمواله يوماً فيوماً إلى أن ينتهي أمرُه أن يصير من أعظم أغنياء العالم، فما معنىٰ تلك الروايات؟ ولكن يمكن دفع هذا الاعتراض بأن المراد من تلك الروايات على الظاهر الرزق الذي يأكله ويصرفه في كل ما يحتاج إليه في حياته من مسكنه وملابسه وغير ذلك لا مطلق ما يكون في تصرفه وإن لم يستفد منه طوال حياته فإنه ليس معدوداً من رزقه بل هو بمنزلة الأمانة في يده إلى انقضاء أجله، ففي الواقع أنه يجمع رزق الناس عنده وهو يزعم أنه رزقه. والله العالم[1].

إذن يستلزم عند الإنفاق في سبيل الله أن يتم الإنفاق كشرط أول من أطيب الأموال وأحلها لأن الله لا يتقبل الخبيث من المال، فكيف بحرامه؟!! وليعلم من يبخس الناس مكيالهم ثم ينفق من ربح معاملاته في سبيل الله إن الله لا يتقبل منه صدقته لأنه قال بصريح تعبيره:

﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾[2].

إن الإنفاق من المكسب الحرام يزيد من وزر الإنسان إذ قال رسول الله ﷺ كما مر بنا: «من كسب مالاً من حرام فاعتق منه كان ذلك عليه إصراً» لأنه إلى جانب تعرضه للحساب بسبب كسب الحرام وبخس الحقوق سيتحمل وزر

---

١ ـ تهذيب الأحكام، المجلد ٦، ص ٣٧٥، ح ١٤٢؛ من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، المجلد ٣، ص ٦١، ح ٤.

٢ ـ سورة المائدة، الآية ٢٧.

تصرفه اللامشروع في مال الغير.

الحكاية السابعة: «إطعام الفقراء من المكسب الحرام»

«أنبئ الإمام علي عليه السلام أن معاوية (عليه الهاوية) منهمك ببناء مسجد في الشام فبعث اليه بأبيات من الشعر يحمد الله في مستهلها ويؤكد من بعد على أنه (معاوية) ليس مؤهلاً لفعل الخير كبناء المساجد ثم يشبهه فيها بزانية يعمل مطبخها لإطعام الفقراء، قائلاً:

سمعتك تبني مسجداً من جباية وأنت بحمد الله غير موفق

كمطعمة رمان مهما زنت به جرت مثلاً للخائن المتصدق

فقال لها أهل البصيرة والتقىٰ لك الويل لا تزني ولا تتصدقي

كان الإمام عليه السلام يقصد بذلك أن يخبر معاوية بأن الأولى له أن لا يغتصب مسند الخلافة الالهية دون حق منه ثم يشرع ببناء المسجد مما صار إليه من مال وكان حقاً عليه أن لا يظهر الإيمان تارة ثم يشهر السيف بوجه علي عليه السلام رمز الإسلام تارة أخرى. حقاً إن جبين التاريخ ليندىٰ خجلاً من جرائم معاوية»[1].

النص رقم(١٦)

عن عوالي اللئالي عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: لعن الله الخمر وشاربها وعاصرها وساقيها وبائعها وآكل ثمنها. فقام إليه إعرابي فقال: يا رسول الله إني كنت رجلاً هذه تجارتي فحصل لي مال من بيع الخمر فهل ينفعني المال إن عملت به طاعة؟. فقال: «لو أنفقته في حج أو جهاد لم يعدل عند الله جناح بعوضة، إن الله لا يقبل إلّا الطيب»[2].

---

١ ـ عن كتاب «گنجينه» (الكنز) لشهيد المحراب عبد الحسين دستغيب، نقلاً عن ديوان أمير المؤمنين (ع).

٢ ـ ثواب الأعمال، الشيخ الصدوق.

النص رقم(١٧)

عن علي بن إبراهيم، عن صالح بن السّندي، عن جعفر بن بشير، عن عيسى الفراء، عن أبان بن عثمان، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: «أربعة لا يجزن في أربعة: الخيانة والغلول والسرقة والرّبا لا يجزن في حج ولا عمرة ولا جهاد ولا صدقة»[١].

النص رقم(١٨)

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«لا يكتسب العبد مالاً حراماً فيتصدق به فيؤجر عليه، ولا ينفق منه فيبارك الله لـه فيه، ولا يتركه خلف ظهره إلّا كـان راده (زاده) إلى النار»[٢].

النص رقم(١٩)

سئل أمير المؤمنين من أعظم (العظيم) الشقاء. قال: رجل ترك الدنيا للدنيا ففاتته الدنيا وخسر الآخرة. ورجل تعبد واجتهد وصام رياء الناس فذلك الذي حرم لذات الدنيا من دناياه (دنياه) ولحقه التعب الذي لو كان به مخلصاً لاستحق ثوابه فورد الآخرة وهو يظن أنه قد عمل ما يثقل به ميزانه فيجده هباء منثورا. قيل: فمن أعظم الناس حسرة؟ قال: من رأى ماله في ميزان غيره فأدخله الله به النار وأدخل وارثه به الجنة. قيل: فكيف يكون هذا؟ قال: حدثني بعض الإخوان عن رجل دخل إليه وهو بسوق. فقال له: يا فلان، ما تقول في مائة ألف من هذا الصندوق وما أديت منها زكاة قط؟

قال: قلت فعلامَ ما جمعتها؟!

---

١ ـ الفروع من الكافي، الكليني، المجلد ٥، ص ١٢٤، ح ٢؛ من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، المجلد ٣، ص ١٦١، ح ٣٥٩.

٢ ـ عدة الداعي، ابن فهد الحلي، ص ١٠٣.

قال الرجل: لحقوق السلطان ومكاثرة العشيرة ولخوف الفقر علـى العيال ولروعة الزمان.

قال عليه السلام: ثم لم يخرج من عنده حتى فاضت نفسه.. ثم قال علي عليه السلام: **الحمد لله الذي أخرجه منها ملوماً بباطل جمعها ومن حق منعها فأوكاها فقطع المفاوز والقفار ولجج البحار. أيها الواقف، لا تخدع كما خدع صويحبك بالأمس. إن من أشد الناس حسرة يوم القيامة من رأى ماله في ميزان غيره أدخل الله هذا به الجنة وأدخل الله هذا به النار**[1].

النص رقم(٢٠)

قال الصادق عليه السلام:

«... وأعظم من هذا حسرة رجل جمع مالاً عظيماً بكد شديد ومباشرة الأهوال وتعرض الأخطار ثم أفنىٰ ماله بصدقات ومبرات وأفنىٰ شبابه وقوته في عبادات وصلوات وهو مع ذلك لا يرىٰ لعلي بن أبي طالب عليه السلام حقه ولا يعرف له من الإسلام محله ويرىٰ أن من لا بعشره ولا بعشر عشر معشاره أفضل منه يواقف على الحجج فلا يتأملها ويحتج عليه بالآيات والأخبار فيأبىٰ إلّا تمادياً في غيّه، فذاك أعظم من كل حسرة ويأتي يوم القيامة وصدقاته ممثلة له في مثل الأفاعي تنهشه وصلواته وعباداته ممثلة له في مثال الزبانية تدفعه حتى تدعه إلى جهنم دعّاً، يقول يا ويلتاه: ألم أك من المصلين؟! ألم أك من المزكين؟! ألم أك من أموال الناس ونسائهم من المتعففين؟! فلماذا دهيت بما دهيت؟ فيقال له: يا شقي ما ينفعك ما عملت وقد ضيعت أعظم الفروض بعد توحيد الله والإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وآله. وضيعت ما ألزمتك من معرفة حق علي ولي الله عليه السلام والتزمت عليك من الائتمام بعدو الله، فلو كان لك بدل أعمالك هذه عبادة الدهر من أوله إلى آخره وبدل صدقاتك الصدقة بكل أموال الدنيا بل بملء الأرض ذهباً لما ازدادك ذلك

١ـ المصدر السابق، ص ١٠٤.

من الله إلّا بعداً ومن سخطه إلّا قرباً»[1].

النص رقم(٢١)

قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلّا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد﴾[2].

شأن النزول:

روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام بأن هذه الآية نزلت في أقوام لهم أموال من ربا الجاهلية وكانوا يتصدقون منها فنهاهم الله عن ذلك وأمر بالصدقة من الحلال الطيب[3].

وفي تفسير مجمع البيان للعلامة المحقق الطبرسي عن علي عليه السلام أنها نزلت في قوم كانوا يأتون بالحشف[4] فيدخلونه في تمر الصدقة.

لا يتنافىٰ هذان الشأنان فيما بينهما فقد تكون الآية نزلت بشأن كلا الفريقين. وتشير في الصورة الأولى للاهتمام بالنزاهة المعنوية وتطالب في الحالة الثانية بالجودة المالية.

إلّا أنه ينبغي أن لا ننسىٰ أن الآية (٢٧٥) من سورة البقرة تنص على حلية أموال الربا لمن اكتسبها في الجاهلية وكف عن نحوها بعد نزول هذه الآية، أي أن الحكم الآنف الذكر لا يشمل ما اكتسب قبل نزول الآية إلّا أنه من البديهي

١ـ المصدر السابق، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

٢ـ سورة البقرة، الآية ٢٦٧.

٣ـ وسائل الشيعة، الحر العاملي، المجلد ١٧، ص ٣١٢.

٤ـ أردأ التمر.

أن تلك الأموال كانت تختلف رغم حليتها عن الأموال الأخرىٰ وتـقترب في واقع الحال من مكروه المكتسبات.

التفسير:

ما هي المميزات المتوخاة فيما ينفق من الأموال؟

تذكر هذه الآيات ثمرة الإنفاق وصفة المنفق وأنه يجب تحصين هذا العـمل الرباني مما يبطله من المن والأذى، وبيّن تعالىٰ صفة الصدقة والمتصدق عليه. وأمر المؤمنين في مستهل الآية بالتصدق من طيبات ما كسبوا أي من حـلال مكسبهم. فالطيبات جمع الطيب والطيب في اللغة يعني الطـاهر. ويـطلق هـذا الاصطلاح على الطهارة المعنوية الباطنية مثلما يطلق على الطـهارة الظـاهرية المادية. إذن يفترض في هذه الأموال أن تكون زكية ومفيدة وقيمة إلى جانب خلوها من الشبهة والدنس إن الشأنين المذكورين لنزول هذه الآيـات تـؤيد شمولية معناها أيضاً.

وعبارة ﴿لستم بآخذيه إلّا أن تغمِضوا فيه﴾ تعني أنـه لا يـطيب لكـم أن تتقبلوا مالاً غير طيب إلّا على مضض، ولا يقصد بها الطهارة الظاهرية فقط، لأن المؤمن لا يكتفي بنبذ ما حكم بدنس ظاهره بل يلفظ ما اشتبه عليـه أمره أو ما اعتبر مصدره مكروهاً من الأموال إلّا عـن كراهة واضطرار.

﴿ومما أخرجنا لكم من الأرض..﴾.

تشير عبارة «ما كسبتم» إلى المكسب التـجاري بـينما تـدل عـبارة «ومـما أخرجنا لكم من الأرض» الى المكاسب: الزراعية والمـعدنية ومـصادر الثروة الجوفية التي يـدخل في إطـارها جمـيع ضروب الدخـل المـالي لأن الأرض ومصادر الثروة المكتنزة فيها هي الينبوع الذي يستمد منه بنو الإنسان جميع أموالهم باعتباره المصدر الأساس للصناعة والتجارة وتربية المـواشي. وتـدل الآية على أن الله هو الذي وهب الإنسان كل هذه المصادر الماليـة ويتحتم عليه

أن لا يبخل بالإنفاق مـن أطيب ماله فـي سبيل الله.

﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلّا أن تغمضوا فيه..﴾.

إن العادة التي سادت بين الناس بالإنفاق من أخبث أموالهم ومـا ذهـبت فائدته وسقط نفعه بالنسبة إليهم لا يؤول إلى تسامي المنفق معنوياً ولا ينمي روحه الإنسانية ولا يعود على المعوزين بنفع يذكر بل يعد إهانة وتنكيلاً، وقد نزلت هذه الآية لتردع المسلمين عن مثل هذا الفعل. ألا يعنـي إنفاق المرء ممـا لا يرضاه لنفسه إلّا علـى مضض ونفور، بأنـه ينظر إلـى إخوتـه المسـلمين، بـل الأدهىٰ مـن ذلك إلـى الله، نظـرة دونيـة.

إن هذه الآية في واقع الحال تشير إلى أمر هام وهو أن الانفاق في سبيل الله يدخل في إطارين أحدهما يخص الفقراء والآخر من تنفق الأموال في سـبيله وهو الله تعالىٰ. والإنفاق من خبيث الأموال يعتبر تنكيلاً بالله العلي الغني لأنه لم يخصه بالطيب من مكسبه من جهة وتوجّه من جهة أخرىٰ الإهانة للـفقراء، ومن يدري قد يكون منهم من اعتلى قمة الإيمان والإنسـانية والشـعور بـعزة النفس مما يأتي عليهم هذا السلوك بألم نفسي بالغ التأثير.

كما يجدر الانتباه إلى أن المقصود به من عبارة «ولا تـيمموا» قـد يكـون استثناء الحالة التي يغفل فيها الإنسان عن امتزاج ما ينفقه بشيء من الرديء دون علم منه عن هذا الحكم الذي يعني من يقدم على مثل هذه البادرة عن عمد[١].

«واعلموا أن الله غنيٌّ حميد».

---

١ ـ جاء في المنهج عن ابن عباس أن رسول الله (ص) قال لأصحابه إن لله في أموالكم حقاً إذا بلغت إلى حدها أي بلغت النصاب، فكانوا يأتون بصدقاتهم ويضعونها في المسجد فإذا مُلئ المكان قسمها الرسول (ص)، فجاء رجل ذات يوم بتمر رديء ووضعه فلما جاء رسول الله (ص) ورآه قال ما هذا ومن أتىٰ به؟ ثم قال: بئس ما صنع هذا، (مستدرك الوسائل، المجلد ٧).

أجل، إن الله غني عن صدقاتكم ومستحق للحمد علىٰ نعمائه فهو مع غناه يقبل الإنفاق منكم في سبيله وهو مفروض الحمد على خلقه لما أغدقهم به من عطاء .

وقيل أن الحميد بمعنى الحامد أي أنه مع غناه عنكم وعن إنفاقكم يقبل الصدقات منكم ويحمدكم عليها، فاسعوا إلى بذلها من طيب أموالكم.

تنويه: يجب رعاية شرط الطيبة في الإنفاق سواء كان عن فريضة أو نافلة، والاحاديث التالية تشير بوضوح إلى هذا الموضوع:

١ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله تبارك وتعالىٰ قسم بينكم أخلافكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله طيب لا يقبل إلّا طيباً»[١].

٢ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الخير عشرة أجزاء أفضلها التجارة إذا أخذ الحق وأعطىٰ الحق»[٢].

٣ـ قال الصادق عليه السلام: «لو أن الناس أخذوا ما أمرهم الله به فأنفقوه فيما نهاهم عنه ما قبله منهم، ولو أخذوا ما نهاهم الله عنه فأنفقوه فيما أمرهم الله به ما قبله منهم حتى يأخذوه من حق وينفقوه في حق»[٣].

﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم﴾[٤].

ثم حذر الله تعالى من الشيطان وصده عن الصدقة.

الشيطان يعدكم الفقر: أي أن شياطين الإنس والجن يرهبونكم بالفقر عند الإنفاق في وجوه البر وهم يتسترون بحيلة التحذير من الحاجة في أوان

١ـ منهج الصادقين، الملا فتح الله، المجلد ٢، ص ١٢٧.

٢ـ مستدرك الوسائل، ج ١٣، ص ٥، ومنهج الصادقين، ج ٢، ص ١٢٧.

٣ـ وسائل الشيعة، الحر العاملي، المجلد ٩، ص ٤٦٦، ح ٣.

٤ـ سورة البقرة، الآية ٢٦٨.

الشيخوخة والمرض.

ويأمركم بالفحشاء: أي باكتساب ما خبث من السجايا كالبخل والإمساك عن التصدق وقيل الفحشاء، والمعاصي، وإنما سمي البخيل فاحشاً لأنه مسيء برده الأضياف[1].

تنويه: المقصود من كلمة الشيطان، وسوسته ولمته. وجاء التعبير عنه «يأمركم» لأنه يسخر النفس الأمارة بالسوء في الإنسان فيتخذ وسوسته طابع الأمر.

والله يعدكم مغفرة منه: أي يعدكم أن يستر عليكم ويصفح عن عقوبتكم علىٰ آثامكم إن أنفقتم من خيار المال.

وفضلاً: ويعدكم أن يخلف عليكم فضلاً من صدقتكم ويتفضل عليكم بالزيادة في أرزاقكم.

روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: إثنان من الله وإثنان من الشيطان، فاللذان من الله المغفرة من المعاصي والفضل في الرزق، واللذان من الشيطان الوعد بالفقر والأمر بالفحشاء[2].

ويفسر علي بن إبراهيم القمي (ره) الآية في المجلد الأول من تفسيره (ص ٩١) بأن الشيطان يعد الإنسان بالفقر إن أنفق من ماله والله يعده أن يغفر ذنوبه ويرزقه من عرض الدنيا كذلك من فضله.

والله واسع عليم: أي أن الله يتفضل على عباده المنفقين ويمنحهم عطاياه وغفرانه عن سعة وهو عليم بمن يستحق سعة فضله وغفرانه.

تنويه: تنبهنا هذه الآية الشريفة إلى أن الشيطان يمنع الإنسان عن التصدق بوسوسته له وتخويفه بالفقر والفاقة إلا أن الله المنان ذا السعة والرحمة يعده

---

١ ـ راجع مجمع البيان، المجلد الأول، ص ٣٨١.

٢ ـ تفسير مجمع البيان، الطبرسي، المجلد الأول، ص ٣٨١.

المغفرة والفضل من عطائه إن أنفق من زكي ماله، ويقال: وعد الشيطان غرور ووعد الرحمن سرور، وعد الشيطان حرمان ووعد الرحمن غفران، وعد الشيطان إفلاس ووعد الرحمن إخلاص، وعد الشيطان شقاء ووعد الرحمن هناء، وعد الشيطان يأتي بالنيران ووعد الرحمن يهب الجنان. إذاً لابد أن ننبذ كل غرور تنفثه فينا وعود الشيطان ونركن إلى وعود الرحمن المنان فإن فيها سعادة الدارين والفوز بالهناء[1].

النص رقم(٢٢)

﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾[2].

لن تنالوا البر: أي لن تنالوا كمال الخير وتمامه وهو رضا الله والحياة الخالدة في جنات النعيم إلّا إذا بادرتم للإنفاق مما تحبون ومن خير ما تعلقت به قلوبكم.

تنويه: ينبه الله تعالى عباده أنهم لن يفوزوا بكمال الخير إلّا بعد مبادرتهم للإنفاق مما يحبون سواء من أموالهم، جاههم، أبدانهم، أنفسهم أو أبنائهم وهذا ما جعل المقربين إلى ذات الله لا يترددون في التضحية بأي شيء في مسيرتهم التكاملية نحو التقرب إلى الله، وهنالك أحاديث جمة تؤيد ما ذكرناه حول هذا الموضوع:

١ ـ في الكافي بإسناده عن الإمام الصادق عليه السلام أنه كان يتصدق بالسكر، فقيل له: أتتصدق بالسكر؟! قال: نعم، إنه ليس شيء أحب إليَّ من السكر، فأنا أحب أن أتصدق بأحب الأشياء إليَّ[3].

---

١ ـ راجع تفسير الشاه عبد العظيمي، المجلد ١، سورة البقرة.

٢ ـ سورة آل عمران، الآية ٩٢.

٣ ـ الفروع من الكافي، الكليني، المجلد الرابع، كتاب الزكاة، باب النوادر، ص ٦١، ح ٣.

٢ـ روي في الصافي: إشترىٰ الإمام علي عليه السلام ثوباً فأعـجبه فـتصدق بـه وقال: سمعت رسـول الله صلى الله عليه وآله يـقول: من آثر على نفسه آثره الله يوم القيامة بالجنة، ومن أحب شيئاً فجعله لله قال الله يوم القيامة قد كان العباد يكافئون فيما بينهم بالمعروف وأنا أكافئك اليوم بالجنة[١].

٣ـ يروي أبو أيوب الأنصاري بأن أبا طلحة الأنصاري جاء النـبي صلى الله عليه وآله بعد نزول هذه الآية وأخبره أن «بَيرحاء» أزكىٰ أمواله وأحبها إليه فطلب منه أن يصرفها فيما يقتضيه حكم الله وكانت بيرحـاء بسـتاناً، حـصاده في غـاية الجودة ومنتهى الطيب. كان الرسول يأتيه أحياناً ويـتناول مـن مـائه وثمـره فأجاب صلى الله عليه وآله طلحة بقوله: «بخ بخ! ذلك مال رابح لك» ثم قسمها بين أقرباء طلحة[٢]. وهذا دليل على أولوية الأقرباء فيما ينفق من أزكى المال وأحبه.

نعود إلى الآية:

الأولى أن المراد من الآية أزكى الخير وأشرف الوجوه. وروىٰ عبد الله ابن عمر أنه سأل النبي صلى الله عليه وآله عن هذه الآية فأجابه: «هو أن ينفق العبد المال وهو شحيح يأمل الدنيا ويخاف الفقر»[٣].

وما تنفقوا من شيء: أي من زكي المال أو خبيثه، قليله أو وفيره، خفية أو علانية.

فإن الله به عليم: يعلم نواياكم فيثيبكم على حسنها.

الفرق بين البر والانفاق:

البر يشمل في مفهومه جميع الحسنات بمـا فـيها طـاعة الله والتـقرب إليـه والإحسان إلى عباده وكل ما سنته الشريعة السمحاء من فعل وترك وانتهاء.

١ـ تفسير الصافي، الفيض الكاشاني، المجلد الأول، ص ٣٥٥.

٢ـ راجع تفسير الدر المنثور، السيوطي، المجلد ٢، ص ٥٠.

٣ـ تفسير الصافي عن بحار الأنوار، المجلد ٩٣، ص ١٧٨.

ويطلق هذا الاصطلاح في أكثر الروايات على ما يتعلق بالشؤون المالية.

أما الإنفاق فإنه من النفقة، ويطلق على مختلف ضروب النفقة سواء الفرائض منها أو النوافل.

جاء عن أبي ذر الغفاري (رض) أنه قال:

«في المال ثلاثة شركاء:

١ـ القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها، من هلك أو موت.

٢ـ والوارث ينتظرك أن تضع رأسك ثم يستاقك وأنت ذميم.

٣ـ وأنت الثالث فإن استطعت أن لا تكون أعجز الثلاثة فلا تكن»[١].

***

ذات يوم استضاف أبو ذر ضيفاً فقال الضيف: إني مشغول وأن لي إبلاً فاخرج وأتني بخيرها، فذهب فجاء بناقة مهزولة فقال له أبو ذر: خنتني بهذه. فقال: وجدت خير الإبل فحلها فذكرت يوم حاجتكم إليه. فقال أبو ذر: إن يوم حاجتي إليه يوم أوضع في حفرتي مع أن الله يقول ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾[٢].

١ـ مجمع البيان، الطبرسي، المجلد الأول، ص ٤٧٤ وتفسير الدر المنثور، السيوطي، المجلد الثاني، ص ٥٠.

٢ـ تفسير الدر المنثور نقلاً عن تفسير الشاه عبد العظيمي، المجلد ٢، ذيل الآية.

الفصل الثالث

الإنسان والسحت (في يوم القيامة)

يـــتضمن هـــذا الفـصل آيـات مـن القـرآن الكـريم وروايـات وحكايات مفيدة

شأن الإنفاق من السحت في يوم الحساب

ينبه الله عز وجل عباده في الكثير من آيات القرآن الكريم إلى عظمة يوم القيامة، يوم الحشر والحساب، وهوله وصعوبة اجتياز العقبات التي يتعرض لها الإنسان في مراحل حسابه المتتالية. وأحد أصعب هذه العقبات هي عقبة المظالم والمرصاد أو حق الناس.

قال تعالى:

﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفىٰ بنا حاسبين﴾[1].

الرواية رقم(١):

جاء في لآلئ الأخبار عن النبي ﷺ أنه قال:

«إن الرجل يسأل عن كحل عينه وعن فته الطين بإصبعه وعن لمس ثوب أخيه».

الرواية رقم(٢):

تؤكد إحدى الروايات أن المرء إن أعاد لحماً، اشتراه من قصاب، إلى صاحبه وقد ذاب شيء من دسمه في راحة يده فإن الله يأمر ببخس عدل ما تضرره القصاب ـ من نقصان ثمن لحمه ـ من حسناته.

---

١ ـ سورة الأنبياء، الآية ٤٧.

الرواية رقم(٣):

عن أحد الأئمة: «يؤخذ ستمائة صلاة بدرهم».

الرواية رقم(٤):

يحدثنا صاحب كتاب لآلئ الأخبار أيضاً بأن رسول الله ﷺ زار يوماً ابنته فاطمة عليها السلام فوجدها تفترش حصيراً ولباداً من أصواف الخراف وتكتسي ثوباً خشناً من وبر الإبل وقد أنهكتها أعمال منزلها ولما أبصرت أباها شكت له الفاقة والعناء، فقال لها:

«لا تعتمدي عليّ إنك بنت رسول الله وزوجة علي وأم الحسن والحسين، فوالذي نفس محمد بيده لا يأذنونكِ يوم القيامة أن ترفعي قدماً من قدم حتى تفرغي من حساب هذا الحصير وهذا الثوب».

وقد سمي يوم القيامة يوم الحسرة والندم إذ جاء في الذكر الحكيم:

﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة»[1].

و ﴿.. ذلك يوم التغابن..﴾[2].

إن حساب حقوق الآخرين في يوم القيامة لبقدر من الصعوبة حتى يرهق الناس فيسألون الله سبحانه وتعالىٰ أن ينجيهم من بعضهم البعض ولو بنار جهنم ظناً منهم بأن التقلب في لظى جهنم أيسر عليهم من تحمل هذا الحساب وشقاوته.

وهذا ما يدل عليه ما جاء في لآلئ الأخبار عن الصادق عليه السلام:

الرواية رقم(٥):

«... فيقولون ليت الله يحكم بيننا ولو إلى النار يرون أن في النار راحة فيما هم

١ـ سورة مريم، الآية ٣٩.

٢ـ سورة التغابن، الآية ٩.

فيه ثم يأتون آدم فيقولون: أنت أبونا وأنت نبي فاسأل ربك يحكم بيننا ولو إلى النار فيقول آدم: لست بصاحبكم خلقني ربي بيده وحملني علىٰ عرشه وأسجد لي ملائكته ثم أمرني فعصيته ولكني أدلكم على ابني الصديق الذي مكث في قومه ألف سنة إلّا خمسين عاماً يدعوهم كلما كذبوا اشتد تصديقه (نوح).

فيأتون نوحاً فيقولون سل ربك يحكم بيننا ولو إلى النار. قال: فيقول لست بصاحبكم إني قلت أن ابني من أهلي، ولكني أدلكم على من اتخذه الله خليلاً في دار الدنيا، إئتوا إبراهيم.

قال: فيأتون إبراهيم فيقول: لست بصاحبكم إني قلت إني سقيم ولكني أدلكم على من كلم الله تكليماً، موسى...

قال: فيأتون موسى فيقولون له، فيقول: لست بصاحبكم إني قتلت نفساً، ولكني أدلكم على من كان يخلق بإذن الله ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، عيسىٰ.

فيأتونه فيقول: لست بصاحبكم ولكني أدلكم على من بشرتكم به في دار الدنيا، أحمد.

ثم قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: ما من نبي ولد من آدم إلى محمد صلى الله عليه وآله إلّا وهم تحت لواء محمد. قال: فيأتونه. ثم قال: فيقولون: يا محمد سل ربك يحكم بيننا ولو إلى النار. قال: فيقول: نعم أنا صاحبكم فيأتي دار الرحمن...»[1].

الرواية رقم(٦):

وروىٰ أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي في الشهاب، عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: **«من قتل عصفوراً عبثاً جاء يوم القيامة وله صراخ حول العرش يقول: ربِّ، سَل هذا فيم قتلني من غير منفعة»**[2].

---

١ ـ بحار الأنوار، المجلد ٨، ص ٤٥.

٢ ـ مستدرك الوسائل، المجلد ٨، ص ٣٠٢.

يروى أن النبي ﷺ أنبئ يوماً بأن ناقة قد عقلت على قارعة الطريق منذ الصباح وحتى الغروب، فأمرهم ﷺ أن ينبئوا صاحبها ليعدّ نفسه لمخاصمتها في يوم القيامة.

وتؤكد الكثير من الروايات هذا المعنىٰ فقد جاء في الحديث بأن الناقة إن أخذت غيلة من صاحبها فإن الفاعل يقوم يوم القيامة من قبره والناقة تناديه من خلف صائحة فيحضر الحساب على هذه الحال.

الرواية رقم(٧)

عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إذا كان يوم القيامة جمع الله العباد في صعيد واحد، وذلك أن يوحي إلى السماء الدنيا أن اهبطي بمن فيك، فيهبط أهل السماء الدنيا بمثلي من في الأرض من الجن والإنس والملائكة، ثم يهبط أهل السماء الثانية بمثل الجميع مرتين فلا يزالون كذلك حتى يهبط أهل سبع سماوات فتصير الجن والإنس في سبع سرادقات من الملائكة ثم ينادي منادٍ:

﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلّا بسلطان﴾[١] فينظرون فإذا قد أحاط بهم سبع أطواق من الملائكة»[٢].

وفي تلك الأثناء يوجه الله سبحانه وتعالى خطابه دون وسيط إلى المحشورين بأنه هو الله ربهم وبأن عدله يقضي في مثل هذا اليوم أن يقتص للمظلوم من الظالم وأن لا يتغاضىٰ عن ظلم أحد، فليقتص من وقع عليه الظلم في الدنيا من ظالمه فإنه لا يحق لأحد عبور الصراط ما دامت في ذمته مظلمة لأحد من الناس.

---

١ ـ سورة الرحمن، الآية ٣٣.

٢ ـ تفسير الصافي، ص ٥١٧.

الرواية رقم(٨)

يرویٰ أن أكثر المحشورين شعوراً بالحسرة والندم في يوم القيامة، عدة طوائف، أولاها الذين كسبوا مالاً وإن كان حلالاً إلا أنهم أبوا عن بذل حتى الزهيد منه في الشؤون الخيرية ثم ورثها من أنفقها في هذه الشؤون فيأسف أصحابها وهم يشاهدون أموالهم التي جهدوا في جمعها ينال غيرهم أجرها وثوابها.

الطائفة الثانية تتضمن دعاة الغير إلى الخير واحجامهم عن سلوك درب السعادة.. إنهم يشاهدون المتأثرين بمواعظهم ونصائحهم العاملين بها يقصدون الجنة بينما غصوا هم في متاهات آلاف الرزايا فينالهم لذلك أقصىٰ ما يمكن من الحسرة والألم.

والثالثة هم الأبوان المتعسران في يوم القيامة يعثران في صحراء القيامة على ابنهما بشق الأنفس فيسألانه إن كان يعرفهما فيجيب: بلى، لقد كنتما أبويّ. فيستفسران هل يذكر المتاعب التي تحملاها في الدنيا من أجله وأنهما كانا يفضلانه على نفسيهما ولم يتاقلا عن تسديد أية خدمة له؟ فيجيب: بلى، أذكر. ثم يقولان: فهلا تدخل السرور إلى قلبينا بمنحنا حسنة من حسناتك؟ فسجل حسناتنا خاو، وقد تصبح حسنتك وسيلة انقاذنا وتخلصنا من البلايا.

فيردّ عليهما بالقول: يا ابتاه ويا أماه! كيف يمكنني أن أغض النظر عن إحدىٰ حسناتي في مثل هذا اليوم العسير في حسابه والشديد في ملماته. وأخشىٰ أن يتوقف أمري عليها، فيخذلها فيعودان أدراجهما وأعينهما تفيضان دمعاً وهما يعضان على أيديهما لشعورهما بالحسرة والندم ولا يلتفتان إليه لشدة حزنهما وألمهما ﴿يوم يعض الظالم على يديه﴾.

الطائفة الرابعة: هم الذين يلقون نظرة على ماضيهم فيرون بعض أيام حياتهم وقد قضيت في المعصية وبعضها في الغفلة والعطالة علماً بأن كل ساعة من حياة الإنسان يتعلق بها في يوم القيامة بيت زاخر بالحلي والمجوهرات إزاء

ما انفق منها في العبادة، أو مليء بالثعابين والعقارب لما صرف منها في المعصية، أو مقفرة خاوية لما انقضىٰ منها في الغفلة والعطالة. والإنسان يشعر بـالحسرة وهو يتطلع إلى البيوت المفروشة المليئة بالجوهرات.

الرواية رقم(٩):

جاء في السنة النبوية الشريفة أن النبي ﷺ سأل أصحابه عن الفقير، من هو؟ فأجابوه بأنه من خلت يداه من عرض الدنيا ومـالها، ولكـنه لم يـقتنع بجوابهم موضحاً لهم بأنه (الفقير) من يحشر يوم القيامة وله ما له من الحسنات: كالصلاة، والصوم، والحج، والجهاد والزكاة لكن مصيره يؤول في نهاية المطاف إلى جهنم.

سألوه وكيف يصلىٰ نار جهنم من حشر ومعه مثل هذه الحسنات؟ فجاءهم الجواب بأنه يكون بسبب كثرة العتبات والمظالم في ذمته سواء من كيل السباب أو هتك احترام أو أكل مال أو أذى لجسم كان هو مدعاتها فيأمر الله تعالى أن تقدم حسناته لأصحاب تلك الحقوق تعويضاً لهم عما لحقهم منه حتى تخلو يداه من فعال الخير فيلقىٰ في نار جهنم ليصلاها.

الرواية رقم(١٠)

سئل الإمام السجاد عليه السلام عن غبن الحقوق من قبل الكـافر أو الوارد إلى جهنم وكيف تؤمن حقوق مطالبيه من أصحاب المظالم وليس له من الحسنات شيء؟، فأجابهم بأن ذنوب أصحاب تلك الحـقوق ستلقىٰ على عاتقه لتـخف أوزارهم وتثقل الذنوب كاهله كما قال تعالىٰ في الذكر الحكيم:

﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾[١].

---

١ ـ سورة العنكبوت، الآية ١٣.

﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾[1].

﴿ويوم يعضُّ الظالم على يديه...﴾[2].

بعد هذه المقدمة التي رحلت بنا في أجواء حقوق الآخرين وأهمية رعايتها، نعود إلى بحثنا الأساس فنقرأ ما يخص الإنفاق من المال الحرام من النصوص الدينية (أحاديث وآيات) والحكايات التاريخية، ما يفسحه لنا نطاق هذا البحث من مجال.

النص رقم(١):

قال الإمام علي عليه السلام:

«فمن استطاع منكم أن يَلقى الله وهو نقي الراحة من دماء المسلمين وأموالهم، سليم اللسان من أعراضهم فليفعل»[3].

النص رقم(٢):

ثم قال:

«ألا وأن الظلم ثلاثة: فظلمٌ لا يغفر، وظلمٌ لا يُترك، وظلم مغفور لا يُطلب.

١ـ سورة النبأ، الآية ٤٠.

٢ـ سورة الفرقان، الآية ٢٧.

٣ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦، وبحار الأنوار، المجلد ٦٨، ص ٢٩٢، ح ٦٢.

روي عن معاوية بن وهب أنه أخبر الإمام الصادق (ع) عما سمعه حول وفاة شخص مدين من الأنصار في عهد الرسول (ص) فطلبوا إلى النبي (ص) بعد غسله وتكفينه أن يصلي عليه فامتنع لأن الرجل كان مديناً وأمرهم بأن يعهدوا بهذه المهمة إلى غيره رافضاً إقامة الصلاة عليه فتعهد أحد معارفه بدفع ما عليه من دين.

يقول معاوية أنه سأل الإمام الصادق (ع) عن صحة هذه الرواية فأيدها (ع) وفسرها بأن الرسول قد امتنع عن إقامة الصلاة لينبه الناس إلى ضرورة الاهتمام بديونهم وأن يعنى ورثة الموتىٰ بالاهتمام بقضاء ديون موتاهم بعد مواراتهم الثرىٰ فتركه مديناً على هذا الحال يأتي عليه بالبلاء.

فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله، قال الله سبحانه: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾. وأما الظلم الذي يُغفر فظلم العبد لنفسه عند بعض الهنات، وأما الظلم الذي لا يُترك فظلم العِباد بعضهم بعضاً، القصاص هناك شديد، ليس هو جرحاً بالمدى، ولا ضرباً بالسياط ولكنه ما يستصغر ذلك معه، فإياكم والتلون في دين الله، فإن جماعة فيما تكرهون من الحق خير من فرقة فيما تحبون من الباطل، وإن الله سبحانه لم يعط أحداً بفرقةٍ خيراً ممن مضىٰ ولا ممن بقي»[1].

الحكاية الأولى: «مع شيعة علي (ع) وولائهم لإمامهم»

يقول أبو سهيل التميمي: حجّ معاوية فسأل عن امرأة من بني كنانة كانت تنزل بالحجون يقال لها: دارمية الحجونية. وكانت سوداء كثيرة اللحم، فأخبر بسلامتها فبعث إليها فجيء بها، فقال: ما جاء بك يا ابنة لحام (ويقصد كثيرة اللحم)؟

قالت: لست لحام إن عبتني. أنا امرأة من بني كنانة.

قال: صدقت أتدرين لما بعثت إليك؟

قالت: لا يعلم الغيب إلّا الله.

قال: بعثت إليك لأسألك علام أحببت علياً وابغضتني؟ وواليتِهِ وعاديتني؟

قالت: أوتعفيني؟

قال: لا أعفيك.

قالت: أما إذا أبيت فإني أحببت علياً على عدله في الرعية وقسمه بالسوية، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر وطلبتك ما ليس لك بحق. وواليت علياً على ما عقد له رسول الله ﷺ من الولاء، وحبّه للمساكين، وإعظامه لأهل الدين. وعاديتك علىٰ سفكك الدماء، وجورِك في القضاء

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.

وحكمك بالهوىٰ.

قال: فلذلك انتفخ بطنك وعظم ثدياك وربت عجزتك.

قالت: يا هذا بهند والله كان يضرب المثل في ذلك لا بي.

قال: يا هذه أربعي، فإنا لم نقل إلّا خيراً، إنه إذا انتفخ بطن المرأة تم خلق ولدها وإذا عظم ثدياها تروي رضيعها وإذا عظمت عجزتها رزن مجلسها.

فرجعت وسكنت.

قال لها: يا هذه هل رأيت علياً؟

قالت: إي والله.

قال: فكيف رأيتِه؟

قالت: رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك ولم تشغله النعمة التي شغلتك.

قال: فهل سمعت كلامه؟

قالت: نعم والله فكان يجلو القلوب من العمىٰ كما يجلو الزيت صدأ الطست.

قال: صدقت، فهل لك من حاجة؟.

قالت: أوتفعل إذا سألتك؟

قال: نعم.

قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها.

قال: تصنعين بها ماذا؟

قالت: أغذي بألبانها الصغار واستحيي بها الكبار واكتسب بها المكارم وأصلح بها بين العشائر.

قال: فإن أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي بن أبي طالب؟

قالت: سبحان الله أو دونه. فأنشد معاوية يقول:

إذا لم أعد بالحلم مني عليكم فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم؟
خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجد جزاك على حرب العداوة بالسلم

ثم قال: أما والله لو كان عليٌّ حياً ما أعطاك منها شيئاً.

قالت: لا والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين[١].

النص رقم(٣)

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«واعلموا عباد الله، أن المؤمن يستحل العام ما استحل عاماً أوّل، ويُحرِّم العام ما حرم عاماً أوّل. وإنَّ ما أحدث الناس لا يُحِلُّ لكم شيئاً ممّا حُرِّمَ عليكم، ولكن الحلال ما أحلَّ الله، والحرام ما حرَّم الله، فقد جَرَّبتم الأمور وضرستموها، ووعظتم بمن كان قبلكم، وضربت لكم الأمثال، ودعيتم إلى الأمر الواضح، فلا يصم عن ذلك إلّا أصم، ولا يَعمىٰ عنه إلّا أعمىٰ، ومن لم ينفعه الله بالبلاء والتجارب لم ينتفع بشيء من العظة، وأتاه النقص من أمامه حتىٰ يَعرف ما أنكر وينكر ما عرف، فإن الناس رجلان: مُتَّبع شرعة، ومبتدع بدعة، ليس معه من الله برهان سنة، ولا ضياء حجة، وإن الله سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن، فإنه حبل الله المتين، وسببه الأمين وفيه ربيع القلب، وينابيع العلم، وما للقلب جلاء غيره، مع أنه قد ذهب المتذكرون، وبقي الناسون أو المتناسون، فإذا رأيتم خيراً فأعينوا عليه، وإذا رأيتم شراً فاذهبوا عنه، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول: يا ابن آدم اعمل الخير ودع الشر، فإذا أنت جَوادٌ قاصِدٌ»[٢].

الحكاية الثانية: «اتخذ قراره بعد برهة من التفكير»

«عن علي بن أبي حمزة قال: كان لي صديق من كتّاب بني أمية فقال لي: إستأذن لي على أبي عبد الله عليه السلام فاستأذنت له عليه، فأذن له، فلما أن دخل سلّم وجلس ثم قال: جعلت فداك، إني كنت في ديوان هؤلاء القوم فاصبت من

١ـ الغدير، العلامة الأميني، المجلد ١٠، ص ١٦٦.

٢ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٧٦.

دنياهم مالاً كثيراً وأغمضت في مطالبه[1].

فقال أبو عبد الله عليه السلام: لولا أن بني امية وجدوا من يكتب لهم ويجبي لهم الفيء ويقاتل عنهم ويشهد جماعتهم لما سلبونا حقنا ولو تركهم الناس وما في أيديهم، ما وجدوا شيئاً إلّا ما وقع في أيديهم.

قال علي بن أبي حمزة: فقال الفتى: جعلت فداك، فهل لي مخرج منه؟ قال: إن قلت لك تفعل؟

قال: أفعل.

قـــال له عليه السلام: فاخرج من جميع ما اكتسبت في ديوانهم فمن عرفت منهم رددت عليه ماله، ومن لم تعرف تصدّقت به وأنا أضمن لك على الله عز وجل الجنة.

قال: فأطرق الفتىٰ رأسه طويلاً ثم قال: قد فعلت جعلت فداك.

قال ابن أبي حمزة: فرجع الفتىٰ معنا إلى الكوفة فما ترك شيئاً (من ماله) على وجه الأرض إلّا خرج منه»[2].

يتضح من كلام ابن أبي حمزة التالي أن الرجل آل به الأمر أن يتجرد حتى عن ثيابه التي كانت عليه فجمع له المال واشترىٰ به ثوباً له بعثه إليه مع ما بقي من المال ليسد به حاجات معيشته.

وبعد عدة أشهر ابتلي الفتىٰ بمرض ألزمه الفراش وكان علي بن أبي حمـزة يعوده في النهار حتىٰ جاءه يوماً فوجده يحتضر فقال له الفتىٰ بمجرد أن فـتح

١ـ كان يجمع لهم الخراج.

٢ـ الفروع من الكافي، الكليني، المجلد ٥، ص ١٠٦؛ وبحار الأنوار، المجلد ٤٧، ص ٣٨٢، ح ١٠٥.

وفي كتاب كشف الغمة يذكر المرحوم علي بن عيسى الأربلي أيضاً نقلاً عن أبي بصير حكاية مماثلة بشأن أحد جيرانه وكان يجمع المطربات في داره ويقيم مجالس الطرب يكـرعون فـيه الشراب (جـزاء الإثم).

عينيه وأبصره عنده:

«يا علي وفىٰ لي والله صاحبك».

ثم فاضت روحه إلى السماء فحضر دفنه ثم جاء الإمام الصادق عليه السلام، وما أن رآه الإمام حتى قال له:

«يا علي وفينا والله لصاحبك».

فأخبره ابن أبي حمزة أن الفتى قد قال ذلك أيضاً قبل وفاته بلحظات.

النص رقم(٤):

في الوسائل، (كتاب الحج)، باب «تحريم النميمة والمحاكاة»، نقلاً عن «عقاب الأعمال والأمالي للشيخ الصدوق (ره)»، عن حفص بن غياث، عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن آبائه عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى، يسقون من الحميم والجحيم، ينادون بالويل والثبور، يقول أهل النار بعضهم لبعض: ما بال هؤلاء الأربعة قد آذونا على ما بنا من الأذى، فرجل مُعلّقٌ عليه تابوت من جَمر ورجلٌ يجر أمعاءه ورجل يسيل فوه قيحاً ودماً ورجل يأكل لحمه، فيقال لصاحب التابوت: ما بال الأبعد[1] قد آذانا علىٰ ما بنا من الأذىٰ؟ فيقول: إن الأبعد مات وفي عنقه أموال الناس لم يجد لها أداء ولا وفاء، ثم يقال للذي يجر أمعاءه: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذىٰ؟ فيقول: إن الأبعد كان لايبالي أين أصاب البول من جسمه. ثم يقال للذي يسيل فوه قيحاً ودماً: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذىٰ؟ فيقول: إن الأبعد كان يحاكي، ينظر إلى كل كلمة خبيثة فيسندها فيحاكي بها، ثم يقال للذي يأكل لحمه: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذىٰ؟ فيقول: إن الأبعد كان يأكل لحوم الناس بالغيبة ويمشي بالنميمة**[2].

١ـ أي الأبعد عن رحمة الله عز وجل.

٢ـ وسائل الشيعة، الحر العاملي، المجلد ١، ص ٣٣٩، ح ٨٩٣، طبعة آل البيت.

الحكاية الثالثة: «أحوال الموتى بعد الوفاة»

ذات مرة وبينا كان أحد الصالحين من أهالي مدينة النجف الأشرف يرتاد «وادي السلام»، رأىٰ مع اقتراب غروب الشمس فارساً تبدو على محياه ملامح العظمة والجلال يتبعه سرب من الفرسان وهم يهمّون بدخول وادي السلام.

تقدم إليهم فحياهم وسمع جواب تحيته منهم، فأخبره أحد الفرسان أن الرجل الذي يتقدمهم هو من أهالي مدينة «الأهواز» أو «الحويزة» وقد وافته المنية في بلدته قبل أن ينقلوا نعشه إلى وادي السلام، ثم طلب الفارس منه أن يصحبهم فلما صحبهم وتقدموا إلى الأمام تجلىٰ له مكان فسيح لم ير مثله في لطافة مناخه وحسنه.

ترجل أحدهم عن جواده ثم أنزل الأهوازي من جواده وأدخله إلى قصر شاخ تزينه مختلف أنواع الزينة، فأجلس الفارس، الأهوازي في صدر المجلس ورحبوا جميعاً به أيما ترحيب ثم جيء له بالفاكهة والمأكولات ما طاب منها فشرع يأكل وطلب إلى الضيف أن يتناول منها فلبى طلبه.

عندما فرغا من تناول الأطعمة والفواكه، سأل الأهوازي ضيفه هل يعلم ما السر في انكشاف هذا الأمر الجليل له وقد جرت العادة والمشيئة الإلهية أن لا ينكشف لأحد، فأجابه الضيف بالنفي، فأخبره الرجل أن أباه (أبا الضيف) كان يطلبه صاعين من القمح وقد ارتأت المشيئة الإلهية أن تشمله بهذه العناية الوارفة والنعمة الوفيرة فأتم الله نعمته عليه فكشف للضيف عن هذا السر ليراه المتوفىٰ ويدفع إليه ماله من دين القمح في ذمته لئلا يكون ذلك سبباً لنقصان نعمته.

أشار المتوفىٰ لأحد الحاضرين فجاء بالقمح وصبّه في عباءة الضيف الذي ما أن تنبه لما حدث حتى وجد نفسه وحيداً وقد صب القمح في عباءته فعاد إلى داره بالنجف الأشرف يحمل القمح وأخذ يطحن منه كلما احتاج إليه دون أن

ينقص منه شيء حتى ذاع نبأه بين العامة. ولما همّ أهل الدار أن يخرجوا من القمح ما يطحنونه لقضاء حاجتهم لم يعثروا علىٰ أثر له. الجدير بالذكر أن بعض الأعلام قد أكدوا أن الرجل الأهوازي أو الحويزاوي كان من عوام الشيعة لا من العلماء أو السادة[1].

النص رقم(٥):

في الكافي بإسناده عن الصادق عليه السلام أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿فقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾[2]، إن كانت أعمالهم لأشد بياضاً من القباطي فيقول الله عز وجل: كوني هباء وذلك أنهم كانوا إذا شرع لهم الحرام أخذوه.

توضيح قوله من القباطي: أي من الثياب القبطية وهي كما قيل: ثياب شديدة البياض من كتان يُعمَل بمصر.

وهباء منثوراً: أي غباراً أو دقاقاً من التراب متفرقة على وجه الأرض يعني يجعل الله أعمالهم الحسنة التي تضيء وتلمع من شدة حسنها كالتراب الذي فرقته الريح في أطراف الأرض وذلك لأنهم إذا شرع أي فتح لهم الحرام لم يجتنبوا منه وأخذوه[3].

النص رقم(٦):

عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «من اكتسب مالاً من غير حله أضر بآخرته»[4].

١ـ عن روضات الجنات بتصرف.

٢ـ سورة الفرقان، الآية ٢٣.

٣ـ الفروع من الكافي، الكليني، المجلد ٥، ص ١٢٦، ح ١٠ وبحار الأنوار، المجلد ٧، ص ٢٠٥، ح ٩١.

٤ـ غرر الحكم ودرر الكلم، الآمدي، حرف الميم، مادة «من».

النص رقم(٧):

وعنه عليه السلام:

«من يكتسب مالاً من غير حله يصرفه في غير حقه»[١].

النص رقم(٨)

قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام:

«المغنية ملعونة ومن آواها وأكل كسبها ملعون»[٢].

الحكاية الرابعة: «الاحتياط في التصرف ببيت المال»

في «جمل أنساب الأشراف» بأن فضة خادمة علي عليه السلام جاءته في بعض الليالي القارصة البرودة بقطيفة فأنكر دفأها وسأل: ما هي؟

قالت فضة: هذه من قطف الصدقة.

قال: أصردتمونا هذه الليلة.. (أي أنه سيتحمل البرد حتى الصباح لأنه لا يستطيع التدفؤ بقطف بيت المال)[٣].

الحكاية الخامسة: «القضاء وحصانة الحقوق»

كان في بني إسرائيل، عالم يقضي لهم فلما حضره الموت طلب من زوجته أن تجري له مراسيم الغسل والتكفين ثم تضعه في فراشه مسدلة عليه غطاء، ففعلت. وبعد فترة وجيزة أزاحت الغطاء عن وجهه لتراه ثانية فرأت دودة

١ـ المصدر السابق.

٢ـ الخصال، الشيخ الصدوق، المجلد ١، ص ١٤٣؛ وبحار الأنوار، المجلد ٥٥، ص ٢٢٦، ح ٧، طبعة بيروت.

٣ـ بحار الأنوار، المجلسي، المجلد ٤١، ص ١١٣.

تنهش أنفه وتقطعه فأرعبها أمره.

وبعد حلول موعد النوم رأت في منامها زوجها يسألها إن أرعبها رؤية الدودة.

أجابت الزوجة: لقد أصابني الأمر بهلع شديد.

قال القاضي: فاعلمي إن ما ابتليت به إنما كان بسبب حبي لأخيك.. جاءني يوماً يطلب القضاء له مع خصمه فأضمرت في قلبي الرغبة في أن يكون الحق إلى جانبه ودعوت الله أن يكون الأمر كذلك، وإبان المحاكمة ظهر لي أن الحق معه بالفعل والدليل يؤيد حقانيته. إن الدودة التي رأيتها ابتليت بها لرغبتي التي أضمرتها رغم أن الحق كان يوافق ما أضمرته[1].

الحكاية السادسة: «رعاية الحقوق»

يقص علينا الحاج ميرزا أبو الفضل الزاهدي أنه لما كان العالم الجليل الحاج الملا محمد الكزازي يتولىٰ مهمة القضاء في مدينة قم المقدسة بإيران، قتل أخوه شخصاً ما فرفع أولياء دم الضحية شكواهم إلى هذا العالم إلّا أنهم لم يأتوا بما يكفي من الشهود على ما ادعوه فخمدت دعواهم بسبب عجزهم عن إثباتها شرعياً.. واضطر أولياء الدم لترك الدعوىٰ.

بعد ستة أشهر تصور القاتل أن أقارب الضحية قد أهملوا دعواهم ولن يعود إقراره واعترافه بالجريمة التي اقترفها ليضره، خاصة وقد أخذ بالحسبان كونه أخاً للقاضي وأنه لن يكشف اللثام عن وجه الحقيقة ما دامت تضر بأخيه.

ذات يوم قص على سبيل الصدفة حكايته علىٰ أخيه الذي ما لبث أن أخبر ورثة المقتول بها وأصدر حكم القصاص بحق أخيه.. رفع أولياء الدم حكم

---

١ ـ راجع الأنوار النعمانية، ص ١٥.

القاضي الى الحاكم والي المدينة طالبين إليه تنفيذه.

قال لهم الحاكم: إنه لبعيد عن الإنصاف أن ننزل بلية قتل الأخ بمثل هذا الشخص النبيل، فكما أنه أصدر هذا الحكم بمقتضىٰ دينه، ردّوا عليه جميله بمروءتكم واصفحوا عن أخيه.

امتثل أولياء الدم لنصيحته فغضوا الطرف بمروءتهم عن قصاصه وكذلك عن الدية المستحقة عليه[١].

النص رقم(٩):

جاء في التهذيب بإسناده عن داود الصُّرمي عن موسىٰ بن جعفر عليهما السلام، قال:

«يا داود، إن الحرام لا ينمىٰ وإن نمىٰ لا يبارك له فيه وما أنفقه لم يؤجر عليه وما خلفه كان زاده إلى النار»[٢].

النص رقم(١٠):

قال الباقر عليه السلام:

«إن الرجل إذا أصاب مالاً من حرام لم يقبل منه حج ولا عمرة ولا صلة رحم حتى إنه يفسد فيه الفرج»[٣].

النص رقم(١١):

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«من أكل الحلال قام على رأسه ملك يستغفر له حتى يفرغ من أكله»[٤].

١ـ عبرة التاريخ (پند تاريخ)، خسروي، المجلد الأول.

٢ـ الفروع من الكافي، الكليني، المجلد ٥، ص ١٢٥، ح ٧.

٣ـ بحار الأنوار، المجلد ٩٦، ص ١٥، ح ٢، طبعة بيروت.

٤ـ بحار الأنوار، المجلد ٦٣، ص ٣١٤، ح ٦، طبعة بيروت.

النص رقم(١٢):

عن الصادق عليه السلام، قال: تشوّفت الدنيا لقوم حلالاً محضاً فلم يريدوها فدرجوا ثم تشوّفت لقوم حلالاً وشبهة فقالوا لا حاجة لنا في الشبهة وتوسّعوا في الحلال ثم تشوّفت لقوم آخرين حراماً وشبهة فقالوا: لا حاجة لنا في الحرام وتوسّعوا في الشبهة ثم تشوّفت لقوم حراماً محضاً فيطلبونها فلا يجدونها، والمؤمن في الدنيا يأكل بمنزلة المضطر.

بيان قوله: تشوّفت الدنيا بالفاء أي تزينت، وقوله: فدرجوا أي مضوا إلى سبيلهم أي مضوا إلى الدار الآخرة[١].

الحكاية السابعة: «مع بهلول وحكاياته»

كان بهلول ذات مرة ينتظر على قارعة الطريق عودة الخليفة العباسي هارون الرشيد من سفر الحج ولما أبصره أخذ يناديه ثلاث مرات من مكان مرتفع وبصوت عال: يا هارون.

سأل هارون الرشيد عمن يكون مناديه فأخبر أنه بهلول المجنون فالتفت إليه وسأله إن كان يعرفه، قال بهلول: بلىٰ فإنه المسؤول عن كل ظلم يقع في مشارق الأرض وإن كان هو في مغاربها وعليه حسابه يوم القيامة.

دمعت عينا هارون وطلب منه أن يسأله حاجة فسأله أن يصدر أوامره بالصفح عن ذنوبه لينال بذلك الجنة.

أخبره هارون بعجزه عن تلبية هذا الطلب وأنه يسعه أن يدفع عنه جميع ما عليه من ديون.

أجاب بهلول بأن الديون لا تؤدىٰ بمال الناس ثم نصحه أن يرد أموال الرعية إليهم.

---

١ ـ وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج ١٧، ص ٨٢، ح ٢٢٠٤٤، طبعة آل البيت (ع).

قال له هارون أنه سيأمر حاشيته بدفع راتب ثابت له بغية تسيير أمور معيشته فرفض بهلول منحته وهو يقول بأننا جميعاً عباد الله، وهل يأخذ الله الرشيد بالحسبان وينسىٰ بهلولاً؟!!

الحكاية الثامنة: «بهلول وحقيقة جنونه»

ذكر في كتاب «غرائب الأخبار» للسيد نعمة الله الشوشتري أن هارون الرشيد ارتأىٰ ذات مرة أن يختار لبغداد شخصاً يتولى القضاء فيها فاستشار بطانته الذين أشاروا عليه بأن يعهد بهذه المهمة إلى بهلول فلن يقدر على أداء حقها إلّا هو.

بعث الرشيد الى بهلول يطلبه فلما حضر اقترح عليه تسلم مهام القضاء وأن يعينهم على هذا الأمر.

اعتذر بهلول متذرعاً بأنه ليس جديراً للقيام بأعباء مثل هذه المسؤولية.

ألح عليه هارون ليوافقه على اقتراحه مؤكداً بأن أهل بغداد جميعاً يرون أنه دون سواه جدير بهذا المنصب.

أجاب بهلول أنه أعلم من غيره بوضعه وبشخصيته، وحديثه هذا لا يخرج عن حالتين إما أنه كاذب أو صادق، فإن كان ما ينطق به صدقاً فإنه لا يجدر تسليم كرسي القضاء لمن لا يستحقه وهو ليس أهلاً به، وأما إن كان كذباً فإن القضاء لا يولىٰ به الكاذب.

ما زال هارون يلح حتى شعر بهلول أن هارون لن يخلي سبيله حتى يرضىٰ بقضاء حاجته فاستمهله يوماً ليمعن التفكير في الأمر..

وفي اليوم التالي تظاهر بهلول بالجنون فركب لوحة من الخشب وأخذ يطوف بها أسواق بغداد وهو يطلب من المارة أن يبتعدوا عن مسيره ويفسحوا المجال لفرسه لئلا يرفسهم.

شاع بين الناس أن بهلولاً قد جنّ، ولما تناهى الخبر إلى هارون قال بأنه لم

يجن بل حفظ دينه وفرّ منهم كي لا يتصرف بحقوق الناس بما لا يرضاه الله[١].

النص رقم(١٣):

عن عمار بن مروان قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن الغلول، قال: كل شيء غلَّ من الإمام فهو سحت وأكل مال اليتيم وشبهةٌ سحت. والسحت أنواع كثيرة، منها: أجور الفواجر وثمن الخمر والنبيذ المسكر والربا بعد البينة فأما الرشا في الحكم فإن ذلك الكفر بالله العظيم ورسوله.

بيان: الغلول: الخيانة ويمكن أن يكون المراد من الغلول من الإمام أكل مالهِ عليه السلام المختص به كسهم الخمس المخصوص به عليه السلام، ويحتمل أن يكون المراد بما غل من الإمام الفيء[٢] الذي هو مختص به عليه السلام أيضاً لأن من المعاني التي ذكرها الفيروز آبادي للغلول: الخيانة بالنسبة إلى الفيء، والسحت الحرام أو شديد الحرمة.

قوله: بعد البينة أي بعد أن بيّن الله حُرمته في القرآن[٣].

النص رقم(١٤):

في عقاب الأعمال عن النبي صلى الله عليه وآله في آخر خطبة خطبها بالمدينة المنورة وهي طويلة جداً، قال: ومن خان جاره شبراً من الأرض طوّقه الله تعالى يوم القيامة إلى سبع أرضين ناراً حتىٰ يدخله نار جهنم، إلى أن قال: ومن اكتسب مالاً حراماً لم يقبل الله منه صدقة ولا عتقاً ولا حجاً ولا اعتماراً، وكتب الله عز وجل بعدد أجر ذلك أوزاراً وما بقي منه بعد موته كان زاده إلى النار ومن قدر

١ـ راجع روضة الجنان، ص ٣٦.

٢ـ الفيء: ما يتعلق به الخمس ويكون جزء منه تابعاً تماماً للإمام (ع).

٣ـ معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، ص ٢١١؛ تفسير العياشي، السمرقندي، المجلد ١، ص ٣٢١؛ بحار الأنوار، المجلسي، المجلد ١٠٠، ص ٤٣، ح ٦ و ٧، طبعة بيروت.

عليها وتركها مخافة الله، كان في محبة الله ورحمته ويؤمر به الى الجنة[١].

النص رقم(١٥):

وعن الشيخ الصدوق، بإسناده عن الباقر عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله، قال: من اقتطع مال مؤمن غصباً بغير حقه لم يزل الله عز وجل معرضاً عنه مساقِتاً لأعماله التي يعملها من البر والخير لا يثبتها في حسناته حتى يتوب ويَرُدَّ المال الذي أخذه إلى صاحبه[٢].

الحكاية التاسعة: «من أحوال يوم القيامة وحسابه»

ذات يوم منح رسول الله صلى الله عليه وآله لكل من سلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري درهماً فأنفقه سلمان في سبيل الله ووهبه لفقير ما بينما صرفه أبو ذر في بعض شؤون منزله.

في اليوم التالي أضرم الرسول صلى الله عليه وآله ناراً ووضع عليها صخرة.. عندما التهبت الصخرة ونفذت حرارة النيران إلى أعماقها، طلب صلى الله عليه وآله من سلمان وأبي ذر أن يعتلي كل منهما الصخرة ويخبره وهو واقف عليها فيم صرف درهمه بالأمس. أما سلمان فإنه وضع قدمه على الصخرة دون تريث أو تلكؤ وقال: «أنفقته في سبيل الله».

جاء الدور لأبي ذر فعم الخوف قلبه وأرهبه أن يضع قدمه على الصخرة ليشرح فيم صرف درهمه بالأمس لعلمه بما يستغرقه من وقت لا تقوىٰ فيه قدمه الحافية على تحمل ضراوة الحرارة فاحتار في أمره.

صفح عنه الرسول صلى الله عليه وآله لعلمه بأنه لا يقوىٰ على تحمل سخونة الصخرة

١ـ عقاب الأعمال والأمالي، الشيخ الصدوق، ص ٢٥٦ (الأمالي)؛ بحار الأنوار، المجلسي، المجلد ٧١، ص ١٥٠، ح ٢.

٢ـ ثواب الأعمال، ص ٤١؛ بحار الأنوار، المجلد ١٠١، ص ٢٩٤، ح ٨، طبعة بيروت.

وسيطول وقوفه عليها بينما أعلن لهما أن الحرارة ستكون أكثر ضراوة في صحراء المحشر وأشعة الشمس فيها أكثر حرقة من لهيب هذه النيران. ثم نصح أبا ذر أن يجهد ليأتي المحشر بحساب نزيه وعبء خفيف لا تدنسه المعاصي[1].

الحكاية العاشرة: «حساب يوم القيامة وحق الناس»

مر النبي عيسى عليه السلام بقبر فسأل الله أن يبعث من وري فيه، ولما بُعث المتوفى سأله عليه السلام عن أحواله، فقال: كنت حمالاً.. ذات يوم كنت أحمل حطباً لشخص ما، وفي الطريق استللت منها عوداً أخلل به أسناني.. إنني أجرع عذاب ما فعلت منذ يوم وفاتي[2].

النص رقم(١٦)

وقف الإمام علي عليه السلام في يوم من الأيام على باب دكان خياط بسوق الكوفة وقال له:

«يا خياط ثكلتك الثواكل، صلّب الخيوط ودقق الدروز فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يحشر الخياط الخائن وعليه قميص ورداء مما خاط وخان فيه واحذروا السقاطات فإن صاحبه أحقُّ به منكم»[3].

النص رقم(١٧)

«آكل السحت يحشر خنزيراً»

يروىٰ عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه أجاب معاذ بن جبل عندما سأله عن معنى

١ـ خزينة الجواهر، النهاوندي، ص ٣٥٦، بتصرف.

٢ـ كبريت أحمر، الشيخ جعفر شوشتري، ص ٧٢.

٣ـ أسرار المعراج، ص٢٠٢.

﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً﴾[1]، وهو جالس في منزل أبي أيوب الأنصاري، بالقول:

«يا معاذ سألت عن عظيم من الأمر» فأرسل عينيه، ثم قال:

«يحشر عشرة أصناف من أمتي أشتاتاً قد ميّزهم الله من المسلمين وبدل صورهم، بعضهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسون أرجلهم من فوق ووجوههم من تحت ثم يسحبون عليها، وبعضهم عمي يترددون، وبعضهم صم بكم لا يعقلون، وبعضهم يمضغون بألسنتهم فيسيل القيح من أفواههم لعاباً يتقذرهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار، وبعضهم أشد نتناً من الجيف، وبعضهم يلبسون جباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم...».

«أحوال النمامين وأكلة السحت والمرابين يوم الحشر»

واستطرد ﷺ قائلاً:

«.. فأما الذين على صورة القردة فالقتات[2] من الناس، وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت وأما المنكسون على رؤوسهم فأكلة الربا، والعمي الجائرون في الحكم، والصم البكم المعجبون بأعمالهم، والذين يمضغون بألسنتهم فالعلماء والقضاة الذين خالفت أعمالهم أقوالهم، والمقطعة أيديهم وأرجلهم الذين يؤذون الجيران، والمصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان، والذين هم أشد نتناً من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله في أموالهم، والذين يلبسون الجباب فأهل الفخر

---

١ ـ سورة النبأ، الآية ١٨.

٢ ـ القتات: النمامون.

والخيلاء»[1].

الحكاية الحادية عشرة:

قيل أن مولى لعلي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، يتولىٰ عمارة ضيعة[2] له، فجاء عليه السلام ليطلعها فأصاب فيها فساداً وتضييعاً كثيراً غاظه من ذلك ما رآه وغمّه، فقرع المولىٰ بسوط كان في يده وندم على ذلك، فلما انصرف إلى منزله أرسل في طلب المولىٰ فأتاه فوجد الإمام قد تجرد عن ملابسه والسوط في يده فظن أنه يريد عقوبته، فاشتد خوفه فأخذ علي بن الحسين عليه السلام السوط ومد يده إليه وقال: يا هذا قد كان مني إليك ما لم يتقدم مني مثله، كان هفوة وزلة فدونك السوط واقتص مني، فقال المولىٰ: يا مولاي والله إن ظننت إلّا أنك تريد عقوبتي وأنا مستحق للعقوبة، فكيف أقتص منك؟

قال: ويحك، اقتص.

قال: معاذ الله، أنت في حل وسعة.

كرر الإمام ذلك عليه مراراً والمولىٰ كل ذلك يتعاظم قوله ويجلله، فلما لم يره يقتص، قال له: أما إذا أبيت فالضيعة صدقة عليك، وأعطاه إياها[3].

النص رقم(١٨):

المستدرك عن إرشاد القلوب عن النبي صلى الله عليه وآله، قال: إن قوماً يبعثون يوم القيامة ولهم من الحسنات أمثال الجبال فيجعلها الله هباء منثوراً ثم يؤمر بهم إلى النار، فقال سلمان: صِفهم لنا يا رسول الله.

فقال: أما أنهم قد كانوا يصومون ويصلون ويأخذون أهبة من الليل ولكنهم

١ـ تفسير مجمع البيان، المجلد العاشر، ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤؛ بحار الأنوار، المجلد ٧، ص ٨٩.

٢ـ الضيعة: البستان.

٣ـ بحار الأنوار، المجلد ٤٦، الباب ١٥، مكارم أخلاقه وعلمه (ع)، ص ٩٦.

كانوا إذا عرض لهم شيء من الحرام وثبوا عليه.

بيان قوله: ويأخذون أهبة، أي يأخذون تهيؤاً للقيام إلى صلاة الليل أي يتهيأون لصلاة الليل. والوثوب: القيام بسرعة أو الاستيلاء على الشيء ظلماً، فكل واحد من المعنيين هنا محتمل والأظهر هو المعنى الثاني[1].

النص رقم(١٩):

ومن كتاب للإمام علي عليه السلام إلى بعض عماله:

أما بعد، فقد بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك، وعصيت إمامَك، وأخزيت أمانتك.

بلغني أنك جرّدت الأرض فأخذت ما تحت قدميك، وأكلت ما تحت يديك، فارفع إليّ حسابك، واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس، والسلام[2].

الحكاية الثانية عشرة: «رسول الله (ص) يناشد أصحاب المظالم للاقتصاص منه»

استدعىٰ رسول الله إبان مرضه بلالاً وطلب إليه أن يجمع الناس في المسجد، ففعل واجتمع المسلمون في المسجد، ولما حضره صلى الله عليه وآله اعتلى المنبر وقال للمحتشدين متسائلاً ألم يكن إلى جانبهم بنفسه عندما تمثلوا لأمر الجهاد وقد كسروا أحد أسنانه وعفروا جبينه بالتراب وسالت الدماء على محياه إثر ضرباتهم حتى تخضبت لحيته بها؟ ألم يتحمل الشدائد والصعاب معهم؟ ألم يحزم الصخر على بطنه ليتبرع برغيفه لغيره؟.

ضج أصحابه وأتباعه بالإيجاب وهم يؤيدون أنه كم من الصعاب تحملها

---

١ ـ المستدرك من الوسائل، النوري نقلاً عن إرشاد القلوب للديلمي.

٢ ـ نهج البلاغة، الكتاب (٤٠).

وكم من البلايا صبر عليها، إذ لم يألُ جهداً في سبيل نشر الحقائق، فطوبىٰ له أفضل ثواب يثيب به الله عباده، فقال:

إن ربي عز وجل حكم وأقسم أن لا يجوزه ظلم ظالم فناشدتكم بالله أي رجل منكم كانت له قِبل محمد مظلمة إلّا قام فليقتص منه فالقصاص في دار الدنيا أحبّ إلي من القصاص في دار الآخرة على رؤوس الملائكة والأنبياء، فقام إليه رجل من أقصى القوم يقال له سوادة بن قيس، فقال له: فداك أبي وأمي يا رسول الله إنك لما أقبلت من الطائف استقبلتك وأنت على ناقتك العضباء وبيدك القضيب الممشوق فرفعت القضيب وأنت تريد الراحلة فأصاب بطني فلا أدري عمداً أو خطأً، فقال ﷺ: معاذ الله أن أكون تعمّدت، ثم قال: يا بلال قم إلىٰ منزل فاطمة فأتني بالقضيب الممشوق فخرج بلال وهو ينادي في سكك المدينة: معاشر الناس من ذا الذي يعطي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة فهذا محمد ﷺ يعطي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة، وساق الحديث إلى أن قال: ثم قال رسول الله ﷺ: أين الشيخ؟!

فقال الشيخ:ها أنا ذا يا رسول الله بأبي وأمي.

فقال ﷺ: تعال فاقتص مني حتى ترضىٰ.

فقال الشيخ: فاكشف لي عن بطنك يا رسول الله. فكشف ﷺ عن بطنه.

فقال الشيخ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك؟ فأذن له فقال: أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول الله ﷺ من النار يوم النار.

فقال رسول الله ﷺ: يا سوادة بن قيس أتعفو أم تقتص؟

فقال: بل أعفو يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: اللهم اعف عن سوادة بن قيس كما عفا عن نبيك

محمد صلى الله عليه وآله[1].

النص رقم(٢٠)

ومن كتاب للإمام علي عليه السلام إلى بعض عماله[2]:

أما بعد، فإني كنت أشركتك في أمانتي، وجعلتك شعاري وبطانتي، ولم يكن في أهلي رجل أوثق منك في نفسي لمواساتي ومؤازرتي وأداء الأمانة إليّ، فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلِب، والعدو قد حرِب، وأمانة الناس قد خزيت، وهذه الأمة قد فتكت وشغرت، قلبت لابن عمك ظهرَ المِجَن، ففارقته مع المفارقين، وخذلته مع الخاذلين، وخنته مع الخائنين، فلا ابن عمك آسيت، ولا الأمانة أديت، وكأنك لم تكن الله تريد بجهادك، وكأنك لم تكن على بينة من ربك، وكأنك إنما كنت تكيد هذه الأمة عن دنياهم، وتنوي غِرَّتهم عن فيئهم، فلما امكنتك الشدة في خيانة الأمة أسرعت الكرة وعاجلت الوثبة واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم اختطاف الذئب الأزل دامية المغزى الكسيرة، فحملته إلى الحجاز رحيب الصدر بحمله، غير متأثم من أخذه، كأنك ـ لا أبا لغيرك ـ حدرت إلى أهلك تراثك من أبيك وأمك، فسبحان الله! أما تؤمن

---

١ ـ مستدرك الوسائل، المجلد ١٨، ص ٢٨٨؛ بحار الأنوار، المجلد ٢٢، ص ٥٠٧.

٢ ـ تختلف آراء العلماء ومفسري نهج البلاغة حول عامل الإمام علي (ع) الذي بعث إليه بهذا الكتاب يوبخه، فقال البعض أنه «عبد الله بن عباس» عامله على البصرة إذ أنه حمل بيت المال معه وأتىٰ مكة يطلب فيها عرض الدنيا ولهوها. وقال البعض الآخر أن عبد الله كان ذا شأن رفيع ولم يفت عضداً في تنفيذ أوامر الإمام علي (ع). ويذهب قسم آخر إلى أن الكتاب بعث إلى عبيد الله بن عباس أخي عبد الله وكان حب الدرهم مذهبه وجمع المال مأربه فلم تكتسب رواياته الثقة بل تعتبر ضعيفة إذ يعرف الشيعة قصة فراره مع سعيد بن غران، ويقال أن عبيد الله بن عباس كان عامل الإمام (ع) في اليمن إلّا أنه لم يروَ عنه مثل هذا الأمر. ما يهمنا مما ذكر هو عدم التيقن بشأن المبعوث إليه بهذا الكتاب من حكام البصرة وكان ابن عم الإمام (ع).

بالمعاد؟ أو تخاف نقاش الحساب؟ أيها المعدود كان عندنا من ذوي الألباب، كيف تسيغ شراباً وطعاماً وأنت تعلم أنك تأكل حراماً وتشرب حراماً؟ وتبتاع الإماء وتنكح النساء من مال اليتامىٰ والمساكين والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم هذه الأموال، وأحرز بهم هذه البلاد!!

فاتق الله واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم، فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك لأَعذِرَنَّ إلى الله فيك، ولأضربنَّك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلّا دخل النار! والله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما كانت لهما عندي هوادة، ولا ظفرا مني بإرادة، حتى آخذ الحق منهما، وأزيل الباطل عن مظلمتهما، وأقسم بالله رب العالمين: ما يسرني أن ما أخذته من أموالهم حلال لي أتركه ميراثاً لمن بعدي. فضَحّ رويداً[1] فكأنك قد بلغت المَدىٰ، ودفنتَ تحت الثرىٰ، وعُرِضَت عليك أعمالك بالمحل الذي ينادي الظالم فيه بالحسرة، ويتمنى المضيع فيه الرجعة، ولات حين مناص[2].

الحكاية الثالثة عشرة: «لم يطق وزر الخاتم»

رزق هارون الرشيد عدة بنين، اعتزل أحدهم ـ ويدعىٰ قاسماً المؤتمن ـ الدنيا تاركاً زعامة أبيه وجاهه وجلاله وراء ظهره وانكب على عبادة الله وطلب الآخرة فلم يكن في ملبسه ومظهره ما يشبه مثله لدىٰ أبناء السلاطين.

ذات يوم ضحك أحد بطانة الرشيد لرؤية مظهر قاسم عندما كان يمر بالقرب منهم فسأله هارون عما يضحكه، فأجاب بأن ابنه قد نال من شرف أبيه وأبهته بهذا الهندام المتهرئ الذي يكتسيه وهو يتردد بين العامة.

لم يجد هارون ما يجيب به إلّا أن يلتمس موضع التقصير في سلوك ولده بأنهم تركوه دون أن يقلدوه منصباً، ثم دعاه إليه وأخذ يحذره من أنه يجلب

---

١ ـ يقال لمن يعجل في أوان التمهل، والمقصود من العبارة: أنك تفرط في الأموال وعليك أن تتجنب ذلك.

٢ ـ نهج البلاغة، الكتاب رقم ٤١.

لنفسه الخزي والعار بمظهره هذا. وبعد أن سدد له النصح بالكف عن هذا السلوك أخبره أنه سيوليه إمارة إحدى الولايات، وله أن ينهمك فيها بالعبادة إلى جانب تولي مهام منصبه والتعهد بمسؤولية إمارته.

أجابه قاسم معتذراً بأن لأبيه أبناء عدة فهل له أن يتركه ولا يخزيه عند أحباء الله، إلّا أن هارون ما زال يتمادىٰ في إلحاحه حتى اضطر قاسم إلى التزام الصمت والجنوح إلى السكوت.

أشار هارون إلى بطانته أن يكتبوا له إمارة مصر ليرحل إليها في صباح اليوم التالي، لكن قاسماً فر ليلاً من بغداد يقصد البصرة. وفي الصباح لم يعثروا عليه مهما جدوا في طلبه حتى استبانوا أخيراً من آثار قدميه (وكانت آثار القدمين تحظىٰ آنئذ بأهمية بالغة) أنه وصل حتىٰ ضفاف دجلة.

فر قاسم في تلك الليلة وحط رحاله في البصرة. يقول عبد الله البصري أن سور داره قد تداعىٰ وناله الخراب وكان بحاجة إلى عامل يصلحه فأتى السوق يبحث عن عامل فوجد شاباً يجلس بالقرب من مسجد وهو يقرأ القرآن وقد وضع مسحاة وقرطلاً[1] أمامه فسأله إن كان يطلب العمل، قال: ولم لا، لقد خلقنا الله لنسعىٰ من أجل كسب لقمة العيش.

قال: إنهض إذاً وتعال معي.

طلب الشاب منه أن يتفقا على الأجر أولاً، فحدد له الأجر درهماً فذهبا معاً إلى الدار.. جد الشاب في العمل حتى المساء بقدر شخصين، فأراد عبد الله أن يأجره بدرهمين فأبىٰ قائلاً: لن أتقاضىٰ أكثر مما اتفقنا حوله. فأخذ أجره وانصرف.

في صباح اليوم التالي أتىٰ عبد الله البصري ذات المكان يطلبه فلم يجده فسأل عنه.. أخبروه أنه لا يعمل إلّا في يوم السبت لأنه خص بقية أيام

---

١ ـ سلة من القضبان أو القصب.

الاسبوع بالعبادة، فصبر حتى يوم السبت التالي فوجده حيث كـان في المـرة السابقة واصطحبه إلى داره للعمل فشرع يـعمل بجـد حـتى آن وقت صـلاة الظهر.. غسل يديه وقدميه وأسبغ الوضوء ثم انشغل بصلاته ليعود بعدها إلى العمل، واستمر هكذا إلى أن غربت الشمس فتقاضىٰ أجره مساء وخرج.

وفي السبت التالي أتىٰ المحل يبحث عنه ليتم إعمار السور لكنه لم يعثر عليه في هذه المرة وبعد البحث والتقصي أدرك أنه مريض منذ يومين أو ثلاثة.. ولما سأل عن سكناه اهتدىٰ إلى خرابة.. جـلس بـالقرب مـنه ووضـع رأسـه في حجره.. وبمجرد أن فتح عينيه سأله: من أنت؟

أجابه عبد الله البصري بأنه من عمل له يومين ويدعىٰ عبد الله البصري.

قال: عرفتك فهل ترغب بمعرفتي؟

قال: بلىٰ.

قال: أنا قاسم ابن هارون الرشيد.

فزع الرجل لسماع ذلك خشية ما ينزله به هارون إذا تناهىٰ إليه أنه استأجر ولده ليومين.

أدرك قاسم ما أصابه فقال: لا تخش، لم يعرفني أحد في هـذه المـدينة إلى الآن.. إنني لم أكن أبوح لأحد باسمي حتى هذه اللحظة إلّا لما أراه في نفسي من بشائر الموت.. أرجو أن تقضي لي حاجة.. ثم طلب إلى الرجل ان يسلم قرطله ومسحاته لمن يحفر له القبر بعد أن يقضي نحبه والقرآن الذي آنسه لمن يـقرأه ويستأنس بقراءته، وبعد ذلك أخرج خاتماً من إصبعه وطلب إليـه أن يحـضر بغداد في يوم الإثنين إذ أعلنه أبوه هارون دعوة عامة لكل من يرغب في لقائه وأن يضع الخاتم أمام عينيه فإنه يعرفه لأنه كان قد وهـبه بـنفسه لولده وأن يخبره بأن ولده قاسماً قد وافته المنية في البصرة وقد أوصاه بأن يعيد إلى أبيه هذا الخاتم قائلاً بأنه (هارون) له جرأة قصوىٰ في جمع أموال الرعية فليضِف هذا الخاتم إلى تلك الأموال الطائلة لأن ابنه لا يطيق وزره في يوم القيامة.

في تلك الأثناء تململ فجأة ولكنه عجز عن الوقوف فهمّ بذلك تارة أخرى.. قصرت قواه عن مجاراته فطلب إلى عبد الله البصري أن يمسك بساعديه ويعينه على النهوض قائلاً: لقد حضر (مولاي علي بن أبي طالب عليه السلام)..

ما أن لبى الرجل طلبه حتىٰ فاضت روحه، كأنما سراج اطفئت[1].

الحكاية الرابعة عشرة: «الرشيد وبهلول»

التقىٰ هارون الرشيد يوماً بهلولاً فأخبره أنه كان يرجو لقاءه منذ أمد. أجاب بهلول بأنه لا يرجو لقاءه.

قال هارون: عظني.

قال: وبمَ أعظك؟ ثم أشار إلى الأبنية المرتفعة وإلى المقبرة وأخبره أن هذه الأبنية تعود لأناس توسدوا التراب في هذه المقبرة، ثم سأل هارون عن حاله يوم يقف مسؤولاً في ساحة الحق والعدل الإلهي لينظر الله في فعاله ويحاسبه بحسابه الدقيق، وماذا سيكون بوسعه أن يفعله يوم يتعرض لحساب ربه وهو الذي لاينصرف بدقته الوافرة وعدالته الواسعة عن نواة التمر وقشورها وعما هو أدنى من ذلك.. سيناله الجوع والعطش والعري طوال فترة وقوفه مسود الوجه، مقفر اليدين بين المحشورين..

قال بهلول له منذراً أنه سيبأس في ذلك اليوم ويهزأ منه الجميع.

كان لهذا الكلام وقع كبير لدىٰ هارون فانهمرت الدموع من عينيه[2].

النص رقم(٢١):

عقاب من ظلم أجيراً أجره

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من ظلم أجيراً أجره أحبط الله عمله، وحرّم عليه ريح

---

١ ـ راجع كتاب عبرة التاريخ (پند تاريخ)، خسروي، المجلد الأول.

٢ ـ عن كتاب بهلول اللبيب بتصرف.

الجنة وريحها يوجد من خمسمائة عام [1].

النص رقم(٢٢):

قال رسول الله ﷺ: إن الله غافر كل ذنب إلّا رجلٌ اغتصب أجيراً أجره، أو مهر امرأة [2].

النص رقم(٢٣):

عقاب من كان لأحد عنده مظلمة

وفيما أوحى الله لعيسى عليه السلام: قل لقومك يا أخا المنذرين: أن لا تدخلوا بيتاً من بيوتي إلّا بقلوب طاهرة، وأيد نقية، وأبصار خاشعة، فإني لا أسمع من داع دعاني ولأحد من عبادي عِنده مظلمة ولا استجيب له دعوة ولي قبله حق لم يرده إلي [3].

الحكاية الخامسة عشرة: واعظ أدىٰ حق الناس خشية حساب يوم القيامة

يروي المرحوم الحاج ميرزا حسين النوري في كتابه «دار السلام» نقلاً عن السيد حسين الحائري أنه كان بمدينة مشهد الغراء عطار يقع حانوته بالقرب من بوابة الحرم الرضوي الشريف..

اعتاد العطار أن يسدد المواعظ والنصائح للناس في حانوته بعد أداء صلاة الظهر فلا ترى الحانوت يخلو من المحتشدين فيه قط.

ذات يوم اضطر أحد الأمراء الهنود الدكنيين، ممن اختاروا هذه المدينة للسكنى، الى رحلة يقصد فيها بلاداً أخرىٰ، فأتمن العطار على مجوهراته

١ـ عقاب الأعمال، الشيخ الصدوق، ص ٢٨١.

٢ـ النوادر للراوندي، ص ٣٦.

٣ـ إرشاد القلوب للديلمي، المجلد ١، ص ١٠٧؛ المجالس للشيخ المفيد، ص ٨٥؛ بحار الأنوار للمجلسي، المجلد ٦٧، ص ٣١٦، ح ٢٢، طبعة بيروت.

وأحجاره الكريمة. إلّا أن العطار واجهه بعد عودته من سفره بالتجاهل والإنكار.. ذهل الرجل فالتفت مستقبلاً الضريح الشريف لمولى الموحدين عليه السلام وهو يقول: فديتك نفسي، لقد تركت الأهل والعيال والمقام والثروة الطائلة طالباً الفلاح في يوم القيامة واللوذ بالقرب من قبرك الشريف فاقمت هنا وأتمنت على مالي من وثقت به وها هو ينكر علي حتى قليلها وليس لي من شاهد أشهده سوى الله عز وجل ولا من قاض ألجأ إليه واستحكمه في أمري سواك.. بكى الرجل حتى أنهكه البكاء فغط في النوم.. إلتقىٰ في منامه الإمام عليه السلام، طلب منه الإمام أن يتجه صوب بوابة المدينة عندما تفتح في نهاية الليل فيطلب حقه من أول شخص يخرج منها فإنه سيحقق له مأربه.

استيقظ الرجل من نومه وأطاع أمر إمامه فرأىٰ شيخاً صالحاً تقياً يحمل حزمة من الحطب يطلب منها الرزق الحلال وقد ظهرت عليه مؤشرات تدل على أنه قضىٰ عمره في العبادة والقناعة فاستحىٰ أن يبثه موضوعه ويسرد عليه حكايته، فعاد إلى الروضة المقدسة ليعيد على صاحبها طلبه فحدث ما حدث له في المرة السابقة. لما رأى الشيخ ومنعه الخجل ثانية من تنفيذ ما أمر به، حتى عاد في المرة الثالثة وقصّ على الشيخ حاله وطلب منه حقه.

استغرق العابد في التفكير هنيهة بعد الاستماع لحديثه، ثم قال: سأرد إليك حقك بعد ظهر غد في حانوت العطار إن شاء الله.

في اليوم التالي وبعد تحشد الناس في حانوت العطار طلب منه العابد أن يوكل إليه بأمر النصيحة في ذلك اليوم ووافق العطار على ذلك..

قال الرجل: أيها الناس، إنني فلان ابن فلان.. يستولي عليّ بفضل من الباري تعالى خوف رهيب من حق الناس يجنبني حب الدينار والدرهم وصيرني إلى التزام القناعة والانعزال ومع ذلك حدثت في حياتي واقعة كبرىٰ أخيفكم بها من عذاب أليم ومن شدة ضراوة نار الجحيم وأُنبئكم ببعض ما

ترونه في يوم الجزاء المبين.

إعلموا أنني فيما مضىٰ اقترضت من يهودي مقداراً من المال وعاهدته على أن أعيده إليه بعد أمد. كان المبلغ (١٠٠) دينار يضاهي في قيمته عشر الريال[١] الحالي، عاهدته أن أعيد المال خلال عشرين يوماً أي أن أسدد له (٥) دنانير يومياً.. وفيت بوعدي عشرة أيام من دخل بيع الحطب ولكنني في اليوم التالي لم أعثر على اليهودي عندما أتيته لأدفع إليه قسط ذلك اليوم وأخبرت بأن الرجل قد رحل إلى بغداد.

ذات ليلة رأيت فيما يرى الرائي في المنام وكأن يوم القيامة قد حل والناس يقفون صفاً بانتظار حسابهم.. ولما جاءني الدور صدرت الأوامر بفضل من الله للسماح لي بورود الجنة.. وفي سبيلي إليها واجهت الصراط فوق جهنم.. تملكني الخوف من هول ضجيجه ولما بلغته رأيت دائني اليهودي ينطلق من جهنم وكأنه صخرة نارية فاعترض طريقي مطالباً بالخمسين ديناراً المتبقية في ذمتي ليسمح لي من بعد بمواصلة دربي ونيل نصيبي.. أخبرته أنني بحثت عنه لأدفع إليه ماله فلم أجده ولم أعثر عليه ولكن بكائي وعويلي لم يجديا نفعاً إذ قال: صدقت، ولكنني سأحول دون عبورك الصراط ما دمت لم تدفع لي حقي، أبكاني ما سمعته منه بشدة فقلت: ولكنني لا أملك الآن ما أدفعه إليك، قال اليهودي: إذاً، إسمح لي أن أضع إصبعي على أحد أعضاء بدنك. رضيت بذلك ففعل ما أراد ولشدة الألم والحرقة التي نالتني إثر ذلك استيقظت من نومي فألفيت صدري قد أصيب بجرح ما زلت أعالجه حتى يومنا هذا ولم أعثر على اليهودي.. كشف العابد عن صدره فشاهد الحاضرون جرحاً عميقاً فيه أثار بكاءهم.. أهاب الحدث العطار فأتىٰ بأمانة الرجل الهندي ودفعها إليه[٢].

١ـ عملة إيرانية زهيدة للغاية كالفلس.

٢ـ دار السلام للنوري.

الحكاية السادسة عشرة:

يروي المحدث النوري في الكتاب ذاته عن رجل فاضل متكامل يدعى الحاج المولىٰ أبا الحسن المازندراني أنه قال:

كان لي صديق فاضل، تقي، عالم يدعى المولى جعفر وهو نجل العالم الجليلَ المولىٰ «محمد حسين»، وهما من أهالي قرية تسمىٰ «تيلك» تابعة لطبرستان، عندما انتشر وباء الطاعون العام في كافة أرجاء البلاد، قضى الكثير من الناس نحبهم قبله فأوكلوا إليه أمر الوصاية على أموالهم فرضي بذلك، ولكن المنية وافته بعدها إثر الطاعون فهدرت الأموال قبل بلوغها شأنها.

قبل فترة من الزمن وفقني الله لزيارة العتبارت المقدسة في العراق وضريح الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام.. في ليلة من الليالي رأيت في المنام رجلاً ألق حول نحره بسلسلة من النار يمسك بطرفيها رجلان آخران وللرجل نفسه لسان طويل يتدلىٰ على صدره.. أبصرني من بعيد فاقترب مني وأدركت أنه المولىٰ ذاته فأخذتني الدهشة لما رأيت.. وعندما همّ بالتحدث إلي وطلب العون مني انسحبت السلسلة إلى الوراء فعجز عن التكلم، تكرر ذلك ثانية... وفي المرة الثالثة بلغ الضيق مني أن صرخت صرخة أفاقتني من النوم واستيقظ إثر ذلك أحد العلماء وكان ينام بجواري.. سردت عليه منامي ثم تنبهت إلى أن الوقت المحدد الذي يتم فيه افتتاح أبواب الصحنين والضريحين الشريفين قد حان، فقلت: من الأفضل أن ننهض فنرد الحرم بغية أداء آداب الزيارة ونطلب له الغفران عسىٰ أن يغفر له الله تعالىٰ، ففعلنا ذلك.

مرت فترة طويلة تناهز العشرين عاماً دون أن أطلع على ما آل إليه مصيره وكنت أتصور أنه إنما بلغ هذه الحالة بسبب تهاونه في أيام الطاعون حتى هدرت تلك الأموال.

وعندما منَّ الله عليّ ووفقني لزيارة بيته الحرام وأداء مناسك الحج، اعتلّت صحتي بشدة عند عودتي إلى المدينة المنورة حتىٰ عجزت عن الحركة والمشي.

وفي المدينة طلبت من أعواني أن يقوموا بتغسيلي وإلباسي لباساً نظيفاً ويأتوا بي إلى الحرم الشريف هناك لعلي أقضي نحبي في الطريق أو في الحرم، فـفعلوا. أغمي عليَّ إبان ورود الحرم فوضعوني جانباً وانشغلوا بأعمالهم حـتى تحسـن وضعي فأتوا بي إلى ضريح الرسول صلى الله عليه وآله الطاهر.. زرت الضريح ثم عادوا بي إلى جانب بيت فاطمة الزهراء عليها السلام، فجلست حـيث يـتم فـيه أداء الزيـارة وطلبت الشفاء من سيدتي قائلاً: إننا نعلم حسب ما وردنا من الأخـبار أنك كنت تودين ابنك الحسين عليه السلام كثيراً وأنا من أجاور قبره بكـربلاء فأسألك بحقه أن تعودي علي بالشفاء.. بعد ذلك استقبلت ضريح الرسول صلى الله عليه وآله وطلبت منه الشفاعة لأصدقائي ممن تـوسدوا التراب إثـر بـلاء أو مـرض اعـتراهـم وأخذت أذكر أسماءهم الواحد تلو الآخر حتى جئت على ذكر المولىٰ «جعفر» فتذكرت رؤياي وتأثرت لحاله كثيراً.

ألححت في طلب المغفرة والشفاعة له قائلاً: إنني رأيته على حال سيئة قبل عشرين عاماً ولا أعلم إن كان حلمي صادقاً أو من أضغاث الأحلام.. شعرت بالارتياح عندما تذكرت بكائي عليه ودعائي من أجله.

نهضت من مكاني وعدت إلى الدار بنفسي.. لقد نلت الشفاء مـن مـرضي ببركة سيدتي الزهراء عليها السلام.. وعند عودتنا أقمنا يوماً في «أحد» حيث كان أول مكان اجتبيناه للإقامة بعد انطلاقنا عائدين.. قرأت نص زيـارة الشهـداء ثم استسلمت للنوم فرأيت المولىٰ جعفر في المـنام على أفضل حال وهو يـرتدي حلة بيضاء كبياض البيض ويلبس عمامة ويمسك بعصا. ولما اقترب مني حياني قائلاً: مرحباً بالأخوة والصداقة.. حقاً ينبغي على الصديق أن يعامل صـديقه مثل هذه المعاملة.. لقد قضيت أمداً أعاني العسر والشدة والبلاء والمحنة، لا مفر ومخرج لي منها حتى أنقذتني أنت منها.. لقد أمروني بالاستحمام قبل يومين أو ثلاثة.. وتخلصت منذ ذلك الحين مما يدنسني من أردان وأرجاس.

لقد بعث لي رسول الله صلى الله عليه وآله بهذه الحلة والصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام بهذه

العباءة. إنني الآن على أفضل حال وفي عافية تامة، أتيتك مودعاً لأطلب إليك أن تزدان بالنظافة ولأبشرك كذلك بأنك ستبلغ أهلك سالماً وتجدهم بخير.. استيقظت من نومي فرحاً ممتناً لله علىٰ ما وهبني.

الحكاية السابعة عشرة:

عن الأمير السيد حسن ابن السيد علي بن محمد باقر ابن الأمير إسماعيل واعظ حسيني اصفهاني، يروي المحدث النوري أنه:

لما توفي والدي العلامة كنت منشغلاً بتحصيل العلوم الدينية في النجف، إلّا أنني كنت لم أبلغ بعد مرتبة تذكر في العلم ثم وافت المنية والدتي بعد سبعة أشهر من ذلك فنقل جثمانهما إلى مدينة النجف الأشرف.

في يوم ما رأيت في المنام أن والدي المرحوم ورد عليّ وأنا جالس في داري فنهضت لاستقباله وحييته ثم طلبت إليه أن يتصدر المكان في مجلسه فأخذ يحادثني بلطف.. كنت أدرك أنه قد رحل عن الدنيا فقلت له: لقد قضيت نحبك في مدينة إصفهان وأجدك اليوم هنا. فقال: نعم لقد تم نقل جثماننا إلى النجف بعد الوفاة ونحن الآن هاهنا. قلت: إذاً والدتي معك؟ قال: لا. تملكني الخوف فقال: إنها في النجف ولكن في محل آخر. فعلمت أن العلماء أسمىٰ درجة وشأناً من الجهلة.

استفسرت عن حاله، فقال: كنت في ضيق قد انتهى الآن فغدوت في راحة وهناء. أخذتني الدهشة لِما سمعت وقلت: كنت في ضيق؟!!

قال: نعم، كنت مديناً للحاج رضا المعروف بالنعلبند وكنت في عسر جراء ديني الذي لم أقضه له.

إزدادت دهشتي فأفقت من النوم متعجباً مرتاباً فكتبت رسالة إلى أخي وهو وصي أبي وقصصت عليه ما رأيت في المنام طالباً إياه أن يستقصي الأمر وهل أن للرجل المذكور حقاً في ذمة والدي أم لا؟

أجابني أخي: استقصيت الأمر ولكنني لم أعثر على شيء من هذا في السجلات. فعاودت الكتابة إليه بأن يسعى أكثر في التحقيق ويتابع الموضوع بنفسه، فأجابني هذه المرة بأن الشخص قد قال: كنت أدين والدك (١٨) درهماً، لا يعرف بذلك غير الله، وقد طالبتك بعد وفاته بأن ترى ما إذا كان اسمي قد ورد سجله فأجبتني بالنفي فقلت في نفسي إنني أعجز عن إثبات ديني فيما لو طالبت به فضاقت نفسي لافتقادي البرهان والدليل فقد كنت أدنت دون مستمسك متصوراً أنه قد أثبت ديني عليه في سجلاته وتبين لي أنني كنت واهماً.. كان أخي قد سرد عليه رؤياي ودفع له دينه والرجل يقول: لقد استلمت ديني وهو الآن في حل من أمري[1].

النص رقم(٢٤):

قال رسول الله ﷺ:

«من طلب مالاً من غير حلّه أفقره الله»[2].

الحكاية الثامنة عشرة: «إباء الخليفة»

إشتهى الخليفة الأموي اللبيب «عمر بن عبد العزيز» يوماً العنب ولم يكن لديه من المال ما يبتاع به شيئاً منه! فأتىٰ زوجته فاطمة وطلب منها درهماً يشتري به العنب فعلم منها أنها كذلك لا تملك مالاً.. إندهشت زوجة الخليفة وتساءلت من زوجها والأسف قد نال من قلبها منالاً: أمن المنطقي أن لا يكون بحوزة أمير المؤمنين درهم يبتاع به العنب.

أجاب الخليفة زوجته ببساطة بأنه يفضل هذا العوز علىٰ أن يصلىٰ نار

١ ـ دار السلام للنوري، بتصرف.

٢ ـ بحار الأنوار للمجلسي، المجلد ٦٦، ص ٣٨٢، ح ٤٤، طبعة بيروت.

جهنم التي ينالها المستغنون بأموال الناس[1].

النص رقم(٢٥):

عن أبي جعفر محمد الباقر عليه السلام، قال: ما من أحد يظلم مظلمةً إلّا أخذه الله بها في نفسه وماله، فأما الظلم الذي بينه وبين الله فإذا تاب غفر له[2].

النص رقم(٢٦):

قال الصــادق عليه السلام: من ارتكب أحداً بظلم بعث الله من ظلمه مثله أو على ولده أو على عقبه من بعده[3].

النص رقم(٢٧):

عن شيخ من نخع، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: إني لم أزل والياً منذ زمــن الحجاج إلى يومي هذا فهل لي من توبة؟ قال فسكت ثم أعدتُ عليه فقال: لا حتى تؤدي إلى كل ذي حق حقه.

النص رقم(٢٨)

في تفسير ينسب للإمام الحسن العسكري عليه السلام قال فيه: قال علي بن أبي طالب عليه السلام في قوله تعالىٰ ﴿فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾[4]: يا معاشر شيعتنا إتقوا الله واحذروا أن تكونوا لتلك النار حطباً، وإن لم تكونوا بالله كافرين فَتَوَقُّوها بتوقي ظلم إخوانكم، وإنه ليس من إخوانكم من ظلم أخاه المؤمن المشارك له في موالاتنا إلّا ثقل الله في تلك النار سلاسله وأغلالــه ولا

١ـ دروس من التاريخ، ص ٢١٩.

٢ـ بحار الأنوار للمجلسي، المجلد ٧٢، ص ٣١٣، ح ٢٢، طبعة بيروت.

٣ـ ثواب الأعمال، الشيخ الصدوق، ص ٢٤٣؛ بحار الأنوار، المجلسي، المجلد ٧٢، ص ٣١٣، ح ٢٣.

٤ـ سورة البقرة، الآية ٢٤.

يقاله منها إلّا شفاعتنا ولن نشفع له إلّا بعد أن نشفع في أخيه المؤمن فإن عفي عنه شفعنا وإلّا طال في النار مكثه[1].

النص رقم(٢٩):

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في حديث: فمن نال من رجل شيئاً من عِرضٍ أو مال وجب عليه الاستحلال من ذلك والانفصال من كل ما كان منه إليه وإن كان قد مات فليتنصل من المال إلى ورثته وليَتب إلى الله مما أتىٰ إليه حتى يطلع عليه عز وجل بالندم والتوبة والإنفصال[2].

مع المرحوم ميرداماد وردّ الأمانات إلى أهلها

يقول المرحوم ميرداماد في كتابه «منهاج الشارعين» في باب رد الأمانات إلى أهلها وعقاب ترك الرد: إعلم أن التقوى في أموال الآخرين وعدم الاستيلاء عليها واجب فقد جعل الله كما تدل الآية ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نِعمّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً﴾[3]، رد الأموال إلى أصحابها فريضة على كل امرئ. ويروىٰ عن رسول الله صلى الله عليه وآله أن رد درهم إلى الخصماء أفضل من عبادة سبعين سنة وعتق ألف رقبة وأداء ألف حجة وعمرة. كما أكد صلى الله عليه وآله أن من رد درهماً إلى خصمائه ينجيه الله عز مجده من نار جهنم ويمنحه ثواب الأنبياء لكل دانق[4] كما يهبه بلدة إزاء كل درهم.

ويؤكد الدر الأحمر نقلاً عن النبي صلى الله عليه وآله أن من يردّ أدنى الحقوق إلى

١ـ تفسير الامام العسكري (ع)، ص ٨٠؛ بحار الأنوار، المجلسي، المجلد ٧٢، ص ٣١٦، ح ٣٩.

٢ـ مستدرك الوسائل، للنوري، المجلد ١، ص ٣٤٣، الطبعة الحجرية.

٣ـ سورة النساء، الآية ٥٨.

٤ـ الدانق سدس الدرهم.

خصمائه يحجب الله تعالى عنه نار جهنم كما أمسك السماء عن الارض، وجعله يوم القيامة من الشهداء. وعنه ﷺ أيضاً أن من يرضي خصماً استوجب له دخول الجنة دون حساب ليكون فيها من أصحاب النبي إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام. وأيضاً عنه ﷺ بأن في الجنة بلداناً من النور لها بوابات من الذهب المكلل بالدر والياقوت وفي داخل المدائن قبب من المسك والزعفران ويطمح الناظر إليها أن يكون فيها. سئل إلى من تعود هذه المدائن؟ فقال بأنها تعود إلى النادمين عن الاستيلاء على مال الغير الذين ينالون رضى الخصماء لأن رد درهم إلى الخصماء لأفضل من صوم النهار وإحياء الليل إذ تنادي ملائكة من تحت العرش مبشرة عبد الله بأن يستأنف عمله لأنه نال الغفران من لدن الباري تعالىٰ.

وأشار رسول الله ﷺ أيضاً إلى إمارات ثلاث تظهر على المتوفى دون توبة وهي نفاد دموع عينيه (من كثرة البكاء) وأن لا تبقٰ دماء في بدنه إلّا وقد نزفت من أنفه ولا قيح إلّا وقد خرج من فمه بينما التائب يفتح عليه الله أبواب رحمته بعد أن يرضي خصمه وأنه (رسول الله «ص») ليضمن لمثل هذا الشخص الجنة[1].

النص رقم(٣٠)

سئل الإمام الصادق عليه السلام عن الآية: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ **قال: قنطرة على الصراط لا يجوزها عبد بمظلمة**[2].

النص رقم(٣١):

قال رسول الله ﷺ:

---

١ ـ منهاج الشارعين، ص ٢٩٩ ـ ٣٠١.

٢ ـ ثواب الأعمال، ص ٢٦١؛ بحار الأنوار، المجلد ٨، ص ٦٦، ح ٦.

«من خاف القصاص كف عن ظلم الناس»[1].

النص رقم(٣٢):

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«الظلم في الدنيا هو الظلمات في الآخرة»[2].

النص رقم(٣٣):

يروىٰ عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إياكم والظلم فإنه يخرب قلوبكم»[3].

النص رقم(٣٤):

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«الظلم ندامة»[4].**

النص رقم(٣٥):

قال الباقر عليه السلام: **«ما من أحد يظلم بمظلمة إلّا أخذه الله بها في نفسه وماله وأما الظلم الذي بينه وبين الله فإذا تاب غفر الله له»[5].**

النص رقم(٣٦):

قال الصادق عليه السلام:

---

١ ـ الأصول من الكافي، الكليني، المجلد ٢، ص ٣٣٥؛ بحار الأنوار، المجلد ٧٢، ص ٣٣١، ح ٦١.

٢ ـ ثواب الأعمال، ص ٢٤٢؛ بحار الأنوار، المجلد ٧٢، ص ٣١٢، ح ١٨.

٣ ـ صحيفة الرضا (ع)، الشيخ الصدوق، ص ٧؛ بحار الأنوار، المجلسي، المجلد ٧٢، ص ٣١٥، ح ٢٤.

٤ ـ بحار الأنوار، المجلسي، المجلد ٧٢، ص ٣٢٢، ح ٥٢.

٥ ـ الأصول من الكافي، الكليني، المجلد ٢، ص ٣٣٢؛ بحار الأنوار، المجلسي، المجلد ٧٢، ص ٣٣١، ح ٦٤.

«من ظلم مظلمة أُخذ بها في نفسه أو في ماله أو في ولده»[1].

النص رقم(٣٧):

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: ما من مظلمة أشد من مظلمة لا يجد صاحبها عليها عوناً إلّا الله عز وجل[2].

النص رقم(٣٨):

من وصايا الإمام علي بن الحسين عليه السلام عند وفاته:

«يا بني إياك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلّا الله»[3].

النص رقم(٣٩):

وعنه عليه السلام أيضاً:

«إتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة»[4].

النص رقم(٤٠):

قال الإمام علي عليه السلام:

«بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد»[5].

الحكاية التاسعة عشرة:«لص يجتر الحلية من صاحب المال»

١ـ الأصول من الكافي، الكليني، المجلد ٢، ص ٣٣٢؛ بحار الأنوار، المجلسي، المجلد ٧٢، ص ٣٣٠.

٢ ـ الأصول من الكافي، الكليني، المجلد ٢، ص ٣٣١؛ بحار الأنوار، المجلسي، المجلد ٧٢، ص ٣٢٩.

٣ـ الأمالي، الشيخ الصدوق، ص ١١٠؛ بحار الأنوار، المجلسي، المجلد ٧٢، ص ٣٠٨، ح ١، طبعة بيروت.

٤ـ الكافي، المجلد ٢، ص ٣٣١.

٥ـ الأمالي، ص ٢٦٧؛ عيون أخبار الرضا، المجلد ٢، ص ٥٤؛ بحار الأنوار، المجلد ٧٢، ص ٣٠٩، ح ٤، طبعة بيروت.

من الأمثال والاصطلاحات الفارسية التي درج استخدامها منذ نهضة التشريع المشروط، إصطلاح «سارق الزائر»، ومرده أن الحكومة الإيرانية كانت في بداية عهد المشروطة تقطع السبل والطرقات بوجه زائري العتبات المقدسة مما يصعب ترددهم.

تعرضت قافلة من قوافل الزائرين عند عودتها إلى ديارها إلى غارة المغيرين اللصوص الذين سلبوهم جميع أموالهم وبضاعتهم وأسروهم.

عثر لص من اللصوص تقدم به العمر، بين تلك الأموال والبضاعة على كفن يعود لأحد الزائرين فسأل أصحاب المال: لمن هذا الكفن؟

قال أحدهم: لي.

قال اللص: إنني لا احتفظ لنفسي بكفن، إهدني هذا الكفن لأكون في حل من أمره.

قال الزائر: وهبتك جميع أموالي إلّا هذا الكفن، أعده لنفسي فإنني على وشك أن أرحل عن الدنيا ليكون لباساً لآخرتي.

لم يأبه اللص لما سمع رغم أن محاولاته وإلحاحه باء بالفشل إذ أصر الزائر على رأيه.

شرع اللص في ضرب الزائر على وجهه ورأسه بالسوط ضرباً مبرحاً وهو يصرخ: سأضربك حتى تهديني إياه ليكون حلالاً.

صاح الزائر بعد أن ناله ما ناله من ضربات السوط التي أنفدت تحمله: ليكن حلالاً طيباً، ليكن حلالاً طيباً، أحلّ لك من حليب أمك (وللقارئ أن يفطن للمراد بهذا المثل بعد مطالعة حكايته الواقعية).

النص رقم(٤١):

عن الإمام الباقر عليه السلام:

«ما يأخذ المظلوم من دين الظالم أكثر مما يأخذ الظالم من دنيا المظلوم»[1].

النص رقم(٤٢):

عن الصادق عليه السلام:

«من أكل من مال أخيه ظلماً ولم يَرُدَّ عليه أكل جذوة من النار يوم القيامة»[2].

النص رقم(٤٣):

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أفضل الجهاد من أصبح لا يَهُمُّ بظلم»[3].

النص رقم(٤٤):

من كلام للإمام علي عليه السلام:

«ولئن أمهل الظالم فلن يفوتَ أخذُه، وهو له بالمرصاد على مجاز طريقه، وبموضع الشجىٰ من مساغ ريقه»[4].

النص رقم(٤٥):

ومن كلام للإمام علي عليه السلام كلَّم به عبد الله بن زَمعة، وهو من شيعته، وذلك حين قدم عليه في خلافته يطلب منه مالاً، فقال عليه السلام:

«إن هذا المال ليس لي ولا لك، وإنما هو فيء للمسلمين وجلبُ أسيافهم، فإن شركتهم في حربهم كان لك مثل حظّهم، وإلّا فجناة أيديهم لا تكون لغير

١ـ الكافي، المجلد ٢، ص ٢٣١.

٢ـ ثواب الأعمال، ص ٢١٦؛ بحار الأنوار، المجلد ٧، ص ٢١٩، ح ١٣١.

٣ـ بحار الأنوار، المجلد ٧٥، ص ٣١٣.

٤ـ نهج البلاغة، الخطبة ٩٧.

أفواههم»[1].

النص رقم(٤٦):

قال الباقر عليه السلام:

«الظلم ثلاثة: ظلم يغفره الله وظلم لا يغفره الله وظلم لا يدعه الله. فأما الظلم الذي لا يغفره فالشرك وأما الظلم الذي يغفره فظلم الرجل نفسه فيما بينه وبين الله عز وجل. وأما الظلم الذي لا يدعه فالمداينة بين العباد»[2].

النص رقم(٤٧):

قال الإمام علي عليه السلام:

«يوم المظلوم على الظالم أشدُّ من يوم الظالم على المظلوم»[3].

القرآن والعدوان على العباد

تضمنت آيات عديدة من القرآن الكريم قوله تعالى حول تعدي الإنسان على أخيه الإنسان، يخرج ذكرها جميعاً عن نطاق بحثنا هذا، ولكننا نكتفي هنا باستعراض أربع من هذه الآيات:

النص رقم(٤٨):

﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق، أولئك لهم عذاب أليم﴾[4].

١ـ نهج البلاغة، الخطبة ٢٣٣.

٢ـ الكافي، المجلد ٢، ص ٣٣٠.

٣ـ نهج البلاغة، قصار الحكم، ٢٤١.

٤ـ سورة الشورى، الآية ٤٢.

النص رقم(٤٩):

﴿ومن يظلم منكم نُذقه عذاباً كبيراً﴾[١].

النص رقم(٥٠):

﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا* يا ويلتىٰ ليتني لم اتخذ فلاناً خليلا* لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا﴾[٢].

النص رقم(٥١):

﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾[٣].

١ـ سورة الفرقان، الآية ١٩.

٢ـ سورة الفرقان، الآيات ٢٧ ـ ٢٩.

٣ـ سورة إبراهيم، الآية ٤٢.

أحكام الصلاة وحق الناس

في مكان المصلي:

المسألة (١): كل مكان يجوز الصلاة فيه إلّا المغصوب عيناً أو منفعة، وفي حكمه ما تعلق به حق الغير كالمرهون، وحق الميت إذا أوصىٰ بالثلث ولم يخرج بعد، بل ما تعلق به حق السبق بأن سبق شخص إلى مكان من المسجد أو غيره للصلاة مثلاً ولم يعرض عنه على الأحوط، وإنما تبطل الصلاة في المغصوب إن كان عالماً بالغصبية وكان مختاراً، من غير فرق بين الفريضة والنافلة، أما الجاهل بها والمضطر والمحبوس بباطل فصلاتهم والحالة هذه صحيحة وكذا الناسي لها إلّا الغاصب نفسه، فإن الأحوط بطلان صلاته. وصلاة المضطر كصلاة غيره بقيام وركوع وسجود.

المسألة (٢): الأرض المغصوبة المجهول مالكها لا يجوز الصلاة فيها ويرجع أمرها إلى الحاكم الشرعي، ولا تجوز أيضاً في الأرض المشتركة إلّا بإذن جميع الشركاء.

المسألة (٣): لا تبطل الصلاة تحت السقف المغصوب وفي الخيمة المغصوبة والصهوة والدار التي غصب بعض سورها إذا كان ما يصلى فيه مباحاً، وإن كان الأحوط الاجتناب في الجميع.

المسألة (٤): لو اشترى داراً بعين المال الذي تعلق به الخمس أو الزكاة تبطل الصلاة فيها، إلّا إذا جعل الحق في ذمته بوجه شرعي كالمصالحة مع المجتهد، وكذا لا يجوز التصرف مطلقاً في تركة الميت المتعلقة بالزكاة والخمس وحقوق

الناس كالمظالم قبل أداء ما عليه، وكذا إذا كان عليه دين مستغرق للتركة، بل وغير المستغرق، إلّا مع رضا الديان، أو كون الورثة بانين على الأداء غير متسامحين، والأحوط الاسترضاء من ولي الميت أيضاً.

المسألة (٥): المدار في جواز التصرف والصلاة في ملك الغير على إحراز رضاه وطيب نفسه وإن لم يأذن صريحاً بأن علم ذلك بالقرائن وشاهد الحال وظواهر تكشف عن رضاه كشفاً اطمئنانياً لا يعنى باحتمال خلافه، وذلك كالمضايف المفتوحة والأبواب والحمامات والخانات ونحو ذلك.

المسألة (٦): يجوز الصلاة في الأراضي المتسعة كالصحاري والمزارع والبساتين التي لم يبن عليها الحيطان، بل وسائر التصرفات اليسيرة مما جرت عليه السيرة كالاستطراقات العادية غير المضرة والجلوس والنوم فيها وغير ذلك، ولا يجب التفحص عن مالكيها من غير فرق بين كونهم كاملين أو قاصرين كالصغار والمجانين، نعم مع ظهور الكراهة والمنع عن ملاكها ولو بوضع ما يمنع المارة عن الدخول فيها يُشكل جميع ما ذكر وأشباهها فيها إلّا في الأراضي المتسعة جداً كالصحاري التي من مرافق القرىٰ وتوابعها العرفية ومراتع دوابها ومواشيها، فإنه لا يبعد فيها الجواز مع ظهور الكراهة والمنع.

المسألة (٧): المراد بالمكان الذي تبطل فيه الصلاة بغصبه ما استقر عليه المصلي ولو بوسائط على إشكال فيه، وما شغله من الفضاء في قيامه وركوعه وسجوده ونحوها، فقد يجتمعان كالصلاة في الأرض المغصوبة وقد تفترقان كالجناح المباح الخارج إلى فضاء غير مباح وكالفرش المغصوب المطروح على الأرض غير مغصوبة.

في ستر المصلي:

المسألة (٨): يعتبر في الساتر بل مطلق لباس المصلي أمور: الأول: الطهارة إلّا فيما لا تتم الصلاة فيه منفرداً، الثاني: الإباحة، فلا يجوز في المغصوب مع العلم

بالغصبية، فلو لم يعلم بها صحت صلاته، وكذا مع النسيان إلّا في الغاصب نفسه فلا يترك الاحتياط بالإعادة.

المسألة (٩): لا فرق بين كون المغصوب عين المال أو منفعته أو متعلقاً لحق الغير كالمرهون، ومن الغصب عيناً ما تعلق به الخمس أو الزكاة مع عدم أدائهما ولو من مال آخر.

المسألة (١٠): إبان صبغ الثوب بصبغ مغصوب فمع عدم بقاء عين الجوهر الذي صبغ به، ـوالباقي هو اللون فقط ـ تصح الصلاة فيه على الأقوىٰ، وأما لو بقي عينه فلا تصح على الأقوىٰ.

الخمس:

وهو الذي جعله الله تعالى لمحمدﷺ وذريته كثر الله نسلهم المبارك عوضاً عن الزكاة التي هي من أوساخ أيدي الناس إكراماً لهم، ومن منع منه درهماً كان من الظالمين لهم والغاصبين لحقهم، فعن مولانا الصادقعليه السلام «إن الله لا إله إلّا هو لمّا حرّم علينا الصدقة أنزل لنا الخمس، فالصدقة علينا حرام والخمس لنا فريضة والكرامة لنا حلال»، وعنهعليه السلام «لا يعذر عبد اشترى من الخمس شيئاً أن يقول يا ربّ اشتريته بمالي حتى يأذن له أهل الخمس» وعن أبي جعفر عـليه السلام «ولا يحل لأحد أن يشتري من الخمس، شيئاً حتى يصل إلينا نصيبنا».

احكام الحلال المختلط بالحرام

١ ـ الحلال المختلط بالحرام مع عدم تميّز صاحبه أصلاً ولو في عدد محصور وعدم العلم بقدره كذلك، فانه يخرج منه الخمس حينئذ، أما لو علم قدر المال فان علم صاحبه دفعه إليه ولا خمس عليه، بـل لو عـلمه في عـدد محـصور فالأحوط التخلص منهم، فان لم يمكن فالأقوى الرجوع الى القرعة، ولو جهل صاحبه أو كان في عدد غير محصور تصدق باذن الحاكم على الأحوط على من شاء ما لم يظنه بالخصوص، وإلّا فلا يترك الاحتياط بالتصدق به عليه إن كان

محلاً له، نعم لا يجدي ظنه بالخصوص في المحصور، ولو علم المالك وجهل بالمقدار تخلّص منه بالصلح ومصرف هذا الخمس كمصرف غيره على الأصح.

٢ـ لو علم أن مقدار الحرام أزيد من الخمس، ولم يعلم مقداره فالظاهر كفاية إخراج الخمس في تحليل المال وتطهيره، إلّا أن الأحوط مع اخراج الخمس المصالحة عن الحرام مع الحاكم الشرعي بما يرتفع به اليقين بالاشتغال وإجراء حكم مجهول المالك عليه، وأحوط منه تسليم المقدار المتيقن الى الحاكم والمصالحة معه في المشكوك فيه، ويحتاط الحاكم بتطبيقه على المصرفين.

٣ـ لو كان حق الغير في ذمته لا في عين ماله لا محل للخمس، بل حينئذ لو علم مقداره ولم يعلم صاحبه حتى في عدد محصور تصدق بذلك المقدار عن صاحبه باذن الحاكم الشرعي أو دفعه إليه، وإن علم صاحبه في عدد محصور فالأقوى الرجوع الى القرعة، وإذا لم يعلم مقداره وتردد بين الأقل والأكثر أخذ بالأقل ودفعه الى مالكه لو كان معلوماً بعينه، وإن كان مردداً بين محصور فحكمه كما مرّ، ولو كان مجهولاً أو معلوماً في غير محصور تصدق به كما مرّ، والأحوط حينئذ المصالحة مع الحاكم بمقدار متوسط بين الأقل والأكثر، فيعامل معه معاملة معلوم المقدار.

٤ـ لو كان الحرام المختلط بالحلال من الخمس أو الزكاة أو الوقف الخاص أو العام فهو كمعلوم المالك ولا يجزيه إخراج الخمس.

٥ـ لو كان الحلال الذي في المختلط مما تعلق به الخمس وجب عليه بعد تخميس التحليل خمس آخر للمال الحلال الذي فيه، ولو الاكتفاء باخراج خمس القدر المتيقن من الحلال إن كان أقل من خمس البقية بعد تخميس التحليل، وبخمس البقية إن كان بمقداره أو أكثر على الأقوى والأحوط المصالحة مع الحاكم في موارد الدوران بين الأقل والأكثر.

٦ـ لو تبين المالك بعد إخراج الخمس ضمنه، فعليه غرامته له على الأحوط، ولو علم بعد إخراج الخمس أن الحرام أقل منه لا يسترد الزائد، ولو علم أنه

أزيد منه فالأحوط التصدق بالزائد، وإن كان الأقوى عدم وجوبه لو لم يعلم مقدار الزيادة.

٧ـ لو تصرف في المال المختلط بالحرام بالاتلاف قبل إخراج الخمس تعلق الحرام بذمته، والظاهر سقوط الخمس، فيجري عليه حكم ردّ المظالم، وهو وجوب التصدق، والأحوط الاستئذان من الحاكم، كما أن الأحوط دفع مقدار الخمس إلى الهاشمي بقصد ما في الذمة باذن الحاكم، ولو تصرف فيه بمثل البيع يكون فضولياً بالنسبة الى الحرام المجهول المقدار، فان أمضاه الحاكم يصير العوض إن كان مقبوضاً متعلقاً للخمس بصيرورته من المختلط بالحرام الذي لا يعلم مقداره ولم يعرف صاحبه، ويكون المعوض بتمامه ملكاً للمشتري، وإن لم يمضه يكون العوض المقبوض من المختلط بالحرام الذي جهل مقداره وعلم صاحبه، فيجري عليه حكمه، وأما المعوض فهو باقٍ على حكمه السابق، فيجب تخميسه ولولي الخمس الرجوع إلى البائع، كما أن له الرجوع إلى المشتري بعد قبضه.

الجزء الثاني

الفصل الاول

مفاســد الحرام في المال والطعام

بسم الله الرحمن الرحيم

إن ما يتناوله الإنسان من طعام يواطئ في أثره مـا يـنثره مـن بـذور في الأرض الزراعية، فإن طاب مأكله وتطهر تجلى انعكاسه في رقة وصفاء القلب وهو سلطان الجسم ولن يترشح عن أعضائه وجوارحه إلّا الخير والبركة. أما إذا ورد الأحشاء ما اختلط بحرام وشبهة فردوده تعكر صفو القلب وانسدال غشاوة عليه ويزول، إثر انغماسه في القسوة والضلال، كل أمل في انبعاث الخير منه وفي انصياعه لأي نصيحة وارشاد. وهذا ما نستشفه من كلام سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليه السلام وهو يخاطب عسكر ابن سعد فيما قال:

«ملئت بطونكم من الحرام وطبع على قـلوبكم. ويـلكم ألا تـنصفون، ألا تسمعون»[1].

وبايجاز نقول ان أكل الحرام يضفي القساوة والضلال على القلب فيأبىٰ تقبل كل حق والانقياد إليه ويوصد أبوابه بوجه كل نصيحة بل لا تعفو نفسه عن أية جريمة وجريرة.

أثر الحرام في المال والطعام

إن إقحام الحرام في المال يذهب بركته. جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «من

١ ـ نفس المهموم.

كسب مالاً من غير حل سلط الله عليه البناء والماء والطين»[1].

إي يبدو له أنه يعمر فينفق ماله وعمره فيما لا ينفع دنياه ولا آخرته وكأن تلك القطعة من الأرض انتدبت لتبتلع ماله.

فالحرام في المال والطعام يحجب العبادات عن نيل القبول. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«من أكل الحلال قام على رأسه ملك يستغفر له حتى يفرغ من أكله». وقال: «إذا وقعت اللقمة من حرام في جوف العبد لعنه كل ملك في السموات والأرض وما دامت اللقمة في جوفه لا ينظر الله إليه... ومن أكل اللقمة من الحرام فقد باء بغضب من الله فإن تاب، تاب الله عليه وإن مات فالنار أولى به»[2].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً:

«العبادة مع أكل الحرام كالبناء على الرمل (وقيل على الماء)»[3].

أي أن عبادات من لا يتورع عن الحرام تذهب سدى بالضبط كالبناء المشيد دون أساس متين يتداعى دون أن ينال معمره فائدة منه.

المتدنس بالحرام لا يلبى له دعاء:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«من اكل لقمة حرام لم تقبل له صلاة أربعين ليلة ولم تستجب له دعوة أربعين صباحاً وكل لحم ينبته الحرام فالنار أولى به»[4].

وقال أيضاً:

١ـ بحار الأنوار، المجلد ١٠٠، ص ٤.

٢ـ بحار الأنوار، المجلد (٦٣)، ص ٣١٤.

٣ـ بحار الأنوار، المجلد (٨١)، ص ٢٥٨.

٤ـ بحار الأنوار، المجلد (٦٣)، ص ٣١٤.

«من أحب أن يستجاب دعاؤه فليطيب مطعمه وكسبه»[1].

وفيما وعظ الله تعالى به عيسى بن مريم عليه السلام:

«قل لظلمة بني اسرائيل لا تدعوني والسحت تحت أقدامكم والأصنام في بيوتكم، فإني آليت أن أجيب من دعاني، وإن إجابتي إياهم لعناً لهم حتى يتفرقوا»[2].

إن قراءنا الكرام في غنى عن التنبيه إلى ان الإنسان يعتمد في جميع أعماله ونشاطاته على الطاقة المتحررة من المواد الغذائية التي يتناولها ولهذا تكتسب أعماله عفوياً ملامح الحرام فيما لو تم توفير أو إعداد المواد الغذائية والأطعمة بأسلوب يشوبه الحرام بينما يكسب طيب المأكل، الإنسان صفاء ونوراً وكما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لكميل بن زياد:

«يا كميل! القلب واللسان يقومان بالغذاء فإن لم يكن ذلك من وجهه وحِلّه لم يتقبل الله لك تسبيحاً ولا شكراً»[3].

إذاً، يتحد نهج حياة الإنسان تحت طائل نوع طعامه إن كان من حلّ أو حرام، فالطعام الحرام يعيث في روح الإنسان فساداً كما يتسبب الغذاء المتفسخ في تسمم جسمه وفي إفساد حاله.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«يا أبا ذر! كن بالعمل بالتقوى أشدّ اهتماماً منك بالعمل فإنه لا يقل عمل بالتقوى. وكيف يقلّ عمل يتقبل. يقول الله عز وجل: ﴿إنما يتقبل الله من

١ـ عدة الداعي، ص ١٣٩.

٢ـ المصدر السابق، ص ١٤١.

٣ـ بعض المصادر تنقل هذا النص عن الإمام علي (ع) على النحو التالي:

«يا كميل! إن اللسان يبوح من القلب والقلب يقوم من الغذاء فانظر فيما تغذي قلبك وجسمك. فإن لم يكن ذلك حلالاً لم يقبل الله تسبيحك ولا شكرك. (تفسير الشاه عبد العظيمي، المجلد ١، ص ٢١٦).

المتقين﴾[1]».

يا أبا ذر! لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه فيعلم من أين مطعمه ومن اين مشربه ومن أين ملبسه أمن حل ذلك أم من حرام؟

يا أبا ذر! من لم يبال من اين اكتسب المال، لم يبال الله عز وجل من أين أدخله النار»[2].

وقد خاطب الله عز وجل الرسول الكريم بقوله عز من قائل:

«يا أحمد! إن العبادة عشرة أجزاء، تسعة منها طلب الحلال فإذا طيبت مطعمك ومشربك فأنت في حفظي وكنفي»[3].

قال علي عليه السلام:

«الانقباض عن المحارم من شيم العقلاء وسجية الأكارم»[4].

قال علي عليه السلام:

«لو لم ينه الله سبحانه عن محارمه لوجب أن يتجنبها العاقل»[5].

وعنه عليه السلام أيضاً:

«طرف المؤمن نزاهته عن المحارم ومبادرته إلى المكارم»[6].

وعنه:

«أحسن رعاية الحرمات وأقبل على أهل المروءات»[7].

١ـ سورة المائدة، الآية ٢٧.

٢ـ نهج الخطابة، المجلد الأول، ص ٤٤٠.

٣ـ المصدر السابق، ص ٣١٦.

٤ـ مستدرك الوسائل.

٥ـ ميزان الحكمة، المجلد (٣)، ص ١١٢٢.

٦ـ المصدر نفسه.

٧ـ ميزان الحكمة، المجلد (٣)، ص ١١٢٢.

وعنه:

«إذا رغبت في المكارم فاجتنب المحارم»[1].

«من أحسن المكارم تجنب المحارم»[2].

تمحص رسول الله (ص) في طعامه:

يروى عن:

«أم عبد الله أخت شداد بن أوس أنها بعثت إلى النبي (ص) بقدح لبن عند فطره وهو صائم فرد إليها رسولها: أنّىٰ لك هذا اللبن؟ قالت: من شاة لي فردّ إليها رسولها: أنّى لك الشاة؟ فقالت اشتريتها من مالي فشرب منه.

فلما كان من الغد أتته أم عبد الله فقالت: يا رسول الله! بعثت إليك بلبن فرددت إليّ الرسول فيه!

فقال لها: بذلك أمرت الرسل قبلي أن لا تأكل إلّا طيباً ولا تعمل إلّا صالحاً»[3].

أفراح تفرز أحزاناً:

قال رسول الله ﷺ:

«من فرح بأربعة حزن في أربعة. من فرح بطول البقاء حزن عند الموت، من فرح بسعة البيت حزن عند ضيق القبر ومن فرح عند المعصية حزن عند العقوبة ومن فرح بأكل الحرام حزن عند الحساب»[4].

١ـ المصدر نفسه.

٢ـ المصدر نفسه.

٣ـ الدر المنثور، المجلد (٦)، ص ١٠٢ ونقلاً عنه ميزان الحكمة، المجلد (٣)، ص ١٢٨.

٤ـ الاثني عشرية، آية الله المشكيني، ص ٢١٤.

والله ما أكل علي (ع) من الدنيا حراماً:

«عن فخر الطائفة وسنادها وذخرها وعمادها محمد بن محمد بن نعمان المفيد(رض) في الإرشاد: عن سعيد بن كلثوم عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام، قال: والله ما أكل علي بن أبي طالب عليه السلام من الدنيا حراماً قط حتى مضى لسبيله وما عرض له أمران كلاهما لله رضا، إلّا أخذ بأشدهما عليه في بدنه (دينه) وما نزلت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نازلة قط إلّا دعاه ثقة به وما أطاق أحد عمل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من هذه الأُمة غيره وإن كان ليعمل عمل وجل كان وجهه بين الجنة والنار يرجو ثواب هذه ويخاف عقاب هذه.

ولقد اعتق من ماله ألف مملوك في طلب وجه الله والنجاة من النار مما كد بيديه ورشح منه جبينه وأنه كان ليقوت أهله بالزيت والخل والعجوة[1] وما كان لباسه إلّا كرابيس إذا فضل شيء عن يده دعا بالجَلَم[2] فقصَّه.

وما أشبهه من ولده ولا أهل بيته أحد أقرب شبهاً به في لباسه وفقهه من علي بن الحسين عليه السلام ولقد دخل أبو جعفر عليه السلام ابنه عليه فإذا هو قد بلغ من العبادة ما لم يبلغه أحد فرآه قد اصفرّ لونه من السهر ومضت عيناه من البكاء ودبرت جبهته وانخرم انفه من السجود ورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة.

وقال أبو جعفر عليه السلام فلم أملك حين رأيته بتلك الحال البكاء فبكيت رحمة له فاذا هو يفكر فالتفت إليّ بعد هنيهة من دخولي، فقال: يا بنيّ اعطني بعض تلك الصحف التي فيها عبادة علي بن أبي طالب عليه السلام فاعطيته فقرأ فيها شيئاً يسيراً ثم تركها من يده تضجراً وقال: من يقوى على عبادة علي بن أبي

---

١ ـ العجوة: ضرب من التمر.

٢ ـ الجَلَم: مقص كبير يجز به التمر (معجم لاروس).

طالب عليه السلام»[1].

عقاباً علامَ صببت هذا الزقوم في فمي؟!

كتب المرحوم السيد جلال الدين همائي عن أستاذه آية الله دريچه‌اي:

عاش في منتهى البساطة وصفاء الروح، ساهياً عن شؤون الدنيا كأنه ملاك هبط من السماء واختار صحبة العباد لهدايتهم إلى سبيل الرشاد. شهدت مراراً تسليمه مبالغ طائلة من سهم الإمام فلم يتقبل منها «ديناراً»[2] مع كونه ـ حسب علمي ـ لم يملك أكثر من أربعة أو خمسة شاهيات[2]. ولما استفسرت عن السبب أجابني: إنني حالياً لست مديناً ولله الحمد ومن يدري ماذا يخبئ لنا الغد وبعد غد ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾[3]. ربما اهتضم حقوق الفقراء إن تقبلت شيئاً من هذه الأموال.

حدث أنني شهدت تسليمه اربعمائة أو خمسمائة توماناً بما تضاهي قيمتها الاربعمائة أو الخمسمائة ألف تومان في وقتنا الراهن ولكنه لم ينل منها أكثر من بضعة ريالات على قدر دينه.

كان يسارع إلى إدخال أنامله إلى حلقه لتقيؤ ما تناوله إن تنبه إلى دخوله في حكم المشتبه فيه. وهذا ما رأيته بأم عيني ذات مرة. والحكاية أنه: وجه أحد التجار الأثرياء الدعوة إليه وإلى مجموعة من العلماء وطلاب الحوزة العلمية. ازدانت سُفرته بمختلف أنواع الأطعمة. كان قد أسرف في التكلف والتنوع. تناول المرحوم كعادته القليل من الطعام. وبعد الفراغ من تناول الطعام والاغتسال جاء المضيف بوثيقة تتضمن مسألة حرمها الشرع يطلب من هذا

١ـ الأربعون حديثاً، الإمام الخميني (ره)، ص ٣٧٢.

٢، ٢ ـ «دينار» و «شاهي» عملتان زهيدتان جداً كالفلس كانتا متداولتي الاستعمال في ايران ولهما قيمة لا بأس بها في تلك الفترة أي قبل أكثر من ثلاثة عقود.

٣ـ سورة لقمان، الآية (٣٤).

العالم توقيعها فالتفت سماحته إلى أن الضيافة إنما كانت مقدمة لتوقيع هذه الوثيقة. وبذلك اختلط الطعام بشبهة الرشوة. امتقع لونه وارتعدت فرائصه. راح يوجّه العتاب الىٰ مضيفه قائلاً: «وعقاباً علامَ صببت هذا الزقوم في فمي؟!. لِمَ لم تقدم لي هذه الورقة قبل الغداء لامتنع عن تناول الطعام». نهض مضطرباً وراح يهرول نحو المدرسة فجلس إلى حافة حديقة المدرسة أمام باب غرفته وأدخل إصبعه الى حلقه ولم يهدأ روعه حتى تقيأ كل ما كان في جوفه. لقد حذا المرحوم «دريچهاي» في سلوكه هذا حذو مقتداه أمير المؤمنين علي عليه السلام. إن الخطبة (٢٢٤) من نهج البلاغة تشير إلى موقف قائد لم يستسلم لهوى النفس وأحكم هيمنته على مقاليد عقله عندما جاءه شخص يدعى «الاشعث بن قيس» بحلوى يسيل لها لعاب الناظر إليها. فيمتعض عليه السلام لرؤيتها وكأنها صنعت من ريق حية أو قيئها، فأخذ يسأل عن حليتها وحرمتها، فالصلة والزكاة والصدقة محرمة على أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقال له الأشعث بأنها لا هذه ولا تلك بل هي هدية. لكن الخطة لم تمرر على صاحب النفس الأبية، فقد شم منها رائحة الرشوة ونهر صاحبها وردها إليه[1].

الرشوة تحت غطاء الهدية:

كان الاشعث بن قيس (قائد فرقة المنافقين) من أدنياء المحتالين ومن ألد أعداء الإمام علي عليه السلام. جاء بأعظم خيانة في حق الإمام علي عليه السلام في معركة صفين أثناء التحكيم، ويعتبر المؤجج الأول لنار معركة نهروان، حتى يذهب ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة أن ما من فتنة اندلعت وفساد تفشىٰ في عهد خلافة علي عليه السلام إلّا كان الأشعث مصدره ومثيره.

أقام مناراً على سطح داره. كان كلما تعالىٰ صوت الأذان من مسجد الكوفة الكبير معلناً حلول وقت الصلاة يعتلي مناره ويخاطب الإمام علي عليه السلام بصوت

---

١ ـ مجلة حراس الثورة، نقلاً عن «سياى فرزانگان» (مظاهر العقلاء)، ص ٤٣٧.

مرتفع وهو يتهمه بأنه يغالي في الكذب ويتمادىٰ في السحر[1].

قال الإمام الصادق عليه السلام: إن الأشعث بن قيس شرك في دم أمير المؤمنين عليه السلام وابنته جعدة سمّت الحسن عليه السلام ومحمد ابنه شرك في دم الحسين عليه السلام»[2].

لنعود إلى أصل الحكاية:

ارتأى الأشعث بن قيس أن يتزلف إلى دار الخلافة بتقديم هدية إلى الإمام علي عليه السلام تمهد له تحقيق مآربه المادية الدنيوية. أي أنه في واقع الأمر لجأ إلىٰأسلوب الإرشاء تحت غطاء الهدية.

بعد صنع الحلوى صبها في جرة ومضىٰ ليلاً إلى دار علي عليه السلام. قرع الباب.. ولما فتحه علي عليه السلام قدمها له.

استمعوا إلى التفاصيل على لسان الإمام عليه السلام:

«طرقنا بملفوفة في وعائها، ومعجونة شنئتها كأنما عجنت بريق حية أوقيئها. فقلت: أصلة أم زكاة أم صدقة؟ فذلك محرم علينا أهل البيت![3].

فقال: لا ذا ولا ذاك، ولكنها هدية.

فقلت: هبلتك الهبول! أعن دين الله اتيتني لتخدعني.. أمختبط أنت أم ذو جنة أم تهجر؟ والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها، على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب (خلمة) شعيرة ما فعلته وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها. ما لعلي ولنعيم يفنىٰ ولذة لا تبقىٰ. نعوذ بالله من

---

١ ـ راجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، المجلد (٢)، ص ٢٧٩، وكذلك الخطبة (١٩) من نهج البلاغة، جاء فيها ذكر حقيقة الأشعث بن قيس.

٢ ـ اصول الكافي، المجلد (٨)، ص(١٦٧).

٣ ـ الصدقة المستحبة لم تحرم على السادة من ذرية الرسول (ص) ولكن المقصود بعبارة «أهل البيت» هنا هم بالضبط «أصحاب الكساء» الذين حرمت عليهم الصدقة المستحبة أيضاً.

سبات العقل وقبح الزلل وبه نستعين»[1].

هكذا رفض أمير المؤمنين عليه السلام رشوة قدمها إليه الأشعث تحت غطاء الهدية وفشل إغواء الأشعث (ذلك الرجل المرائي المختال) من إخراج الإمام عليه السلام عن جادة العدل والإنصاف[2].

آية الله الحائري وطعام الحرام:

عن حلال الطعام وحرامه، يقول آية الله الحائري: إن للطعام الحلال دور حاسم في حياة الجنين كما للطعام الحرام أثر عجيب في شقاء الأبناء.

يستند آية الله الحائري في ذلك إلى ما كان من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما تقرر نقل قبس من نوره إلى زوجته خديجة الكبرى عليها السلام استعداداً لإنجاب الزهراء عليها السلام، حيث أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يعتزل الناس فاعتزلهم أربعين ليلة في غار حراء وكذلك فعلت خديجة في دارها وانشغلت بالعبادة ولم تستقبل أحداً قط خلال هذه الفترة. وبعد انتهاء الأربعين يوماً أمر جبرائيل عليه السلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن يعود إلى داره فقرع الباب. تساءلت خديجة عليها السلام ومن يكون الطارق وهي تعلم أنه لا يحق لغير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يطرق بابها فعلمت أنه رسول الله ثم دخل عليها. جاءهما جبرائيل بطعام من الجنة وأمرهما أن يمنعانه عن سواهما ثم أمر بنقل قبس الزهراء عليها السلام إلى خديجة التي قالت بأنها أحست بقبس الزهراء ينتقل إليها بعد أن ترك الرسول فراشها.

نستوحي مما ذكر أن للطعام سواء حله أو حرامه دوراً خارقاً، فيشقى الطفل بتأثير حرامه. أما المشتبه فإنه يعرضه للخطر، خطر قد يزول بالبسملة والدعاء والتضرع. أما الحرام فلا يتيسر التخلص من تبعاته أبداً. فالويل للطفل إن عقدت نطفته من طعام محرم وما أسوأ مصير طفل نمئ على مال مصدره

١ـ راجع نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤.

٢ـ قصص نهج البلاغة، محمدي اشتهاردي.

الربا أو غش في المعاملة. وما أكثر الأحاديث والروايات التي تشير إلى مدى أهمية حلية الطعام أو حرمته!

اجتنبوا الطعام المحرم:

من الحكايات التي أشير إليها في المجلد الأول من الكتاب حكاية القاضي شريك بن عبد الله بن سنان بن انس النخعي وكان زاهداً عالماً فقيهاً فهماً ذكياً فطناً عادلاً وقد صرف وجهه في عهد المهدي العباسي عن المهدي وقصره فقررت الزمرة الشيطانية يوماً ان تستجره إليها، فاستدعاه المهدي وجرى بينهما ما سلف ذكره من حديث أوقع الرجل في شراك أكل الحرام في وليمة أقامها له المهدي. فراح بعد انصرافه من عند مضيفه يراود نفسه أن يولي القضاء لهم عساه يحل مشكلة لأحد المسلمين ثم ما المانع أن يعلم أولادهم وينال الوجاهة بهم؟. فجاء المهدي في اليوم التالي معلناً عن قبوله تسلم منصب القضاء وكذلك مسؤولية التعليم.

جاء في القرآن الكريم ﴿أرأيتَ من اتخذ إلهه هواه﴾[1] وهذا ما حدث في نفس شريك القاضي فخصص له مرتب كبير. وفي يوم ما كتب بارزاقه إلى الجهبذ ثم ضايقه لنقص كان في المبلغ. فقال له الجهبذ: «إنك لم تبع بُراً». قال شريك: «بلىٰ والله، لقد بعت أكبر من البُر، لقد بعت ديني»[2].

إن هذه الحكاية تنبأنا أن الطعام الحرام قد ترك أثره في الرجل فابتأس شريك المنزه. إذاً، أمعنوا في طعامكم واحذروا حرامه لعظم مردوده السيىء فيكم وفي أبنائكم وزوجاتكم. فأول مصائبه قساوة القلب، قساوة جاء ذكرها في الآية الشريفة: ﴿فويلٌ للقاسيةِ قُلوبهم من ذكر الله﴾[3].

---

١ ـ سورة الفرقان، الآية (٤٣).

٢ ـ سفينة البحار، المجلد (١)، ص (٦٩٧)، مادة «شرك».

٣ ـ سورة الزمر، الآية ٢٢.

ونقرأ في الروايات أن رسول الله ﷺ قال: «لرد المؤمن حراماً يعدل عند الله سبعين حجة مبرورة»[1]. ولم لا؟ واللقمة الواحدة قد تحول شريك البار إلى شيطان مارد وتدنس الطفل وتحجب عنه الفلاح. فإن رأيت في نفسك وهناً لأداء العبادات وصلاة الليل، تثاقلاً عن قراءة القرآن فتمحص في طعامك ورزقك أهما من حل أم لا؟ أفيهما شبهة أم لا؟. فمن الأمور التي توهن الإنسان لأداء عباداته وتجرئه على ارتكاب المعاصي وحتى الكبائر هو إقحام الحرام في المال أو في الطعام.

يروىٰ أن الإمام الحسين عليه السلام، لما ورد على العقيلة زينب عليها السلام وقد جرحت جبهته بصخرة قذفت إليه، سألته أولم يقدم نفسه إليهم؟ فرد عليها بالإيجاب معللاً بانهم قوم ملئت بطونهم من الحرام. وكان عليه السلام يقصد أن قول الحق لا ينفذ إلى قلوبهم، فالحرام قد تغلغل إلى أجوافهم وحجب عنهم جاذبية كلامه عليه السلام. إن طعام الحرام اينما حل يجعل فلاح الطفل من المعسور المتعذر. ولهذا تؤكد الروايات العديدة على ضرورة النأي عن طعام الحرام وتجنب انعقاد النطفة منه. وتحرزاً من مثل هذا أولى رسول الله ﷺ والائمة الطاهرين عليهم السلام وأصحابهم قضية أداء حق الناس أهمية بالغة.

قبيل وفاته ارتقىٰ رسول الله ﷺ المنبر فما كان منه إلّا أن يبدأ كلامه مع المسلمين بان حساب حق الناس من أعسر ما يواجهه الناس في يوم القيامة: «إن ربي عز وجل حكم وأقسم أن لا يحوزه ظلم ظالم..» وبهذا ناشدهم بالله أن أي رجل منهم كانت له من قِبَله مظلمة إلّا قام واقتص منه «فالقصاص في دار الدنيا أحبّ إلي من القصاص في دار الآخرة على رؤوس الملائكة والانبياء». فقام إليه أعرابي وطالبه بقصاصه لضربة ضربها إياه دون عمد يوم أقبل من الطائف وحكايتها وردت الكثير من الكتب والمصادر.

---

١ ـ مستدرك الوسائل، المجلد (٢)، ص (٣٠٢).

كما وردت قضايا عجيبة عن أصحاب الأئمة عليهم السلام تبين اهتمامهم البالغ بموضوع ما حرم من المال أو اشتبه في أمره. يروي الغزالي في إحياء العلوم قصة تاجر كان بانتظار سفينة تحمل القمح من البصرة إلى الكوفة فأوعز إلى عامله أن يبيع الحمولة بمحض وصولها وأن يحترز من الاحتكار لأنه كان قد سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينهى المسلمين عن احتكار مؤونة الآخرين وسمعه يقول بأن المحتكر ليس بمسلم. وبهذا أمر بالبيع فور وصول القمح.

وصلت الحمولة في يوم الاثنين ففكر العامل أن سعر القمح يرتفع في يوم الجمعة، فاحتفظ به الثلاثاء والأربعاء والخميس ثم باعه في يوم الجمعة وحقق منه سبعة آلاف درهم نفعاً جراء ذلك. سره أنه نجح في تحقيق مثل هذا النفع لصاحب القمح فكتب إليه بأنه احتفظ بالقمح حتى يوم الجمعة ثم انتفع منه سبعة آلاف درهم.

ثار التاجر المسلم لسماع هذا النبأ ورد عليه يخاطبه باصطلاح (المجرم) ويتساءل هل ينوي أن يزجي بكليهما في نار جهنم من أجل المال؟ أولم يأمره بعدم حبس البضاعة؟ فلماذا حجز القمح ثلاثة أيام؟ ثم بعث إليه بالدراهم وأمره أن يقسمها بين فقراء الكوفة عسىٰ الله يغفر له ذنبه.

مثل هذه الحكايات يكثر ورودها في المصادر. جاء في احياء العلوم أيضاً أن تاجراً تسلم خطاباً من عامله يخبره أن محاصيل قصب السكر قد تعرضت للانجهاد في تلك السنة وشح منتوج السكر وسيرد عليه بالخير إن هو تمكن من شراء السكر. فقصد السوق وابتاع ما تمكن من السكر، ملأ منه مخزناً وبسعره المألوف وبعد لجوئه إلى الفراش ليلاً فزع من نومه وراح يفكر بانه اختزن كل هذا السكر وسيأتي عليه بربح وفير ولكنه غش المسلمين ومن يغش المسلمين ليس بمسلم. فقد ذكرت الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مر ببائع فاكهة اجتذب مظهرها اليانع انتباه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فتوجه إليه فرأى أنه قد صب ماء على ما علا من الفاكهة وهذا هو مرد مظهرها فسأل صلى الله عليه وآله وسلم البائع عن دافع فعلته

وسبب اختلاف ما ظهر من الفاكهة عن بقيتها. فأجاب بأن هطول الأمطار صيرت الفاكهة إلى هذا الوضع. فعاتبه رسول الله ﷺ على عدم خلطه الفاكهة وقال: «من غشنا فليس منا»[1]. وهذا ما يدفع بعض كبار العلماء للاستشكال من إضاءة المصابيح في المحلات لما لانعكاس ضوئها من اثر على مظهر الأقمشة والفواكه.

نعود إلى حكايتنا: استسلم التاجر للنوم في تلك الليلة وهو يفكر بأنه حصل على السكر ولكن مقابل تضييع دينه. لم يفق من نومه عند بزوغ الفجر إلّا أنه سارع قبل شروق الشمس إلى دور الباعة الذين ابتاع منهم السكر واعتذر منهم فرداً فرداً وهو يخبر كل منهم أنه خدعه فسعر السكر آخذ بالارتفاع ولكنه غشه بالتساوم معه على السعر المألوف في ذلك اليوم، وهو يطلب منه فسخ المعاملة. هكذا فسخ جميع صفقاته. وفي اليوم التالي عاد الباعة للتفكير بطيب أخلاقه فصفحوا عنه وغضوا النظر عن فسخ المعاملة فوافق على ذلك.. ولكنه عندما لجأ إلى الفراش ليلاً استغرق ثانية في التفكير بأن هذه الأموال على أية حال مختلطة بالشبهة وبغش الناس وإن عفوا عنه في ظاهر الأمر. فعاد إلى أصحاب السلعة في الصباح وطالبهم بفسخ المعاملة لأن نفسه عافت النوم لشدة ما انتابه من خوف.

ولماذا كل هذا الاهتمام بالقضية؟ الحق إلى جانبهم.. إنهم صدقوا المعاد وانتهجوا درب أمير المؤمنين علي عليه السلام الذي كان يأمر ولاته: «ادقوا أقلامكم وقاربوا بين سطوركم واحذفوا عن فضولكم فإن أموال المسلمين لا تتحمل الأضرار»[2].

إن الإمام لم يرض لولاته الإسهاب في الكتابة لأنها تتداخل مع حقوق

---

١ ـ الترغيب، المجلد (٢)، ص ٥٧١.

٢ ـ بحار الأنوار، المجلد ٧٣، ص ٤٩.

الناس وهي من الأمور المستعصية التي تبلغ صعوبة أدائها حداً تسيل له مدامع علي عليه السلام في جوف الليل وهو يقول: «اللهم إني أعوذ بك من نقاش الحساب (ويقصد فيما يخص حساب الناس). فمثل حق الناس كمثل شوكة صغيرة تلج القدم فعندئذ لا تكفي اليد لاخراجها بل يستلزم الاستعانة بعين ثاقبة لإنجاز هذه المهمة وقد ذكرنا في المجلد الأول من الكتاب أحاديثاً عن أمير المؤمنين علي عليه السلام مفادها أن المرء يدفع أربعين صلاة مقبولة أداها مقابل درهم واحد، أي ان المدين بدرهم واحد لم يدفعه لصاحبه مثلاً تنتقص أربعين ركعة من صلاته المقبولة في يوم القيامة لصالح الدائن قد يصل الأخير بها إلى الجنة ويتردى الأول في النار.

لابد لنا في يوم القيامة من اجتياز المنعطفات، منعطفات يحرسها شرطة مرور غلاظ يتمثلون في مصطلح «المرصاد» الذي نتعرض عنده لحساب الله عز وجل ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾[1].

وعن الصادق عليه السلام، قال: «. أهم عقبة منها المرصاد وهو قول الله عز وجل إن ربك لبالمرصاد. ويقول عز وجل: وعزتي وجلالي لا يجوزني ظلم ظالم»[2].

شوهد سلمان الفارسي وهو يبكي عند احتضاره. واعجباه! سلمان يبكي؟ وهو صاحب مفخرة «سلمان منا أهل البيت». سألوه عن سبب بكائه مبهوتين فحدثهم عن رواية تذكرها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتى فيها على منعطفات يوم القيامة التي لا يجتازها بفلاح الا من خف عبأه:

«نجي المخففون وهلك المثقلون..».

أمعنوا النظر ليعرفوا ما الذي أثقل كاهل هذا الصحابي. لم يعثروا لديه إلّا على لباد كان بساطه في يقظته وفراشه عند نومه وإناء فخاري للطعام

---

١ ـ سورة الفجر، الآية (١٤).

٢ ـ بحار الأنوار، المجلد (٧)، ص (١٢٨).

والشراب وابريق من فخار للتطهر ودواة ويراع هما عدته لخدمة المجتمع، لا شيء أكثر منها ورغم ذلك لا يحسب نفسه من المخففين بل ينادي متأوهاً: مثقل، مثقل، مثقل.

إن غبن الناس حقوقهم قضية تستجلب حساباً عسيراً في يوم القيامة والأنكىٰ منه أن تنعقد نطفة طفل من قوة طعام محرم، أن يترعرع الجنين في جوف أم تناولت طعام محرم، سيلعن هذا الطفل يوم القيامة أبويه ويقول: إلهي! إقتص لي من ابي الذي أطعمني من حرام وارداني جهنم. نقرأ في الروايات أن الابن قد يرد جهنم لما أتىٰ به من فعال سوء والأب يلتحق به لإطعامه من طعام محرم ساقه إلى الضلال.

إذاً، يقتضي على الأبوين أن يتوخيا الدقة لئلا يتناولا طعاماً محرماً قد تنعقد عليه نطفة ابن لهما فيسلبانه بذلك حظه من الفلاح، ومن واجب الزوجين أن يزكيا طعامهما ويحددانه بالحلال الطيب دون غيره[١].

الشبهة في المال:

عن علي عليه السلام:

«أصل الحزم الوقوف عند الشبهة»[٢].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«ترك دانق[٣] حرام أحب إلى الله تعالىٰ من مائة حجة من مال حلال»[٤].

عن ابن عباس:

«إن أوّل درهم ودينار ضُربا في الأرض نظر إليهما إبليس فلما عاينهما

---

١ ـ تربيت فرزند (تربية الأبناء)، ص ٤٣ ـ ٤٩.

٢ ـ نهج البلاغة، الحكمة (٤٨).

٣ ـ الدانق: سدس الدرهم.

٤ ـ تنبيه الخواطر، المجلد (٢)، ص ١٢٠ نقلاً عن ميزان الحكمة، المجلد (٣)، ص ١١٢٤.

أخذهما فوضعهما على عينه ثم ضمهما إلى صدره ثم صرخ صرخة ثم ضمهما إلى صدره ثم قال: انما قرة عيني وثمرة فؤادي ما أبالي من بني آدم إذا أحبوكما إن لا يعبدوا وثناً. حسبي من بني آدم أن يحبوكما»[1].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«قال الشيطان لعنه الله: لن يسلم مني صاحب المال من إحدىٰ ثلاث اغدوا عليه بهن وأروح: أخذه من غير حله وإنفاقه في غير حقه واحبِّبه إليه فيمنعه من حقه»[2].

اثر الحرام في معنويات الإنسان:

يرویٰ عن أحد الأعلام أنه قال: أصابتني حالة عجيبة. لم يكن يروقني أداء صلاة الليل أو الصلاة الواجبة فور حلول موعدها. فقدت الصلاة لذتها عندي وكذلك الارتباط بالله. كنت أعجب لذلك وأتساءل مع نفسي عن السبب الذي لم أتوصل إليه مهما أكثرت من التفكير والبكاء والتضرع حتى رأيت في المنام ذات ليلة شخصاً قال لي: من يتناول تمراً من حرام يفقد حب العبادة. ولا يلتذ بأدائها.

ثم أردف قائلاً: استيقظت من النوم. أجل، لقد تذكرت أنني اشتريت تمراً ولما استلمته رأيت أن أحدها لم ينضج فاستبدلته بخير منه دون استئذان البائع وتناولته. وقد تغيرت أحوالي وأوضاعي النفسية بعد ذلك[3].

وتؤكد الأخبار والروايات الإسلامية بأن الطعام المحرم يحجب الاستجابة عن الدعاء. وفي حديث مشهور عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه جاءه رجل يسأله عما يفعل لتحظىٰ أدعيته بحسن الاستجابة فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: **«طهّر مأكلتك ولا**

١ـ ميزان الحكمة.

٢ـ ميزان الحكمة.

٣ـ پندها وحكايتهاى أخلاق (حكايات ومواعظ أخلاقية)، ص١٢٢.

تدخل بطنك الحرام»[1].

أما الطيب فإنه كل شيء زكي طاهر خلافاً للخبيث (الملوث). والطيب أساساً يعني ما يضفي على الإنسان الإحساس باللذة سواء أستشعرها بحواسه أو بروحه وبنفسه. ولكن لفظة الطيب بحسب مصطلحات الشريعة الإسلامية تعني «الحلال الطاهر»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال:

«من سره أن تستجاب دعوته فليطب مكسبه»[3].

وجاء في الحديث القدسي:

«لا يَجب عني دعوة إلّا دعوة آكل الحرام».

من وصايا رسول الله (ص) للإمام علي بن أبي طالب (ع):

«يا علي! إن القوم سيفتنون بعدي بأموالهم ويمنّون بدينهم على ربهم ويتمنون رحمته ويأمنون سطوته ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية فيستحلون الخمر بالنبيذ والسحت بالهدية والربا بالبيع.

فقلت: يا رسول الله بأي المنازل أُنزلهم عند ذلك؟ أبمنزلة ردة أم بمنزلة فتنة؟.

فقال: بمنزلة فتنة[4]..

توضيح:

يتمنون رحمته: لابد ان نتجنب الخلط بين تمني رحمة الله مع التنكر لدينه

١ ـ وسائل الشيعة، الجلد (٤)، أبواب الدعاء، الباب (٦٧)، الحديث (٤).

٢ ـ راجع المفردات.

٣ ـ وسائل الشيعة، الجلد (٤)، الباب (٣٤)، الحديث (٣).

٤ ـ نهج البلاغة، الخطبة ١٥٥.

ومعصية أوامره وأوامر رسوله على أمل نيل المغفرة.

يأمنون سطوته: إن تجاهل السطوة الربانية يعتبر مثل القنوط من رحمة الله، من المعاصي العظام.

أما اعتبار ذلك «بمنزلة فتنة» لارده لأنه لا يأتون هذه الآثام لقولهم بحلية الشراب والرشوة والربا ليكون دليلاً على انكارهم ضرورة من ضروريات الدين وبالأحرىٰ على ارتدادهم، ولكنهم يرتكبونها بعد إضفاء حلية النبيذ والهدية والبيع عليها.

قال علي عليه السلام:

«يا كميل! أنظر فيم تصلي وعلى ما تُصَلي. إن لم تكن من وجهه وحله فلا قبول[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«من حج بمال حرام، فقال: لبيك اللهم لبيك. قال الله: لا لبيك ولا سعديك. حجك مردود عليك»[2].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً:

«من اكتسب مالاً حراماً لم يقبل الله منه صدقة ولا عتقاً ولا حجاً ولا اعتماراً. وكتب الله عز وجل بعدد أجر ذلك اوزاراً وما بقي منه بعد موته كان زاده إلى النار ومن قدر عليها وتركها مخافة الله كان في محبة الله ورحمته ويؤمر به إلى الجنة»[3].

ثواب ترك الحرام مع القدرة على إتيانه:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

---

١ ـ بحار الأنوار، ج (٧٧)، ص (٢٧٥).

٢ ـ ميزان الحكمة.

٣ ـ ميزان الحكمة، المجلد (١٣)، ص (٦٤٩٩).

«لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس به إلّا مخافة الله إلّا أبـدله الله فـي عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك»[1].

المعاصي ودورها في عدم استجابة الدعاء:

يروي شخص أنه جاء أبي عبد الله الصادق عليه السلام رجلاً وسأله:

آيتان في كتاب الله عز وجل اطلبها فلا أجدهما؟

قال: وما هما؟

قلت: قول الله عز وجل ادعوني استجب لكم فندعوه ولا نرىٰ إجابة.

قال: أفترى الله عز وجل أخلف وعده؟.

قلت: لا

قال: فمم ذلك؟

قلت: لا أدري.

قال: لكني أخبرك من اطاع الله عز وجل فيما أمره ثم دعاه من جهة الدعاء أجابه.

قلت: وما جهة الدعاء؟

قال: تـبدأ فـتحمد الله وتـذكر نـعمه عـندك ثم تشكـره ثم تـصلي عـلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم تذكر ذنوبك فتقر بها ثم تستعيذ منها فهذا جهة الدعاء.

ثم قال: وما الآية الاخرىٰ؟

قلت: قول الله عز وجل وما أنفقتم من شيء فهو يُخلِفه وهو خير الرازقين وإني أنفق ولا أرىٰ خلفاً.

قال: أفترى الله عز وجل أخلَف وعده؟

قلت: لا

---

١ ـ ميزان الحكمة.

قال: فمم ذلك؟

قلت: لا أدري.

قال: لو أن أحدكم اكتسب المال في حله وانفقه في حله لم ينفق درهماً إلّا أُخلِف عليه.

إذاً، الإنفاق لا يخلف فيما لو تم من مال مشتبه: من إفشاء الغلاء، من الاحتكار، من الربا أو الرشوة أو على أية حال بأي أسلوب محرم خلافاً للإنفاق الحقيقي اي من طيب مال الشخص فإنه يخلف لا محالة.

أمرت زبيدة زوجة هارون الرشيد في عهدها بشق قناة بطول ستة فراسخ يوصل المياه إلى مكة المكرمة ولم تجف هذه القناة حتى وقتنا الحالي رغم مرور آلاف السنين على حفرها. وما زالت تمد بئر زمزم بالمياه.

شوهدت زبيدة في عالم الرؤيا وهي تعاني من وضع مشين. فعجبوا من أمرها وهم يتوقعون لها مكانة كريمة بما قامت به من مبادرة خيرية. تأوهت وقالت: لم أجز خيراً لشق القناة فقد دفعت كلفته من بيت المال وأنجزته على حساب مال الناس فأهدى الله ثوابها إلى أصحاب المال[١].

الأمر بتناول الطيبات في آيات ثماني من القرآن الكريم:

الآية الأولى:

﴿يا أيها الرسُل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾[٢].

توجه هذه الآية نداءها إلى كافة الأنبياء المرسلين بشأن أولوية يتقدم بحسبها تناول الطعام الطيب على العمل الصالح وتفسر الآية العمل الصالح على أنه يتمخض عن أكل مثل هذا الطعام. أي أنها تعتبر تناول الطيبات من

---

١ ـ حكايات ومواعظ أخلاقية.

٢ ـ سورة المؤمنون الآية (٥١).

أساليب التكامل بالنسبة للأنبياء دون غيرها.

فروح العبد ونفسه لا تنقادان إلى طاعة الله ما لم يزكي طعامه ويجعله من خالص حِلّه.

وبإدراك الدور الجلي لنوع الطعام في معنويات الإنسان وتباين الآثار الأخلاقية للأطعمة المختلفة يتبين لنا العلاقة بين هاتين العبارتين في قوله تعالى: ﴿كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً..﴾ ويتضح سبب تقدم ذكر أكل الطيبات على العمل الصالح.

الآية الثانية:

﴿. فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم﴾[1].

الآية الثالثة:

﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون. إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهل لغير الله به، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم﴾[2].

الآية الرابعة:

﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوىٰ﴾[3].

الآية الخامسة:

﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوىٰ كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا انفسهم يظلمون﴾[4].

١ـ سورة الأنفال، الآية (٦٩).

٢ـ سورة النحل، الآيتان (١١٤ و ١١٥).

٣ـ سورة طه، الآية (٨١).

٤ـ سورة البقرة، الآية (٥٧).

الآية السادسة:

﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾[1].

الآية السابعة:

﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾[2].

الآية الثامنة:

﴿وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كُل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المنَّ والسلوى كلوا من طيباتِ ما رزقناكُم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾[3].

موهبة إلهية عظمى تتأتىٰ من تجنب أكل الحرام:

إن حكاية حفظ القرآن بأسره من قبل الملا كـاظم ـوالتي تـعتبر إحـدىٰ المعجزات الالهية ـ وردت الكثير مـن الكـتب والمـنشورات الأخـرىٰ ضـمن مقالات وأبحاث. وما نذكره في هذا الكتاب هو إيجاز لأكثرها شمولية ويتضمن ما نشرته مؤسسة «في سبيل الحق» تحت عنوان «حكاية الملا كاظم»:

الملا «محمد كاظم» من مواليد عام ١٣٠٠ هـ.ق على وجه التقريب، ولد في احدىٰ القرىٰ التـابعة لـمدينة «أراك» وتـدعىٰ «سـاروق» وكـان في حـوالي الخمسين من عمره عندما بدأت حكايته ترتاد عالم الشهرة وتزداد شهرة يوماً بعد يوم حتىٰ رحل الى بارئه في أيام عاشوراء بمحرم من عام ١٣٧٨ هـ‍ـق في مدينة قم المقدسة. ودفن في مقبرة المرحوم آية الله الشيخ عبد الكريم الحائري

١ـ سورة البقرة، الآية (١٦٨).

٢ـ سورة المائدة، الآية (٨٨).

٣ـ سورة الأعراف، الآية (١٦٠).

المسماة «المقبرة الحديثة» حيث بادر نجله السيد «اسماعيل كريمي» وثلة من المؤمنين إلى نصب لوحة عند قبره تتضمن لمحة عن سيرة حياته.

الملتقون بالملا كاظم يصفونه بأنه يتسم بـ:

ـ البساطة والصفاء، ولهذا لازمه مظهره القروي الريفي حتى نهاية حياته.

ـ ضعف الذاكرة فيما يتعلق بغير القرآن.

ـ عجزه عن القراءة والكتابة حيث عجز عن مطالعة الصحف، وتحددت قدرته على قراءة آيات القرآن وكلماتها.

ـ لم يدّع التمتع بمواهب سوى حفظ القرآن وإن كان الشخص الذي تحققت فيه معجزة ما.

ـ انعدام أرضية المشاغبة والاستغلال لديه بشكل مؤكد.

ـ عدم لجوئه لاستغلال حظوته بهذه الموهبة الالهية مادياً أو تفكيره بادخار ثروة من ورائها.

إن معجزة حفظ القرآن الكريم من قبل الملا كاظم تؤكد القضايا التالية:

١ ـ حقانية الاسلام والقرآن الكريم.

٢ ـ صدق العلوم الخارقة للأنبياء والائمة عليهم السلام.

٣ ـ إمكانية الارتباط بعالم الغيب.

٤ ـ اثبات عدم تحريف القرآن المجيد.

رأي فريق من مراجع التقليد في الملا كاظم:

آية الله الميلاني:

تفضل المرحوم آية الله العظمى الحاج السيد محمد هادي الميلاني ـ أحد مراجع تقليد الشيعة ـ بالرد على استفسار حول الملا كاظم قائلاً:

بسمه جلت أسماؤه:

التقيته في النجف الأشرف وفي كربلاء في مجالس عديدة حضرها مجموعة من رواد العلم وكذلك أشخاص من الشرائح المختلفة. وقد تم اختباره بأنحاء كثيرة وطرق متنوعة، أثبتت جميعاً أن مهارته ودقة معلوماته حول آيات القرآن الكريم وكلماتها أمر لا يتناسق مع الوضع العادي وإن موهبته إلهية لا شك. فكل شخص يعاشره ـ وإن كان على نطاق ضيق ـ ويحيط علماً بأوضاعه في الظروف العادية ويختبر ذاكرته في سائر الأمور الأخرىٰ يتنبه تماماً وبضميره إلى أن تمكنه من جميع خصائص القرآن الكريم إنما هو موهبة خارقة بل لنا أن نقول: إن الذاكرة ومهما بلغت قوتها تعجز عن الصمود أمام كل هذه الاختبارات التي أجريت له بدقة بالغة (وهو سبحانه وتعالىٰ يهب ما يشاء ولمن يشاء ولله الحمد).

الأحقر

محمد هادى الحسيني الميلاني[1]

آية الله العظمى البروجردي:

يروي السيد مير خليل النقوي التبريزي وهو من العاملين في السلك التعليمي وممن أقام بمدينة قم المقدسة لفترة طويلة، وكانت له نشاطات في إحدى المؤسسات الإعلامية التابعة للحوزة العلمية فيها إن آية الله العظمى البروجردي انتابه الشك في طريقة قراءة كلمة ما في إحدى الآيات فطلب من الملا كاظم أن يتلو الآية واستند من ثم إلى قراءته لها[2].

---

١ ـ نشرة «نور دانش» (ضياء العلم) السنوية، ١٩٧٤م.

٢ ـ «يك معجزه آشكار» (معجزة جلية)، ص ٢٢.

أية الله العظمى الصدر

أجرى المرحوم آية الله العظمى الحاج السيد صدر الدين الصدر ـ والد الإمام موسى الصدر ـ وهو من مراجع تقليد الشيعة وعظام زعماء الحوزة العلمية بمدينة قم، اختباراً للملا كاظم، فصار يطرح عليه أسئلته عن بعض الآيات والملا كاظم يجيبه بما أثار إعجابه ودهشته فقال: لا أعلم في الحقيقة ما هي الأعمال التي تحظىٰ بقبول من لدن الله عز وجل لأنني وإن كنت سيداً من ذرية رسول الله ﷺ وما زلت منكباً منذ سنوات مديدة على الدراسة وأداء وظائفي لكنني لم أنل مثل هذه الموهبة وقد نالها هذا الشيخ القروي رغم عجزه عن القراءة فيغدو حافظاً للقرآن».[1]

آية الله العظمى الخونساري:

لابد أنكم سمعتم قصة صلاة الاستسقاء التي أقامها في مدينة قم المرحوم آية الله العظمىٰ الحاج السيد محمد تقي الخونساري ـ وهو من مراجع تقليد الشيعة ـ إنه وعقب اختباره الملا كاظم، قال له: أبإمكانك أن تقرأ القرآن مبتدئاً بآخره ومنتهياً بأوله. قال: بلىٰ. ثم راح يقرأ سورة البقرة وهي كبرى سور القرآن الكريم من الآية الأخيرة لينتهي عند الآية الأولى. قال آية الله الخونساري (ره): عجيب جداً منذ ستين عاماً وأنا أقرأ سورة الإخلاص وهي لا تتجاوز الأربع آيات ولكنني أعجز عن قراءتها دون تأمل وتفكير من الآية الأخيرة إلى الآية الأولىٰ. وهذا الرجل البسيط يواصل قراءة سورة البقرة وهي (٢٨٦) آية وبشكل عكسي دون تأمل[2].

---

١ ـ اعجاز الولاية، ص ١٦.

٢ ـ المصدر السابق، ص ٢.

الملا كاظم، معجم قرآني ناطق:

في طريق عودته من سفرة قام بها إلى إيران لزيارة مرقد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، إلتقىٰ آية الله الحاج السيد هبة الله الشهرستاني صاحب كتاب «الهيئة والإسلام»، وكان من أعلام الشيعة في مدينة الكاظمية ببغداد في العام ١٩٤٦، السيد كاظم في مدينة «كنجاور» أو «باختران» وبعد اختباره أعلن أنه إضافة إلى كونه حافظاً للقرآن الكريم فإنه يعتبر معجماً قرآنياً ناطقاً. ولهذا اصطحبه معه إلى العراق لزيارة العتبات المقدسة هناك ودعا حفظة القرآن فاجتمعوا إلى الملا كاظم واختبروه حتى أثار دهشتهم جميعاً فوصفوا حاله بأنها عجيبة وغير عادية[1].

الملا كاظم والمؤتمر الصحفي:

أجرى العالم الجليل والمجاهد الكبير آية الله أبو القاسم الكاشاني لقاء صحفياً حضره الكثير من الصحفيين أدرجوا فيما بعد تقاريرهم عن معجزة الملا كاظم في بعض صحف تلك الحقبة الزمنية[2].

الملا كاظم في رفقة السيد نواب صفوي:

جاء في كتاب «نواب صفوي، افكاره وجهاده واستشهاده»:

لما تناهى إلى أسماع الشهيد نواب صفوي شهرة هذا الشيخ الطيب القلب، الحافظ للقرآن الكريم بعث يطلبه ثم استقبله بحفاوة تنم عن جليل حبه واحترامه له. اتخذه خليلاً له يصحبه أينما يذهب ويقدمه في جميع المجالس باعتباره معجزة إلهية حية ويجلسه في أعلىٰ منبره ويسأل الحاضرين أن يختبروه كما يدعو الصحفيين ومراسلي الصحف والمجلات الصادرة في داخل

---

١ ـ إعجاز الولاية، ص (٥).

٢ ـ معجزة جلية، الطبعة الثانية، ص ٢٨.

البلاد وخارجها لإجراء لقاءات معه وتقديم التقارير حول معجزته إلى قراء منشوراتهم في جميع أرجاء العالم.

كان الملا كاظم إثر ما يلقاه من حب واحترام زائد من قبل نواب صفوي يبادله حباً شديداً، وبعد عودة الشهيد (ره) من مصر ألقِ عباءة نفيسة أهداها له وزير الأوقاف المصري على كتفي الملا كاظم ووهبها إياه.

يكتب الشيخ محمد رازي: تلق المرحوم الشهيد نواب صفوي دعوة لزيارة مدينة مشهد المقدسة فاصطحب الملا كاظم معه إليها وكنت أنا الآخر أرافقهم أيضاً. تم استقباله بحفاوة تامة في جميع المدن التابعة لمحافظة خراسان أي: سمنان، دامغان، شاهرود، سبزوار ونيشابور.

كان الشهيد نواب صفوي يقدم الملا كاظم للناس في كل من هذه المدن فيلتفون حوله بهياج ولهفة شديدة ويطرحون عليه اسئلتهم فيما يخص القرآن الكريم وهو يجيبهم.

في مدينة دامغان قمت بمهمة تعريفه وتقديمه للناس بدلاً عن الشهيد نواب صفوي الذي كان يعاني من وعكة صحية. ولما وصلنا مدينة مشهد استقبل من قبل الآلاف من سكان هذه المدينة ومن شرائحهم المختلفة لاسيما الشخصيات البارزة في حوزتها العلمية. وبعد استقرارنا في مدرسة المرحوم «عابد زاده» صاحب الدعوة ـ وكان قد تأهب لاستقبالنا ـ رحنا نستقبل يومياً جموع العلماء والعاملين في سلك التربية والتعليم وآخرون يأتون لاختبار حافظ القرآن وطرح اسئلتهم عليه وهو يجيبهم بكل بساطة[1].

الإحاطة التامة بكلمات كل سورة:

كان المرحوم الشهيد عبد الحسين واحدي من قادة «فدائيو الإسلام». ذات

---

١ ـ اعجاز الولاية، ص ١٧.

مرة استجمع حوالي عشرة كلمات من عشرين سورة من القرآن الكريم وربطها ببعض بنحو تعذر على مجموعة من العلماء الذين قرأها عليهم أن يـفطنوا إلى كونها ليست من آيات القرآن الكريم ولكن الملا كاظم انبرى له قائلاً بأن هذه الكلمة تعود للسورة الفلانية وتلك إلى سورة أخرى يذكر اسمـها ويـذكر مـا تسبق الكلمة وما تليها من كلمات ثم قال: لقد جئت بحرف الواو عدة مرات من عندك لتربط بها الكلمات لتختبرني بهـا. جـرت هـذه القـضية عـلى رؤوس الأشهاد وكانوا من العلماء فباركوا له وقام بعض عظامهم إليه وقبلوا يده.

اختبرته مائة مرة:

يكتب حجة الإسلام والمسلمين الشيخ محمد رازي في كتابه القيم «گنجينه دانشمندان» (كنز العلماء):

كان المرحوم الملا كاظم من سكنة قرية ساروق التابعة لمدينة «فراهـان»، حافظاً للقرآن الكريم وأعجوبة من عجائب زمانه. عرفته خلال فترة إقامته لمدة أشهر في داري بمدينة قم المقدسة، رجلاً بسيطاً لا يجيد القراءة والكتابة. ولكنه يحفظ القرآن الكريم بشكل لا يتيسر إلّا للمعصومين والائمة باعتبارهم حجج الله على خلقه. اختبرته خلال هذه الفترة لمئات المرات ولم أره يجـيبني بعد ترو قط. عندما يوجه إليه السؤال عن الآيات الشريفات فـإنه في حـالة كونها من الآيات المتكررة. يجيب فوراً: لهذه الآية متشابهات في السورة كذا وكذا. وفي حالة عدم تكررها يقرأ الآية كاملة ويذكر سـورتها ومـا يسـبقها ويليها كما إنه عندما يقدم إليه مصحفاً سواء في نسخة مخـطوطة أو مـطبوعة وبحجم صغير أم كبير ويطلب إليه أن يحدد مكان الآية فإنه يفتح تلك النسخة بالضبط على صفحة تلك الآية. إلتقاه جميع مراجع التقليد في النجف وكربلاء من أمثال آية الله العظمىٰ السيد محمد تقي الخونساري وآية الله العظمىٰ حجت وآية الله العظمىٰ المرعشي النجفي وآخرون وكبار عـلماء همـدان وكـرمانشاه

وأراك وملاير وطهران ومشهد وغيرها. فاختبروه جميعاً وشهدوا على أن: أمره غير عادي وخارق[1].

كلام الله نور:

يكتب آية الله الشهيد السيد عبد الحسين دستغيب:

قبل حوالي خمسة عشر عاماً سمعت من مجموعة من كبار علماء قم والنجف الأشرف أن شيخاً في السبعين من عمره يدعىٰ «الملا محمد كاظم كريمي ساروقي» (ساروق من قرى فراهان التابعة لأراك)، لا يجيد القراءة والكتابة أبداً استلهم القرآن الكريم برمته فصار يحفظه بشكل عجيب..» ثم يذكر حكايته ويردف:

حدثني سماحة السيد حسن حفيد المرحوم الميرزا الشيرازي قائلاً: اختبرته مراراً فكان كلما أسأله عن آية ما، يقول: إنها من السورة الفلانية. والأكثر إثارة للعجب أنه كان قادراً على قراءة السور بشكل عكسي فيبدأ من آخر السورة لينتهي بأولها.

وقال أيضاً: كنت أمسك بكتاب «تفسير الصافي»، فتحته أمامه وقلت: هذا قرآن فاقرأه. أمسك الكتاب وما أن نظر إليه، قال: ليست الصفحة بتمامها من القرآن. وراح يشير إلى الآيات الشريفة ويقول: هذا السطر أو هذا النصف من السطر و... يعود إلى القرآن دون سواها. قلت: من أين عرفت وأنت لا تجيد قراءة العربية ولا الفارسية. قال: ولكن كلام الله نور وهذه العبارات منورة وما سواها ظلماء (مقارنة مع نورانية العبارات القرآنية).

إنني التقيت عدداً آخر من كبار العلماء قالوا جميعاً: إننا اختبرناه بأنفسنا. إنه أمر خارق. فقد ألهمه منهل الالهام جل وعلا[2].

---

١ ـ كنز العلماء، المجلد (٦)، ص ٨٦.

٢ ـ داستانهاى شگفت (قصص عجيبة)، الشهيد آية الله دستغيب، ص ١٠٥.

الملا كاظم، وثيقة صيانة القرآن من التحريف

كتب سماحة آية الله مكارم الشيرازي عن الملا كاظم الساروقي:

قبل حوالي أربعين سنة ولما كنت طالباً يافعاً من طلبة الحوزة العلمية بقم قصدت في شهر محرم الحرام منطقة بالغرب من «ملاير» يطلق عليها اسم «حسين آباد» بهدف التبليغ. قالوا لي في إحدى الجلسات: يقطن منطقتنا رجل طاعن في السن يحفظ القرآن برمته وله حكاية عجيبة. إنه مزارع في غاية البساطة. مر ذات يوم بمزار يقع بالقرب من هذه المنطقة وقد ناله النصب والاعياء بعد مزاولة عمله اليومي فتوقف هنالك حيث أفيض عليه بموهبة عظمى (سنأتي على ذكر تفاصيلها لاحقاً) وصار إثرها يحفظ القرآن الكريم كله دون اي إجراء مسبق.

سرني هذا الحدث فرغبت ان أوجه إليه عدة أسئلة، اختبره بها. أمسكت بمصحف وأخذت انفذ ما خططت له. ويـاللعجب.. إن هـذا الرجـل القـروي البسيط الذي لا يجيد القراءة والكتابة يجيب على جميع الاسئلة بغاية البساطة فيما يذهب الناظر إلىٰ مظهره بأن هـذا القـروي لا يـقرأ سـورتي التـوحيد والإخلاص إلّا بشق النفس، يدعونه «الملا كاظم»، كان صيته لم يذاع بعد في الأوساط العلمية ولم يبلغ نبأه مدينة قم. عندما عدت إلى قم أهديت هذا النبأ العجيب لأصدقائي فعجبوا بدورهم لرجل بمثل هذه الأوصاف يحيط بعلوم القرآن على هذا النحو العجيب.

وبعد فترة من الزمن وجه إليه الراغبون دعوة لزيارة قم. فذاع صيته وزار المراجع وكبار المجتهدين من أمثال آية الله العظمى البروجردي. كان طلاب الحوزة العلمية يحلقون حوله كالفراشة حول الأزهار حتى يعجب الناظر إلى هذا المنظر: ترىٰ ماذا يقول هذا الرجل البسيط بزيه القروي المحلي لهؤلاء الطلبة؟!. ولكنه كان دون مبالغة استوعب بحراً من علوم القرآن فصار ينبوعاً

فياضاً إلتف حوله هؤلاء الطلبة عساه يروي ظمأهم.

كان بعض الطلبة يختارون عبارات من آيات متباينة ومن سور مختلفة فيلفقونها (بعيداً عن الاستهانة بالقرآن) مع بعضها ثم يسألونه عن السورة التي تنضم إليها هذه الآية فيجيبهم: أيها المشاكسون! العبارة الأولى من السورة الفلانية وقد سبقها كذا وتلاها كذا، أما العبارة الثانية فهي من سورة كذا وسبقتها هذه العبارة وتلتها تلك وهكذا بقية العبارات.

كأنه كان ينظر إلى قرآن مكتوب على لوحة وضعت أمام عينيه وهو يحفظ مكان كل منها بالضبط فما أن يتم توجيه سؤال إليه ينظر إلى تلك اللوحة ويقرأ كل شيء فيها بوضوح ويجيب دون تريث.

ورغم كوني صعب الاقتناع إلّا أنني توصلت إثر لقاءاتي المتتالية معه إلى قناعة تامة بأن قضيته تخرج عن نطاق المألوف وأنها من التدابير الالهية. ما هو أهم من حفظ القرآن هو عثوره على أية آية بمنتهى البساطة من اية نسخة سواء مطبوعة (أو مخطوطة) توضع في متناول يده فما أن يقال له: اعثر لنا يا ملا كاظم على الآية الفلانية فإنه يفتح القرآن كما يفعل المستخيرون به فيعثر على الآية في الصفحة ذاتها أو السابقة أو التالية لها. لقد شهدت هذه الحالة بأم عيني ولم أجد لها تفسيراً غير الموهبة الالهية، فقد يتمكن أصحاب الذاكرة البالغة القوة من حفظ القرآن على هذا النحو بعد سنوات مديدة من السعي والمثابرة والتأكيد على قراءته باستمرار تجنباً لنسيانه (والحال لم تكن كذا). أما العثور الفوري على الآيات دون بحث ليس من مصحف معين يكون قد تمرس على هذا الإجراء فيه بل مختلف النسخ، المطبوعة منها والمخطوطة، الصغيرة الحجم أم الكبيرة، فإنه أمر يتعذر التوصل إلى تفسير عادي له.

ومما يلفت الأنظار أن العالم الجليل المرحوم الميرزا مهدي البروجردي المستشار المعروف لآية الله العظمى الحائري اليزدي مؤسس الحوزة العلمية بمدينة قم، والذي كان يسكن إلى جوارنا مدة طويلة من عمر الزمن، انهمك

خلالها بتأليف كتاب «جلاء البرهان في عدم تحريف القرآن»، كان يتابع موضوع مؤلَفه بلهفة شديدة حتى نجح في طبع كتابه المفيد في بابه. أنبأت يوماً أنه اتصل بالملا كاظم وطرح عليه اسئلة كثيرة واستمع إلى رده عليها.

وبعد التقصي اتضح لي أنه ينوي التطرق إلى هذا الموضوع باعتباره أحد الأدلة المبرهنة على عدم تحريف القرآن الكريم (إلى جانب أدلة عديدة أخرى) لأن القرائن المتوفرة تدل على أن القرآن الذي يحفظه الملا كاظم بموهبة غيبية هو القرآن الأصلي وبما أنه لا يوجد أدنىٰ اختلاف بين ما يحفظه الملا كاظم والقرآن الموجود في متناول الأيدي فإن ذلك يرسخ الإيمان باصالة القرآن وعدم تعرضه إلى التحريف. ويعتبر هذا الحدث على الأقل دليلاً يبرهن على ذلك.

والأمر مهما يكن فالرجل كان عجيب الأحوال اتسم حفظه للقرآن بطابع غير مالوف. رحمه الله وسدد خطى الجميع في بذل جهود أكبر في خدمة القرآن. فإنها مدعاة نيل السعادة والاعتزاز وفيها لذة ما بعدها لذة[1].

وما هي أصل حكاية الملا كاظم

لم يرزق الملا كاظم بعد، السفر إلى مدينتي مشهد أو كربلاء لزيارة مرقدي الإمام الرضا عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام كما لم ينعم بالحج وزيارة بيت الله الحرام يوم كان يعمل مزارعاً في قرية ساروق بمدينة فراهان بأراك. زار مدينتهم ذات مرة مبلغ من علماء الدين لتبيين أحكام الدين وشؤون الحرام والحلال لسكان القرية فأخذ يخطب فيهم ويتحدث إليهم عن المسائل الشرعية الخاصة بالخمس والزكاة. وأوضح لهم أن القمح فيما لو بلغ النصاب يستوجب دفع الزكاة عنه للفقراء ومن لم يفعل اختلط الحرام بماله. وان إبتاع بمال الزكاة غير المدفوعة لأصحاب الحق بيتاً أو ملبساً فإن الصلاة في تلك الدار أو بذلك

---

١ ـ اعجاز الولاية، ص (٦).

الملبس تبطل لدخول حكم الغصب فيها. على أية حال قدم لهم الايضاحات حول وجوب التزام المسلم الحقيقي بتطبيق الأحكام الالهية والاهتمام بشـؤون الحلال والحرام بما فيها دفع الزكاة.

ولما كان محمد كاظم يعلم أن صاحب الأرض التي يعمل فـيها ليس مـن الزمرة المؤدية للزكاة ولحقوق الفقراء فكر بأن ماله مختلط بالحرام وأنه هو يدير شؤون حياته بمال حرام أو مشتبه فيه. فأوضح لصاحب الأرض مسألة دفع الزكاة دون أن يجد لديه أذن صاغية ولهذا قرر محمد كـاظم أن يهـجر تـلك القرية، ليشتغل في مكان آخر ينال عن عمله فيه أجراً من مال حلال طيب. وهكذا عاش عدة سنوات بعيداً عن قريته حتى طلبوا منه العودة إليها حيث كرسوا له قطعة أرض ومقداراً من القمح ليستقل في عمله بالزراعة، فما كان منه إلّا أن يقسم نصف القمح بين الفقراء وبذر نصفه الأخير في الأرض، فبارك الله له في محصولها حيث حصد منها ما زاد عن المقدار المألوف. ومنذ تلك السنة قرر أن يقسم نصف محصوله بين الفقراء (رغم أن الزكـاة لا تـتجاوز حـصة واحدة من بين عشرين إلى عشرة حصص).

ذات سنة وبينما كان يعرض السنابل المحصودة بعد دقها، للهواء بهدف عزل قشورها سكنت الرياح قرب الظهيرة واشتد الحر فعجز عن مواصـلة العـمل واضطر للعودة إلى داره. وفي الطريق التقىٰ أحد الفـقراء، فسأله الرجـل: لقـد نسيت أن تدفع لنا شيئاً من قمحك في هذه السنة. فأجابه محمد كاظم: كلا، لم أنس لكنني لم أجمع المحصول بعد. فرح الرجل وعاد أدراجه إلى القرية. لم يهدأ بال محمد كاظم فعاد إلى الحقل وبذل مساع كبيرة لجمع مقدار من القمح حمله إلى ذلك الفقير.

ثم جمع مقداراً من الأعشاب لخرافه. حمل القمح والأعشاب على كتفه وسار نحو القرية ولما وصل المرقد المعروف بمرقد الإثنين والسبعين شخصاً وهو مرقد عدد من أحفاد الأئمة عليهم السلام ومنهم الإمام جعفر والإمام عبد الله صالح. جلس على مصطبة عند بوابة حديقة المزار طلباً للراحة ووضع القـمح والأعشـاب جانباً، عندئذ شاهد شابين وسيمين يلفت جمالهما الأنظار وهما يقتربان مـنه. وقال: الا تصحبنا إلى داخل المزار لنقرأ دعاء ما. أجاب محمد كـاظم: أريـد

العودة إلى بيتي لآخذ هذه الأعشاب. إلّا أنهما ألحا عليه بالقول:

حسناً، لندخل ونقرأ سورة الفاتحة على الأقل فتوجها نحو الضريح ومحمد كاظم يتبعهما. دخلوا المزار وقرأوا سورة الفاتحة ثم توجها نحو الضريح الآخر. ولما اقترب منهما سمعهما يقرأان أشياء لا يفهمها. في هذه الأثناء أبصر محمد كاظم كلمات وضاءة زينت بها أطراف سقف المزار. قال له أحد الشابين: ولم لا تقرأ شيئاً؟! يقول محمد كاظم: لم أحضر الكتّاب أبداً ولا أجيد القراءة والكتابة. أردف: لابد أن تقرأ ثم ضغط بيده على صدر محمد كاظم وهو يقول: إقرأ الآن! ومحمد كاظم يجيب: ماذا أقرأ؟ يقرأ الرجل آية ويطلب منه أن يقرأ مثله ثم يقرأ محمد كاظم الآية ولما فرغ من قراءتها التفت إلى الرجل ليقول شيئاً أو يسأل عن شيء ما. ولكنه لم يجد أحداً إلى جانبه فقد كان وحيداً في المزار وفجأة أصيب بحالة خاصة أدت إلى وقوعه على الأرض مغشياً عليه.

عندما أفاق محمد كاظم كان يشعر بإرهاق شديد وراح يفكر: وأين هو الآن؟ ثم خرج من المزار وحمل القمح والأعشاب ثم سار نحو القرية إلّا أنه لاحظ في الطريق أنه يقرأ بعض الأشياء ثم تذكر قصته مع الشابين وتنبه إلى أنه يحفظ القرآن كله.

ولما التق الناس سألوه اين كان؟ فلم يجبهم. توجه على الفور للقاء الحاج صابر أراكي (جد السيد صابري أراكي أحد خطباء مدينة «أراك» حالياً) وكان إمام جماعة المسجد، وقص عليه حكايته. أجاب الرجل: قد تكون حلمت؟ أو تراءىٰ لك ذلك؟! ومحمد كاظم يقول: كلا، لقد كنت مستيقظاً وبتمام وعيي وقد قصدت المزار بنفسي وبرفقة الرجلين وحدث لي كذا وكذا وأنا الآن أحفظ القرآن كله. أحضر الحاج صابر الاراكي مصحفاً وسأله عن آيات مختلفة وعن بعض السور الكبرى فوجده يحفظها عن ظهر قلب. حلّق سكان القرية حول الحاج صابر ليعلن لهم عن رأيه في الأمر، فقال لهم بعد إجراء الاختبارات المختلفة وبلكنتهم المحلية: لقد نال الفلاح وحدث له أمر هام حيث أفيض عليه بموهبة كبرىٰ.

هذه هي حكاية الملا كاظم الساروقي واثر اجتناب مال الحرام والمعصية والاهتمام بالتعاليم الدينية في فوزه بالعناية الربانية، فصار يحفظ القرآن ويقرأه

حتى نهاية عمره. اتسم حفظه للقرآن بطابع عجيب فقد كان يقرأ كل آية تطلب منه دون ترو ثم يردفها بقراءة ما قبلها وما بعدها إضافة إلى عثوره الفوري على الآية بمجرد فتح القرآن.

﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾[1].

نأمل أن يكون لهذه الحكاية وقع في تزكية نفوسنا وفي اكتساب الأخلاق القرآنية وزيادة إيماننا بهذا الكتاب السماوي.

قال الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام: «طوبى لمن اكتسب من المؤمنين مالاً من غير معصية وأنفقه في غير معصية وعاد به على أهل المسكنة»[2].

مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال:

قال أبو جعفر الفزاري:

دعا أبو عبد الله عليه السلام مولى له يقال له مصادف، فأعطاه ألف دينار وقال له: تجهّز حتى تخرج إلى مصر فإن عيالي قد كثروا..

فلما دنوا من مصر استقبلتهم قافلة... فأخبروهم أنه ليس بمصر منه شيء فتحالفوا وتعاقدوا على أن لا ينقصوا متاعهم من ربح الدينار ديناراً فلما قبضوا أموالهم، انصرفوا إلى المدينة. فدخل مصادف على أبي عبد الله عليه السلام ومعه كيسان في كل واحدٍ ألف دينار. فقال: جعلت فداك، هذا رأس المال وهذا الآخر ربح.

فقال: إن هذا الربح كثير ولكن ما صنعته في المتاع؟ فحدّثه كيف صنعوا وكيف تحالفوا.

فقال: سبحان الله! تحلفون على قوم مسلمين الّا تبيعوهم إلّا ربح الدينار ديناراً؟! ثم أخذ أحد الكيسين، فقال: هذا رأس مالي ولا حاجة لنا في هذا

---

١ ـ سورة الحديد، الآية (٢١).

٢ ـ تحف العقول، ص ٢٨.

الربح. ثم قال: يا مصادف! مجادلة[1] السيوف أهون من طلب الحلال[2].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«أيها الناس! إنه قذف في قلبي أن من كان على حرام فرغب عنه ابتغاء ما عند الله غفر له ذنبه»[3].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً:

«قد بيّن لكم الحلال والحرام غير أن بينهما شبهاً من الأمر لم يعلمها كثير من الناس إلّا من عصم. فمن تركها حُفِظَ دينه وعِرضه ومن وقع فيها كان كالراعي إلى جنب الحمى أوشك أن يقع فيه[4]. وما من ملك إلّا وله حمىً. ألا إن حمىً الله محارمه والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد إذا اشتكى تداعىٰ عليه سائر جسده. والسلام عليكم».

قال علي عليه السلام:

«وتمسك بحبل القرآن واستنصحه وأحلّ حلاله وحرّم حرامه وصدّق بما سلف من الحق[5]».

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«يا أيها الناس! إن المسلم أخ المسلم حقاً ولا يَحِلّ لامرئ مسلم دم امرئ مسلم وماله إلّا أعطاه بطيبة نفس منه. وإني أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلّا الله فاذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلّا بحقها وحسابهم على الله. ألا هل بلغت أيها الناس؟

---

١ ـ في التهذيب، ٧/ ١٣/ ٥٨، مجالدة وهو الأنسب.

٢ ـ الكافي، ٥/ ١٦٦/ ١.

٣ ـ نهج الخطابة، المجلد (١)، ص (١٦).

٤ ـ وبنفس المعنى يروى عنه (ص): «حلال بيّن وحرام بيّن وشبهات بين ذلك. ومن اجتنب الشبهات نجا من المحرمات ومن ارتكب الشبهات وقع في المحرمات. وهلك من حيث لا يعلم».

٥ ـ نهج البلاغة، الكتاب (٦٩).

قالوا: نعم.

قال: اللهم اشهد.

ثم قال: ايها الناس احفظوا قولي تنتفعوا به بعدي وافقهوه تنتعشوا، ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيف على الدنيا فإن فعلتم ذلك ولتفعلن لتجدونني في كتيبة بين جبرائيل وميكائيل أضرب وجوهكم بالسيف»[١].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«أيها الناس إنما المؤمنون اخوة ولا يحل لامرئ مال أخيه إلّا على طيب نفسٍ. ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم.

قال: اللهم أشهد. ألا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعضٍ فإني قد تركت فيكم ما أن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله ربكم. ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم.

قال: اللهم اشهد. أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد. كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربي على عجمي فضل إلاّ بالتقوى. ألا فليبلغ الشاهد الغائب[٢].

استرزاق الحلال صدقة:

خرج الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام صبيحة يوم ما من داره طلباً للرزق فسئل عن غايته، أجاب بأنه خرج من الدار ليدفع صدقة عن أهله.

عاد القوم يسألونه وكيف يدفع صدقة عن أهله! فأوضح لهم ان استرزاق الحلال وانفاقه للأهل والعيال إنما يعتبره الله صدقة[٣].

١ـ نهج الخطابة، المجلد (١)، ص ٩٢.

٢ـ نهج الخطابة، المجلد (١)، ص (٢٧٢).

٣ـ راجع بحار الأنوار، المجلد (٤٦)، ص ٦٧.

سبعون دينار من المال الحلال، رأس مال تجاري:

روي أن رجلاً دخل على الصادق عليه السلام وشكا إليه فاقته فقال عليه السلام: طب نفساً فإن الله يسهل الأمر.

خرج الرجل فلقي في طريقه هميانا فيه سبع مائة دينار فأخذ منه ثلاثين ديناراً وانصرف إلى أبي عبد الله عليه السلام وحدّثه بما وجد.

قال له الإمام عليه السلام: أخرج وناد عليه سنة، لعلك تظفر بصاحبه.

خرج الرجل وقال: لا أنادي في الأسواق وفي مجمع الناس، وخرج إلى سكة في آخر البلد. وقال: من ضاع له شيء؟ فإذا رجل قال: ذهب مني سبعمائة دينار في كذا.

قال: معي ذلك.

فلما رآه. وكان معه ميزان فوزنها، فكان كما كان لم تنقص فأخذ منها سبعين ديناراً وأعطاها الرجل. فأخذها وخرج إلى أبي عبد الله عليه السلام، فلما رآه تبسّم وقال: يا هذه هاتي الصرة فأُتي بها، فقال: هذا ثلاثون، وقد أخذت سبعين من الرجل وسبعون حلالاً خير من سبعمائة حرام[1].

١ـ بحار الأنوار، المجلد ٤٧، ص ١٧٧، بتصرف قليل.

الفصل الثاني

حـق الناس

حرام الله غير مجهول وحلاله غير مدخول:

قال علي عليه السلام:

«إن الله حرم حراماً غير مجهول وأحل حلالاً غير مدخول[1] وفضَّل حُرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلّا بالحق ولا يحل اذى المسلم إلّا بما يجب[2].

الأولوية لحقوق الناس

قال الإمام علي عليه السلام:

«جعل الله سبحانه حقوق عباده مقدمة لحقوقه فمن قام بحقوق عباد الله كان ذلك مؤدياً إلى القيامة بحقوق الله»[3].

موسى بن جعفر (ع) وأهمية حقوق الناس:

جاء ضمن عبارات من أدعيته عليه السلام:

«اللهم اردد إلى جميع خلقك مظالمهم التي قِبَلي صغيرها وكبيرها في يسر منك وعافية وما لم تبلغه قوتي ولم تسعه ذات يدي ولم يقو عليه بدني ويقيني.

١ـ دَخِل دَخلاً: لحقه فساد (معجم لاروس).

٢ـ نهج البلاغة، الخطبة (١٦٧).

٣ـ غرر الحكم، ٤٧٨٠.

فأده عني من جزيل ما عندك من فضلك ثم لا تَخلِف عليّ منه شيئاً تقضيه من حسناتي يا أرحم الراحمين»[1].

حقوق الناس وحسابها العسير

تدل مضامين ومفاهيم الدعاء السابق على الدور الهام لموقف الإنسان المسلم من حقوق الناس في تقرير مصيره. فالاستهانة بحقوق الناس تأتي على المرء ـ حسب التعاليم الإسلامية الحيوية ـ بمردود سلبي عسير في الدنيا وبعقاب أليم شديد في الآخرة.

تؤكد مطلق تعاليم القرآن الكريم وأولياء الدين على أمرين يترتب على المسلم الالتزام بهما:

١ ـ تقصي ذوي الحقوق ومعرفة أصحاب المظالم.

٢ ـ أداء الحقوق إلى أصحابها.

وأول ذي حق هو الله عز وجل خالقنا وبارئنا، رازقنا والمنعم علينا. وإليه يعود كل ما يملكه بني الإنسان. إذاً، يتوجب عليهم أن يؤدوا حق الله بتقوى الله والثناء عليه بما أوتوا من قوة. وتلو هذا الحق الذي يطلق عليه الشرعيون «حق الله» يحل دور حقوق واسعة النطاق لفئات يصعب حصرها مثل: حقوق الأبوين، حقوق الزوج والأبناء، حقوق الأقارب، حقوق الجيران، حقوق أهل الايمان بل حقوق الناس جميعاً. ولهذا نجد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، يقول: «اللهم اردد إلى جميع خلقك مظالمهم...».

إذاً، نستشف من هذا القول أن لجميع الناس حقوق في ذمة الإنسان مما يستوجب عليه العمل قدر استطاعته لخدمة الناس جميعاً.

والشريعةالإسلامية تطالبنا مثلاً أن نسعى في شهر رمضان المبارك من كل

---

١ ـ مفاتيح الجنان.

عام، وبحسب مقدورنا، لخدمة جميع بني الإنسان على وجه البسيطة جمعاء وعلى اختلاف مللهم ونحلهم وأديانهم، وإن تحدد ذلك بالدعاء لهم:

«اللهم اغن كل فقير».

«اللهم أشبع كل جائع».

إن هذا الدعاء ينم عن رحابة صدر المترعرع في ظل العقيدة الاسلامية وحبه لاستجلاب الخير لجميع أبناء النوع الإنساني.

ملاحظة مثيرة للاهتمام:

تشدد الشريعة الإسلامية السمحاء على ضرورة رعاية حقوق الإنسان والنهي الصارم عن سحق حقوقهم أكثر من تأكيدها على أي أمر آخر. ولهذا يتعرض المسلم لأعسر حساب فيما يخص حقوق الناس.

نقرأ عن الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة، قوله:

والله لأن أبيت على حسك السعدان[1] مسهداً وأُجرَّ في الأغلال مصفداً أحب إليَّ من أن ألقىٰ الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشيء من الحُطام..».

وبغض النظر عما يترتب على اهتضام حقوق الناس من عذاب اخروي عسير فإن الله تعالى وكما تذكر الآية (١١٧) من سورة هود يترصد في الدنيا أيضاً بالعقاب لكل من يجحف حقوق الآخرين.

﴿وما كان ربك ليهلك القرىٰ بظلم وأهلها مصلحون﴾.

يذهب الصافي في تفسيره إلى أن الله لا يهلك الناس أبداً ـ جزاء لكفرهم به أو لذنوب أقترفوها في سياق حق الله أو لاستهانتهم بحق الله ـ فيما لو كانوا مصلحين. ويفسر الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم هذا المصطلح (المصلحون)، بقوله: (أي

---

١ ـ ضرب من الأشواك.

ينصف بعضهم بعضاً).

وبهذا يتضح أن المشيئة الالهية اقتضت ان لا يتعرض الناس فيما لو راعىٰ كل فرد من أبناء المجتمع حق الآخرين وانصفهم، لجزاء كفره وتقصيره في حق الله في الدنيا وإن وقع في شراك الكفر بالله وارتكاب المعاصي الشخصية. وبالعكس تتجرع مثل هذا العذاب الفئات التي تتظاهر بإيمانها وتغبن حقوق الآخرين دون مبالاة برعاية الانصاف معهم.

تطالعنا الكتب الإسلامية بروايات عديدة تؤكد أن المرء وفي يوم حساب حقوق الناس وعقاب مبخسي حقوقهم واستعادة الحقوق المغتصبة قد يتنازل عن الكثير من حسناته وأعماله الطيبة لمن ظلمهم حقوقهم وربما دفع الكثير من حسناته لقاء درهم واحد اغتصبه.

ولهذا نجد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام يتضرع إلى الله أن: (اللهم اردد إلى جميع خلقك مظالمهم التي قبلي صغيرها وكبيرها) في يسر منك وعافية، وما لم تبلغه قوتي ولم تسعه ذات يدي ولم يقو عليه بدني ويقيني فأدّه عني من جزيل ما عندك ثم (لا تخلف منه شيئاً تقضيه من حسناتي).

والحقيقة أننا لا نأمل بالنجاة من تبعات تقصيرنا أحياناً أو عجزنا أحياناً أخرى عن أداء حقوق الآخرين إلّا بفضل من الله عز وجل يمن به علينا ولا يسعنا إلّا الرجاء بتفضله علينا.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«من كان لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليستحللها من قبل أن يأتي يوم ليس هناك درهم ولا دينار فيؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فيتزايد على سيئاته»[1].

من وصية الإمام الخميني (قده) لنجله المرحوم الحاج أحمد(٢٨/ ٤/ ١٩٨٢م

١ـ المكاسب المحرمة، الشيخ الأنصاري، ص ٤٠ وكذلك المحجة البيضاء، المجلد (٥)، ص ٢٧٣.

«.. بني اعمل على أن لا ترحل عن هذه الدنيا محملاً بحقوق الناس فإنها تعرضك لحساب عسير. إن حساب الإنسان مع الله تعالى وهو أرحم الراحمين أهون بكثير من حسابه مع الناس. إنني أستعيذ بالله تعالى من تورطي أنا وأنت والمؤمنين في (اهتضام) حقوق الناس والاقتحام في قضايا مع بني الإنسان. وهذا لا يعني التهاون في حقوق الله والتجرؤ على عصيانه[1]..

حكاية

حدثت في عالمنا هذا حكاية عجيبة لآية الله محمد مهدي النراقي وهو أحد كبار العلماء الذين جمعوا العلوم العقلية والنقلية وحاز مكانة رفيعة في مجال العلم والعمل والعرفان الالهي. وينتمي إلى زمرة العلماء الأفذاذ في الفقه والأصول والحكمة والرياضيات والعلوم الغريبة والأخلاق والعرفان. ويعتبر نجله الكريم الحاج أحمد النراقي أستاذ الشيخ الأنصاري من أبرز العلماء من أصحاب التصانيف العديدة.

بعد أن ترك الشيخ الأنصاري العتبات المقدسة متجهاً إلى إيران بهدف تحصيل العلوم الدينية، عرج على مدينة «اصفهان» ومن ثم «كاشان» وتتلمذ على يد الشيخ الملا أحمد النراقي فترة أربع سنوات ثم عاد بعدها إلى النجف الأشرف.

يتناقل العلماء وطلاب الحوزة العلمية بمدينة النجف الاشرف هذه الحكاية باعتبارها من الأحوال المسلم بها للمرحوم النراقي (نظراً لإقامة المرحوم النراقي في النجف الأشرف في أواخر حياته حيث توفي بها ودفن في مقبرة تتصل بالصحن الشريف فيها).

ذات يوم من ايام شهر رمضان إبان إقامته في النجف لم يتواجد في داره مايتناولونه عند الإفطار. أخبرته زوجته بذلك وطلبت منه أن يذهب إلى

---

١ ـ «وعده ديدار» (موعد اللقاء)، ص ٩٧.

السوق ويحضر لهم ما يتناولونه.

غادر المرحوم النراقي داره وهو لا يملك حتى فلس واحد فقصد وادي السلام لزيارة أهل القبور. جلس إلى القبور وراح يقرأ الفاتحة عليها حتى غربت الشمس وبدأ الظلام بالحلول.

عندها ألمح الشيخ جماعة من العرب قد أقبلت تحمل جثماناً فوضعوه في قبر حفروه له. إلتفتوا إلى النراقي وقالوا: إننا على عجل لأداء عمل ما، سنعود إلى مكاننا، أدِّ عنا بقية المراسيم.

تركوا الجنازة وانصرفوا. فدخل الشيخ إلى القبر وأزاح الكفن عن وجه المتوفي ليتوسد التراب على أن يضع الصخرة بعد ذلك ويواريه التراب. وفجأة أبصر كوة توغل فيها فرآى بستاناً كبيراً اكتظ بأشجار يانعة تحمل ثماراً متنوعة ومختلفة يؤدي البستان إلى قصر فخم يصل بينه وبين بوابة البستان طريق مفروش بالأحجار الثمينة.

ورد البستان عفوياً وتوجه نحو القصر فوجده قصراً عظيماً مبنياً من الأحجار الكريمة. ارتقى السلم ودخل غرفة كبيرة جلس في طليعتها رجل حلق حوله أشخاص آخرون.

حيى الجماعة وجلس فأجابوا تحيته. كان الضيوف يوجهون أسئلة متتالية للرجل الذي جلس في طليعة الغرفة ويستفسرون عن أحوال أقاربهم ومعارفهم وهو يجيب على أسئلتهم.

كان الرجل يرد على أسئلتهم الواحدة تلو الأخرى بسرور وابتهاج. وبعد هنيهة رأى الشيخ أفعى ترد من الباب وتتجه مباشرة نحو الرجل فتلسعه وتعود أدراجها خارجة من الباب.

امتقع لون الرجل لفرط ألمه المتأتي من لسعة الأفعى وأخذ يتلوى ثم عاد إلى حاله الطبيعية تدريجياً.

بعد ذلك بدأوا يتداولون الحديث كرة أخرى وراحوا يستفسرون عن

أحوال أقاربهم وعن أوضاع الدنيا.

وبعد مرور ساعة من الزمن رآى الشيخ الأفعىٰ ترد ثانية وتلسع الرجل مثلما فعلت من قبل وتنصرف.

اضطرب حال الرجل وشحب وجهه ثم عاد إلى وضعه الأولي.

عندئذ تساءل الشيخ: من أنت؟ وأين نحن؟ لمن يعود هذا القصر؟ وما هي هذه الأفعىٰ؟ ولماذا تلسعك؟

قال الرجل: أنا ذات المتوفي الذي وضع تواً في القبر وهذا البستان جنتي في برزخي أفاض الله به عليَّ فتظهر لي من كوة القبر المطلة على عالم البرزخ.

إن هذا القصر هو قصري وهذه الأشجار الرائعة والمجوهرات وهذا المكان الذي تراه هي جنتي في برزخي وقد وصلت إليها تواً. وهؤلاء الذين حلقوا حولي هم أقاربي قضوا حتفهم قبلي، وقد جاؤوا لاستقبالي وللاستفسار عن حال ورثتهم وأقاربهم في الدنيا. يسألونني عنهم وأنا اشرح لهم أوضاعهم.

قال الشيخ: وهذه الأفعى، لماذا تلسعك؟

قال الرجل: القصة أنني رجل مؤمن التزم بالصلاة والصوم والخمس والزكاة، ولم يصدر عني أي فعل غير مشروع يستحق مثل هذا العقاب ولهذا نلت هذا البستان بهذه الخصائص في برزخي كنتاج لأعمالي الصالحة. إلّا أمر واحد وهو أنني ذات يوم من ايام الصيف الملتهبة كنت أسير في الزقاق فرأيت صاحب حانوت يتخاصم مع أحد المشترين فأردت اصلاح ذات بينهم. اقتربت منهما فراح البائع يقول: أنت مدين لي بثلاثمائة دينار (أي ستة شاهيات). والمشتري يجيب: بل بخمسة لا أكثر.

قلت لصاحب الحانوت: غض النظر عن نصف شاهي. وكذا طلبت من المشتري أن يترفع عن المخاصمة من أجل نصف شاهي.

صمت صاحب الحانوت ولم ينبس ببنت شفة. كنت قد أجحفته في حكمي بمقدار نصف شاهي دون أن يكون راضياً بذلك. وقد تقرر عذابي بهذه الأفعىٰ

كل ساعة مرة حتى ينفخ في الصور ويجتمع الخلق وأنجو من ذلك بفضل شفاعة محمد وآل بيت محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

بعد أن استمع الشيخ لهذا الكلام نهض وقال: عيالي في انتظاري. لابد أن أذهب وأحمل لهم إفطارهم. نهض الرجل من مكانه في طليعة الغرفة ليودع الشيخ. ولما أراد الخروج من الباب، قدم له كيساً من الرز. كان كيساً صغيراً. قال له: هذا الرز ذو جودة عالية، إحمله لعيالك.

حمل الشيخ الرز وودعه وخرج من البستان من حيث دخله عن طريق الكوة فرآىٰ نفسه في القبر ذاته والمتوفي ملق على الأرض. ولكنه لم يعثر على الكوة. فخرج من القبر ووضع الأحجار في محلها ثم انهال عليها بالتراب ومضىٰ إلى داره يحمل كيس الرز فطبخوا منه. مضت مدة مديدة وهم يستعملون رز الكيس دون أن ينفد. كانت نكهته الطيبة تفوح في أرجاء الزقاق كلما طبخوا منه مما يدفع الجيران للاستفسار: من أين لكم هذا الرز؟ وبعد فترة طويلة زارهم ضيف في غياب الشيخ وعندما أعدت زوجة الشيخ شيئاً من ذلك الرز، فاحت نكهته في البيت كله. سأل الضيف: من اين لكم هذا الرز فإنه أطيب نكهة من جميع أنواع الرز العنبر؟!

اعترى الزوجة الخجل فقصت عليه الحكاية. سرعان ما نفد الرز إثر استعماله بعد بوحها بسره. أجل، إنه طعام من الجنة خصه الله عز وجل لعباده المقربين له[1].

الرسول (ص) يناشد أصحاب المظالم ليقتصوا منه:

أما بعد أيها الناس فإني أحمد الله الذي لا إله إلّا هو وأنه قد دنا مني خفوق من بين أظهركم[2] ومن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه ومن كنت

---

١ ـ راجع «داستانهای عبرت‌انگیز» (حكايات وعبر).

٢ ـ أي قرب أجلي ورحيلي عنكم.

شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ولا يخش الشحناء[1] من قِبلي فإنها ليست من شأني. ألا وإنَّ أحبكم إليَّ من أخذ مني حقاً إن كان له أو حللني فلقيت ربي وأنا طيّب النفس وقد ارى أنّ هذا غير مغنٍ عني حتى أقوم فيكم مراراً»[2].

عود خلال وحساب سنة كاملة:

قال أحمد بن أبي الحواري تمنيت أن أرىٰ أبي سليمان الداراني في المنام، فرأيته بعد سنة فقلت له:

ـ يا معلم! ماذا فعل الله بك؟

فقال:

ـ يا أحمد جئت من باب الصغير فلقيت وسق شيح (حمل جمل من نبات الشيح) فأخذت منه عوداً ما أدري تخللت به أو رميت به فأنا في حسابه منذ سنة إلى هذه الغاية[3].

الصفح والعفو عن الآخرين:

بينما رسول الله ﷺ جالس إذا رأيناه ضاحكاً حتى بدت ثناياه فقلنا:

ـ يا رسول الله مما ضحكت؟

فقال: «رجلان من أمتي جيئا بين يدي ربي. فقال أحدهما: يارب خذ بمظلمتي من آخر. فقال الله تعالى: إعط أخاك مظلمته. فقال: يارب لم يبق من حسناتي شيء. فقال: يارب فليحمل أوزاري».

ثم فاضت عينا رسول الله ﷺ وقال: «إن ذلك اليوم ليوم تحتاج الناس

١ـ الشحناء: إمتلاء الصدور بالعداوة.

٢ـ نهج الخطابة، المجلد (١)، ص ٢٦٢.

٣ـ بحار الأنوار، المجلد (٧٤)، ص ١٦٩.

فيه إلى من يحمل عنهم أوزارهم، ثم قال تعالىٰ للطالب بحقه: ارفع بصرك إلى الجنة فانظر ماذا ترى؟ فرفع رأسه فرآى ما أعجبه من الخير والنعمة. فقال: يا رب! لمن هذا؟ فقال: لمن أعطاني ثمنه. فقال: يارب ومن يملك ثمن ذلك؟ فقال: أنت. فقال: كيف ذلك؟ فقال: بعفوك عن أخيك. فقال قد عفوت.

فقال الله تعالى: فخذ بيد أخيك فادخلا الجنة».

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم»[1].

قال الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام:

«اللهم وأيُّما عبدٍ نال مني ما حضرت عليه وانتهك مني ما حجرت عليه فضىٰ بظلامتي ميتاً أو حصلت لي قِبله حياً فاغفر له ما ألمَّ به مني واعفُ له عما أدبر به عني ولا تَقِفه على ما ارتكب فيّ ولا تكشفه عما اكتسب بي[2].

المرحوم الشيخ عباس القمي يتحدث عن حق الناس:

إن عدم الاجتناب عنه عن طلب الحرام، لا ريب في كونه مترتباً على حب الدنيا والحرص عليها، وهو أعظم المهلكات، به هلك أكثر من هلك، وجل الناس حرموا السعادة لأجله، ومنعوا من توفيق الوصول إلى الله بسببه، ومن تأمل يعلم أن أكل الحرام أعظم الحجب للعبد من نيل درجة الأبرار، وأقوىٰ الموانع له عن الوصول إلى عالم الأنوار...

ينبغي لطالب النجاة أن يفر من الحرام فراره من الأسد ويحترز منه احترازه من الحية السوداء، بل أشد. وأنىٰ يمكنه ذلك في أمثال زماننا الذي لم يبق فيه من الحلال إلّا الماء الفرات والحشيش النابت في ارض الموات، وما عداه قد أخبثته الأيادي العادية وأفسدته المعاملات الفاسدة. ما من درهم إلّا وقد

١ـ بحار الأنوار، المجلد (٧٤)، ص (١٨٢).

٢ـ الصحيفة السجادية، الدعاء (٣٩).

غصب من أهله مـرة بعد أولىٰ ومـا من دينار إلّا وقـد خرج مـن أيدي من أخذه قهراً مرة غب أولىٰ. جل المياه والأراضي من أهلها مغصوبة، وأنّىٰ يمكن القطع بحلية الأقوات وأكثر المواشي والحيوانات من أهلها منهوبة.

اعلم أن الأموال على أقسام ثلاثة: حلال بين وحرام بين وشبهات بينهـما، ولكل منها درجات...

اعلم أن الأموال على أقسام ثلاثة: حلال بين وحرام بين وشبهات بينهـما، ولكل منها درجات...

الحرام أما يحرم لعينه، كالكلب والخنزير والتراب وغـيرها مـن المحـرمات العينية، أو لصفة حادثة فيه كالخمر لاسكاره والطعام المسموم لسميته، أو لخلل في جهة اثبات اليد عليه. وله أقسام غير محصورة كـالمأخوذ بـالظلم والقـهر والغصب والسرقة والخيانة في الأمانة وغـيرها والغش والتـلبيس والرشـوة، وبالبخس في الوزن والكيل وباحدى المعاملات الفاسدة مـن الربـا والصرف والاحتكار، وغير ذلك مما هو مذكور في كتب الفقه...

وربما يتوهم الاشتباه في بعض الموارد بين الرشوة والهدية فلنشر إلى حلية الحال فيها، فنقول، ههنا صور:

الأولى: أن يسلم أو يرسل مالاً إلى بعض الإخوان طلباً للاستئناس وتأكيداً للصحبة والتودد وقد عرفت كونه هدية وحلالاً سواء قـصد بـه الثـواب في الآخرة والتقرب إلى الله تعالى أيضاً أو لم يقصد به الثـواب بـل قـصد مجـرد الاستئناس والتودد.

الثانية: أن يقصد بالبذل عوض مالي معين في العاجل، كأن يهدي الفقير إلى الغني أو الغني إلى الغني شيئاً طمعاً في عوض أكثر أو مساو من ماله. وهـذا أيضاً نوع هدية وحقيقته ترجع إلى هبة بشرط العوض واذا وفي بما (يطمع فيه) من العوض فلا ريب في حليته..

قال رسول الله ﷺ: «الهدية على ثلاثة وجـوه: هـدية مكـافأة وهـدية

مصانعة وهدية لله عز وجل»[١]. وفي بعض الاخبار نوع إشعار بـالحل وإن لم يتحقق الوفاء بما (يطمع فيه) من العوض.

الثالثة: أن يقصد به الإعانة بعمل معين، كالمحتاج إلى السلطان أو ذي شوكة يهدي إلى وكيلها أو من له مكانة عندهما فينظر إلى ذلك العمل فإن كان حراماً كالسعي في تنجز إدرار حرام أو ظلم إنسان أو غير ذلك، أو واجباً كدفع ظلم أو استخلاص حتى ينحصر الدفع والاستخلاص به أو شهادة معينة أو حكم شرعي يجب عليه أو أمثال ذلك، فهو رشوة محرمة يحرم أخـذها، وإن كـان العمل مباحاً لا حراماً ولا واجباً فإن كان فيه تعب بحيث جاز الاستئجار عليه فما يأخذه حلال وجار مجرى الجعالة.

الرابعة: ان يطلب به حصول التودد والمحبة، ولكن لا من حيث أنه تـودد فقط، بل ليتوصل بجاهه إلى أغراض ينحصر جنسها وإن لم يـنحصر عـينها، وكان بحيث لولا جاهه لكان لا يهدي إليه، فإن كان جاهه لأجل علمٍ أو ورع أو نسب فالأمر فيه أخف، والظاهر كون الأخذ حينئذ مكروهاً، لأنه هدية في الظاهر مع كونها مشابهاً للرشوة. وإن كان لأجل ولاية تولاها، من قضاء أو حكومة أو ولاية صدقة أو وقف أو جباية مـال أو غـير ذلك مـن الأعـمال السلطانية، فالظاهر كون ما يأخذه حراماً لو كان بحيث لا يهدي إليه لولا تلك الولاية، لأنه رشوة عرضت في معرض الهدية.

الورع عن الحرام:

.. وهو الورع بأحد اطلاقيه فإن الورع قد يفسر بملكة التنزه والاجتناب عن مال الحرام أكلاً وطلباً وأخذاً واستعمالاً. وقد يفسر بكف النفس عن مطلق المعاصـي ومنعها عما لا ينبغي. فعلـىٰ الأول يكون ضداً لعدم الاجتناب عن المال الحرام ويكون مـن رذائل القـوة الشهوية. وعلـى الثاني يكـون ضـداً

---

١ ـ الوسائل، كتاب التجارة، أبواب ما يكتسب به، الباب (١١٩)، ح (٢).

لملكة الولوع على مطلق المعصية، ويكون مـن رذائل القوة الغضبيـة والشهويـة جميعاً.

ثم الظاهر أن التقوىٰ مرادفة للورع فإن لها أيضاً تفسيرين... فـعلى الأول يكون ضداً لعدم التنزه عن المال الحرام ورذيلة لقوة الشهوة وعلى الثاني يكون ضداً لملكة ارتكاب المعاصي ورذيلة للقوتين معاً.

مداخل الحلال:

إعلم أن مداخل الحلال خمسة:

الاول: ما لا يؤخذ من مالك، كنيل المـعادن وإحـياء المـوات والاصـطياد والاحتطاب والاحتشاش والاستسقاء من الشطوط والأنهار...

الثاني: ما يؤخذ قهراً ممن لا حرمة له: وهو الفيء والغنيمة وسـائر أمـوال الكفار المحاربين وذلك حلال للمسلمين بالشروط المـقررة في كـتاب الغـنائم والجزية.

الثـالث: ما ينتقل إليه بالرضىٰ من غير عوض، من حي أو مـيت، كـالهبة والميراث والوصية والصدقات. وهذا حلال بـشرط أن يكـون المـنقول مـنه اكتسبه من مداخل الحلال وبضمن سائر الشروط المقررة في كـتاب الهـبات والفرائض والوصايا والصدقات.

الرابع: ما يؤخذ تراضياً بمعاوضة وذلك حلال بالشرائط والآداب المقررة في فن المعاملات...

الخامس: ما يحصل من الزراعة ومنافع الحيوانات. وهو حـلال إذا كـانت الارض والبذر والماء والحيوانات حلالاً بأحد الوجوه المتقدمة.

درجات الورع:

الأولىٰ: ورع العدول:... وهو الورع عن كل ما يحرمه فتوى المجتهدين.

الثانية: ورع الصالحين: وهو الاجتناب من الشبهات أيضاً.

الثالثة: الورع عما يخاف أداؤه إلى محرم أو شبهة أيضاً.

الرابعة: ورع الصديقين: وهو الاجتناب عن كل ما ليس لله.

الفصل الثالث

عاقبة التطفيف

عاقبة المطففين[1]

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«إذا طففت أمتي مكيالها وميزانها واختانوا وخفروا الذمة وطلبوا بعمل الآخرة الدنيا فعند ذلك يُزكون أنفسهم ويُتَوَرَّع منهم»[2].

غني عن التوضيح أن مثل هذه الفعال تمارس عادة من قبل الرأسماليين والانتهازيين وبعض التجار فيتسببون في الإضرار بالفئات الشعبية وزجهم في متاهات الفقر والفاقة. وقد أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين بالتورع عن معاشرة مثل هؤلاء الاستغلاليين.

قال علي عليه السلام:

.. وإذا طففت المكاييل أخذهم الله بالسنين والنقص[3].

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام[4]:

أنزل في الكيل: ويل للمطففين ولم يجعل الويل لأحد حتى يسميه كافراً. قال الله عز وجل: ﴿فويل للذين كفروا من مشهدِ يومٍ عظيم﴾[5].

---

١ ـ التطفيف: نقص المكيال والميزان. فالطفيف الشيء النزر القليل مأخوذ من طف الشيء وهو جانبه (تفسير مجمع البيان).

٢ ـ نوادر الراوندي.

٣ ـ بحار الأنوار، المجلد (١٠٣)، ص ١٠٧، عن كتاب أمالي الشيخ الطوسي.

٤ ـ تفسير نور الثقلين، المجلد (٥)، ص (٥٢٧).

٥ ـ سورة مريم، الآية ٣٧.

قال رسول الله ﷺ:

«يا وزان! زِن وارجح»[1].

كما قال ﷺ:

«إذا وزنتم فارجحوا»[2].

كما قال ﷺ:

أما الإمام الصادق فقد جاء عنه عليه السلام أنه قال:

مرّ أمير المؤمنين عليه السلام على جارية قد اشترت لحماً من قصاب وهي تقول: زدني. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: زدها فإنه أعظم للبركة[3].

وعنه عليه السلام أيضاً: لا يكون الوفاء حتى يَرجَح[4].

وقال كذلك: لا يكون الوفاء حتى يميل الميزان[5].

وعن سويد بن قيس:

جلبت أنا ومَخرمةُ العبدي بَزّاً من هَجَر فاتينا به مكة فجاءنا رسول الله ﷺ يمشي فساومنا بسراويل فبعناه وثَمَّ رجلٌ يزن بالأجر. فقال رسول الله ﷺ: زِن وارجح.

التطفيف في القرآن:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ويلٌ للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسِرون. ألا يظن اولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس

١ـ كنز العمال، (٩٣٣٨).

٢ـ كنز العمال، (٩٤٤٢).

٣ـ الكافي، ٥ / ١٥٢ / ٨.

٤ـ الكافي، ١٦٠ / ٥.

٥ـ الكافي، ١٥٩ / ١.

لرب العالمين﴾[1].

شأن النزول:

قال ابن عباس: لما قدم نبي الله المدينة، كانوا من أبخس الناس كيلاً، فأنزل الله هذه الآية فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

ويروى: كان تجار المدينة تجاراً يطففون، وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة. فنزلت هذه الآية، فخرج رسول الله ﷺ فقرأها عليهم وقال: «خمس بخمس». قيل: يا رسول الله، وما خمس بخمس؟

قال: «ما نقض قوم العهد إلّا سلط الله عليهم عدوهم!

وما حكموا بغير ما أنزل الله إلّا فشا فيهم الفقر!

وما ظهرت فيهم الفاحشة إلّا فشا فيهم الموت!

ولا طففوا الكيل إلّا منعوا النبات وأخذوا بالسنين[2].

ولا منعوا الزكاة إلّا حبس عنهم المطر!»[3].

وروى العلامة الطبرسي في مجمع البيان: إن رجلاً كان في المدينة يقال له (أبو جهينة) كان له صاعان، يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر، فنزلت هذه الآيات[4].

التفسير

ويلٌ للمطففين!

بدأ الحديث في هذه السورة بتهديد شديد للمطففين: ﴿ويلٌ للمطففين﴾.

١ـ سورة المطففين ١ـ٦.

٢ـ العرب تقول أخذتهم السنة إذ كانت قحطة ويقال أسنت القوم إذا أجدبوا وإنما قيل للسنة المجدبة السنة ولم يقال للمخصبة.. قالوا وجدنا البلاد سنين أي جدوباً. (مجمع البيان، المجلد الرابع، ص ٤٦٦).

٣ـ تفسير الفخر الرازي: ٣١/ ٨٨ وكذلك.. أبو الفتوح والمراغي في تفسيريهما.

٤ـ مجمع البيان، ١٠/ ٤٥٢.

وتمثل الآية في حقيقة توجيهها، إعلان حرب من الله عز وجل على هؤلاء الظالمين القذرة، الذين يغبنون حق الناس دون أدنىٰ مروءة.

و «المطففين»: من (التطفيف) واصله من (الطف)، وهو جوانب الشيء وأطرافه، وإنما سميت كربلاء (وادى الطف)، لوقوعها على ساحل نهر الفرات، و (الطفيف): الشيء النزر، و (التطفيف): البخس في الكيل والوزن، ونقص المكيال، وهو أن لا تملأه إلى أصباره.

«ويل» تأتي بمعاني: حلول الشر، الحزن، الهلاك، المشقة من العذاب، الوقوع في التهلكة. وتستعمل في التفجع وبيان قبح الشيء.

وروي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «ولم يجعل الله الويل لأحد حتىٰ يسميه كافراً، قال الله عز وجل ﴿فويل للذين كفروا من مشهد يومٍ عظيم﴾»[1].

وما توحي به هذه الرواية هو: أن التطفيف فيه وجه من الكفر.

وتتطرق الآيتان التاليتان إلى أسلوب عمل المطففين، فتقول الآية الأولى: ﴿الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون﴾[2].

وتقول الثانية: ﴿إذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾.

وذهب فريق من المفسرين إلى أن الآية أرادت بـ«المطفف» من يأخذ عند الشراء أكثر من حقه، ويعطي عند البيع أقل من الحق الذي عليه. والـ«ويل» إنما جاء، فبلحاظ هاتين الحالتين.

ولكن ما ذهب أولئك المفسرون إليه غير صائب، بدلالة لفظة «يستوفون» التي تعني أخذهم بالكامل، وليس ثمة ما يدل على أخذهم أكثر من حقهم. ويمكننا توجيه (الذم) الحاصل، على أساس مقارنة حالتي أخذهم حقهم كاملاً

---

١ ـ اصول الكافي: ٢ / ٣٢، وعنه نور الثقلين: ٥ / ٥٢٧.

٢ ـ على الناس: إشارة إلى ما لهم لدى الناس. والتقدير: (إذا كالوا ما على الناس) وذلك عند الأخذ منهم. وهو ما نفهمه من (كال عليهم).. أما (كاله) أو (كال له) فهو عند العطاء.

عند الشراء، وبخسهم حق الآخرين عند البيع. كمن يريد أن يذم رجلاً بقوله: كيف أنت من رجل، تراك تأتي في الموعد المقرر عندما تكون دائناً وتتهرب من أداء ما عليك ولشهور عندما تكون مديناً.

فأخذ الحق في موعده المقرر ليس عملاً مشيناً، ولكن المشين هو تطبع شخص واحد بهذين السلوكين معاً.

وقد جاء ذكر «الكيل» في الآيتين عند حالة الشراء، وذكر «الكيل» و «الوزن» عند حالة البيع. وربما يرجع ذلك لأحد سببين:

الأول: كان التجار الكبار في تلك العهود يستخدمون (المكيال) عند شراء كميات كبيرة من المواد، لأنه لم يكن عندهم ميزان كبير يستوعب تلك المواد الكثيرة، بينما كانت المكاييل متوفرة، يمكن الحصول عليها بسهولة.

«وقيل: إن (الكُر)، كان في الأصل اسماً لمكيال كبير.. والكُر: مصطلح يستعمل لقياس سعة الماء».

أما في حالة البيع، فكانوا يكيلون لبيع الجملة، ويزنون لبيع المفرد.

الثاني: إنهم كانوا يفضلون استخدام المكيال عند الشراء لصعوبة الغش فيه، ويستغلون الميزان عند البيع لسهولة الغش فيه!.

ومما يجدر الالتفات إليه.. إن الآيات وإن تحدثت عن التطفيف في الكيل والوزن، ولكن مفهومها واسع جداً لا ينحصر في إطار الكيل والوزن. فالتطفيف يشمل حتى العدد ولا يستبعد أن تكون الآيات قد اشارت إلى إنقاص ما يؤدىٰ من خدمة مقابل أجر، كما لو قصر العامل أو الموظف في حسن أدائه خلال ساعات عمله أو استغلها لبعض شؤونه الخاصة، فإنه في مثل هذه الحالة سينضم إلى زمرة «المطففين» المذمومين بشدة في هذه الآيات المباركة.

ويذهب البعض إلى أكثر بكثير من هذا المفهوم فيجعل أي تجاهل لحدود الله أو إنقاص أو إخلال في العلاقات الاجتماعية أو تسيب أخلاقي من المصاديق التي تدخل في إطار هذا المفهوم.

ومع أن ظاهر ألفاظ الآية لا يرمز إلى هذه المعاني، ولكنها لا تخلو من اشارات إليها.

ولذا فقد ورد عن ابن عباس، أنه قال: «الصلاة مكيال، فمن وفىٰ، وفىٰ الله له، ومَن طفف، قد سمعتم ما قال الله في المطففين»[1].

ويهدد القرآن الكريم المطففين باستفهام توبيخي: ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون..﴾.

﴿.. ليوم عظيم﴾، عظيم في عذابه، وحسابه وأهواله.

﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾: أي انهم لو كانوا يؤمنون بالبعث والحساب، وأن أعمالهم مدونة وستعرض بتمامها في محكمة العدل الالهي سواء خيرها وشرها، عظيمها وبسيطها، ولو كانوا يؤمنون بذلك لما ظلموا أحداً ولما غبنوا الناس حقوقهم.

ويرى الكثير من المفسرين أن «الظن» في هذه الآية يعني اليقين ومثل هذا التعبير وارد في القرآن الكريم كما في الآية (٢٤٩) من سورة البقرة: ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرةً بإذن الله﴾، والتي تطرقت للمراحل المختلفة التي إستبان خلالها فريق من بني اسرائيل ايمانهم واستقامتهم.

والدليل على ما نذهب إليه هو أن أمير المؤمنين عليه السلام وفي سياق تفسير الآية: ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم﴾، قال: «أليس يوقنون أنهم مبعوثون»؟[2].

وروي عنه عليه السلام أيضاً، أنه قال: «الظن ظنان، ظن شك وظن يقين فما كان من امر المعاد من الظن فهو ظن يقين، وما كان من أمر الدنيا فهو على

---

١ ـ مجمع البيان، المجلد (١٠)، ص (٤٥٢).

٢ ـ تفسير البرهان، المجلد (٤)، ص (٣٨).

الشك»[1].

واحتمل البعض: إن «الظن» الوارد في الآية، هو ذات «الظن» المأخوذ بنظر الاعتبار في عهدنا الحالي. وهو غير اليقين، فيشير بذلك إلى أن الإيمان بالقيامة يترك أثراً في معنويات الإنسان ونفسه، يجعله يتنزه عن الوقوع في لجج الآثام والظلم، حتى وإن كان ذلك الإيمان على قدر «الظن».. فكيف به إن كان يقيناً؟! ويصطلح على هذا المعنى، عنوان (دفع الضرر المظنون) أو (دفع الضرر المحتمل).

فيكون مفهوم الآية، على ضوء ما ورد. ليس المطففين العاصين لا يملكون اليقين بوجود يوم القيامة، بل إنهم لا يظنون بذلك أيضاً. ويبدو أن التفسير الأول مرجح على ما ذكرنا.

و «الظن» كما يقول الراغب في مفرداته: اسم لما يحصل على إمارة. ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جداً لم يتجاوز حدا لتوهم.

وعليه.. فاصطلاح «الظن» بخلاف ما يتبادر إليه الذهن في زماننا، وهو يشمل العلم والظّن، ويستعمل في الحالتين.

ملاحظة:

التطفيف.. جرثومة فساد في الأرض:

تطرق القرآن الكريم للتطفيف في الوزن مراراً. ومن ذلك ما جاء في الآيات (١٨١ـ١٨٣) من سورة الشعراء، حينما خاطب شعيب عليه السلام قومه قائلاً: **﴿أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾**.

فالتطفيف في الوزن والكيل من الفساد في الأرض، وذلك لما تنتج عنه من مفاسد اجتماعية ذات أبعاد واسعة.

كما جاء التأكيد في الآيتين (٧ و ٨) من سورة الرحمٰن على ضرورة الالتزام

---

١ ـ نور الثقلين، المجلد (٥)، ص (٥٢٨).

بالعدالة عند استخدام الميزان، بعد الإشارة إلى أن العدل أصل قد روعي فيه حتى نظام الخلق في عالم الوجود: ﴿والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان﴾.

ولذا، نجد أن الأئمة عليهم السلام من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أولوا هذا الموضوع اهتماماً بالغاً، حتى روي عن الأصبغ بن نباتة أنه قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول على المنبر: «يا معشر التجار! الفقه ثم المتجر، الفقه ثم المتجر، الفقه ثم المتجر» إلى أن قال: التاجر فاجر، والفاجر في النار إلّا من أخذ الحق وأعطى الحقّ»[1].

وفي رواية عن الإمام الباقر عليه السلام، أنه قال: «كان أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة يغتذي كل يوم بكرة من القصر، فيطوف في أسواق الكوفة سوقاً سوقاً، ومعه الدرة على عاتقه (لمعاقبة المخالفين)، فينادي: يا معشر التجار! اتقوا الله عز وجل، فإذا سمعوا صوته عليه السلام ألقوا ما بأيديهم، وأرعوا إليه بقلوبهم، وسمعوا بآذانهم، فيقول عليه السلام: قدموا الاستخارة، وتبركوا بالسهولة، واقتربوا من المبتاعين، وتزينوا الحلم، وتناهوا عن اليمين، وجانبوا الكذب، وتجافوا عن الظلم، وانصفوا المظلومين، ولا تقربوا الربا، وأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين، فيطوف عليه السلام في جميع أسواق الكوفة ثم يرجع فيقعد للناس»[2].

وفي سبب نزول الآيات، قال النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: «ولا طففوا الكيل إلّا منعوا النبات وأخذوا بالسنين».

نستنتج مما ذكر ان التطفيف في الميزان يعتبر من البواعث الأساسية لعذاب وهلاك بعض الأمم السالفة، حيث أدى ذلك إلى اختلال النظام الاقتصادي

---

١ ـ اصول الكافي، المجلد الخامس، ص (١٥٠)، الحديث (١).

٢ ـ اصول الكافي، المجلد (٥)، ص (١٥٠)، الحديث (٣).

عندهم من جهة، وإلى نزول العذاب الالهي عليهم من جهة أخرى.

وقد حثت الروايات الواردة في خصوص آداب التجارة، حثت على الأخذ ناقصاً والعطاء راجحاً، أي بعكس سلوكية من ذمتهم الآيات محل البحث. فهم يكتالون بدقة ويكيلون غشاً[١].

وكما قلنا في تفسير الآية فثمة من يذهب إلى أن مفهوم التطفيف أوسع من أن يحدد بالكيل والميزان، ويمتد ليشمل أي إنقاص في عمل، وأي تقصير في أداء وظيفة فردية أو اجتماعية أو إلهية[٢].

قال الصادق (ع)

«فالبس وتجمل فإن الله جميل يحب الجمال وليكن من حلال»*

---

١ ـ لمزيد من الاطلاع راجع وسائل الشيعة، المجلد (١٢)، ص (٢٩٠)، أبواب التجارة، الباب (٧).

٢ ـ تفسير الأمثل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، المجلد ٢٠، ذيل الآيات.

* ـ بحار الأنوار، طبعة بيروت، المجلد (٧٦)، ص (٣٠٦).

النبي شعيب (ع):

هو ابن «قويك بن دعويل بن مرّ بن عنقا بن إبراهيم» الملقب بخطيب الأنبياء. ولد النبي شعيب عليه السلام بعد ثلاثة آلاف وستمائة وستة عشر عاماً من هبوط النبي آدم إلى الأرض، وتوفي عن عمر يناهز (٢٢٠) سنة أي بعد (٣٨٣٦) عاماً من هبوط آدم[١].

النبي شعيب (ع) وحب الله:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بكىٰ شعيب عليه السلام من حب الله عز وجل حتى عمي فرَدّ الله عز وجل عليه بصره ثم بكى حتى عمي فرد الله عليه بصره ثم بكىٰ فلما كانت الرابعة أوحى الله إليه: يا شعيب! إلى متى يكون هذا؟ أبداً منك؟ إن يكن هذا خوفاً من النار فقد آجرتُك وإن يكن شوقاً إلى الجنة فقد ابحتك، فقال: إلهي وسيدي! أنت تعلم إني ما بكيت خوفاً من نارك ولا شوقاً إلى جنتك ولكن عقد حبك على قلبي فلست أصبر أو أراك. فأوحىٰ الله جل جلاله إليه: اما اذا كان هذا هكذا فمن أجل هذا سأخدمك كليمي موسىٰ بن عمران»[٢].

النبي شعيب واضع المكيال والميزان:

عن علي بن الحسين عليه السلام قال: «إن أول من عمل المكيال والميزان شعيب النبي عليه السلام عمله بيده»[٣].

لقد صنع شعيب عليه السلام المكيال والميزان ثم نصح الناس، وكما تذكر الآيات القرآنية الشريفة، بقوله:

---

١ ـ راجع ناسخ التواريخ، هبوط آدم.

٢ ـ بحار الأنوار، ج١٢، ص (٣٨٠)، الحديث (١).

٣ ـ بحار الأنوار، الطبعة الجديدة، المجلد (١٢)، ص (٣٨٢)، الحديث (٦).

﴿فأوفوا الكيلَ والميزان﴾[1].

فصاحة النبي شعيب (ع) وبلاغته:

هو (شعيب) خطيب الأنبياء لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته[2].

ثبات النبي شعيب (ع) على دعوة قومه إلى الله:

وعن علي عليه السلام، قال: قيل له: يا أمير المؤمنين حدثنا. قال: إن شعيب النبي عليه السلام دعا قومه إلى الله حتى كبر سنه ودقّ عظمه ثم غاب عنهم ما شاء الله ثم عاد إليهم شاباً فدعاهم إلى الله عز وجل فقالوا ما صدّقناك شيخاً فكيف نُصدقك شاباً[3].

النبي شعيب (ع) وعاقبة تطفيف قومه في القرآن الكريم

﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينةٌ من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين.

ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين.

وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي ارسلتُ به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾[4].

١ـ سورة الأعراف، الآية (٨٥).

٢ـ قصص الانبياء، ابن كثير، ص (٢٨٩).

٣ـ قصص الأنبياء، نعمة الله الجزائري، ص (٢٤٦).

٤ـ سورة الأعراف، الآيات (٨٥ـ٨٧).

رسالة شعيب في مدين:

تستعرض هذه الآيات فصلاً خامساً من قصص الأقوام السالفة، ومواجهة الأنبياء العظام معهم. وهذا الفصل يتناول قوم شعيب.

بعث النبي شعيب عليه السلام الذي ينتهي نسبه ـ حسب كتب التاريخ ـ إلى إبراهيم عبر خمس طبقات، إلى أهل مدين. ومدين كانت من مدن الشام يسكنها أناس مترفون يمارسون التجارة وقد ساد بينهم الوثنية وكذلك الغش والتطفيف والبخس في المعاملة.

وقد جاء تفصيل هذه المواجهة بين هذا النبي العظيم وبين أهل مدين، في سور متعددة من القرآن الكريم، وبخاصة في سورة «هود» و «الشعراء»، ونحن تبعاً للقرآن الكريم سنبحث بإسهاب في هذا المجال في ذيل آيات سورة هود، إن شاء الله. وأما هنا فنأتي بإيجاز على جانب من هذه القصة بحسب الآيات المطروحة هنا.

في البداية يقول سبحانه تعالى: ولقد أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيباً: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾.

روى فريق من المفسرين، مثل العلامة الطبرسي في مجمع البيان والفخر الرازي في تفسيره المعروف أن «مدين» هو في الأصل أسم لأحد أبناء النبي إبراهيم الخليل عليه السلام وقد سميت تلك الأرض على طريق الشام «مدين» نظراً لاتخاذها محلاً للسكنىٰ من قبل أبنائه وأحفاده.

هذا وقد أوضحنا سبب استخدام لفظة «أخاهم» في الآية (٦٥) من هذه السورة.

ثم أنه تعالىٰ أضاف: إن شعيباً مثل سائر الأنبياء بدأ دعوته بقضية التوحيد و ﴿قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾.

وقال: إن هذا الحكم وإضافة إلى كونه من وحي العقل، قد تم إثباته بواسطة الأدلة الواضحة التي جاءتهم من جانب الله أيضاً: ﴿قد جاءتكم بينة من

ربكم﴾.

أما ما هي هذه «البينة»؟ فإن ذلك مـا لم يـرد الحـديث عـنه في الآيـات الحاضرة ولكن الظاهر أنها إشارة إلى معجزات شعيب عليه السلام.

ثم بعد الدعوة إلى التوحيد أخذ يحارب المـفاسد الاجـتماعية والأخـلاقية والاقتصادية السائدة فيهم. وفي البدء منعهم من ممـارسة التـطفيف والغش في المعاملة، يقول: ﴿فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾[1].

وواضح أن تسرب أي نوع من أنواع الخيانة والغش في المعاملات يزعزع بل يهدم اسس الطمأنينة والثقة العامة التي هي من أهم دعائم إقتصاد الشعوب وتورث خسائر لا تسـتدرك بـالنسبة للـمجتمع. ولهـذا السـبب كـان أحـد الموضوعات الهامة التي ركز عليها شعيب هو هذا الموضوع بالذات.

ثم يشير إلى ضرب آخر من آثامهم، وهـو الإفسـاد في الأرض بـعد أن صلحت أوضاعها بجهود الأنبياء وفي ظل الإيمان، فـقال: ﴿ولا تـفسدوا فـي الأرض بعد إصلاحها﴾.

ومن المسلم به أن تفشي الفساد وإشاعته، سواء كان فساداً أخلاقياً، أو من قبيل فقدان الإيمان، أو انعدام الأمن، لا يعود بالفائدة على أحد ولهذا ذكرهم في آخر الآية أن الالتزام بنصائحهم يضمن لهم النفع، فقال: ﴿ذلكم خير لكـم إن كنتم مؤمنين﴾.

كأن إضافة عبارة: «إن كنتم مؤمنين» إشارة إلى أن هذه التعاليم الاجتماعية والأخلاقية إنما تكون متجذرة ومـثمرة مـتى مـا انـبثقت مـن روح الايمـان واستظلت بنوره بينما لا يكتب لها البقاء والدوام فيما لو افتقدت الدعامة الايمانية.

وفي الآية اللاحـقة يشـير إلى رابـع نـصيحة لشـعيب، وهـي مـنعهم مـن الجلوس على الطرقات وتهديد الناس، وصدهم عن سبيل الله، وتضليل الناس

---

١ ـ البخس: أي نقص وبتر حقوق الآخرين. والنزول عن الحد بما يكون فيه الظلم والجور.

بإلقاء الشبهات التي تصور طريق الحق المستقيم طريقاً أعوجاً بعيداً عن السداد في نظرهم، فقال: ﴿ولا تقعدوا بكل صراطٍ توعدون، وتصدون عن سبيل الله من آمن به، وتبغونها عوجاً﴾.

وأما أنه كيف كانوا يتوعدون الراغبين في الايمان، فقد ذكر المفسرون على هذا الصعيد احتمالات متعددة، فالبعض احتمل أن ذلك كان عن طريق التهديد بالقتل، وبعض آخر احتمل أنه كان عن طريق قطع الطريق واستلاب أموال المؤمنين. ولكن الأكثر تناسباً مع بقية العبارات الأخرى في الآية هو التفسير الأول.

وفي ختام الآية جاءت النصيحة الخامسة لشعيب، التي ذكّر فيها قومه بالنعم الإلهية لإثارة حس الشكر والثناء فيهم، فيقول: تذكروا عندما كنتم أفراداً قلائل فزاد الله جماعتكم وضاعف من قوتكم: ﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾.

ثم يلفت أنظارهم إلى عاقبة المفسدين ونهاية أمرهم ومصيرهم المشؤوم ليمتنعوا عن اقتفاء أثرهم: ﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾.

ويستفاد من الجملة المذكورة (الأخيرة) أنه على العكس من الدعايات غير المدروسة التي يروج لها حالياً، يمكن أن تكون كثرة الأفراد منشأ قوة وعظمة وتقدم المجتمع في أكثر الموارد. طبعاً شريطة أن تضمن معيشتهم وفقاً لبرامج منظمة، من الناحية المادية والمعنوية.

إن آخر آية من الآيات محل البحث، هي في الحقيقة إجابة على بعض أقوال المؤمنين والكفار من قومه، لأن المؤمنين ـ على أثر الضغوط التي كانوا يتعرضون لها من جانب الكفار ـ كان من الطبيعي أن يطرحوا هذا السؤال على نبيهم: إلى متى نبقىٰ في العذاب ونتحمل الأذىٰ؟

وكان عدم نزول العقوبة الإلهية فوراً على معارضيه قد جرأهم للقول: إذا كنت مبعوثاً من جانب الله فلماذا لا يصيبنا سوء رغم كل ما نقوم به إثر

معارضتنا لرسالتك؟

فيرد عليهم شعيب: إن كانت طائفة منكم آمنت بما بعثت به وأخرى أعرضت عنه فإن ذلك ينبغي أن لا يكون مدعاة غرور الكفار، ويأس المؤمنين.

إصبروا حتى يحكم الله خير الحاكمين بيننا، أي ان المستقبل سوف يكشف عمن كان الحق إلى جانبه ومن كان على باطل: ﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أُرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾.

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا، قال أولو كنا كارهين.

قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها، وما يكون لنا أن نعود فيها إلّا أن يشاء الله ربنا، وسع ربنا كل شيء علماً، على الله توكلنا، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾[1].

تستعرض هذه الآيات رد فعل قوم شعيب عند استماعهم لكلمات هذا النبي العظيم المنطقية، وحيث ان الملأ والأثرياء المتكبرين في عصره كانوا في غاية القوة بحسب الظاهر، اتسم رد فعلهم بقوة أكبر مما كانت عليه ردود فعل الآخرين.

إنهم كانوا ـ كسائر المتكبرين المتزمتين ـ يهددون شعيباً انطلاقاً من قوتهم وجبروتهم، كما يقول القرآن الكريم: ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنّ في ملتنا﴾.

وقد يتصور البعض من سياق هذا التعبير «لتعودن إلى ملتنا» أن شعيباً كان قبل ذلك من الوثنيين والحال أن الأمر لم يكن كذلك بل أنه ولعدم تكليفه بأمر

---

١ ـ سورة الأعراف، الآيتان (٨٨ ـ ٨٩).

التبليغ كان يلتزم الصمت إزاء فعالهم فيظنون أنه على دين الوثنية في حين أن أياً من الأنبياء لم يسبق له الانضمام إلى صفوف الوثنيين حتى قبل زمان نبوته. فعقول الأنبياء ودرايتهم كانت أسمىٰ من أن يرتكبوا مثل هذا العمل الطائش. هذا مضافاً إلى أن خطابهم لم يكن موجهاً إلى شعيب وحده، بل يشمل المؤمنين من أتباعه أيضاً وقد يكون الخطاب يعنيهم دونه.

على أن تهديد المعارضين لم يقتصر على هذا، بل كانت هنالك تهديدات أخرىٰ سنتطرق إليها في سائر الآيات المرتبطة بالنبي شعيب.

أما رد شعيب على هذه التهديدات وعلى عنفهم فقد كان في غاية البساطة والرفق والموضوعية. إذ قال لهم: وهل بامكانكم أن تعيدوننا إلى دينكم إن لم نكن راغبين في ذلك: ﴿قال أولو كنّا كارهين﴾[1].

وفي الحقيقة، فشعيب إنما يقول لهم: هل من اللائق أن تفرضوا عقيدتكم علينا، وتكرهوننا على أن نعتنق ديناً ظهر لنا بطلانه وفساده؟ هذا مضافاً إلى أنه ما جدوى عقيدة مفروضة ودين جبري؟!.

وفي الآية اللاحقة يواصل شعيب قوله: ﴿قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها﴾.

إن في هذه الجملة توضيحاً للجملة التي نطق بها شعيب بايجاز. ومفهومها هو: نحن لم نترك الوثنية بدافع الهوى والرغبات النفسية بل لاثبات بطلان هذه العقيدة واستماعنا للأمر الالهي بشأن التوحيد باذن القلب. فإذا عدنا من عقيدة التوحيد إلى الشرك ـ والحال هذه ـ نكون عندئذ قد افترينا على الله عن وعي وإدراك، ومن المسلم به أن الله سيعاقبنا على ذلك بشدة.

ثم يضيف شعيب قائلاً: ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلّا ان شاء الله﴾. ما

---

١ ـ إن في هذه الجملة ـ في الحقيقة ـ حذفاً وتقديراً فالكلام في الأصل على هذه الصورة: «أتردوننا في ملتكم ولو كنا كارهين».

يريده شعيب عليه السلام من كلامه هو ـ في الواقع ـ أننا نتبع أمر الله ولا نعصيه قيد أنملة، فعودتنا غير ممكنة إلّا إذا أمر الله بذلك.

ثم يضيف دون تريث بأن الله لا يأمر بمثل هذا، لأنه يعلم كل شيء ويحيط علماً بجميع الأمور: ﴿وسعَ ربنا كل شيء علماً﴾، وعلى هذا من غير الممكن أن يعود عن أوامره حيث لا يعود عن أمره إلاّ ذوو العلم المحدود بعد ندمه على أمر صدر منه خطئاً. أما الذي يعلم كل شيء ويحيط علماً بجميع الأمور فيستحيل ويتعذر عودته عن أمر أصدره.

وليفهموا أن المؤمنين لا يهابون تهديداتهم وأنهم راسخون في موقفهم، قال: ﴿على الله توكلنا﴾.

وفي نهاية المطاف وبهدف إثبات حسن نيته ورغبته في الحقيقة والسلام كي لا يتهمه أعداؤه بالشغب، والفوضوية والإخلال بالأمن، يقول: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾.

أي: يا رب أنت احكم بيننا وبين قومنا بالحق، وارفع المشاكل التي بيننا وافتح علينا أبواب رحمتك، فأنت خير الفاتحين.

وقد روي عن ابن عباس أنه قال: ما كنت أعرف ماذا يعني الفتح في الآية حتى سمعت امرأة تقول لزوجها: أفاتحك عند القاضي. يعني أطالبك عند القاضي للفصل بيننا، فعرفت معنى الفتح في مثل هذه الموارد، وأنه بمعنى القضاء والحكم لأن القاضي يفتح العقدة في مشكلة الطرفين[1].

﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون. فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين.

الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها، الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين. فتولىٰ عنهم وقال يا قوم لقد ابلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فكيف ءاسىٰ

---

١ ـ تفسير منهج الصادقين.

على قوم كافرين﴾[1].

تتحدث الآية الأولىٰ عن الدعايات التي كـان مـعارضو شـعيب يـبثونها لمواجهة أتباعه فيقول الأشراف وكبار القوم ممـن اظـهروا الكـفر للـمؤمنين: ﴿وقال الملأ الذين من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون﴾.

والمراد من الخسارة في هذه الآية هو الخسارة المـادية التي تلوح المـؤمنين بدعوة شعيب إثر اضطرارهم لترك بلدهم وديارهم قسراً وغض الطرف عـن بيوتهم وأملاكهم، الأمر المسلم به الذي كان بانتظارهم جزاء لعدم عودتهم إلى عقيدة الو ثنية.

وهنالك احتمال آخر في تفسير الآية، وهو أن مرادهم هو الأضرار المعنوية بالإضافة إلى الأضرار المادية، لأنهم كانوا يتصورون أن طريق الخلاص يتمثل في الوثنية لا في دين شعيب.

ولما صار أمرهم إلى هذه الحـال، وراحوا يلحون على إضلال غـيرهم إلى جانب تمسكهم بضلال أنفسهم ولم يبق أي أمل في إيمانهم وهدايتهم، حلّت بهم العقوبة الإلهية بحكم قانون حسم مادة الفساد فأصابهم زلزال رهيب شـديد صيرهم إلى أجساد هامدة في بيوتهم عند الصباح.

وقد مر في ذيل الآية (٧٨) من هذه السورة تفسير لفظة «جاثمين» وكذا قلنا هناك أنها من العبارات والالفاظ المختلفة المستخدمة في التعبير عن عامل هلاك هذه الجماعة ولا منافاة بين هذه الالفاظ جميعاً.

فمثلاً جاء في شأن قوم شعيب في الآية الحاضرة، أن عامل هلاكهم كان هو «الزلزال» وفي الآية (٩٤) من سورة هود أنـه «صـيحة سماويـة»، وفي الآيـة (١٨٩) من سورة الشعراء: أنه «ظلة من السحاب القـاتل» وكـلها تـعود إلى موضوع واحد وهو أن العذاب المهلك كان صاعقة سماوية مخيفة، اندلعت من

---

١ ـ سورة الأعراف، الآيات (٩٠ ـ ٩٣).

قلب السحب الكثيفة المظلمة، واستهدفت مدينتهم، وعلى أثرها حدث زلزال شديد (هو من خصائص الصواعق العظيمة) ودمّر كل شيء.

ثم يبين القرآن الكريم في الآية اللاحقة أبعاد هذا الزلزال العجيب المهيب بالعبارة التالية: ﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها﴾[1]. أي أن الذين كذبوا شعيباً أبيدوا إبادة عجيبة. وكأنهم لم يكونوا يسكنون تلك الديار.

وفي ختام الآية يقول الله عز وجل: ﴿الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرون﴾.

وكأن هاتين الجملتين جاءت رداً على أقوال معارضي شعيب، لأنهم كانوا قد هددوه بإخراجه هو واتباعه إن لم يعودوا عن دين التوحيد إلى الدين السابق، فتقول الآية: أنهم أبيدوا إبادة كاملة وكأنهم لم يسكنوا في تلك المنازل، فضلاً عن أن يستطيعوا إخراج غيرهم من البلد.

وفي مقابل قولهم: إن اتّباع شعيب يأتي على المؤمنين بالخسران يؤكد القرآن: بل ان الإعراض عن دين شعيب هو العامل الأساس للخسران.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث نقرأ آخر كلام لشعيب عليه السلام في قومه فقد أعرض عنهم وقال: لقد بلغت رسالات ربي وأديت حق نصحكم تماماً ولم آل جهداً في إرشادكم: ﴿فتولى عنهم وقال: يا قوم لقد ابلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم﴾..

ثم قال: ﴿فكيف آسي على قوم كافرين﴾ أي لست مستاءاً لما صار إليه مصير الكافرين، لأنني قد بذلت جهداً لهدايتهم وإرشادهم ولكنهم أبوا أن يستسلموا للحق ولم ينصاعوا له. فكان يجب أن ينتظروا هذا المصير المشؤوم.

---

١ ـ «يغنوا» مشتقة من مادة «غني» بمعنى «الإقامة في مكان». يقول الطبرسي في مجمع البيان: لا يبعد أن يكون المفهوم الأصلي للغنىٰ هو عدم الحاجة. لأن من كان عنده منزل حاضر، فهو مستغن عن منزل آخر.

أما ياترى متى نطق شعيب بهذا الكلام: بعد هلاكـهم أم قـبل ذلك؟ كـلا الحالتين محتمل فقد يكون قال هذا الكلام قبل هلاكهم ولكن عند شرح القصة جاء ذكره بعد ذلك.

ولكن مع أخذ آخر عبارة بنظر الاعتبار والتي يقول فيها: إن مصير هؤلاء الكافرين المؤلم لا يدعو للأسف أبداً، يزداد الاحتمال بانه قال هذه الجملة بعد نزول العذاب. ومثل هذه التعابير، وكما أشرنا في ذيل الآية ٧٩ من هذه السورة تستخدم كثيراً عند التحدث عن الأموات (وقد أشرنا إلى شواهد ذلك)[١].

١ ـ تفسير الأمثل، ذيل الآية.

إشارة أخرى إلى عاقبة تطفيف قوم شعيب

﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين.

إذ قال لهم شعيب ألا تتقون.

إني لكم رسول أمين.

فاتقوا الله وأطيعون.

وما أسألكم عليه من أجر، إن أجري إلّا على رب العالمين.

أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين.

وزنوا بالقسطاس المستقيم.

ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين.

واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين﴾[1].

شعيب وأصحاب الأيكة:

هذه هي القصة السابعة، والحلقة الأخيرة من قصص الأنبياء الواردة في هذه السورة.. وهي قصة شعيب عليه السلام وقومه المتمردين.

كان هذا النبي يقطن في مدين «وهي مدينة جنوب الشامات».

والأيكة على وزن ليلة قرية معروفة على مقربة من مدين.

والآية (٧٩) من سورة الحجر تدل على أن الأيكة كانت تقع في طريق أهل الحجاز إلى الشام.

تقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: ﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين﴾ إنهم لم يكذبوا نبيهم شعيباً فحسب، بل كذبوا جميع الأنبياء نظراً لوحدة دعوتهم، أو لأنهم لم يصدقوا ولم يذعنوا لأية رسالة سماوية قط.

والأيكة معناها في الأصل محل مكتظ بالأشجار.

---

١ ـ سورة الشعراء، الآيات (١٧٦ ـ ١٨٤).

والأيكة هنا إشارة إلى منطقة تقع على مقربة من مدين سميت بذلك لما فيها من ماء وأشجار كثيرة. والقرائن تدل على أنهم كانوا ذوي حياة مرفهة وثروة طائلة وربما يكون هذا هو مدعاة غرقهم في الغرور والغفلة!.

ثم يتحدث القرآن إجمالاً عن شعيب وعنهم فيقول: ﴿إذ قال لهم شعيب ألا تتقون﴾.

إن رسالة النبي شعيب عليه السلام انطلقت في الحقيقة من ذات النقطة التي ابتدأها سائر الأنبياء وهي الدعوة إلى التقوىٰ ومخافة الله التي تعد أساس المناهج الإصلاحية والتغييرات الأخلاقية والاجتماعية جمعاء.

الجدير بالذكر أن لفظة «أخوهم» الواردة في قصص صالح وهود ونوح ولوط لم تذكر هنا. ربما السبب في ذلك يعود إلى أن شعيب كان من أهل مدين وانحصرت علاقته اللحمية والنسبية بهم دون أصحاب الأيكة. والدليل على ذلك أن القرآن الكريم وعندما يشير في سورة هود إلى رسالة شعيب في قومه من أهل مدين يقول: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾. إلّا أن الآية محل البحث لما كانت تتحدث عن اصحاب الأيكة وشعيب لا تشده بهم علاقة نَسَبية لم تذكر اللفظة «أخاهم».

ثم أضاف شعيب قائلاً: ﴿إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون﴾.

واعلموا إنما أبتغي ثوابه ووجهه: ﴿وما أسألكم عليه من أجر، إن أجري إلّا على رب العالمين﴾.

إنها ذات العبارات المتحدة الغاية والمدروسة التي وجهها سائر الأنبياء إلى أممهم إذ تدعو إلى التقوىٰ وتؤكد على ما ألفه القوم من أمانة النبي وتشدد على هذه الحالة وهي أن للدعوة إلى الله غاية معنوية وأنها لا تستهدف تحقيق أي هدف مادي ليكون ذلك مثاراً للشكوك وذريعة يتشبث بها المتذرعين من سيئي النوايا.

وشعيب كسائر الأنبياء الذين تطرقت هذه السورة إلى جانب من تاريخ

حياتهم اتجه في المرحلة التالية من تعليماته بعد الدعوة العامة للتقوى وطاعة الله، إلى مواجهة انحرافاتهم الأخلاقية والاجتماعية وانتقاد قومه على هذه الانحرافات. وحيث ان أهم انحراف ساد بين قومه المترفين كان الاضطراب الاقتصادي والظلم الفاحش والانتهازية، لذا فقد اهتم بهذه القضايا أكثر من غيرها. وقال لهم: ﴿أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس[1] المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾.

وفي هذه الآيات الأخيرة الثلاث يأمر شعيب هؤلاء القوم الضالين بخمسة أوامر في عبارات موجزة، ويتصور بعض المفسرين أن هذه العبارات وإنما تؤكد البعض إلّا أن الإمعان فيها يدل على أن هذه الأوامر الخمسة في الواقع تشير إلى خمسة موضوعات أساسية ومختلفة، أو بتعبير آخر: هي أربعة أوامر مجتمعة في سياق واحد.

ولاستبانة هذا الاختلاف يجدر التنبه إلى أن قوم شعيب (أهل مدين وأصحاب الأيكة) كانوا يقطنون منطقة تجارية حساسة تقع على طريق القوافل المترددة بين الحجاز والشام ومناطق أخرى.

ونحن على علم بأن هذه القوافل تتبلور لديها في مسيرتها احتياجات عديدة. يسيئ أهل المدن الواقعة على طريقهم الاستفادة منها بما أوتوا من إمكانية فيشترون بضائعهم بأبخس ثمن.. ويبيعونهم مستلزماتهم الضرورية بأثمان باهضة علماً بأن أكثر المساومات كانت تتم في تلك الأزمان عن طريق مقايضة السلع.

وربما تذرعوا عند شراء البضاعة بأنها لا تخلو من ألف عيب وأن سلعتهم

---

١ ـ القسطاس: «على وزن النِسناس» معناه الميزان.. قال البعض: أصل هذه الكلمة رومية. وقال بعضهم: بل هي عربية. ويعتقد بعضهم أن القسطاس ميزان كبير أما الميزان نفسه المستعمل في لغة العرب فهو الصغير. وقالوا: إن للقسطاس مؤشراً ولساناً فهو لذلك دقيق الوزن.

تمتاز بمحاسن ومحاسن. وعندما يكتالون لأنفسهم يستوفون الوزن وقد يهتضمون حق الباعة وإذا كالوا الآخرين أو وزنوا اشياءهم لا يولون جانب الاستيفاء اهتماماً وقد يتقاضون مقداراً أكبر من السلعة والطرف الآخر مرغم على تقبل كل هذه الأمور نظراً لحاجته واضطراره إلى سدها.

وإلى جانب القوافل المارة بالمنطقة فإن سكانها الأقل حظاً من السطوة والرخاء لا يحظون بمآل أحسن من أصحاب القوافل عند اضطرارهم لمقايضة سلعهم مع الرأسماليين المتجبرين.

فقيمة المتاع سواء كان يراد بيعه أو شراؤه تتعين بحسب رغبة الأثرياء. والوزن والمكيال مسخر بايديهم على أية حال، فهذا المسكين المستضعف عليه أن يكون كمثل الميت بيد غاسله!

ومع ملاحظة ما ذكرناه آنفاً نعود إلى تعابير الآيات المختلفة، فتارة يقول شعيب لقومه: أوفوا الكيل. وفي مكان آخر يقول: زنوا بالقسطاس المستقيم. ونحن نعرف أن قياس البضاعة والسلع إنما يتم عن طريق الكيل أو الوزن ولهذا فإنه يهتم بكل واحد منهما اهتماماً بالغاً لمزيد من التأكيد على قضية النهي عن التطفيف وبخس الميزان.

ثم ان التطفيف أو بخس الميزان له طرق شتى، فتارة يكون الميزان صحيحاً وصاحبه لا يؤدي حقه وتارة يكون مختلاً تعوزه الدقة في الوزن وربما بسبب التلاعب به. وقد أشارت الآيات الآنفة إلى جميع هذه الأمور.

وبعد تبيين هذين التعبيرين «أوفوا الكيل.. وزنوا بالقسطاس» نأتي على معنى (لا تبخسوا) المأخوذة من البخس، وهو في الأصل نقصان حقوق الناس ظلماً وقد يدل على الغش والتحايل المؤدي إلى تضييع حقوق الآخرين.

فبناء على ما تقدم فإن الجملة الآنفة «ولا تبخسوا الناس أشياءهم» لها معنى واسع يشمل جميع أنواع الغش والتزوير والتضليل والتحايل في المعاملات واهتضام حقوق الآخرين.

أما عبارة «ولا تكونوا من المخسرين» فمع ملاحظة لفظة المخسر الدالة على من يوقع الآخر أو الشيء في الخسران.. فمعناه واسع أيضاً إذ يتضمن إضافة إلى البخس والتطفيف كل ما من شأنه أن يكون سبباً للخسارة وإلحاق الضرر بالطرف الآخر للمعاملة.

وهكذا فإن جميع ما ذُكر من الاستغلال والظلم والإخلال بمبادئ المعاملة وأي ضرب من ضروب الغش والعمل على الإضرار بالآخرين ـ سواء كان ذلك في الكمية أو النوعية ـ كلها يجري فيها حكم التعليمات الآنفة الذكر.

وحيث أن الأزمات الاقتصادية تؤدي دوماً إلى تفسخ النظام الاجتماعي فإن شعيب يختم تعليماته هذه بصبها في إطار واحد: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾. وبهذا أمرهم بوضع حد لجميع ضروب الاستغلال والانتفاع الظالم وتضييع حقوق الآخرين.

وهذه التعليمات ليست بناءة للمجتمع الثري الظالم في عهد شعيب فحسب بل تحتفظ بطابعها البناء المفيد في كل عصر وزمان وتدعو دوماً إلى انتشار العدالة الاقتصادية!

ثم أن شعيباً في آخر تعليماته ـ في هذا القسم ـ يدعوهم مرة أخرىٰ إلى تقوى الله، فيقول: ﴿واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين﴾.

فلستم أول قوم أو جماعة خلقوا على هذه الأرض، فآباؤكم والأمم الأخرىٰ جاءوا ومضوا، فلا تنسوا ماضيهم وما تسلكونه على نهجهم.

والجبلة مأخوذة من (الجبل) وتطلق على الجماعة الكبيرة التي تماثل الجبل في عظمته. وقال بعضهم: أن الجبلة ما زاد عن عشرة آلاف. كما تطلق الجبلة على الطبيعة والفطرة الإنسانية، لأنها لا تتغير كما يتعذر زحزحة الجبل.

والتعبير المتقدم لعله إشارة إلى أن شعيباً يقول: إنما أدعوكم إلى ترك الظلم والفساد وإلى أداء حقوق الناس ورعاية العدل، لأن ذلك ما جبلت عليه الفطرة الإنسانية منذ الخلق الأول وقد جئتكم لإحياء هذه الفطرة. إلّا أنهم

ـوللأسف ـ لم يتأثروا بكلام هذا النبي المشفق الواعي بل أجابوا موضوعيته في الحديث برد «مرّ وفظ» سنقرؤه في الآيات التالية:

﴿قالوا إنما أنت من المسحَّرين.

وما أنت إلّا بشرٌ مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين

فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين.

قال ربي اعلم بما تعملون.

فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم.

إن في ذلك لآية، وما كان أكثرهم مؤمنين.

وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾[1].

عاقبة هؤلاء المتزمتين:

لما فطن هؤلاء الظلمة الجائرون إلى افتقارهم إلى ما يواجهون به كلام شعيب من أدلة وحجج رشقوه بوابل من التهم والأكاذيب حفاظاً على جبروتهم. والتهمة الأولى تحددت بالوصمة التي يلصقها عادة المجرمون والجبابرة بالأنبياء وهي السحر ﴿وقالوا إنما أنت من المسحّرين﴾[2] فكلامك يفتقر لأية موضوعية!! وتظن بأنك ستصرفنا عن التصرف بحرية في أموالنا.

ثم ما الفارق بينك وبيننا لنتبعك؟! ولا مزية لك علينا ﴿وما أنت إلّا بشر مثلنا وإن نظنك من الكاذبين﴾.

وبعد التفوه بهذا الكلام المتناقض من قبلهم حيث يدعون تارة أنه انسان كاذب وانتهازي يريد استغلال الفرصة للاستعلاء عليهم وتارة أخرى بأنه مجنون أو من المسحرين. وأخيراً قالوا: حسناً جداً، إن كنت تصدق فيما تدعونا

١ـ سورة الشعراء، الآيات (١٨٥ ـ ١٩١).

٢ـ المسحر كما اشرنا سالفاً هو المسحور.. أو الذي يقع عليه السحر من قبل السحرة لينفذوا في عقله ويشلوه عن العمل!!.

إليه أنزل علينا ما تتوعدنا به من بلاء فأمطرنا بأحجار من السماء لتعلم أننا لا نهاب هذه التهديدات ﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين﴾.

والكِسَف على وزن «الفِرق» جمع «الكسفة» على وزن «القطعة» ومعناها «القطعة» أيضاً. والمراد من هذه «القطع من السماء» هي قطع الأحجار التي تهوي من السماء.

هكذا بلغوا ذروة الصلافة والوقاحة وأظهروا الكفر والانكار بأبشع أشكاله.

والجواب الوحيد الذي رد به شعيب على هذه العبارات المشوشة والكلمات القبيحة المستهجنة وطلبهم العذاب الالهي، هو أن ﴿قال ربي أعلم بما تعملون﴾.

وهو بذلك يشير إلى خروج الأمر من يده وأنه غير مخول بنزول العذاب وتهاوي الكسف عليهم ليطلبوا ذلك منه. فالله يحيط علماً بأعمالهم وبما يستحقونه فمتى ما اتم الحجة عليكم ولم تثمر فيكم المواعظ والنصح وثبت استحقاقكم لنيل العذاب فإن عذابه لا مرد له وسيقطع دابركم لا محالة.

وهذا التعبير وأمثاله مما يرد على لسان الأنبياء في آيات أخرى من القرآن الكريم عند تطرقها لقصص الأنبياء إنما يدل على أنهم كانوا يوكلون جميع الأمور إلى الله. وأنها بإذنه وأمره ولم يتظاهروا قط بأنهم قادرون على شيء ما دون إرادة الله.

وعلى أية حال، حان موعد تنزيه الأرض من دنس هؤلاء القوم فتذكروا الآية التالية: ﴿فكذبوه فاخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾.

والظلة في الأصل معناها القطعة من السحاب المضلّل أي ذي ظل.

يقول أكثرية المفسرين ذيل هذه الآية: إن حراً شديداً ملهباً حل بهم سبعة أيام ولم يهب نسيم بارد مطلقاً، فإذا قطعة من السحاب تظهر في السماء بعد تلك الأيام السبعة. وتحرك النسيم العليل فخرجوا من بيوتهم، واستظلوا تحت السحاب من شدة الحر والاضطراب فأخذتهم الصاعقة المميتة بصوتها المهيب

الناجم عن انتقال الكهربائية بين السحب والأرض وبومضاتها النارية العظمى وقد يصحبها زلزال شديد في محل سقوطها. وهكذا يتضح أن اختلاف التعابير في آيات القرآن الواردة عن عذاب قوم شعيب، هذا الاختلاف يعود إلى حقيقة واحدة: ففي سورة الأعراف جاء التعبير بالرجفة (الآية ٩١) وفي سورة هود جاء التعبير بالصيحة (الآية ٩٤) أما في الآيات محل البحث فقد ذكر التعبير (عذاب يوم الظلة).

وبالرغم من أن بعض المفسرين كالقرطبي والفخر الرازي وغيرهم ذهب إلى أن أصحاب الأيكة وأهل مدين كانوا جماعتين أو طائفتين، وكل طائفة نزل عليهم عذاب خاص، إلّا أن الإمعان في الآيات التي نبحث فيها يسلب هذا الاحتمال رجاحته.

وتختتم القصة هذه بما ختمت القصص الست السابقة عن أنبياء الله الكرام إذ يقول القرآن: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾.

ومع ذلك كله فإن الله رحيم ودود يمهلهم لعلهم يرجعون ويصلحون أنفسهم، فإذا تمادوا في الغي واستوجبوا عذاب الله، أخذهم أخذ عزيز مقتدر: أجل: ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾[1].

---

١ ـ تفسير الأمثل، ذيل الآية.

الآية الثالثة حول تطفيف قوم شعيب:

﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين.

فكذبوه فأخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جاثمين﴾[1].

كل جماعة ظالمة أخذوا بعذاب معين خاص بهم

بعد بيان قصة لوط وقومه يجري الكلام في الآيات (٣٦ـ٤٠) من هذه السورة حول أقوام آخرين مثل قوم شعيب وعاد وثمود، وقارون وفرعون، وقد اشير في هذه الآيات إلى كل منهم إشارة موجزة مكثفة تهدف للاستنتاج والعبرة!

في البداية تقول الآية: **﴿وإلىٰ مدين أخاهم شعيباً﴾**[2].

والتعبير بكلمة أخاهم كما قلنا مراراً، هو إشارة إلى منتهى محبة هؤلاء إلى أممهم، وإلى عدم ابتغاءهم السلطة، وبالطبع فإن هؤلاء الأنبياء كانت لهم علاقة قرابة بقومهم أيضاً.

و «مدين» مدينة واقعة جنوب غربي الأردن، وتدعى اليوم بـ«معان» وهي في شرق خليج العقبة، وكان شعيب النبي عليه‌السلام وقومه يقطنون فيها[3].

وشعيب كسائر أنبياء الله العظام، بدأ رسالته بالدعوة للايمان بالمبدأ والمعاد، وهما أساسا كل دين ومذهب: **﴿فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر﴾**.

فالإيمان بالمبدأ يكون مدعاة إحساس الإنسان بأن الله يراقبه مراقبة دقيقة بشكل دائم ويسجل أعماله، والايمان بالمعاد يذكر الإنسان بمحكمة عظيمة يُحاسب فيها عن كل شيء ولا ينقص من أي شيء هناك.. ومن المسلم به أن

١ـ سورة العنكبوت، الآيتان (٣٦ـ٣٧).

٢ـ هذه الجملة معطوفة على جملة «ولقد أرسلنا نوحاً..».

٣ـ ورد الكلام عن مدين في ذيل الآية (٢٣) من سورة القصص بإسهاب.

الايمان بهذين الأصلين له أثر بليغ لا حد له في تربية الإنسان وإصلاحه.

والفقرة الثالثة من تعاليم النبي شعيب عليه السلام هو بمثابة خطة عمل شاملة تحمل بين طياتها جميع الخطط الاجتماعية، إذ قال: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾.

وللفساد مفهوم واسع يشمل كل نقص وانحراف وتدمير وظلم و...

وخلافة الصلاح والإصلاح ومفهومها يشمل جميع الخطط البناءة.

أما كلمة «تعثوا» فهي من مادة «عثىٰ» ومعناه إحداث الفساد أو الإفساد، غاية ما في الأمر أن هذه العبارة تستخدم عادة حول المفاسد الأخلاقية، فعلى هذا يكون ذكر كلمة مفسدين بعدها تأكيداً على هذا المفهوم.

إلّا أن تلك الجماعة التي نصحها النبي شعيب وبدلاً من أن يستوعبوا مواعظه بقلوبهم، خالفوه ولم يصغوا إليه «فكذبوه».

وكان هذا التكذيب سبباً في ان تصيبهم زلزلة شديدة: ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ أي مكبوبين على وجوههم وقد قضوا نحبهم.

و «الجاثم» مشتق من «جثم» على وزن «قثم» و «سهم» ومعناه الجلوس على الركبة والتوقف في مكان ما.. ولا يبعد أن يكونوا نائمين عند وقوع هذه الزلزلة الشديدة.. فهذا التعبير إشارة إلى هذه الحادثة، فنهضوا وجثوا على الركب إلّا أن الزلزلة لم تمهلهم فأهلكتهم بصاعقتها التي تزامنت معها فماتوا[1].

١ـ تفسير الأمثل، ذيل الآيات. وقد جاء بيان هذه الحادثة المؤلمة بالتفصيل ذيل الآيات (٨٤ـ٩٥) من سورة هود عند شرح قصة شعيب وقومه.

الآية الرابعة:

﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير واني أخاف عليكم عذاب يوم محيط.

ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين.

بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ﴾[1].

مدين، أرض شعيب وموطنه:

مع انتهاء قصة لوط الزاخرة بالعبر يصل الدور إلى قوم شعيب وأهل مدين، اولئك الذين حادوا عن طريق التوحيد وهاموا على وجوههم في أوحال الشرك وعبادة الأوثان. لم تقتصر عبادتهم على الأوثان بل عبدوا الدرهم والدينار والثروة والمال مما دفعهم لتدنيس تجارتهم ورزقهم وما لهما من رونق، بالغش والتطفيف والانحرافات الأخرى.

في بداية القصة تقول الآيات: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾. وكلمة «أخاهم» كما أشرنا إليها سابقاً تستخدم لبيان منتهى حب الأنبياء لقومهم. لا لكون كل منهم واحداً من أفراد قبيلته وقومه فحسب، بل إضافة إلى ذلك فإنه يريد الخير لهم ويرثى لحالهم فمثله مثل الأخ الودود.

و «مدين» على وزن «مريم» اسم لمدينة شعيب وقبيلته. وهذه المدينة كانت تقع شرق خليج العقبة، وأهلها من أبناء اسماعيل، وكانوا يمارسون التجارة مع سكان مصر ولبنان وفلسطين.

ويطلق اليوم على مدينة «مدين» اسم «معّان» ولكن بعض الجغرافيين أطلقوا اسم مدين على الساكنين بين خليج العقبة وجبل سيناء.

وورد في التوراة أيضاً اسم «مديان» ولكن تسمية لبعض القبائل، وطبيعي

١ـ سورة هود، الآيات (٨٤ـ٨٦).

أن اطلاق الاسم على المدينة وأهلها أمر مألوف[1].

هذا النبي وهذا الأخ الودود المشفق على قومه ـ كأي نبي ـ في اسلوبه ونهجه في بداية الدعوة، دعاهم إلى ما هو الأساس والعماد والمعتقد وهو «التوحيد»، وقال: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾.

لأن الدعوة إلى التوحيد دعوة إلى هزيمة جميع الطواغيت، والسنن الجاهلية ولا يتيسر أي إصلاح اجتماعي أو أخلاقي بدونه.

ثم اشار إلى إحدى المفاسد الاقتصادية التي تستند إلى الوثنية والشرك وكانت سائدة بين سكان دين يومئذ وقال: ﴿ولا تنقصوا المكيال﴾ أي عند البيع والشراء.

و «المكيال والميزان» هما بمعنى واحد إذ يعرف بهما وزن المبيع ومقداره، ونقصانه يعني عدم إيفاء حقوق الناس والبخس عند البيع.

ورواج هذين الأمرين بينهم إنما كان مؤشراً لانعدام النظام والحساب والميزان في أعمالهم كما أنهما انموذجان من نماذج النهب والاستغلال والظلم والجور السائدة في مجتمعهم الثري.

وبعد الإعلان عن هذا الأمر مباشرة أشار هذا النبي العظيم إلى علتين وهما:

فالعلة الأولى عبر عنها القرآن الكريم في الآية ﴿إني أراكم بخير﴾.

يقول أولاً: إن قبول نصحي يكون سبباً لانفتاح أبواب الخير عليكم وتنمية التجارة وهبوط مستوى الأسعار واستقرار المجتمع.

ويرد هذا الاحتمال في تفسير هذه الجملة: ﴿إني أراكم بخير﴾ وهو أن شعيباً يقول لهم: إني أراكم منعمين وفي خير كثير، فعلى هذا لا داعي لعبادة الأوثان وإضاعة حقوق الناس، والكفر بدلاً من الشكر على نعم الله سبحانه.

وثانياً: ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ بسبب ثباتكم على الشرك

---

١ ـ أعلام القرآن، ص ٥٧٣.

ونقصان الوزن وكفران النعمة فمن شأنها أن تعرضكم لعذاب شامل.

ثم أنكم في غنى عن مثل هذه الأعمال التي لا يغفل عنها ربكم فينبغي إصلاح أنفسكم عاجلاً.

وتعود الآية الأخرىٰ للتأكيد على نظامهم الاقتصادي فاذا كان شعيب قد نهىٰ قومه عن البخس في المكيال والتطفيف قبل هذا فإنه يدعوهم في هذه الآية إلى إيفاء حقوق الآخرين باعتماد القسط والعدل حيث يقول: ﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾.

وينبغي أن يسود هذا المبدأ أي القسط والعدل وايفاء كل ذي حق حقه، على مجتمعكم بأسره.

ثم يتقدم خطوة أكبر إلى الأمام ويقول: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ و «البخس» على وزن «النحس» ومعناه في اللغوي «التقليل والانقاص». وجاءت هنا بمعنى الظلم والإجحاف.

وإنما تطلق على الأراضي الزراعية المزروعة دون ري «إنها بخس» بسبب شحة مائها واقتصارها على مياه الأمطار فتكون بطبيعة الحال أقل انتاجاً من الأراضي الزراعية الأخرىٰ.

وإذا توسعنا في معنى هذه الكلمة ومفهوم الجملة وجدناها دعوة إلى رعاية جميع الحقوق الفردية والاجتماعية ولجميع الملل والنحل. ويظهر «بخس الحق» في كل محيط وعصر وزمان بشكل معين حتى بالمساعدة دون عوض أحياناً، والتعاون وإعطاء قرض معين كما هي طريقة المستعمرين في عصرنا.

ونجد في نهاية الآية أن شعيباً يخطو خطوة أوسع ويقول لقومه ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾.

فالفساد يقع عن طريق التطفيف وعن طريق غصب حقوق الناس والاعتداء على حقوقهم وعن طريق الإخلال بالموازين والمقاييس الاجتماعية، وعن طريق وصم الأموال والأشخاص بالعيوب وأخيراً عن طريق الاعتداء

على مصداقية الناس وحرمة نواميسهم وأرواحهم.

وجملة «لا تعثوا» معناها «لا تفسدوا» بدلالة ذكر مفسدين بعدها لمزيد التوكيد على هذا الموضوع.

إن الآيتين المتقدمتين تعكسان هذا الواقع بوضوح وهو أن الحظوة باقتصاد سليم يمتاز بعد التوحيد والايدولوجية السوية بأهمية بالغة وتبين الآية كذلك أن الإخلال بالنظام الاقتصادي سيكون أساساً لتفشي الفساد في المجتمع.

ثم يذكرهم بان زيادة حجم الثروة ـ هذه الثروة التي تستجمع لديهم بالظلم واستغلال الآخرين ـ لا تعتبر مدعاة شعوركم بانكم في غنى بل الثروة المتأتية من حلال والتي تبقى لكم وإن قل حجمها فيما لو كنتم مؤمنين بالله وتعاليمه وأوامره: ﴿بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾.

والتعبير «بقية الله» جاء أما لأن الربح الحلال القليل الذي يرافق الالتزام بأمر الله فإنه يعد بقية الله أو لأن طلب الرزق الحلال يؤدي إلى دوام نعم الله وبقاء البركات.. وأما لأنه يشير إلى الجزاء والثواب المعنوي الذي يبقى إلى الأبد. فإن الدنيا فانية وما فيها يؤول أمره لا محالة إلى الزوال، وتشير الآية ٤٦ من سورة الكهف: ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾ إلى هذا المضمون أيضاً. والتعبير بقوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ إشارة إلى أن هذه الحقيقة لا يستوعبها إلّا المؤمنون بالله وبحكمته وفلسفة أوامره.

ونقرأ في روايات متعددة أن المقصود بـ «بقية الله» هو وجود المهدي عجل الله تعالى فرجه أو بعض الأئمة الآخرين. ومن هذه الروايات ما نقل عن الإمام الباقر عليه السلام في كتاب إكمال الدين:

أول ما ينطق به القائم عليه السلام حين يخرج هذه الآية: ﴿بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ ثم يقول: أنا بقية الله وحجته وخليفته عليكم، فلا يسلم عليه

مسلم إلّا قال: السلام عليك يا بقية الله في أرضه[1].

وقد قلنا مراراً أن آيات القرآن بالرغم من نزولها في ظروف خاصة إلّا أنها تحمل مفاهيم جامعة وشاملة. بحيث يمكن أن تكون أكثر مصداقية في العصور والقرون التالية وأكثر شمولية.

لاشك في ان المخاطبين في هذه الآية هم قوم شعيب، والمقصود من «بقية الله» هو الربح ورأس المال الحلال أو الثواب الالهي إلّا أن كل شيء او أمر نافع باق من قبل الله للبشرية ويكون أساس سعادتها وخيرها يعد «بقية الله» أيضاً.

فجميع أنبياء الله ورسله المكرمين هم «بقية الله» وجميع القادة الحقيقيين الذين يبقي عليهم الله بعد جهاد مرير ضد الأعداء هم من هذه الناحية «بقية الله» أيضاً، وكذلك الجنود المقاتلون إذا عادوا إلى ذويهم من سوح القتال بعد انتصارهم على الأعداء فهم «بقية الله أيضاً». ومن هنا فإن «المهدي الموعود» (عج) آخر إمام وأعظم قائد ثوري بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أبرز مصاديق «بقية الله» وهو أجدر من سواه بهذا اللقب، خاصة أنه الوحيد الذي بقي بعد الانبياء والأئمة عليهم السلام.

وفي نهاية الآية محل البحث نقرأ على لسان شعيب ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ إذ وظيفته تتحدد بالابلاغ فهو لا يتحمل مسؤولية إزاء أعمالهم أو لإرغامهم على الانصياع لنهجه ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾.

﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء، إنك لأنت الحليم الرشيد.

قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، إن أريد إلّا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلّا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

---

١ ـ نقلاً عن تفسير الصافي، ذيل الآية.

ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح، وما قوم لوط منكم ببعيد.

واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه، إن ربي رحيم ودود﴾[1].

منطق المتزمتين الواهي:

والآن فلنَرَ ما كان انعكاس هؤلاء المتزمتين إزاء نداء هذا المصلح السماوي «شعيب».

قال الذين كانوا يحسبون الأصنام من تراث أسلافهم ومؤشراً على أصالة ثقافتهم وهم الذين يحققون أرباحاً طائلة جراء بخس الميزان (التطفيف) والغش في المعاملة: ﴿يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾، ونتنازل عن حريتنا في التصرف بأموالنا ﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾ إننا نستبعد أن تنطق بمثل هذا الكلام ﴿إنك أنت الحليم الرشيد﴾.

وهنا ينقدح هذا السؤال وهو: لِمَ سألوه عن الصلاة وأظهروا اهتمامهم به؟

قال بعض المفسرين: كان ذلك لأن شعيباً كان يكثر من صلاته وتنهىٰ مؤديها عن الفحشاء والمنكر. إلّا أن الحمقىٰ كانوا لجهلهم العلاقة بين الصلاة وترك المنكرات، يتهكمون به بقولهم: أهذه الأذكار والحركات التي تقوم بها تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ونسحق تراث الصالحين وثقافتنا الدينية أو أن نحرم أنفسنا من حق التصرف بأموالنا؟.

ويذهب البعض إلى أن الصلاة ترمز إلى الدين والمذهب لأنها من أبرز مؤشرات الايمان بالدين.

على اية حال لو أمعن هؤلاء في التفكير لتنبهوا إلى هذه الحقيقة وهي أن الصلاة تؤجج الاحساس بالمسؤولية والتقوى ومخافة الله ومعرفة الحقوق في

---

١ ـ سورة هود، الآيات (٨٧ ـ ٩٠).

نفس الإنسان وتذكره بالله وبمحكمة العدل الالهي وتنفض عن قلبه غبار حب الذات وعبادة الذات وتصرفه عن التشبث بهذه الدنيا المحدودة والمتدنسة إلى عالم ما وراء الطبيعة، إلى عالم أداء الحسنات وتزكية النفس. وتنجيه بذلك من شراك الوثنية وعبادة الأصنام والتقليد العشوائي للسلف الجاهل وبخس الناس أشياءهم. وعن مختلف ضروب الغش.

كما يبرز هنا سؤال آخر، وهو: هل كان قولهم لشعيب: ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾، انطلق من إيمانهم به أم أنهم تفوهوا به على سبيل السخرية والتهكم؟!

احتمل المفسرون الوجهين ولكن مع التمعن في أسلوب سؤالهم ﴿أصلاتك تأمرك﴾ الذي يستبطن الاستهزاء، يظهر أن هذه الجملة تدخل في إطار السخرية، وهي إشارة إلى أن الإنسان الحليم الرشيد هو من لا يفصح عن رأيه في أي أمر ما لم يسبر أغواره ويستيقن من صدقه. والإنسان العاقل الرشيد هو من لا يسحق سنن قومه تحت قدميه ويسلبهم حريتهم في التصرف بأموالهم. وأن تفوهك بمثل هذه الأمور يدل على أنك لم تسبر أغوارها وأنك بعيد عن رجاحة العقل وسداد الفكر لأنهما ينهيان الإنسان عن إهمال نهج الصالحين وعن سلبه الآخرين حقهم في الاختيار وحرية العمل.

ولكن شعيباً رد على الذين يسفهون كلامه ويحسبونه دليلاً على عدم رجاحة عقله و ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً﴾[1].

إن شعيباً هنا يريد أن ينبه قومه إلى أنه يبتغي من عمله هذا تحقيق هدف معنوي وإنساني وتربوي، وأنه يعرف حقائق لا يعرفها قومه، والإنسان دائماً عدوّ ما جهل.

---

١ ـ ينبغي التنبه إلى أن جواب الجملة الشرطية محذوف هنا وتقديره هكذا: أفأعدل مع ذلك عما أنا عليه من عبادته وتبليغ دينه.

ومن الطريف أنه في هذه الآيات يكرر عبارة «يا قوم» وذلك ليعبئ عواطفهم للانصياع للحق وليشعرهم بأنهم منه وأنه منهم. سواء أكان المقصود بالقوم القبيلة أو الطائفة أو الجماعة أو الأسرة، أم كان المراد به الجماعة التي يعيش ضمنها ويعد جزء منهم.

ثم يضيف هذا النبي العظيم قائلاً: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾. فلا تتصوروا أنني أقول لكم لا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تنقصوا المكيال، وأنا أبخس الناس أو أنقص المكيال، أو أقول لكم لا تعبدوا الأوثان وأنا فاعل لذلك. كلا فإنني أحجم عن كل ما أنهاكم عنه.

ويستفاد من هذه الجملة أنهم كانوا يتهمون شعيباً بأنه يريد تحقيق الربح لنفسه ولهذا فهو ينفي هذا الموضوع صراحة ويقول تعقيباً على ما سبق: ﴿إن أريد إلّا الاصلاح ما استطعت﴾.

وهذا هو هدف الأنبياء جميعاً، حيث كانوا يسعون إلى إصلاح العقيدة، وإصلاح الأخلاق، وإصلاح العمل، وإصلاح العلاقات والأنظمة الاجتماعية: ﴿وما توفيقي إلّا بالله﴾ لتحقيق هذه الغاية.

بناء على هذا فإنني ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾ في سياق أداء رسالتي وتحقيق هذا الهدف العظيم.

وأسعىٰ للإستعانة به على حل المشاكل وأتوكل عليه في تحمل الشدائد في هذا السبيل، وأعود إليه أيضاً.

ثم ينبههم إلى قضية أخلاقية وهي جهل الإنسان أحياناً بما يتضمن مصلحته ونسيانه ما يؤول إليه مصيره تحت طائل بغضه أو عدائه لشخص ما أو تعصبه وتزمته لموضوع خاص، فيقول لهم: ﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي﴾ فتبتلوا بما ابتلي به غيركم: ﴿أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح﴾ وما تعرض له قوم لوط من البلاء العظيم حيث أمطرهم الله بحجارة من سجيل منضود وانقلبت مدنهم فجعل عاليها سافلها، ﴿وما قوم لوط منكم

ببعيد﴾، فالفاصل الزمني بينكم ليس بكبير ولا محل سكناهم إضافة إلى تشابه وتقارب أعمالكم وذنوبكم مع أعمالهم وذنوبهم.

و «مدين» بالطبع التي كانت موطن شعيب لم تكن بعيدة عن موطن قوم لوط، فكلاهما من مناطق «الشامات» والفاصل الزمني وإن وجد بينهما إلّا أنه ليس بالمقدار الذي يستدعي نسيان تاريخ مثل هؤلاء. أما من الناحية العملية فهنالك فارق كبير بين الانحراف والشذوذ الجنسي الذي انكب عليه قوم لوط والانحراف الاقتصادي الذي مارسه قوم شعيب ولكن كليهما يتشابهان في إفساد المجتمع والإخلال بالنظام الاجتماعي والقضاء على الفضائل الأخلاقية وإشاعة الانحراف، ومن هنا نجد في بعض الروايات مقارنة بين الدرهم الربوي ـ بما له من علاقة بالقضايا الاقتصادية ـ والزنا باعتباره شذوذ ودنس جنسي[1].

ثم يأمر شعيب قومه الضالين بأمرين أكد عليهما جميع الأنبياء المتقدمين، وهما:

الأول: قوله: ﴿واستغفروا ربكم﴾ اي لتتطهروا من الذنوب وتجتنبوا الشرك وعبادة الأوثان والخيانة في المعاملات.

والثاني: قوله: ﴿ثم توبوا إليه﴾ أي أنيبوا إليه.

---

١ ـ الجدير بالذكر أن جملة «لا يجرمنكم» تفسر على احتمالين:

أ ـ أنها بمعنى (لا يحملنّكم)، ففي هذه الحالة يكون إعرابها على النحو التالي: (لا يجرمن) فعل و (شقاقي) فاعل والضمير (كم) المتصل بالفعل مفعول به أول و (أن يصيبكم) مصدر مؤول مفعول ثان فيكون معنى الآية: يا قوم لا يحملنكم شقاقي (اي مخالفتكم لي) أن يصيبكم مصير كمصير قوم نوح وأمثالهم من الأقوام المذكورين.

ب ـ أنها بمعنى (لا يجرنكم) إلى الذنب والاجرام. وفي هذه الحالة يكون إعرابها على النحو التالي: (لا يجرمن) فعل و (شقاقي) فاعل والضمير (كم) مفعوله و (أن يصيبكم) نتيجته. ويكون معنى الآية كما ذكرناه في النص.

والواقع أن الاستغفار توقف في مسيرة الإنسان نحو المعاصي والانـتفاض منها والتوبة عودة إلى الله وهو الذات الأزلية.

واعلموا أنه مهما يكن الذنب عظيماً والوزر ثقيلاً فإن طريق العودة عنها إلى الله مفتوح لأن ﴿ربي رحيم ودود﴾.

وكلمة الودود صيغة مبالغة مشتقة من الود ومعناه المحبة، وذكر هذه الكلمة بعد كلمة «رحيم» إشارة إلى أن الله يلتفت بحكم رحمته إلى المذنبين التائبين، بل هو إضافة إلى ذلك يحبهم كثيراً لأن رحمته ومحبته هما مدعاة قبول الاستغفار وتوبة العباد.

***

﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً، ولولا رهطك لرجمناك، وما أنت علينا بعزيز.

قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً، إن ربي بما تعملون محيط.

ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل، سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب، وارتقبوا إني معكم رقيب﴾[1].

التهديدات المتبادلة بين شعيب وقومه

وجه شعيب ـ هذا النبي العظيم الذي لقب بخطيب الأنبياء[2] لما في كلامه من موضوعية وانسيابية وجاذبية إلى جانب احتوائه على أفضل نهج لحياة هذه الجماعة المادية والمعنوية ـ نداءه إليهم بمنتهى الحلم والأناة والرزانة والحنان، ولكن لنرى كيف رد عليه هؤلاء القوم الضالون؟!.

---

١ ـ سورة هود، الآيات (٩١ ـ ٩٣).

٢ ـ راجع سفينة البحار، مادة شعيب.

لقد أجابوا بعبارات أربع توحي كلها بتزمتهم وجهلهم وغفلتهم.

فقالوا أولاً: ﴿يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول﴾.. فكلامك مشوش كما أنه يفتقد للموضوعية والمضمون القيم لنتخذه نهجاً في أعمالنا فلا ترهق نفسك لأكثر من هذا، وامض إلى قوم غيرنا.

وقالوا بعد ذلك: ﴿وإنا لنراك فينا ضعيفاً﴾. وإنك أخطأت الاستنتاج فيما لو تصورت أن بإمكانك فرض هراءك علينا بالقوة.

وفي عبارتهم الثالثة قالوا له: لا تظن اننا لا نقمعك بسبب خوفنا من جبروتك وبأسك، فلولا احترامنا لقبيلتك لقضينا عليك بأبشع صورة اي رشقاً بالأحجار ﴿ولولا رهطك لرجمناك﴾.

والجدير بالذكر أنهم عبروا عن قبيلة شعيب بـ «الرهط» وهي لفظة تطلق في اللغة العربية على الجماعة التي يتراوح عدد أنصارها بين الثلاثة والسبعة أو العشرة أو على أكبر تقدير أربعين نفراً.

وهم بذلك يشيرون إلى أن جماعتك هي قبيلة لا حول لديها ولا قوة في نظرنا ولكن تمنعنا أمور أخرى، وهذا يماثل قول القائل منا: لولا هؤلاء الأربعة من قومك وأسرتك لواجهناك بما تستحقه. في حين أن قومه وأسرته لم يكونوا أربعة أشخاص بل أرادوا بتعبيرهم هذا أنهم لا يعيرون قوتهم أي اهتمام.

وقولهم الأخير: ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾، فمهما تكن مكانتك في عشيرتك ورغم علو شأنك في قبيلتك لما أنت عليه من منهج، لكنك لا تحظىٰ بأية مكانة لدينا.

إلّا أن شعيباً لم يتأثر بكلماتهم المستهجنة واهاناتهم فأجابهم بمنطقه العذب واسلوبه الشيق في التعبير قائلاً: ﴿يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله﴾. . أفتكفونني أذاكم احتراماً لرهطي وانتم تزعمون أن قبيلتي التي لا تتجاوز عدة أشخاص، فلِمَ لا تنصاعون لكلامي إجلالاً لله؟! وهل يقارن عدة أشخاص بعظمة الله سبحانه؟! وهل ياترى تحترمون الله رغم تنكركم لأوامره:

﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾[1].

وفي الختام يقول لهم: لا تتصوروا أن الله غافل عنكم أو أنه يجهل أعمالكم ولا يسمع كلامكم بل: ﴿إن ربي بما تعملون محيط﴾.

إن المتحدث البليغ هو من يحدد في ثنايا أحاديثه موقفه إزاء جميع مواقف الطرف الآخر فبما إن المشركين من قوم شعيب اختتموا كلامهم معه بتهديده بالرجم وهم يذكرونه بجبروتهم، حدد شعيب موقفه إزاء تهديداتهم بقوله: يا قومي افعلوا ما تشاؤون وبما أوتيتم من قوة ولا تألوا جهداً عن أي مبادرة يسعكم القيام بها: ﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم[2] إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه وارتقبوا إني معكم رقيب﴾[3]، فسرعان ما يتبين أي جهة ستبتلىٰ بعذاب مهين ومن منا هو الكاذب؟.

أي ترقبوا موعد تمكنكم من الانتصار بقوتكم وكثرتكم وثرواتكم وهيمنتكم وأنا بدوري سأنتظر حلول العذاب الالهي الأليم بكم أيها الظلمة ليهلككم الله ويزيلكم عن ظهر البسيطة.

﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

كأن لم يغنوا فيها، ألا بعداً لمدين كما بَعِدَت ثمود﴾[4].

١ـ هناك في اللغة العربية أسلوب يستعمل للدلالة على عدم الاكتراث بالشيء. فيقال على سبيل الكناية: «جعلته تحت قدمي» أو «جعلته دبر أذني» أو «جعلته وراء ظهري» أو «جعلته ظهرياً». و «الظهر» على وزن «القهر» والياء بعده ياء النسبة وإنما كسرت الظاء بسبب التغييرات التي تطرأ على الاسم المنسوب أحياناً.

٢ـ المكانة: مصدر أو اسم مصدر ومعناه القدرة على الشيء.

٣ـ الرقيب: معناه الحافظ والمراقب. وهو مشتق في الأصل من الرقبة وإنما سمي بذلك لأنه يكون حافظاً على رقبة شخص ما «كناية على أنه يحافظ على روحه» أو يحرك الرقبة أداء لدور الرقابة والمحافظة.

٤ـ سورة هود، الآيتان (٩٤ـ٩٥).

نهاية حياة مفسدي مدين:

طالعنا في قصص الأقوام السالفين مراراً، أن الأنبياء كانوا في الوهلة الأولى يدعونهم إلى الله ولم يألوا جهداً في سياق التوعية والنصيحة وبيان الحجة. وفي المرحلة التالية أي فيما لو لم تنفع الذكرى والنصح ـ التي يتوجه بها النبي لقومه ـ فانهم ينذرونهم بالعذاب الإلهي عسى أن يثيب إلى رشده آخر من يكون على استعداد للانصياع للحق. وتأتي في المرحلة الثالثة بعد إثبات عدم جدوىٰ الأساليب السابقة فيحل العذاب بهم بحسب المشيئة الالهية لتنزيه الأرض من هذه الأشواك التي تعترض طريق الرسالة.

وهكذا جاء دور المرحلة النهائية بالنسبة لقوم شعيب (أي أهل مدين) إذ تذكر الآية: **﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمةٍ منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة﴾**.

و «الصيحة» كما سلف الذكر معناها في اللغة كل صوت عظيم. والقرآن الكريم يسرد قصة هلاك عدة أقوام مذنبين بالصيحة السماوية. وهذه الصيحة يحتمل أن تكون صاعقة من السماء وما إليها. وقد بينا في قصة «ثمود» أن الأمواج الصوتية قد تبلغ قوة تكون سبباً لهلاك جماعة من الناس.

ثم يعقب القرآن فيقول: **﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾** أي أجساداً هامدة بلا روح فلبثت أجسادهم هنالك لمدة من الزمن كي تصبح عبرة لأولي الألباب.

وطوي سجل حياتهم و **﴿كأن لم يغنوا فيها﴾**.

وبهذا تلاشت تلك الثروات التي دسوا أنفسهم بالمعاصي والظلم والاجحاف بغية استجماعها وكذلك القصور والزينة والبهارج والضوضاء وأنكفأ بريقها.

ثم، وكما جاء في آيات القرآن الكريم عند التطرق لنهاية عاد وثمود، نقرأ عن نهاية قوم مدين: **﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾**.

وغني عن التوضيح أن المقصود من لفظة «مدين» هنا هو أهل مدين الذين بعدوا عن رحمة الله وكانوا من المهلكين.

دروس تربوية في قصة شعيب:

إن خواطر الأنبياء ومجريات الأحداث التي خاضها الأقوام السالفة في حياتهم تشكل مادة تستلهم منها الأجيال التالية. فالاختبارات التي شهدتها حياة اولئك الأقوام ـ وهي اختبارات ابتلوا بها على مر عشرات أو مئات السنين أحياناً ـ نقلت إلينا ضمن عدة صفحات من التاريخ، وبوسع أي شخص أن يستلهم منها العبر في حياته.

وقصة هذا النبي العظيم «شعيب» تمدنا بدروس وعبر كثيرة نطالعها فيما يلي:

١ ـ أهمية القضايا الاقتصادية:

قرأنا في هذه القصة أن شعيباً دعا قومه بعد التوحيد إلى الحق والعدالة ورعاية جانب الانصاف في الشؤون المالية والتجارية. وهذا ما يدل بحد ذاته على أن القضايا الاقتصادية في المجتمع أمور لا يمكن الاستهانة بدورها، وتشير أيضاً إلى أن رسالة الأنبياء لم تقتصر على تحديد التعاليم الأخلاقية فحسب، بل كانت دعوتهم تشكل «الإصلاح»: اصلاح الوضع الاجتماعي المتردي، وإصلاح الوضع الاقتصادي كذلك فكانوا يولونها أهمية تلي أهمية التوحيد في دعوتهم.

٢ ـ عدم التضحية بالأصالة في سبيل التعصب:

وقرأنا أيضاً في هذه القصة أن أحد عوامل سقوط هؤلاء في أحضان الشقاء كان نسيانهم الحقائق لحقدهم وعدائهم الشخصي في حين أن الإنسان اللبيب ينبغي أن يتقبل الحق من أي كان وإن كان عدوه اللدود.

٣ـ الصلاة تدعو إلى التوحيد والنزاهة:

سأل قوم مدين شعيباً عليه السلام مندهشين: ﴿أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾. وأن نترك الغش وبخس الميزان.

لعلهم فكروا: وما هو الأثر الذي قد تتركه هذه الأفكار والحركات في مثل هذه الأمور؟ بينما نعرف أن أقوى ما يمكن من ارتباط يشد هذين الأمرين إلى بعضهما فأداء الصلاة لله عز وجل وبتركيز شامل يستوعب وجود الإنسان بأسره يعد معراج التكامل ومدعاة تزكية الروح والنفس وإزالة صدأ المعاصي عن قلبه. فمثل هذا التركيز يعزز إرادته ويرسخ عزمه وينزع عنه الغرور والتكبر.

الأنانية والنظرة الضيقة ودورها في الحؤول دون التقدم

كان قوم شعيب ـ كما أشارت الآيات السابقة ـ أناس أنانيين يحسبون أنفسهم الواعين وشعيباً الجاهل للحقائق!! فيسخروا منه ويعدون كلامه هراء وشخصيته ضعيفة، هكذا تلبدت سماء حياتهم جراء نظرتهم الضيقة وأنانيتهم فابتلوا بشر عاقبة ومآل.

إن الأنانية وضيق النظرة يقفان دوماً في درب التقدم، لا تقدم الإنسان فحسب بل حتى الحيوان.

يقال أن فارساً يمتطي جواده وصل إلى نهر فأراد عبوره ولكنه اندهش لاحجام الجواد عن عبور النهر وكان صغيراً ضحلاً وباءت جميع محاولاته لارغام الجواد على العبور بالفشل، فمر به رجل حكيم فقال له: حرك ماء النهر ليتعكر صفوه قليلاً ستحل المشكلة بذلك. ففعل فاجتاز الجواد النهر بهدوء تام. ولما سئل الحكيم عن السر في ذلك، قال: لقد أبصر الجواد صورته في الماء عندما كان صافياً فلم يرق له أن يطأ نفسه وحين تعكر صفوه ذهبت الصورة ونسي الجواد صورته فاجتاز النهر بكل بساطة.

٥ ـ الإيمان والعمل غير منفصلين:

يسود الاعتقاد بين الكثيرين بأن مجرد الايمان يكفي الإنسان لاعتباره مسلماً وإن لم يلتزم بالجانب العملي من عقيدته وما زال الكثيرون يرغبون في الالتزام بدين لا يشكل عائقاً بوجه تحقيق أهدافهم وميولهم الهوجاء وأن يطلق عنان حرياتهم.

يتبين من قصة النبي شعيب عليه السلام أن قومه كانوا يريدون مثل هذا النهج لذلك كانوا يقولون له: نحن غير مستعدين أن نترك ما كان عليه سلفنا الصالح! من وثنية ولا نفقد حريتنا في التصرف بأموالنا كما يحلو لنا.

وهل نسوا أن ثمرة شجرة الإيمان هو العمل وأن نهج الانبياء كان يستهدف اصلاح الانحرافات العملية السائدة بين الناس وإزالة حالة الانانية بينهم فأية شجرة تفتقد الأوراق والأغصان والثمار غير خليقة بأية بادرة سوى الحرق.

لقد غلب هذا الطابع الفكري، وللأسف، على فريق من المسلمين فراحوا يحددون مضامين العقيدة الإسلامية في مجموعة من العقائد الجوفاء لا تخرج عن إطار المسجد فيلتزمون بها ماداموا في المسجد ويودعونها عند مغادرة المسجد، فلا تجد أثراً لإسلامهم في السوق أو الإدارات أو محل عملهم.

إن التجول في الكثير من الدول الإسلامية وحتى البلدان التي انطلق منها الدين الإسلامي يكشف لنا هذا الواقع المر وهو أن الاسلام صار متأطراً بحفنة من العقائد ومجموعة من المناسك ذات الفاعلية المحدودة ولهذا لا تعثر فيها على مؤشرات الوعي أو العدالة الاجتماعية أو الازدهار الثقافي والأخلاق الإسلامية. وإن كنا، ولحسن الحظ، نشهد في ظل قسم من النشاطات الإسلامية توجه الناس ولاسيما الشباب منهم نحو احياء الاسلام الصحيح والممازجة بين الايمان والعمل، فلا تكاد تسمع عبارات مثل: «وما علاقة الإسلام بأعمالنا؟»

أو «الإسلام يرتبط بالقلب لا الحياة» وما إلى ذلك.

وهذه الأطروحة التي تقدمها المجاميع المغفلة التي تقول: نستوحي عقائدنا من الإسلام واقتصادنا من ماركس، هي شبيهة بطريقة تفكير قوم شعيب الضالين وهي محكومة بالبطلان مثلها. ولكن عزل العمل عن الايمان أمر كان ولا يزال قائماً منذ القدم وهو نهج يترتب علينا أن نكافحه.

٦ـ الملكية العشوائية منطلق الفساد:

ابتلي قوم شعيب بمثل هذا الخطأ أيضاً فقد كانوا يتصورون أن لا أحد مخول بتحديد حرية التصرف بالأموال من قبل مالكيها ولذلك أثار كلام شعيب دهشتهم فقالوا له: أمثلك وأنت الحليم الرشيد يمنعنا من التصرف بأموالنا ويسلبنا حريتنا فيها. إن تفوههم بهذه العبارة سواء أكان منطلقاً من إيمانهم برجاحة عقله أو كان على سبيل السخرية والاستهزاء فإنه يدل على أنهم كانوا يرون أن تحديد حرية التصرف بالأموال دليلاً على انعدام العقل والدراية.

لقد تمثل خطأهم الكبير بهذا النمط من التفكير، فالحرية التامة في التصرف بالأموال يؤول بالمجتمع إلى الشقاء ويعيث فيها فساداً ولهذا ينبغي أن تخضع الأمور المالية لضوابط صحيحة ومدروسة عرضها الانبياء على الناس وإلّا فسينتهي مصير المجتمع إلى الانغماس في لجج الفساد والانحراف.

٧ـ الاصلاح هو الهدف الوحيد للأنبياء:

لم يكن هذا الشعار: ﴿إن أريد إلّا الاصلاح ما استطعت﴾ شعار شعيب فحسب بل هو شعار جميع الأنبياء وكل القادة الأوفياء وهذا ما توحي به أعمالهم وأقوالهم. إنهم لم يبعثوا لتسلية الناس أو غفران الذنوب أو بيع الجنة أو دعم ذوي البأس وتخدير الجماهير بل بهدف الاصلاح بمعناه المطلق والشامل: اصلاح الأفكار، إصلاح الأخلاق، إصلاح النظم الثقافية والاقتصادية

والسياسية للمجتمع والإصلاح في جميع أبعاد المجتمع.

وكأن معولهم على تحقيق هذا الهدف هو الله وحده ولم يخافوا التهديدات والمؤامرات كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وما توفيقي إلّا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾[1].

***

١ ـ تفسير الأمثل، ذيل الآيات.

الآية الخامسة حول التطفيف:

﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلّا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، لا نكلف نفساً إلّا وسعها، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربىٰ، وبعهد الله أوفوا، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكّرون.

وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾[1].

ـ ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلّا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدَّه﴾ أي لا تتصرفوا بمال اليتيم إلّا بقصد الإصلاح حتى يبلغ النضوج التام.

ـ ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾ فلا تطففوا وأدوا حقوق الآخرين باعتماد العدل والانصاف.

وحيث أن الإنسان مهما توخى الدقة قد يزيد أو ينقص في الكيل والوزن لتعذر ضبط ذلك عن طريق الموازين والمكاييل المألوفة فقد أردفت الآية: ﴿لا نكلف نفساً إلّا وسعها﴾.

ـ ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربىٰ﴾، فلا تنحرفوا عن جادة الحق عند الإدلاء بحكم أو بشهادة أو في أية حالة أخرى وإن كان ضد منتسب بقرابة إليكم فاشهدوا بالحق، واقضوا بالعدل.

ـ ﴿وبعهد الله أوفوا﴾ ولا تنقضوه.

وأما المقصود من «العدل الالهي» فهذا ما يذهب المفسرون إلى احتمالات عديدة فيه. ولكن مفهوم الآية يشمل العهود الإلهية «التكوينية» و «التشريعية» والفرائض الالهية وكل ضروب العهود والنذور واليمين.

ثم أنه سبحانه وتعالى يعود في ختام هذه الأوامر الأربعة للتأكيد

---

١ ـ سورة الأنعام، الآيتان (١٥٢ ـ ١٥٣).

عليهابقوله: ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تذكّرون﴾.

- ﴿وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾. إن طريقي ونهجي هو نهج التوحيد، نهج الحق والعدل، نهج النزاهة والتقوى فاتبعوه وامضوا على هداه واسلكوا دربه ولا تسلكوا الطرق المنحرفة والمتفرقة فتؤدي بكم إلى الضلال والتشتت والتشرذم وتزرع فيكم بذور الفرقة والنفاق.

ثم يختم جميع أوامره وللتأكيد ـ للمرة الثالثة ـ، بقوله: ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾[1].

١ ـ تفسير الأمثل ذيل الآيتين.

الآية السادسة حول التطفيف:

﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلّا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا.

وأوفوا الكيل إذا كِلتُم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً﴾[1].

إن هذه الآيات والآيات التي سبقتها إنما تتطرق إلى مجموعة من الأحكام استهلتها الآية (٣٤) بالتطرق لأهمية الحفاظ على مال اليتيم وبأسلوب يتماثل مع سياق التعبير القرآني في شأن الأعمال المنافية للعفاف والتي تحدثت عنها الآيات السابقة: **﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾** فلم تكتفي بالنهي عن اكل مال اليتيم بل شددت على حرمته بالقول: **﴿لا تقربوا مال اليتيم﴾**.

ولكن قد يتخذ بعض الجهلة هذا الحكم ذريعة للتشبث بالجوانب السلبية من القضية فيتركون مال اليتامىٰ يهدر دون أن يتولىٰ شؤونه من يحفظه من النوائب لذلك استثنت الآية: **﴿إلّا بالتي هي أحسن﴾**. وبناء على هذا الاستثناء الواضح والشامل يمكن التصرف بمال اليتيم شرط الحفاظ عليه وبنية تنميته وإكثاره والحيلولة دون إهداره حتى يبلغ اليتيم سن الرشد والنضوج الفكري والاقتصادي فيكون عندئذ قيماً على نفسه وأمواله **﴿حتى يبلغ أشده﴾**.

و «أشد» مأخوذ من «شدّ» على وزن «جدّ» وهي بمعنى العروة المحكمة الموثقة» ثم توسع المعنى فيما بعد ليشمل أي نوع من القوة الروحية والجسمية. والمقصود من كلمة «أشد» في الآية بلوغ سن الرشد لا الجسمي فحسب بل الفكري والاقتصادي مما يؤهل اليتيم للحفاظ على أمواله وقد ذكرت هذه اللفظة بالذات في الآية للدلالة على هذه المعاني مجتمعة وبالطبع ينبغي التثبت

---

١ ـ سورة الإسراء، الآيتان (٣٤ـ٣٥).

من بلوغه هذه المرحلة عن طريق الاختبار المؤكد.

إن الايتام ظاهرة اجتماعية طبيعية لا تخلو منها أي مجتمع بسبب الوقائع المختلفة. والدوافع الإنسانية تفرض رعاية هؤلاء اليتامىٰ من قبل الخيرين والمحسنين في المجتمع. والإسلام يحث وبشدة على رعاية الأيتام كما تحدثنا عن هذا الأمر بإسهاب في الآية (٢) من سورة النساء.

وما نريد أن نضيفه هنا هو ان بعض الروايات والأحاديث الإسلامية تستخدم معنى أكثر شمولية لليتم ليتضمن المنقطعين عن إمامهم وقائدهم ممن لا يبلغهم صدى الحق وهو معنى فيه نوع من التوسع في المفهوم والاستفادة المعنوية من حكم مادي.

ثم تشير الآية بعد ذلك إلى الوفاء بالعهد فتقول: ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً﴾. إن الكثير من العلاقات الاجتماعية والخطوط العريضة من النظام الاقتصادي والقضايا السياسية قائمة على محور العهود وضعف هذا المحور يؤدي إلى انهيار صرح الثقة بين الناس فينهار إثره النظام الاجتماعي وتحل الفوضىٰ. ولهذا السبب تؤكد الآيات القرآنية وبشدة على قضية الوفاء بالعهود.

وللعهد والميثاق معان واسعة حيث يتضمن العهود والمواثيق الخاصة بين الأشخاص فيما يخص القضايا الاقتصادية والمعاشية، وفي العمل والزواج. وهو يشمل كذلك المواثيق والمعاهدات بين الحكومات والشعوب بل يتعداها إلى ما هو أسمىٰ من ذلك فيرقىٰ إلى المواثيق الالهية وعهود الانبياء والرسل مع الامم والامم مع الله ورسله وكتبه[١].

والحكم الأخير في هذا السياق يتصل بالعدل في الوزن والكيل ورعاية حقوق الناس في ذلك ومحاربة التطفيف في الميزان حيث تقول الآية الكريمة:

---

١ ـ سنتطرق إلى بحث مفصل حول أهمية الوفاء بالعهد والقسم في تفسير الآيات (٩١ ـ ٩٤) من سورة النحل.

﴿وأوفوا الكيل إذا كلتم، وزنوا بالقسطاس المستقيم، ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾.

أضرار التطفيف في الكيل:

أول ملاحظة ينبغي التنبيه إليها هي أن القرآن الكريم أكد مراراً على ضرورة مكافحة التطفيف والغش في الميزان والمكيال حتى أنه اعتبر رعاية هذا النظام من الأمور الدخيلة في نظام الخلق في عالم الوجود حيث نقرأ في الآيتين (٧و٨) من سورة الرحمٰن: ﴿والسماء رفعها ووضع الميزان، أن لا تطغوا في الميزان﴾. والآية تشير إلى أن مسألة البخس والتطفيف في الميزان ليست قضية هينة، ليست ذات أهمية كبرىٰ بل أنها تدخل في صميم أصول العدالة والنظام المهيمن على عالم الوجود برمته.

وفي محل آخر وبأسلوب أكثر حدة يهدد القرآن المطففين، بقوله: ﴿ويلٌ للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، ألا يظن اولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم﴾.

ونقرأ في القرآن الكريم أن بعض الانبياء عرضوا التطفيف بعد الشرك لمقصلة جهادهم وكفاحهم ولكنهم لم يكترثوا لتعاليم أنبيائهم فنالهم العذاب الأليم (راجع قصة النبي شعيب مع مدين في نهاية آية ٨٥ من سورة آل عمران).

إن الحق والعدل والنظام والحساب كلها أمور تعتبر عادة من الأسس الحيوية الهامة في الحياة بل أنها، كما أشرنا سالفاً، تدخل في نظام الوجود والخلق وأن أي انحراف عنها يعرض المجتمعات لعواقب جسيمة وسيئة خصوصاً بالنسبة لبخس المكيال والتطفيف في الميزان لأنه يوجه ضربة قاضية لبنى الثقة التي تعتبر من أهم أركان التجارة والمعاملات مما يعرض النظام الاقتصادي للانهيار.

ومع الأسف الشديد فإننا نلاحظ أحياناً إلتزام غير المسلمين بهذا المبدأ

أكثر من بعض المسلمين المتجردين عن الإحساس بالمسؤولية فتراهم وبهدف اكتساب ثقة الآخرين يعملون على انتاج السلع ورفد الأسواق العالمية بها مع الالتزام الدقيق بالمواصفات والموازين المتفق عليها دون زيادة أو نقصان.

أجل، لقد ايقنوا أن الامتناع عن الغش في المعاملة هو الأسلوب المفترض انتهاجه حتى من قبل هواة الدنيا.

والجدير بالملاحظة هنا أن المخلين بالميزان والمطففين مسؤولون أمام المشتري مسؤولية حقوقية، لذلك فإن توبتهم لا تتم إلّا برد الحقوق المغصوبة إلى أهلها، وإن تعذر ذلك فينبغي لهم إعطاء ما يساويها إلى الفقراء والمعوزين باعتباره رد مظالم عن الأصحاب الحقيقيين.

ومن الأمور الهامة الأخرىٰ هو أن حكم التطفيف وبخس الكيل قد يعمم بحيث يشمل كل اشكال التقصير المتعمد في الأعمال والوظائف المختلفة. فاستهانة العامل بعمله وامتناع المعلم عن التدريس باسلوب صحيح وعدم التزام الموظف بالتواجد فى محل عمله في الساعات الادارية وعدم إخلاصه في العمل كلها تعتبر تطفيفاً. ولكن الألفاظ المستخدمة في هذه الآية لا تفيد هذا التعميم إلّا أن قوله تعالى: ﴿والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان﴾ تفيد التعميم.

و «القسطاس» بكسر القاف أو ضمها تأتي بمعنى الميزان ويعتبرها البعض كلمة رومية بينما يؤكد البعض الآخر على كونها كلمة عربية. وهنالك من يقول أنها مركبة من كلمتي «قسط» بمعنى العدل و «طاس» بمعنى كفة الميزان. ويذهب البعض الآخر إلى أن كلمة «قسطاس» تطلق على الميزان الكبير و «الميزان» على الموازين الصغيرة[1].

وعلى أية حال فإن «القسطاس المستقيم» هو الميزان الصحيح والسالم الذي

---

١ ـ راجع تفاسير: الميزان، والفخر الرازي ومجمع البيان في تفسير الآية محل البحث.

يزن بالعدل دون نقصان أو زيادة.

والملفت أن هنالك رواية عن الإمام الباقر عليه السلام تفسر هذه الكلمة بقوله: «هو الميزان الذي له لسان»[1].

إن هذه الرواية تعتمد على كون اللسان أداة لتبيين أدنى حركة الكفتين بشكل دقيق ورعاية العدل تماماً وبعدمها تتعذر الدقة في الوزن إلى هذا الحد[2].

الشهيد دستغيب: التطفيف من الكبائر

... ومن الذنوب التي أشير بوضوح إلى كونها من الكبائر هو التطفيف. وقد ثبت حرمته مطلقاً عن طريق القرآن والسنة والاجماع والعقل. ويستوحىٰ من رواية الأعمش عن الإمام الصادق عليه السلام ورواية فضل بن شاذان عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنهما اعتبرا (البخس في المكيال والميزان) من الكبائر.

وتتوعد الآيات القرآنية مقترفيه علانية بأشد عذاب. وقد كرس الله سبحانه وتعالى سورة من كتابه المجيد لهذا الموضوع وهي «سورة المطففين» المبتدأة بآية ﴿ويل للمطففين﴾. و «الويل» هو بئر في جهنم. وتدل هذه اللفظة على تعرض المطففين لشتى أنواع العذاب والعتاب والشدة والمحنة. ثم تبين الآيات التالية شأن هؤلاء المطففين وحالهم.

ملف حساب المطففين في سجين

الآيات التالية تتوعد هؤلاء المطففين وتنهرهم عساهم يكفوا عن التطفيف والاستهانة بعذاب يوم الحساب وتنذرهم بأنهم سيلاقون حسابهم جراء هذه

---

١ ـ تفسير الصافي، ذيل الآية.

٢ ـ تفسير الأمثل، ذيل الآية.

الخبائث في سجين (وهو بئر في جهنم كرس لعذاب الفجار):

﴿كلا إن كتاب الفجار لفي سجين. وما أدراك ما سجين، كتاب مرقوم. ويلٌ يومئذ للمكذبين﴾[1].

ثم أننا نقرأ في الآيات ٨٤ و ٨٦ من سورة هود وعلى لسان النبي شعيب عليه السلام: ﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير﴾[2] أي أن الله أغناكم عما قد يلجئكم إلى الخيانة فاحكم بنيتكم وشد أزركم. ومن آداب الشكر على نعماء الله أن تؤدوا للناس حقوقهم ولا تبخسوها، و ﴿إني أخاف عليكم عذابَ يومٍ محيط﴾ أي لا محيد لكم عنه جراء خيانة بعضكم البعض. ﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾، لأن التطفيف يخل نظام المجتمع والأمن العام.

لا إيمان للمطفف:

إذاً، الآيات القرآنية توحي بأن المطفف لا يؤمن بحقانية الحساب في يوم القيامة، فاليقين أو حتى تصور مسؤولية الوقوف في مقام الحساب في يوم القيامة ومطالبته بما أبخس الناس من حقوقهم يقطع على المرء طريق مثل هذه الخيانة. ولو كان المطفف مؤمناً لأيقن أنه ورغم غفلة صاحب الحق عن خيانته فإنها تتم بعين رب العالمين التي تترصد أعماله جميعا[3].

١ـ سورة المطففين، الآيات (٧ـ ٩).

٢ـ سورة هود، الآية (٨٤).

٣ـ يروى أن قصاباً من عبدة الأوثان كان يزيد اللحم عند كيله. وعندما سئل عن السبب أشار إلى ما فوق رأسه (حيث كان قد علق صنماً هنالك)، وقال بأنه من أجل هذا أفعل كذا. وآخر كان يلقي نظرة على الصنم كلما عزم على الكيل تجنباً من التطفيف. فيا للعار على المسلم الذي يؤمن بأن الله عالم الغيب يحضر كل مقام ويسمع كل مقال، ومع ذلك يبخس الناس حقوقهم أو يأتي بسائر المعاصي على مرآى منه.

←

سجايا خمس وبلايا خمس:

جاء في تفسير منهج الصادقين حديثاً نبوياً يأتي على ذكر بلايا خمس تنزل عقاباً لسجايا خمس، ثم يردف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم:

«ما نقض قوم العهد إلّا سلط الله عدوهم،

وما حكموا بغير ما أنزل الله إلّا فشا فيهم الفقر،

وما ظهرت الفاحشة إلّا فشا فيهم الموت،

ولا طففوا الكيل إلّا منعوا النبات وأخذوا بالسنين،

ولا منعوا الزكاة إلّا حبس عنهم القطر».

موعظة لأمير المؤمنين:

كان أمير المؤمنين علي عليه السلام وبعد فراغه من عمله اليومي في سياق إدارة شؤون الخلافة يطوف بسوق الكوفة وهو ينادي:

«يا أيّها النّاس! اتقوا الله، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين».

وذات يوم ألمح رجلاً يزن الزعفران في السوق بعد أن يدهن كفة الميزان التي يضع فيها الزعفران، فعلم عليه السلام أنه يخل الوزن بذلك فرفع الزعفران عن الميزان وقال: «أقم الوزن بالقسط ثم ارجح بعد ذلك ما شئت».

جبلان من النيران:

كان النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ينذر دوماً بأن الخائن في الكيل يلقى يوم القيامة في

← وهذه زليخا انفردت بالنبي يوسف (ع) في حجرة لتغريه بنفسها ولكنها نزعت خمارها والقته على صنم كان بالحجرة لأنها خجلت منه فقال لها النبي يوسف (ع): أتستحين من وثن لا شعور له صنعته يد الإنسان؟ وكيف لا استحي من ربي البصير السميع وهو يرقب كل موقف. هكذا فر منها وكف عن نفسه التدنّس بالمعاصي.

قعر جهنم ويكون مستقره بين جبلين من نارين يؤمر بوزنهما فـينهمك عـلى الدوام بانجاز هذا العمل.

روى مالك بن دينار أن جاراً له توعكت صحته ولما ذهب لعيادته وجده يحتضر وهو يصرخ بان جبلين من النيران يتجهان نحوه فأراد تهدئته فقال له بأن ما يراه تخيل محض يتراءى له. ولكن الرجل راح يؤكد بأنه ليس كذلك بل هو عقاب يلاقيه جزاء لكيله بمكيالين أحدهما نـاقص والآخـر زائـد يكـيل للناس بالناقص ويكتال عليهم بالزائد وهـذه النـيران سـتلتهمه عـقاباً عـلى ذلك[1].

تحريم نقصان العدد:

إن نقصان العدد يواطئ في حرمته نقصان المكيال والميزان فحكم التطفيف يجرى في أشياء تقاس بالذراع والمتر مثل الأقمشة والأراضي. ويعتبر نـقصان العدد وإن تحدد النقص بسانتيمتر واحد، تطفيفاً.

أما ما يتم تبادله بالعدد من قبيل البيض فإن نقصان عدده في غـفلة مـن صاحبه هو تطفيف أيضاً، ويصدق فيه ما قيل بشأن المطففين. وهذا ما أوضحه الشيخ الأنصاري في كتاب المكاسب المحرمة.

المطفف مدين لصاحب الحاجة:

إن ذمة المطفف غير مغفورة إزاء صاحب الحاجة، ويعتبر مديناً له بمقدار ما بخسه من حقه، ويتوجب عليه دفع مبلغه للمشتري أو لورثته في حالة وفاته أو أن يدفع عنه (بعد استئذان حاكم الشرع) صدقة بذلك المقدار إن لم يكـن يعرفه أبداً.

وإن جهل مقدار ما أجحفه من حقه فمن واجبه أن يتوافق مـع المشـتري

١ـ راجع تفسير منهج الصادقين.

حول المبلغ أو مع ورثته إن لم يكن على قيد الحياة أو مع حاكم الشرع إن جهل هويته.

التحايل، تطفيف:

التطفيف في الحقيقة وكما اتضح يعني أن يدفع البائع للمشتري أثناء المعاملة مقداراً من السلعة أو المتاع أقل مما نصت عليه المعاملة. ولكن قد يستوفي المكيال والميزان بعد مزج ما هو أدنىٰ من ذات السلعة معها كأن يبيع مائة مناً[١] من القمح ويسلم المشتري المائة بتمامها ولكن بعد خلط السلعة بخمسة أمناء من التراب فيكون قد بخس المشتري خمسة أمناء من القمح. أو كمن يبيع عشرة أمناء من الحليب بعد مزج الحليب بمنا واحد من الماء فيكون باعه تسعة أمناء بدلاً من العشرة. وكبائع عشرة أرطال من السمن بعد أن يلقي فيها صخرة تزن نصف منا وكالقصاب يزن نصف مناً من اللحم دون نقصان ولكن يرفقه بمقدار من العظام أكثر من المألوف وكمرطب السلعة بالماء ليثقل وزنه، كل هذه الحالات تعتبر تطفيفاً وذنباً عظيماً[٢].

إنذار نختم به البحث:

التلاعب بالموازين وانتشار التطفيف في بعض الفئات المهنية:

تطالعنا الصحف والمجلات مراراً بأنباء مؤسفة حول نتائج عمليات الرقابة على موازين بعض الفئات المهنية. تشير هذه الأنباء إلى انتشار الغلاء المفتعل إضافة إلى التطفيف وانتاج السلع غير المرغوبة في الأسواق باعتبارها مشاكل هامة تعاني منها الشعوب المختلفة.

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

---

١ ـ المنا: كيل يكال به السمن وغيره أو وزن يوزن به مقداره رطلان (معجم لاروس).

٢ ـ راجع كتاب «الذنوب الكبيرة» لشهيد المحراب آية الله عبد الحسين دستغيب، المجلد الأول.

«إذا طنفت أمتي مكيالها وميزانها واختانوا وخفروا الذمة وطلبوا بعمل الآخرة الدنيا فعند ذلك يُزكون أنفسهم ويتورع منهم»[١].

وقال الإمام علي عليه السلام:

«وإذا طففت المكاييل أخذهم الله بالسنين[٢] والنقص»[٣].

١ـ نوادر الراوندي.

٢ـ السنين: الجدب والمجاعة.

٣ـ بحار الأنوار، المجلد ١٠٣، ص ١٠٧، عن كتاب الأمالي للشيخ الطوسي.

الفصل الرابع

الغش وتبعاته

إطلالة على ساحة الروايات:

قال الإمام علي عليه السلام:

«الغش سجية المَرَدَة»[1].

وقال أيضاً:

«الغش يكسب المسبّة»[2].

وعنه أيضاً:

«الغش شر المكر»[3].

قال الإمام علي عليه السلام:

«الغش من أخلاق اللئام»[4].

وقال:

«الغشوش لِسانه حلو وقلبه مر»[5].

وقال:

---

١ ـ غرر الحكم، الحديث (٤٢١).

٢ ـ غرر الحكم، الحديث (٦١٥).

٣ ـ غرر الحكم، الحديث (٧٤٠).

٤ ـ غرر الحكم، الحديث (١٢٩٩).

٥ ـ غرر الحكم، الحديث (١٥٧٥).

«من علامة الشقاء غِش الصديق»[1].

وقال:

«شر الناس من يغش الناس»[2].

وعن الإمام الكاظم لما مر بهشام بن الحكم وهو يبيع السابري[3] في الظلال، أنه قال له:

«يا هشام، إن البيع في الظلال غِش وإن الغش لا يحلّ»[4].

وعن الصادق عليه السلام لما سئل عن الرجل يكون عنده لونان من طعام واحد وسعرهما شيء وأحدهما خير من الآخر فيخلطهما جميعاً ثم يبيعهما بسعر واحد:

«لا يصلح له أن يفعل ذلك، يغش به المسلمين حتى يبينه»[5].

قال أبو سباع:

«اشتريت ناقة من دار واثلة بن الاسقع فلما خرجت بها أدركني يجر إزاره، فقال: اشتريت؟ قلت: نعم، قال: ابين لك ما فيها، قلت: وما فيها؟ قال إنها لسمينة ظاهرة الصحة.

قال: أردت بها سفراً أو أردت بها لحماً.

قلت: أردت بها الحج.

قال: فارتجعتها.

فقال صاحبها: ما أردت إلى هذا أصلحك الله تُفسد عليّ؟

قال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: لا يحل لأحد يبيع شيئاً إلّا بيّن ما

١ـ غرر الحكم، الحديث (٩٢٩٧).

٢ـ غرر الحكم، الحديث (٥٦٧٧).

٣ـ السابري: المنسوب إلى سابور أي القماش الدقيق والمحكم النسج.

٤ـ الفروع من الكافي: ٦/١٦٠/٥.

٥ـ الفروع من الكافي: ٢/١٨٣/٥.

فيه ولا يحلّ لمن علم ذلك إلّا بيّنه»[1].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال:

«المسلم أخو المسلم ولا يحل لمسلم أن يبيع من أخيه بيعاً يعلم فيه عيباً إلّا بيّنه له»[2].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً:

«المؤمنون بعضهم لبعض نَصَحَةٌ وادّون وإن بعدت منازلهم وأبدانهم. والفجرة بعضهم لبعض غششة متخاونون وإن اقتربت منازلهم وأبدانهم»[3].

ويروىٰ:

أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مر برجل يبيع طعاماً. فسأله: كيف تبيع؟ فأخبره. فأوحي إليه أن أدخل يدك فيه فأدخل يده فيه فإذا هو مبلول فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس منا من غش»[4].

وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام:

«مر النبي في سوق المدينة بطعام فقال لصاحبه: ما أرىٰ طعامك إلّا طيباً. وسأله عن سعره، فأوحىٰ الله عز وجل إليه أن يدس يديه في الطعام فأخرج طعاماً ردياً. فقال لصاحبه: ما أراك إلّا وقد جمعت خيانة وغشاً للمسلمين»[5].

ويروىٰ:

«أن رسول الله مر على صُبرَة[6] طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً.

١ـ الترغيب والترهيب: ٢/٥٧٤/١٠.

٢ـ كنز العمال، ٩٥٠٢.

٣ـ الترغيب والترهيب: ٢/٥٧٥/١٢.

٤ـ سنن أبي داود، (٣٤٥٢).

٥ـ الفروع من الكافي: ٥/١٦١/٧.

٦ـ الصُبرة: ما جمع من الطعام بلا كيل ولا وزن.

فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟

قال: أصابته السماء يا رسول الله.

قال: أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس؟! من غشنا فليس منا»[1].

عن رسول الله ﷺ لرجل يبيع طعاماً وقد خلط جيداً بقبيح:

ما حملك على ما صنعت؟

قال: أردت أن ينفق.

فقال له النبي ﷺ: ميّز كل واحد منهما على حدة ليس في ديننا غش[2].

وعنه ﷺ: «يا صاحب الطعام أسفل هذا مثل أعلاه؟ من غش المسلمين فليس منهم»[3].

وقال الإمام علي عليه السلام:

«المؤمن لا يغش أخاه ولا يخونه ولا يخذله ولا يتهمه»[4].

وعن رسول الله ﷺ:

«ليس منا من غش مسلماً او ضَرَّه أو ما كَرَه»[5].

وعنه أيضاً:

«من غش مسلماً في شراء أو بيع فليس منا ويُحشر يوم القيامة مع اليهود، لأنهم أغش الخلق للمسلمين»[6].

قال النبي ﷺ:

١ـ الترغيب والترهيب: ٢/٥٧١/٢.

٢ـ كنز العمال: (٩٩٧٤).

٣ـ كنز العمال: (٩٥١٢).

٤ـ الخصال: ٦٢٢/ ١٠.

٥ـ تحف العقول: (٤٢).

٦ـ أمالي الشيخ الصدوق، ١/٤٣٩.

«ألا! ومن غشنا فليس منا (قالها ثلاث مرات)، ومن غش أخاه المسلم نزع الله بركة رزقه وأفسد عليه معيشته ووكله إلى نفسه»[1].

قال الصادق عليه السلام:

«إياك والغش! فإنه من غَشّ غُشّ في ماله فإن لم يكن له مال غُش في أهله»[2].

وعنه أيضاً:

«نهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يشاب اللبن بالماء للبيع»[3].

وقال عليه السلام كذلك:

«غبنُ المؤمن حرامٌ»[4].

حكاية قصيرة:

١ـ جاءت زينب العطارة الحولاء إلى نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فجاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإذا هي عندهم فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إذا أتيتنا طابت بيوتنا.

فقالت: بيوتك بريحك أطيب يا رسول الله.

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا بعت فأحسني ولا تغشي فإنه أتقىٰ لله وأبقىٰ للمال[5].

أما عن تطيب المكسب والثروة والنأي عن الفساد المالي فقد روىٰ أبو أمامة صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:

«أربع من كُنَّ فيه فقد طاب مكسبه: إذا اشترى لم يَعب وإذا باع لم يحمد ولا

١ـ الوسائل: ١٢/ ١٢١.

٢ـ الوسائل: ٢٠٩/١٢.

٣ـ الوسائل: ٢٠٨/١٢.

٤ـ الفروع من الكافي: ١٥٣/٥.

٥ـ روضة الكافي، ص ١٥٣ والفروع من الكافي: ١٥١/٥.

يدلسن وفيما بين ذلك لا يحلف»[1].

إذاً هنالك خصال أربع من التزم بها نال طيب المال والمكسب، وهي أن:

١ـ لا يعيب أي سلعة يشتريها.

٢ـ لا يطري على سلعة يبيعها.

٣ـ يعرض سلعته على حقيقتها ولا يحاول التغطية على معايبها أو إظهارها بجودة أعلى مما هي عليه.

٤ـ يمتنع عن الحلف أثناء المعاملة.

قال موسىٰ بن بُكير أنه كان عند أبي الحسن الكاظم عليه السلام:

فإذا دنانير مصبوبة بين يديه فنظر إلىٰ دينار فأخذه بيده ثم قطعه نصفين ثم قال لي: «ألقِه في البالوعة حتى لا يباع شيء فيه غش»[2].

قال الإمام علي عليه السلام:

«ألا فتوقعوا ما يكون من أدبار أموركم... ذاك حيث تكون ضربة السيف على المؤمن أهون من الدرهم في حله»[3].

وعن الصادق عليه السلام:

«مما قاله لمولاه مصادف حينما باع متاعه بمصر بربح الدينار ديناراً: يا مصادف! مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال»[4].

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«كان أمير المؤمنين بالكوفة.. فيطوف في أسواق الكوفة، سوقاً سوقاً ومعه

١ـ المصدر السابق، ص ١٥٣.

٢ـ المصدر نفسه، ص ١٦٠ (فيه غش: لأن الدينار كان مزوراً).

٣ـ نهج البلاغة، عبده، ٢/ ١٤٩ ـ ١٥٠.

٤ـ الفروع من الكافي: ١٦١/٥ـ ١٦٢.

الدرة[1] على عاتقه.. فينادي: يا معشر التجار، اتقوا الله... قدِّموا الاستخارة وتبركوا بالسهولة واقتربوا من المبتاعين وتزينوا الحلم وتناهوا عن اليمين وجانبوا الكذب وتجافوا[2] عن الظلم وأنصفوا المظلومين ولا تقربوا الربا وأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين. قال: فيطوف في جميع أسواق الكوفة ثم يرجع فيقعد للناس[3]...

قال: وكانوا إذا نظر إليهم قد أقبل إليهم قال: يا معشر الناس! أمسكوا أيديهم وأصغوا إليه بآذانهم ورمقوه بأعينهم حتى يفرغ من كلامه فإذا فرغ قالوا: السمع والطاعة يا أمير المؤمنين[4].

تذكربعض المصادر بيتين من الشعر كان ـ بحسب هذه المصادر ـ يرتجزه بغية إنذار أصحاب المكاسب في السوق ولاسداء النصح لهم وتوعيتهم من الغفلة وهما:

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها   من الحرام ويبقى الإثم والعار

تبقىٰ عواقب سوء في مغبتها   لا خير في لذة من بعدها النار[5]

ويروي الحسين بن المختار القلانسي أنه سأل الإمام أبا عبد الله الصادق عليه السلام: (إنا نعمل القلانس فنجعل فيها القطن العتيق فنبيعها ولا نبين لهم ما فيها؟ فقال: إني أحب لك أن تبين لهم ما فيها)[6].

أجل، إن أسواق البلاد الإسلامية لا تنال حظاً من أسلمتها إلّا برعاية هذه الآداب والسنن وما إليها إلى جانب الالتزام بتجنب الحرام والنأي عنه.

---

١ ـ الدرة: السوط.

٢ ـ تجافىٰ تجافياً عن مكانه: لم يطمئن فيه أي لا تركنوا للظلم.

٣ ـ الفروع من الكافي: ١٥١/٥.

٤ ـ مستدرك الوسائل: ٢/ ٤٦٣.

٥ ـ سفينة البحار، المجلد (١)، ص ١٢١.

٦ ـ من لا يحضره الفقيه: ١٠٥/٣.

قال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

«ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ومن خاصمه الله أدحض حجته وكان لله حرباً حتى ينزع ويتوب وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم فإن الله يسمع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد»[1].

وعنه عليه السلام:

«ما أصف من دار أوَّلها عناء وآخرها فناء، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب»[2].

ميزان العدل:

إن ميزان العدل والقاعدة الربانية العامة لرعاية حقوق العباد هي بالضبط ما أوصىٰ به أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ابنه الحسن حين قال:

«يا بني! اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك.

فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك

واكره له ما تكره لها

ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلم

وأحسن كما تحب أن يحسن إليك

واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك

وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك»[3].

أي لا تسترضي فعلاً عندما تبادر أنت إليه وتستقبحه إن بادر غيرك إليه.

إن كل من لا يلتزم في كلامه وفعاله عند تعامله مع الناس بقانون أو

١ـ نهج البلاغة: ٩٩٥ـ٩٩٦، عبده: ٣/ ٩٥.

٢ـ نهج البلاغة، الكلام (٨٢).

٣ـ نهج البلاغة، باب الكتب والوصايا، الوصية ٣١.

بالأحرى بميزان العدل العلوي، إنما هو مطفف خرج عن جادة العدل والصراط المستقيم وينتمي إلى معشر الظالمين[1].

طرفة:

ساوم شخصان ممن اعتادوا على ممارسة الغش في المعاملات على مقدار من المخدرات ففكر البائع أن هذه السلعة محظورة وسوف لن يتفحصها المشتري عند استلامها فجاء بمقدار كبير من مادة أخرى ملأ منها الوعاء وغطى أعلاها بالترياك. والمشتري بدوره فكر بمثل ذلك فمزج الأوراق النقدية بأوراق مزورة لأن صاحبه سوف لن يتفحصها عند الاستلام!. تبادل الرجلان السلعة والمال وانصرف كلاهما مبتهجاً مسروراً بنجاحه في التحايل على الآخر. وبعد اتمام الصفقة تنبه مستلم السلعة إلى أنها مغشوشة وصاحب المال إلى أن النزر اليسير منه حقيقي وما سواه أوراق مزورة لا قيمة لها.

العبرة: العبرة التي يمكن ان نستوحيها من هذه الطرفة هي أننا إن كنا نرغب أن نبتاع خبزاً ذا جودة عالية من الخباز وأن يخلص المعلم عند قيامه بمهمة التدريس في المدارس و... لابد لنا أن نحسن أداء مهامنا لننتهل جميعاً بالفائدة من بعض وإلّا فإن حكاية الطرفة تجري في حياتنا جميعاً على قدم وساق.

بناء على هذا تترشح عن كل خدعة خدعة أخرى وعن كل اعتداء انقطاع في البركة فتزول البركة من حياتنا إثر تفشي الخداع والمظالم فتتحول آثار ما أنعم الله عز وجل به علينا من امكانات وثروات إلى عامل نقمة وشقاء.

---

١ ـ مقتبس عن كتاب «الذنوب الكبيرة» لآية الله الشهيد عبد الحسين دستغيب، المجلد الأول.

الفصل الخامس

عاقبة خيانة بيت المال

جزاء الخيانة في بيت المال:

كان مِدعَم رجلاً من العاملين في بيت رسول الله ﷺ، توقف يوم خيبر إلى جانب العسكر ليفرغ حمولة بعير جاء به إلى هناك فأُصيب بسهم من جانب العدو أرداه صريعاً.

إلتف النبي وصحابته حول مدعم. حزن الأصحاب وقدموا تعازيهم إلى الرسول ﷺ قائلين: «هنيئاً له الجنة». كان أول شهيد في هذه المعركة فقد أريق دمه ظلماً وحلقت روحه إلى بارئها لتستقر في جنة النعيم و....، إلّا أنهم عجبوا لإمارات الغضب البادية على رسول الله ﷺ وعدم اهتمامه بالشهيد كما ألفوا وهم يعلمون أن غضبه ليس كغضبهم بل يحمل بين ثناياه دون ريب حكمة ما. ثم أنه ﷺ عاجلهم بالقول رداً على هذه العبارات التي كانوا يتفوهون بها:

«كلا، إن الشملة[1] التي أخذها من الغنائم يوم خيبر لتشتعل عليه ناراً».

أجل، كان قد نال الشملة التي عليه من غنائم خيبر دون استئذان. كما جاء في سيرة ابن هشام أن النبي ﷺ رد عليهم بالقول:

«كلا والذي نفس محمد بيده أن شملته الآن لتحرق عليه في النار. كان غَلَّها[2] من فيء المسلمين يوم خيبر».

---

١ ـ الشملة: كساء مخمل دون القطيفة يشتمل به.

٢ ـ غَلَّ: خان في المغنم أو في بيت المال ومال الدولة.

ولما طرق هذا النبأ أسماع أحد المسلمين جاء رسول الله ﷺ يستفتيه في شِراكين[1] أخذهما من بيت المال دون إذن فقال: أصبت شراكين لنعلين لي. أجابه الرسول ﷺ: «يعد لك مثلهما من النار»[2].

إن هذا الانموذج إنما هو نداء وجهه النبي ﷺ إلى الجميع كي يتناهوا عن المنكر ويعملوا بجد بغية الحفاظ على بيت المال. ويجري حكمه في الدوائر الحالية فيما يخص السيارات، الهواتف وسائر الممتلكات والامتيازات الحكومية الأخرىٰ، فإن تمت الاستفادة من هذه الوسائل للأغراض الشخصية خلافاً لما قررته الشريعة الإسلامية حول بيت المال فإنها ستتحول بعد الوفاة إلى شرر من النيران تلتهمهم ﴿فاعتبروا يا أولي الألباب﴾[3].

الاحتياط في شؤون بيت المال:

يذكر سماحة آية الله نجومي في المقدمة التي دونها لكتاب «المقامات العلية» للمرحوم الشيخ عباس القمي بأنه إبان إقامته في النجف الأشرف اقتضت الضرورة أن يبتاع كتاب «الروضات» فاقتنى نسخة حجرية قديمة منها، طبعت في مجلدين يظهر أنها كانت تعود للشيخ المرحوم قبل ذلك.

يقول آية الله نجومي أنه لما ابتاع هذه النسخة لاحظ أن المرحوم الشيخ قد كتب في ظهر الصفحة الأولى منها بالحبر الأحمر: «تم دفع الخمس عن هذا المجلد» ثم وقع عليه بحبر أسود وذيله بختمه الشريف «المذنب عباس». فمثل هذه المؤلفات وإن كانت تمثل الزم الملزمات وأشد الضرورات بالنسبة له لكنه مع ذلك كان قد دفع الخمس عنها طلباً للاحتياط. ولكم أن تقارنوا مبادرته

١ـ الشراك: حبل أو سير النعل على ظهر القدم.

٢ـ سيرة ابن هشام، المجلد (٣)، ص ٣٥٤.

٣ـ راجع «فرازهاى برجسته از سيره امامان شيعه» (قبسات وضاءة من سيرة أئمة الشيعة)، المجلد (١)، ص ٢٨٦ـ٢٨٨.

هذه بمبادرات بعض ممن يصدق فيهم قول أمير المؤمنين علي عليه السلام في الخطبة الثالثة (الشقشقية) التي يطالعنا بها كتاب «نهج البلاغة» القيم:

«وقام معه بنو أبيه يخضمون[١] مال الله خِضمة الإبل نـبتة الربـيع إلى أن انتكث عليه فَتلُهُ وأجهز عليه عمله وكَبَت به بطنته»، (ويقصد أنهم لم يـبقوا على شيء سواء حراماً كان أو حلالاً).

علي (ع) وحرصه على بيت المال:

كتب أمير المؤمنين عليه السلام إلى عماله:

«ادقوا أقلامكم وقاربوا بين سطوركم واحذفوا عني فـضولكم واقـصدوا قصد المعاني وإياكم والاكثار. فأن أموال المسلمين لا تتحمل الأضرار»[٢].

الإمام علي (ع) والانفاق من بيت المال:

إن علياً عليه السلام كان يكنس بيت المال ثم يصلي فيه رجاء أن يشهد له يـوم القيامة أنه لم يحبس فيه المال عن المسلمين[٣].

قال الشعبي: (دخلت الرحبة بالكوفة ـوأنا غلام ـ في غلمان فإذا أنا بـعلي عليه السلام قائماً على صُبرتين من ذهب وفضة ومعه مخفقة وهو يطرد الناس بمخفقته ثم يرجع إلى المال فيقسمه بين الناس حتى لم يبق مـنه شيء ثم انـصرف ولم يحمل إلى بيته قليلاً ولا كثيراً فرجعت إلى أبي فقلت له: لقد رأيت اليوم خير الناس أو أحمق الناس!.

قال: من هو يا بني؟

قلت: علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، رأيته يصنع كذا. فـقصصت عـليه

---

١ ـ خضمه: أكله بأقصى أضراسه.

٢ ـ بحار الأنوار، المجلد (٧٦)، ص (٤٩).

٣ ـ كنز العمال: (٣٦٥٤٦).

فبكى وقال: يا بني! بل رأيت خير الناس)[١].

قال زاذان: انطلقت مع قنبر إلى علي عليه السلام فقال: قم يا أمير المؤمنين فقد خبأت لك خبيئة.

قال: فما هو؟.

قال: قم معي، فقام وانطلق إلى بيته فإذا باسنة[٢] مملوءة جامات من ذهب وفضة.

فقال: يا أمير المؤمنين! إنك لا تترك شيئاً إلاّ قسمته فادخرت هذا لك!.

قال علي عليه السلام: لقد أحببت أن تدخل بيتي ناراً كثيرة! فسلَّ سيفه فضربها فانتثرت من بين إناء مقطوع نصفه أو ثلثه ثم قال: اقسموه بالحِصص، ففعلوا[٣]، فجعل يقول:

هذا جناي وخياره فيه إذ كل جانٍ يده إلى فيه[٤]

وعن الإمام الباقر عليه السلام:

إن علياً أُتي بالمال فاقعد بين يديه الوزان والنُّقاد فكوّم كومة من ذهب وكومة من فضة فقال: «يا حمراء ويا بيضاء احمري وابيضي وغرّي غيري»[٥].

وعنه عليه السلام لما عوتب على التسوية في العطاء: أتأمرونّي (أتامرونني) أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟ والله لا أطور به ما سمر سمير وما ام

١ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢/ ١٩٨.

٢ـ الباسنة: جوالق غليظ من مشاقة الكتان.

٣ـ الغارات: ١/ ٥٥.

٤ـ يضرب هذا البيت مثلاً لمن يمنح خير ما لديه لصديقه ويؤثره على نفسه. وأول من ذكره «عمرو بن عدي اللخمي» ابن أخت «جذيمة» عندما حل جذيمة بمنزل في طريقه وأمر رجاله أن يجمعوا له الفطريات فصاروا يتناولون أفضل ما يجمعونه منها بينما حمل عمرو أفضل ما عثر عليه منها إلى خاله ولم يذق منها شيئاً فراح يرتجز هذا البيت (راجع لسان العرب، مادة جنى).

٥ـ كنز العمال: (٣٦٥٤٥).

نجم في السماء نجماً! لو كان المال لي لسويت بينهم فكيف وإنما المال مال الله.. ألا، وإن اعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يـرفع صـاحبه في الدنـيا ويضعه في الآخرة. ويكرمه في الناس ويهينه عند الله. ولم يضع امرؤ مـاله في غير حقه ولا عند غير أهله إلّا حرمه الله شكرهم، وكان لغيره ودُّهم، فـإن زلت به النعل يوماً فاحتاج إلى معونتهم فشرُّ خليل وألأم خدين[1].

وفي خطبة له حين ولى الخلافة: يا معشر المهاجرين والأنصار! يا مـعشر قريش! إعلموا ـ والله ـ إني لا ارزؤكم من فيئكم شيئاً ما قام لي عذق بيثرب. أفتروني مانعاً نفسي وولدي ومعطيكم؟ ولأسوين بين الأسود والأحمر.

فقام إليه (أخوه) عقيل بن أبي طالب فقال: لتجعلني وأسوداً مـن سـودان المدينة واحداً!.

فقال له: إجلس رحمك الله تعالى! أما كان هاهنا من يتكلم غـيرك؟ ومـا فضلك عليهم إلّا بسابقةٍ أو تقوى![2].

بعث أسامة بن زيد إلى أمير المؤمنين عليه السلام: ان ابعث علي بعطائي فوالله لتعلم أنك لو كنت في فم أسد لدخلت معك فكتب عليه السلام إليه: (إن هذا المال لِمَن جاهد عليه ولكن هذا مالي بالمدينة فأصِب منه ما شئت)[3].

وعن أبي إسحاق الهمداني: (ان امرأتين اتتا عـلياً احـداهمـا مـن العـرب والاخرىٰ من الموالي فسألتاه فدفع إليهـما دراهـم وطـعاماً بـالسواء. فـقالت إحداهما: إني امرأة من العرب وهذه من العجم. فقال: إني والله لا أجـد لبـني اسماعيل في هذا الفيء فضلاً على بني اسحاق)[4].

---

١ ـ نهج البلاغة، الخطبة (١٢٦).

٢ ـ نهج السعادة: ١/ ٢١٢.

٣ ـ بحار الانوار: ١٠٠/ ٥٨/ ٣.

٤ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢/ ٢٠٠.

وقال الإمام علي عليه السلام في كتاب له إلى قُثَمَ بن العباس وهو عامله على مكة:

(وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قِبَلك من ذوي العيال والمجاعة مصيباً به مواضع الفاقة والخلّات. وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيمن قِبَلنا)[1].

وعنه عليه السلام:

كان خليلي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يحبس شيئاً لغد وكان أبو بكر يفعل وقد رأى عمر في ذلك أن دوّن الدواوين وأخّر المال من سنة إلى سنة وأما أنا فأصنع كما صنع خليلي رسول الله.

قال (الراوي الضحاك بن مزاحم): وكان علي يعطيهم من الجمعة إلى الجمعة وكان يقول:

هذا جناي وخياره فيه إذ كُلُّ جانٍ يده إلى فيه[2]

قطع يد السارق من بيت المال:

روي أنه عليه السلام رُفع إليه رجلان سرقا من مال الله، أحدهما عبد من مال الله والآخر من عُرضِ الناس فقال: أما هذا فهو من مال الله ولاحد عليه، مال الله أكل بعضه بعضاً وأما الآخر فعليه الحد فقطع يده[3].

التسوية في العطاء:

كان عبد الله بن زمعة بن أسود من شيعة الإمام علي عليه السلام ومن أوفى اصحابه رغم انتماء أبيه وعمه إلى عسكر الكفار في غزوة بدر ومصرعهما فيها،

١ـ نهج البلاغة، الكتاب (٦٧).

٢ـ وسائل الشيعة، ج٣.

٣ـ نهج البلاغة.

وجده الأسود كان من المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1].

ذات مرة طالب عبد الله الإمام علي عليه السلام بما يزيد عن حقه في بيت المال فقد خيّل إليه أن قربه من أمير المؤمنين عليه السلام يمنحه أولوية تخوله بذلك، إلّا أن الإمام رد طلبه بالقول:

(إن هذا المال ليس لي ولا لك وإنما هو فيء للمسلمين وجلب اسيافهم فإن شَرِكتَهم في حربهم كان لك مثل حظهم وإلّا فنجاة أيديهم لا تكون لغير أفواههم).

وفي هذا السياق نلفت أنظار قرائنا الكرام إلى الحكاية التالية:

يروي عاصم بن كليب عن أبيه أنه كان يجالس علي عليه السلام عندما جيئ إليه بمقدار من المال وأشياء أخرىٰ من ايران باعتبارها من بيت المال. فقرر تقسيمها فتكالب الناس عليه يطلبون نصيبهم منها. فأمر عليه السلام بضرب حبل حول الأموال يفصلها عن الناس ودخل إلى داخل الحصار واستدعىٰ رؤساء القبائل السبع التي كانت تسكن الكوفة آنذاك. ولما حضروا سلم كل منهم نصيب قبيلته ليقوم بالنيابة بتقسيم تلك الأموال بالتساوي بين أعضاء تلك القبيلة. وفي نهاية المطاف عثر على رغيف من الخبز داخل الأواني الخاوية فأمر بتقسيمه إلى سبعة أقسام على أن يدفع كل قسم منه إلى إحدى القبائل.

كما يروىٰ عنه عليه السلام أنه كان بعد تقسيم أموال المسلمين يكنس المكان ويرشه بالماء وهو يردد:

يا صفراء (غرّي غيري)، يا بيضاء غرّي غيري.

أخطار جسام تهدد خائن بيت المال:

بعد معركة الجمل ولى أمير المؤمنين علي عليه السلام عبد الله بن عباس على

---

١ ـ راجع مصادر نهج البلاغة، المجلد (٣)، ص ١٧٧.

البصرة ثم تبلورت الحاجة إلى عبد الله بن عباس في الأهواز وكرمان وفارس ومناطق أخرىٰ قريبة منها فاستخلف زياد بن أبيه بدلاً عنه ورحل إلى تلك المناطق.

ولما أبلغ الإمام علي عليه السلام أن زياد يحيف بيت المال والأموال العامة للمسلمين فينال منها ما يزيد عن حقه، كتب إليه ينهره ويغلظ عليه قائلاً في بعض عبارات كتابه:

(.. وإني اقسم بالله قسماً صادقاً لئن بلغني إنك خنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر ضئيل الأمر، والسلام)[1].

استرداد بيت المال:

يروي ابن عباس بأن الإمام علي عليه السلام وفي اليوم الثاني من تسلمه زمام الخلافة، بادر إلى تقسيم بيت المال بالتساوي بين المسلمين فكانوا يتوافدون عليه عليه السلام بأمر منه لاستلام نصيبهم فأمر عليه السلام مسؤول خزانته «عبد الله بن رافع» أن يبدأ بالمهاجرين ويدفع لكل شخص منهم ثلاثة دنانير على أن يواصل تقديم المقدار ذاته للجميع بعد الفراغ من حصة المهاجرين بغض النظر عن العرق ولون البشرة و...

اعترض سهل بن حنيف (وكان غلامه السابق قد استلم مثلما استلم هو) علىٰ أن ذلك الشخص كان حتى الأمس غلامه وقد عتقه وهاهو ينال مثل ما ينال سيده السابق.

أكد له الإمام علي عليه السلام أن حصة الغلام تساوي ما يناله هو (سواء رضىٰ بذلك أم أبىٰ).

هكذا تم دفع ثلاثة دنانير لجميع المسلمين فاعترض البعض من أمثال

---

١ ـ راجع نهج البلاغة، الكتاب (٢٠) وشرح النهج للخوئي، المجلد (١٧)، ص ٣٣٤.

طلحة، الزبير، عبد الله بن عمر، سعيد بن العاص، مروان وغيرهم من قبيلة قريش على التسوية في العطاء وقد اعتادوا في عهد خلافة عثمان أن ينالوا عدة أضعاف ما يناله غيرهم من بيت المال[1].

أنذر هذا الاجراء هؤلاء الأشخاص بأن دورهم سيحل عاجلاً أم آجلاً وسيسلبهم علي عليه السلام كل ما اغتصبوه من أموال دون حق شرعي. فساءهم ذلك واختلوا ببعض ليتآمروا ضد الإمام علي عليه السلام وتناهىٰ نبأ معارضتهم إلى أسماع هذا الرجل الالهي الفذ تدريجياً فتصدىٰ لهم بجدية ووجه نداءه إليهم وإلى جميع معارضي العدل الإلهي على مر التاريخ، قائلاً:

«والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته فإنَّ في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق[2]».

يفسر ابن أبي الحديد العبارة الأخيرة بان «الوالي إذا ضاقت عليه تدبيرات أموره في العدل فهي في الجور أضيق عليه لأن الجائر في مظنة أن يمنع ويصد عن جوره. قال الكلبي: أمر عليه السلام بكل سلاح وجد لعثمان في داره مما تقوىٰ به على المسلمين فقبض وأمر بقبض نجائب كانت في داره من إبل الصدقة فقبضت وأمر بقبض سيفه ودرعه وأمر ألا يعرض لسلاح وجد له لم يقاتل به المسلمون وبالكف عن جميع أمواله التي وجدت في داره وفي غير داره وأمر أن ترتجع الأموال التي أجاز بها عثمان حيث أصيبت أو أصيب أصحابها. فلما بلغ ذلك عمرو بن العاص وكان بأيلة من أرض الشام، أتاها حيث وثب الناس على عثمان فنزلها فكتب إلى معاوية ما كنت صانعاً فاصنع فإذا قشرك ابن أبي طالب من كل مال تملكه كما تقشر عن العصا لحاها[3].

١ـ مقتبس عن شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، المجلد(٧)، ص (٣٥ـ٣٨).

٢ـ نهج البلاغة، الخطبة (١٥).

٣ـ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، المجلد (١)، ص ٢٧٠.

أجل، لقد تابر الإمام علي عليه السلام وبصرامة تامة، على تنفيذ وعوده باستعادة الأموال المستحوذ عليها بطرق غير شرعية وإعادتها إلى أصحابها الحقيقيين دون أخذ أية اعتبارات بالحسبان مما أسخط من كانوا يسمون بكبار القوم والشخصيات البارزة من رجال الحكومة السابقة فأتىٰ على الإمام عليه السلام بمعركة الجمل وتسبب له في مواجهة مضايقات كثيرة وعراقيل لا حصر لها، إلّا أن ذلك لم يثن عزمه ولم يفت عضده لتحقيق ما كان يرنو إليه على أرض الواقع.

حكاية عقيل والحديدة المحماة:

كان لفاطمة بنت أسد أم الإمام علي عليه السلام أربعة أبناء كل منهم يكبر الآخر بعشر سنوات وهم على التوالي: طالب، عقيل، جعفر وعلي.

كان عقيل، ثاني أبناء أبي طالب، رجلاً واسع العقل سريع البديهة ومقداماً قاتل في معركة صفين إلى جانب الإمام علي عليه السلام وكان جميع أبنائه وأحفاده من دعاة الدين وحماته وقد نال فريق منهم يوم عاشوراء في كربلاء، شرف الشهادة في نصرة أبي عبد الله الحسين عليه السلام فلنستمع إلى الإمام علي عليه السلام وهو يتحدث في الخطبة (٢٢٤) من نهج البلاغة إلى ما كان من أمره مع أخيه عقيل:

«والله لقد رأيت عقيلاً وقد أملق حتى استماحني من بُرِّكم صاعاً، ورأيت صبيانه شُعث الشعور، غُبر الألوان من فقرهم كأنما سوِّدت وجوههم بالعظلم، وعاودني مؤكداً. وكرّر عليّ القول مُردِّداً، فأصغيت إليه سمعي، فظنَّ أني أبيعه ديني، وأَتَّبعُ قيادَهُ مُفارقاً طريقتي، فأحميت له حديدة، ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها فضجَّ ضجيج ذي دنف من ألمها. وكاد أن يحترق من ميسمها. فقلت له: ثكلتك الثواكل، يا عقيل! أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه وتجرني إلى نار سَجَرَها جبّارها لِغضبه! أتئن من الأذىٰ ولا أئن من لظى؟...»[1].

هذا من حديث علي عليه السلام عن مجريات الحدث فلنستمع إليها على لسان

١ـ أملق: افتقر والبُّر: الحنطة، وذي دنف: المصاب بمرض ملازم.

عقيل كما ذكرها العالم الشهير ابن أبي الحديد:

«سأل معاوية عقيلاً عن قصة الحديدة المحماة المذكورة فبكىٰ وقال: أنا أحدثك يا معاوية عنه ثم أحدثك عما سألت: نزل بالحسين ابنه ضيف فاستسلف درهماً اشترىٰ به خبزاً واحتاج إلى الإدام فطلب من قنبر خادمهم أن يفتح له زقاً من زقاق عسل جاءتهم من اليمن فأخذ منه رطلاً فلما طلبها عليه السلام ليقسمها قال:

ـ يا قنبر أظن أنه حدث بهذا الزق حدث.

فأخبره فغضب وقال: علي بحسين. فرفع عليه الدرة فقال: بحق عمي جعفر (وكان إذا سُئلَ بحق جعفر سكن. فقال له: ما حملك أن أخذت منه قبل القسمة.

قال: إن لنا فيه حقاً فإذا اعطيناه رددناه.

قال: فداك أبوك وإن كان لك فيه حق فليس لك أن تنتفع بحقك قبل أن ينتفع المسلمون بحقوقهم أما لولا أني رأيت رسول الله يقبل ثنيتك لأوجعتك ضرباً. ثم دفع إلى قنبر درهماً كان مصروراً في ردائه وقال: اشتر به خير عسل تقدر عليه.

قال عقيل: والله لكأني أنظر إلى يدي علي وهي على فم الزق وقنبر يقلب العسل فيه ثم شده وجعل يبكي ويقول: اللهم اغفر لحسين فإنه لم يعلم.

فقال معاوية: ذكرت من لا ينكر فضله رحم الله أبا حسن فلقد سبق من كان قبله وأعجز من ان يأتي بعده هلم حديث الحديدة.

قال نعم أقويت وأصابتني مخمصة شديدة فسألته فلم تَند صفاته فجمعت صبياني وجئته بهم والبؤس والضر ظاهران عليهم فقال أئتني لأدفع إليك شيئاً فجئته يقودني أحد ولدي[1] فأمره بالتنحي ثم قال ألا فدونك فأهويت حريصاً قد غلبني الجشع أظنها صرة فوضعت يدي على حديدة تلتهب ناراً

---

١ ـ كان عقيل بن أبي طالب يناهز الثمانين من عمره آنذاك.

فلما قبضتها نبذتها وخرت كما يخور الثور تحت يد جازره. فقال لي: ثكلتك أمك هذه من حديدة أوقدت لها نار الدنيا فكيف بك وبي غداً إن سلكنا في سلاسل جهنم ثم قرأ:

﴿إذ الأغلالُ في أعناقهم والسلاسلُ يسحبون..﴾.

ثم قال: ليس لك عندي فوق حقك الذي فرضه الله لك إلّا ما ترىٰ فانصرف الى أهلك.

فجعل معاوية يتعجب ويقول:

(هيهات، هيهات، عقمت النساء أن يلدن مثله)[1].

وفي عهده إلى مالك الأشتر كتب الإمام علي عليه السلام:

«... ولكنني آسىٰ أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً والصالحين حرباً والفاسقين حِزباً فإن منهم الذي شرب فيكم الحرام وجلد حداً في الإسلام[2] وإن منهم من لم يسلم[3] حتى رضخت له على الاسلام الرضائخ[4] فلولا ذلك ما أكثرت تأليبكم وتأنيبكم وجمعكم وتحريضكم ولتركتم إذ أبيتم وونيتم»[5].

وأنبئ ذات مرة بأن أحد عماله استأثر بالمحاصيل الزراعية دون الرعية واستحوذ على أموال وممتلكات بيت المال وادخرها لنفسه، فكتب له يذمه

١ـ شرح نهج البلاغة، المجلد (١١)، ص (٢٥٣).

٢ـ جلد في الإسلام حداً: يروىٰ أن رجلاً من بني أمية يدعىٰ مغيرة بن شعبة ولاه عمر على الكوفة. في يوم من الأيام أم الناس في صلاتهم وقد ثمل لكثرة ما أصاب من الشراب، فزاد في ركعاتها وآل أمره إلى التقيؤ في المحراب فأجري فيه الحد إثر ذلك.

٣ـ لم يسلم: مثل أبي سفيان ومعاوية.

٤ـ الرضائخ: عطاء قليل كان يدفع للكفار من أجل تأليف القلوب واستجلاب التوافق وكسب دعمهم للاسلام والمسلمين.

٥ـ نهج البلاغة.

ويحاسبه:

«اما بعد فقد بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد اسخطت ربك وعصيت إمامك وأخزيت أمانتك، بلغني أنك جردت الأرض فأخذت ما تحت قدميك وأكلت ما تحت يديك فارفع إليَّ حسابك واعلم أنّ حساب الله أعظم من حساب الناس، والسلام».

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطاً فما فوقه كان غلولاً يأتي به يوم القيامة»[1].

عن حفص بن غياث قال: سمعت أبا عبد الله يقول وسُئل عن قسم بيت المال: أهل الإسلام هم أبناء الإسلام أسَوِّي بينهم في العطاء، أجعلهم كبني رجل واحد لا يفضل أحد منهم لفضله وصلاحه في الميراث على آخر ضعيف منقوص.

قال: وهذا هو فعل رسول الله في بدو أمره وقال غيرنا: أُقدِّمُهُم في العطاء بما قد فضلهم الله بسوابقهم في الإسلام[2].

وبعد ثبوت خيانة المنذر بن الجارود العبدي في ولاية فارس كتب إليه أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«. تعمر دنياك بخراب آخرتك وتصل عشيرتك بقطيعة دينك. ولئن كان ما بلغني عنك حقاً لَجَمَلُ أهلك وشِسع نَعلِكَ خير منك ومن كان بصفتك فليس بأهل أن يسد به ثغر أو ينفذ فيه أمر أو يعلىٰ له قدر، أو يشرك في أمانة، أو يؤمن على جباية فأقبل إليّ حين يصل إليك كتابي هذا»[3].

والمنذر بن الجارود هذا هو الذي قال فيه أمير المؤمنين عليه السلام: «إنه لنظار في

١ـ صحيح مسلم، الجلد (٢)، ص ١٢٧.

٢ـ وسائل الشيعة، الجلد (١١)، ص (٨١).

٣ـ نهج البلاغة، الكتاب (٧١).

عطفيه، مختال في برديه، نفّال في شراكيه» (أي ينفض في سير نعليه لينفض عنها التراب).

قال الإمام الحسين عليه السلام:

«إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: دعاء إلى الإسلام مع رد المظالم ومخالفة الظالم وقسمة الفيء والغنائم وأخذ الصدقات من مواضعها ووضعها في حقها»[1].

ولما عوتب[2] الإمام عليه السلام على التسوية في العطاء بين السباقين إلى الإسلام، والمقاتلين وأشراف القبائل من جهة وسائر المسلمين من جهة أخرى، في وقت كان معاوية يستقطب فيه السذج بما يغدقه عليهم من مال، قال:

«أتأمروني أن أطلب النصر بالجور في من وليت عليه؟

والله لا أطور به ما سمر سمير وما أمّ نجم في السماء نجماً، لو كان المال لي لسويت بينهم فكيف وإنما المال مال الله؟»[3].

***

استعرض معلى بن خنيس وهو يجالس الإمام أبا عبد الله الصادق عليه السلام النعم التي كان بنو عباس فيها وراح يقول ان هذه النعماء لو كرست للإمام لكانوا سيهنأون بالعيش إلى جانبه. فرد عليه أبو عبد الله عليه السلام قائلاً:

«هيهات يا معلىٰ، أما والله لو كان ذاك ما كان إلّا سياسة الليل وسياحة النهار ولبس الخشن وأكل الجَشِب»[4].

أجل، والله لقد أثبت ذلك الإمام علي عليه السلام إبان خلافته فما كان حظه منها

١ـ تحف العقول، ص (٢٧٠).

٢ـ من قبل أمثال طلحة والزبير و...

٣ـ نهج البلاغة، الخطبة (١٢٦).

٤ـ أصول الكافي، المجلد (٢)، ص (٢٧٣).

إلّا إدارة دفة السياسة في الليل والعمل والمثابرة في النهار والخشن من الملبس والجَشب[1] من المأكل.

وقال الرضا عليه السلام:

«. والبراءة من الذين ظلموا آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم والبراءة من الناكثين والقاسطين والمارقين والبراءة من أهل الاستئثار»[2].

وبعد انتصاب النجاشي على ولاية الأهواز، وافى الإمام الصادق عليه السلام بكتاب يستفتيه حول تطبيق الأحكام الالهية، فرد عليه عليه السلام:

«إياك أن تعطي درهماً أو تخلع ثوباً أو تحمل على دابة في غير ذات الله لشاعر أو مضحك أو ممتزج إلّا أعطيت مثله في ذات الله»[3].

وعن علي عليه السلام:

«ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم، من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمنى، فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً. واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت المال وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد...»[4].

وقال عليه السلام:

ما بالكم لا سددتم لِرشد! ولا هديتم لقصد! في مثل هذا ينبغي لي أن اخرج؟ وإنما يخرج في مثل هذا رجل ممن أرضاه من شجعانكم وذوي بأسكم ولا ينبغي لي أن أدع الجند والمصر وبيت المال وجباية الأرض والقضاء بين المسلمين والنظر في حقوق المطالبين ثم اخرج في كتبة اتبع أخرى»[5].

١ـ الجشب من الطعام: الغليظ غير المأدوم.

٢ـ عيون أخبار الرضا، المجلد (٢)، ص ١٢٦.

٣ـ المكاسب المحرمة، الشيخ الانصاري، ص (٦٠).

٤ـ نهج البلاغة، الكتاب (٥٣).

٥ـ نهج البلاغة، الخطبة (١١٩).

قال الإمام علي عليه السلام في كتاب بعث به إلى ابن عباس:

«أما بعد، فلا يكن حظك في ولايتك ما لا تستفيده ولا غيضاً تشتفيه ولكن إماتةُ باطل وإحياء حقٍّ»[1].

قال الإمام السجاد:

«وأما حق المال: فإن لا تأخذه إلّا من حلّه ولا تنفقه إلّا في حله ولا تحرّفه عن مواضعه ولا تصرفه عن حقائقه ولا تجعله إذا كان من الله إلّا إليه وسبباً إلى الله»[2].

قال علي عليه السلام:

«جود الولاة بفيء المسلمين جور وخَتر»[3].

قال أمير المؤمنين عليه السلام لعمر بن الخطاب:

«ثلاث إن حفظتَهُن وعملت بهن كفتك ما سواهن وان تركتهن لم ينفعك شيء سواهن.

قال: وما هن يا أبا الحسن؟

قال:

إقامة الحدود على القريب والبعيد،

والحكم بكتاب الله في الرضا والسخط

والقِسم بالعدل بين الأحمر والأسود»[4].

***

١ـ بحار الأنوار، المجلد (٤٠)، ص (٣٢٨).

٢ـ تحف العقول، ص (١٩١).

٣ـ ميزان الحكمة، المجلد (١٠)، ص (٧٤٥). (الختر: الخديعة والخيانة).

٤ـ وسائل الشيعة، المجلد (١٨)، ص (١٥٦).

الفصل السادس

الغصب وآثاره

حرمة الغصب:

الغصب هو الاستحواذ ظلماً على مال الغير أو حقه. ويعتبر الغصب من الكبائر التي يتعرض المبادر إليها لعذاب عسير في يوم القيامة وقد أنذر رسول الله ﷺ من يغتصب شبراً من ارض غيره بأن تطوق تلك الأرض في مثل سبع طبقاتها رقبته في يوم القيامة[١].

جزاء الغصب:

عن الصادق عليه السلام لما سئل عمن أخذ أرضاً بغير حقها وبني فيها، قال:

«يرفع بناؤه وتسلم التراب إلى صاحبها. ليس لعرق ظالم حق»[٢].

وقال الإمام علي عليه السلام:

«الحجر الغصيب في الدار رهن على خرابها»[٣].

قال رسول الله ﷺ:

«من اقتطع مال مؤمن غصباً بغير حق لم يزل الله مُعرضاً عنه ماقتاً لأعماله التي يعملها من البر والخير لايثبتها في حسناته حتى يتوب ويُرَدُّ المال الذي أخذه إلى صاحبه»[٤].

١ـ توضيح المسائل، أحكام الغصب.

٢ـ وسائل الشيعة، المجلد (١٧)، ص (٣١١) وميزان الحكمة، غصب.

٣ـ نهج البلاغة، الحكمة (٢٤٠)، يقول السيد الرضي (ره) في كتاب نهج البلاغة: يروى هذا الكلام عن النبي (ص) أيضاً، ولا عجب أن يشتبه الكلامان لأن مستقاهما من قليب ومفروغهما من ذنوب (القليب: البئر القديمة والذنوب بفتح الذال: الدلو العظيمة).

٤ـ مستدرك الوسائل: ١٧/٨٩/ ٢٠٨٢٣.

وعن الإمام المهدي (عج):

«لا يحل لأحد أن يتصرف في مال غيره بغير إذنه»[1].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«من غصب رجلاً أرضاً ظلماً لقي الله تعالىٰ وهو عليه غضبان[2]».

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«إنه لا يقتطع رجلٌ مالاً إلّا لقي الله عز وجل يوم القيامة وهو أجذم»[3].

وعنه أيضاً:

«لا يحل لامرئ مسلم أن يأخذ مال أخيه بغير حقه وذلك لما حرَّم الله عز وجل مال المسلم على المسلم»[4].

وقال الصادق عليه السلام:

«أربعة لا يجزن في أربع: الخيانة والغلول والسرقة والربا، لا يجزن في حج ولا عمرة ولا جهاد ولا صدقة»[5].

وعن الإمام علي عليه السلام، أنه قال:

«والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً أو أجر في الأغلال مصفداً أحبّ إليَّ من أن ألق الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشيء من الحطام!.

والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة اسلبها جِلب (حَمَلَة) شعيرة ما فعلته[6]».

١ـ وسائل الشيعة: ١٧/٣٠٩/ ٤.

٢ـ كنز العمال: (٣٠٣٦٦).

٣ـ كنز العمال: (٣٠٣٤٢).

٤ـ المصدر نفسه: (٣٠٣٤٣).

٥ـ الفروع من الكافي: ٥/١٢٤/ ٢.

٦ـ نهج البلاغة، الخطبة (٢٢٤).

الفصل السابع

الخيانة وآثارها

الآية الأولىٰ:

﴿وما كان لنبي أن يَغُلَّ ومن يغلل يأتِ بما غل يوم القيامة ثم توفىٰ كل نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون﴾[1].

الخيانة ممنوعة مطلقاً:

بالنظر إلى الآية السابقة التي نزلت بعد الآيات المتعلقة بواقعة «أحد» ومع أخذ رواية، نقلها جمع من مفسري الصدر الأول، بنظر الاعتبار، تعد هذه الآية رداً على بعض التعللات الواهية، التي تمسك بها بعض المقاتلين، وتوضيح ذلك هو: أن بعض الرماة عندما أرادوا ترك مواقعهم الحساسة في الجبل لغرض جمع الغنائم، أمرهم قائدهم بالبقاء فيها، لأن الرسول لن يحرمهم من الغنائم، ولكن تلك الجماعة الطامعة في حطام الدنيا أتخذت لذلك عذراً يخفي حقيقتهم الواقعية، إذ قالوا: نخشىٰ أن يتجاهلنا النبي عند تقسيم الغنائم فلابد لنا أن نبادر لذلك بأنفسنا. قالوا هذا وأقبلوا على جمع الغنائم تاركين مواقعهم التي فوض إليهم الرسول ﷺ بأمر حراستها فوقع ما وقع من عظائم الأمور وجلائل المصائب.

فجاء القرآن يرد على زعمهم وتصورهم هذا فقال: ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾[2] أي انكم تصورتم وظننتم أن النبي يخونكم، والحال أنه ليس لنبي أن

---

1 ـ سورة آل عمران، الآية (١٦١).

2 ـ الغلول تعني الخيانة، وأصله التغلغل التدريجي والخفي للماء في جذور الأشجار وسميت الخيانة غلولاً

يغل ويخون أحداً.

إن الله سبحانه ينزه في هذه الآية جميع الأنبياء والرسل من الخيانة، ويقول إن هذا الأمر لا يصلح -أساساً- للأنبياء ولا يتناسب إطلاقاً مع مقامهم العظيم.

يعني أن الخيانة لا تتلاءم مع النبوة فإذا كان النبي خائناً لم يمكن إيلاءه الثقة في أداء الرسالة وتبليغ الأحكام الإلهية.

لا يخفىٰ أن هذه الآية تنفي عن الأنبياء مطلق الخيانة سواء الخيانة في قسمة الغنائم أو حفظ أمانات الناس وودائعهم، أو أخذ الوحي وتبليغه للعباد.

ومما يثير العجب أن يثق أحد بأمانة النبي في الحفاظ على وحي الله وتبليغه وأدائه، ثم يتوقع -لا سامح الله- أن يخون النبي في غنائم الحرب، أو يقصي بما ينأى عن الحق، ويحرم أهلها منها دون سبب. غني عن التوضيح أن الخيانة محظورة على كل شخص نبياً كان أو غير نبي. ولكن بما أن الكلام هنا يدور حول اعتذار تلك الجماعة المتمردة وتصوراتهم الخاطئة حول النبي الكريم ﷺ، لذلك تتحدث الآية عن الأنبياء أولاً، ثم تقول: ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾ أي أن كل من يخون سيأتي يوم القيامة وهو يحمل وثيقة خيانته أو يصحبه معه إلى المحشر. وهكذا يفتضح أمام الجميع وتنكشف أوراقه.

قال بعض المفسرين أن المراد من حمل الخيانة أو اصطحاب ما غل يوم القيامة ليس هو أنه يحمل كل ذلك حملاً أو يصطحبه اصطحاباً حقيقياً معه يوم القيامة بل المراد هو أنه يتحمل المسؤولية المترتبة على خيانته ولكن بالنظر الى مسألة «تجسم الأعمال» في يوم القيامة لا يبقىٰ أي مبرر ولا أي داع لهذا التفسير، بل -وكما يدل عليه ظاهر الآية ويشهد به- يأتي الخائن وهو يحمل

- لأنها تتم بشكل تدريجي وخفي ولهذا بالذات تسمى الحرارة الباطنية الناشئة عن العطش «الغليل».

عين ما غل كوثيقة حية تشهد على خيانته وغلوله أو يستصحبها معه.

﴿ثم توفىٰ كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ يعني أن الناس يجدون عين أعمالهم هناك، ولهذا فهم لا يظلمون لأنهم ينالون ما كسبه بأنفسهم خيراً كان أو شراً.

ولقد أثّرت الآية السابقة والأحاديث التي صدرت عن النبي ﷺ وهي تذم الخيانة والغلول في المسلمين ولعبت دوراً عجيباً في تنشئتهم حتى أنهم ـ إثر هذه النشأة ـ لم يصدر عنهم أية خيانة وأدنىٰ غلول في غنائم الحرب أو الأموال العامة، إلى درجة أنهم كانوا يأتون بالغنائم الغالية الثمن، الصغيرة الحجم رغم سهولة إخفائها، إلى النبي، أو القادة من بعده دون أي تصرف فيها، الأمر الذي يدعو إلى الدهشة، والإكبار والعجب.

لقد ارتقى هؤلاء العرب القساة، الجفاة، المغيرون، السلابون، قطاع الطرق في الجاهلية ـ وبفضل التعاليم الاسلامية ـ سلم التكامل حتى بلغوا قمة الصلاح والاستقامة. وكأنهم صاروا يرون مشاهد القيامة بأم أعينهم، كيف يقدم الخائنون في الأموال والأمانات إلى المحشر وهم يحملون على أكتافهم وظهورهم ما غلوه وأبوا الخيانة فيه[1].

قال علي عليه السلام لكميل بن زياد:

«يا كميل! إفهم واعلم أنا لا نرخص في ترك الأمانة لأحد من الخلق، فمن روىٰ عني في ذلك رخصة فقد أبطل وأثم وجزاؤه النار بما كذب. أقسم لسمعت رسول الله ﷺ يقول لي قبل وفاته بساعة مراراً ثلاثة: يا أبا الحسن أد الأمانة إلى البر والفاجر فيما جل وقل حتى الخيط والمخيط.

كتب الطبري في تاريخه أنه لما هبط المسلمون بالمدائن، وجمعوا الأقباض (الغنائم) أقبل رجل يحمل غنيمة ثمينة للغاية وسلمها إلى المسؤول عن الغنائم

---

١ ـ تفسير الأمثل، المجلد (٢)، ص ٥٨٨ ـ ٥٦٠.

«فقال الذين معه ما رأينا مثل هذا قط ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه. فقالوا: هل أخذت منه شيئاً؟ فقال: أما والله لولا الله ما آتيتكم به. فعرفوا أن للرجل شأناً، فقالوا من أنت؟ فقال: والله لا أخبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليقرظوني ولكني أحمد الله وأرضىٰ بثوابه»[1].

الإنذار القرآني الثاني حول الخيانة:

﴿إنا أنزلنا إليكَ الكتابَ بالحقِ لتحكمَ بين الناسِ بما أراكَ اللهُ ولا تكُن للخائنينَ خصيماً. واستغفر اللهَ إن اللهَ كان غفوراً رحيماً﴾[2].

تذكر في سبب نزول الآيتين المذكورتين واقعة مفصلة خلاصتها أن في قبيلة بني الأبيرق المعروفة نسبياً كان ثلاثة إخوة هم «بشر» و «بشير» و «مبشر» سطا أحدهم وهو «بشير» على دار أحد المسلمين ويدعىٰ «رفاعة» فسرق سيفه ودرعه وكمية من الغذاء. وكان ابن أخيه ويدعىٰ «قتادة» من مجاهدي بدر فأخبر النبي ﷺ بالواقعة.

ولكن الإخوة الثلاثة اتهموا شخصاً من المسلمين اسمه «لبيد» وكان يسكن معهم في دار واحدة. فاستشاط لبيد غضباً من هذه التهمة الباطلة واستل سيفه وخرج إلى الإخوة الثلاثة صارخاً: يا بني ابيرق! أترمونني بالسَرَق وأنتم أولىٰ به مني. وأنتم منافقون تهجون رسول الله وتنسبون ذلك إلى قريش. لتبينن ذلك أو لأضعن سيفي فيكم».

فلما رأى إخوة السارق ذلك حاولوا استرضاء «لبيد» ولكنهم لما علموا أن الخبر قد وصل إلى أسماع النبي بواسطة «قتادة» لجؤوا إلى أحد خطباء قبيلتهم وطلبوا منه أن يذهب برفقة جماعة من الناس إلى النبي ويتظاهر بأن الحق إلى جانبهم ليبرئ السارق ويتهم «قتادة» بتلفيق التهمة على شقيقهم، وقد قبل

١ـ تاريخ الطبري، المجلد (٣)، ص (١٢٨).

٢ـ سورة النساء، الآيتان (١٠٥ـ١٠٦).

النبي ﷺ ـ استناداً إلى ضرورة العمل بظاهر الأمور ـ شهادة تلك الجماعة وأنّب «قتادة» على عمله.

استاء «قتادة» من هذه الواقعة وكان بريئاً مما أتُّهم به وعاد إلى عمه وأخبره بالحادث مظهراً أسفه الشديد لما حصل، فخفف عليه عمه وقال: «لا تحزن يا قتادة إن الله في عوننا» فنزلت الآيتان المذكورتان لتعلنا براءة الرجل وتؤنبا مرتكبي الخيانة الحقيقيين.

وتذكر ـ أيضاً ـ واقعة أخرى في سبب نزول الآيتين، وهي أن درعاً لأحد الأنصار كانت قد سرقت في إحدى الحروب، وكان الشك يدور حول شخص من «بني أبيرق» في سرقة ذلك الدرع. ولما علم السارق بأن الشكوك تحوم حوله رمى الدرع في دار أحد اليهود، وطلب من قبيلته أن يشهدوا ببراءته عند رسول الله ﷺ ويستدلوا على ذلك بوجود الدرع في دار اليهودي. ولما رآى النبي ﷺ الوضع على تلك الحال برأ هذا السارق بحسب ظاهر الشهادة التي جاءت لصالحه وأدين اليهودي بسرقة الدرع، فنزلت هاتان الآيتان لتوضحا الحقيقة.

الصد عن دعم الخونة:

يذكّر الله سبحانه وتعالى ـ في بداية الآية (١٠٥) من سورة النساء ـ نبيه محمداً ﷺ بأن الهدف من إنزال هذا الكتاب السماوي هو تطبيق مبادئ الحق والعدالة بين الناس، إذ تقول الآية: ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله...**﴾.

ثم يحذر النبي ﷺ من دعم الخونة بقوله: ﴿**ولا تكن للخائنينَ خصيماً**﴾. ومع أن الآية تخاطب النبي ﷺ ولكن مما لا شك فيه هو أن الحكم حكم عام لجميع القضاة والحكام. ولهذا فمثل هذا الخطاب لا يدل على أن النبي ﷺ قد تبدر منه مثل هذه الأعمال. لأن الحكم المذكور يشمل جميع الأشخاص.

أما الآية التالية فإنها تأمر النبي ﷺ بطلب المغفرة من الله وسيناها لأن الله غفور رحيم: ﴿واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً﴾.

وحول سبب الاستغفار في هذه الآية توجد احتمالات عديدة هي:

الأول: أن الاستغفار هو لترك الأولى الذي حصل بسبب التعجل في إصدار الحكم في القضية التي نزلت في شأنها الآيتان، أي مع أن ذلك القدر من الاعتراف، وشهادة الطرفين كان كافياً لإصدار الحكم من قبل النبي ﷺ إلّا أنه كان الأحرىٰ أن يجري تحقيقاً أكثر في هذا السياق.

والثاني: هو أن النبي قد حكم في تلك القضية وفقاً لقوانين القضاء الإسلامي. وبما أن الأدلة التي جاء بها الخونة كانت بحسب الظاهر أقوى، لذلك كسبوا القضية. وبعد انكشاف الحقيقة واثبات براءة صاحب الحق يأتي الأمر بطلب المغفرة من الله، ليس لذنب مرتكب بل لتعرض حق فرد مسلم إلى الضياع بسبب خيانة البعض من الأشخاص (اي أن الاستغفار مطلوب ـ كما يقال ـ لأجل الحكم الحقيقي لا الحكم الظاهري).

وقد احتمل البعض أن يكون الاستغفار مطلوباً من طرفي الدعوى، اللذين ظهر منهما الخلاف في عرض ومتابعة دعواهما.

وفي حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي بنحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من نار»[١].

يتبين لنا من هذا الحديث أن النبي ﷺ مكلف بالحكم وفقاً لظاهر القضية واستناداً إلى أدلة طرفي الدعوى، وبديهي أن الحق في مثل هذه الحالة يصل إلى صاحبه ولكن يحتمل أحياناً أن لا ينطبق ظاهر الدليل وشهادة الشهود مع الحقيقة، فيجب الانتباه هنا إلى أن حكم الحاكم لا يغير من الحقيقة

---

١ ـ تفسير المنار، الجزء الخامس، ص ٣٩٤، نقلاً عن صحيحي مسلم والبخاري.

شيئاً فلا يصبح الحق باطلاً ولا الباطل حقاً.

﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم، إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً.
يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضىٰ من القول، وكان الله بما يعملون محيطاً.

ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً﴾[1].

بعد التعليمات السابقة حول تحريم دعم الخونة، تستطرد الآيات الثلاث التالية الحديث حول التشديد على حرمة دعم الخائنين، لا سيما الذين يخونون أنفسهم.

الجدير بالذكر أن الآية (١٠٧) تشير إلى الذين يخونون أنفسهم، بينما الذي عرفناه من سبب نزول الآيات السابقة، هو أنها نزلت في شأن الذين يخونون الغير، وفي هذا إشارة إلى ذلك المفهوم الرائع الذي ينبه إليه القرآن مراراً وهو أن أي عمل يصدر عن الإنسان يتأثر هو نفسه قبل غيره بمردوده ـ سواء كانت حسنة أو سيئة ـ، كما جاء في الآية ٧ من سورة الإسراء، إذ تقول: ﴿إن أحسنتُم أحسنتُم لأنفسكم وإن اسأتم فلها﴾.

إذ أن الآية المذكورة تشير إلى موضوع آخر أكد عليه القرآن أيضاً، وهو أن جميع أعضاء المجتمع البشري هم كأعضاء جسد واحد، فإذا أضر أحدهم بغيره فكأنما أضر نفسه، أي يكون بالضبط كمن يصفع نفسه بيده.

والأمر الآخر في الآية هو أنها لا تخص الذين يرتكبون الخيانة لأول مرة ثم يندمون على ما فعلوا، حيث لا ضرورة لاستخدام العنف والشدة مع هؤلاء، بل هم بحاجة إلى الرأفة أكثر، والشدة يجب أن تطبق على أولئك الذين يحترفون الخيانة باعتبارها جزء من نهجهم في الحياة.

---

١ ـ سورة النساء، الآيات (١٠٧ ـ ١٠٩).

وتدل على ذلك الإشارة الواردة في الآية من خلال لفظة «يختانون» التي هي فعل مضارع يفيد معنى الاستمرارية، بالاضافة إلى الإشارة الأخرى التي تفهم من عبارتي «خوّان» أي كثير الخيانة و «أثيم» أي المتطبع على اتيان الإثم. والكلمة الأخيرة جاءت لتأكيد عبارة «خوان» في الآية، كما أن الآية السابقة جاءت بكلمة خائن التي هي اسم فاعل ذو معنى وصفي يدل على تكرار الفعل.

لقد تعرض الخائنون في الآية الأخرىٰ إلى التوبيخ، حيث قال أن هؤلاء يستحيون أن تظهر بواطن أعمالهم وسرائرهم وتنكشف أمام الناس ولكنهم لا يستحيون لجلائها أمام الله سبحانه وتعالى. إذ تقول الآية: ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله..﴾.

إن هؤلاء لا يتورعون عن تدبير الخطط الخيانية في ظلام الليل، والتحدث بما لا يرضي الله الذي يراهم ويراقب أعمالهم، أينما كانوا: ﴿وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضىٰ من القول وكان الله بما يعملون محيطا﴾، بعد ذلك تتوجه الآية (١٠٩) من سورة النساء بالحديث عن قبيلة شخص السارق الذي تم الدفاع عنه وتقول بأنه على فرض ان يتم الدفاع عن هؤلاء في الدنيا فمن سيعمل على تغطية ذنوبهم في يوم القيامة، او من يقدر ان يكون لهؤلاء محامياً لينسق اعمالهم ويحل مشاكلهم؟ حيث تقول الآية: ﴿ها أنتم هؤلاء تجادلون عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً﴾.

إن الدفاع عن هؤلاء الخونة في الدنيا أمر لا يترتب عليه مردود كبير لأنهم سوف لا يجدون أبداً من يدافع عنهم أمام الله في الحياة الأخرى الخالدة.

والحقيقة هي أن الآيات الثلاث الأخيرة تحمل في البداية ارشادات إلى النبي ﷺ وإلى كل قاض يريد أن يحكم بالعدل، بأن يتنبهوا إلى هذه الأمور ليفوتوا الفرصة على أولئك الذين يريدون انتهاك حقوق الآخرين عبر المشاهد المفتعلة والشهود الواهين.

بعد ذلك تحذر الآية الخونة ومن ثم المدافعين عنهم بأن ينتظروا عواقب

سيئة لأعمالهم في هذه الدنيا وفي الآخرة أيضاً.

وفي تلك الآيات سر من أسرار البلاغة القرآنية، حيث أنها أحاطت بجميع جوانب القضية وأدلت بالإشارات والتحذيرات اللازمة في جميع الحالات، وإن كانت القضية وكما يبدو من ظاهرها قضية صغيرة تدور مثلاً حول درع مسروقة أو مواد غذائية أو أنها تتعلق بيهودي وعدو من أعداء الله، فوجهت الآية خطابها إلى النبي ﷺ الذي يعتبر إنساناً مصوناً من الخطأ وكذلك إلى الأفراد الذين يحترفون الخيانة أو الذين يدافعون عن الخائنين إندفاعاً وراء عصبيات قبلية، ضمن إشارات تتناسب مع مكانة الأشخاص المشار إليهم في هذه الآيات.

الانذار القرآني الثالث حول الخيانة:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون. واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم﴾[(١)].

وردت عدة روايات حول سبب نزول هاتين الآيتين، منها ما ورد عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام من أن النبي ﷺ أمر بمحاصرة يهود (بني قريضة) واستمرت هذه المحاصرة واحداً وعشرين يوماً، حتى أجبروا على المطالبة بالصلح، كما جرى ذلك مع يهود بني النضير، وذلك بأن يرحلوا عن أرض المدينة إلى أرض الشام، لكن النبي ﷺ رفض ذلك العرض (لعله كان يشك في صدق نواياهم)، وأمرهم أن ينصاعوا لحكم (سعد بن معاذ). لكنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يرسل إليهم (أبا لبابة) وهو من أصحاب النبي ﷺ في المدينة، وكانت له صداقة قديمة معهم، وكانت عائلته وأبناؤه وأمواله عندهم.

قبل النبي ﷺ طلبهم وأرسل (أبا لبابة) إليهم فاستشاروه في القبول

---

١ ـ سورة الأنفال، الآيتان (٢٧ و ٢٨).

بتحكيم (سعد بن معاذ) فاشار أبو لبابة بيده إلى حلقة، أي أنه الذبح فلا تفعلوا، فهبط أمين الوحي جبرائيل عليه السلام فأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذلك.

يقول أبو لبابة: ما زالت قدماي في مكانهما حتى عرفت أني قد خـنت الله ورسوله. فنزلت هذه الآيات في أبي لبابة. وقد عاد أبو لبابة معلناً ندمه الشديد وأتى بحبل وشد نفسه إلى سارية من سواري مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقال: «والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليَّ»، فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً حتى خرّ مغشياً عليه ثم تاب الله عليه فقيل له يا أبا لبابة قد تيب عليك فقال: لا والله لا أحل نفسي حتى يكـون رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي يحلني فجاءه فحله بيده.

قال أبو لبابة: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: يجزئك الثلث ان تصدّق به.

وقد جاء هذا المضمون نفسه في كتب السنة حـول سـبب النزول. إلّا أن بعضهم استبعد النزول في شان (بني قريضة)، لأن سابقاتها من الآيات تتعلق بحادثة بدر، ولأن هذه القضية لم تقع إلّا بعد فترة طويلة من واقعة بـدر، لذا قالوا بان المقصود في الروايات هو أن حادثة بني قريضة من مصاديق الآيـة وليس المقصود منها. ومثل هذه الحالة تكثر الإشارة إليها في شأن نزول آيات القرآن الكريم.

فقد جاء في بعض الكتب نقلاً عن بعض الصحابة أن الآية الفلانية قد نزلت في قتل عثمان فيما أن قتل عثمان قد حدث كما نعلم بعد سنين طويلة من وفـاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ويرد هذا الاحتمال أيضاً وهو أن الآية قد نزلت في بني قريضة ولأنها كانت تتناسب والآيات النازلة في قضية بدر، فقد أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإلحاقها بـتلك الآيات.

الخيانة ومنطلقها:

يوجه الله سبحانه وتعالىٰ في الآية الأولى من الآيات محل البحث، الخطاب إلى المؤمنين فيقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله ورسوله﴾.

إن الخيانة لله ورسوله تتمثل باطلاع أعدائهم على الأسرار العسكرية للمسلمين أو تقوية الأعداء أثناء محاربتهم، أو بصورة عامة الصدوف عن الاهتمام بالواجبات والمحرمات والأوامر الالهية. ولذلك فقد أكد ابن عباس بأن من يترك شيئاً من الأوامر والتعاليم الإسلامية فقد ارتكب خيانة بحق الله ورسوله. ثم تقول الآية: ﴿وتخونوا أماناتكُم﴾[1].

و (الخيانة) في الأصل معناها: الامتناع عن دفع حق أحد مع التعهد به. وهي عكس (الأمانة). والأمانة وإن كانت تطلق على الأمانة المالية عادة. لكنها في منطق القرآن ذات مفهوم أوسع يشمل شؤون الحياة الاجتماعية والسياسية والأخلاقية عامة. ولذلك جاء في الأحاديث: (المجالس بالأمانة).

ونقرأ في حديث آخر: (إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة). ومن ذلك تكون أرض الإسلام أمانة إلهية بأيدي المسلمين وأبنائهم أيضاً. وفوق كل ذلك فإن القرآن المجيد وتعاليمه كل ذلك يعد امانة إلهية كبرى.

وذهب بعضهم إلى أن أمانة الله هي أوامره، وأمانة النبي صلى الله عليه وآله وسلم سنته، وأمانة المؤمنين أموالهم وأسرارهم، ولكن الأمانة في الآية ـ آنفاً ـ تشتمل على كل ذلك.

على أية حال فإن الخيانة في الأمانة من أبغض الأعمال وأقبح الذنوب. فإن من يخون الأمانة منافق في واقع حاله. كما ورد في الحديث عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، حيث قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا

---

١ ـ «تخونوا» في الأصل «لا تخونوا» وقد حذفت «لا» بقرينة الجملة السابقة.

ائتمن خان، وإن صام وصلىٰ وزعم أنه مسلم».

كما أن اتقاء شر الخيانة في الأمانة يُعد من الحقوق والواجبات الإنسانية، حتى إذا كان صاحب الأمانة غير مسلم فلا تجوز خيانة أمانته.

ويقول القرآن في آخر الآية: ﴿وأنتم تعلمون﴾. أي أنه قد يصدر منكم على نحو الخطأ ما هو خيانة ولكن لا تُقدموا على الخيانة وأنتم تعلمون. فإن عملاً كعمل (أبي لبابة) لم يكن لجهل أو خطأ، بل بسبب الحب المفرط للمال والبنين وحفظ المصالح الشخصية، والذي قد يطغي في لحظة حساسة على وعي الإنسان وكأنه لا يرى بعينيه ولا يسمع بأذنيه... فيخون الله ورسوله، وهذه في الحقيقة خيانة مع العلم؛ والمهم أن يثب الإنسان إلى رشده بسرعة كما فعل (أبو لبابة) ليستدرك خطأه الماضي.

والآية التالية تحذر المسلمين ليتجنبوا حب الماديات والمنافع العابرة، لئلا تلقي على عيونهم وآذانهم غشاوة فيسقطون في الخيانة التي تهدد مصير المجتمع بالخطر فتقول: ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾.

وكلمة (فتنة) ـ كما ذكرنا ـ تأتي في مثل هذه الحالات بمعنى الاختبار. والحقيقة أن أهم أداة لاختبار الايمان والكفر والشخصية وانعدامها ومدى تمسك الأشخاص بالقيم الإنسانية هو هذان الأمران (المال والأولاد).

فنمط جمع المال ونمط إنفاقه والمحافظة عليه ومدى التعلق به، كلها ميادين لاختبار البشر، فكم من أناس يلتزمون بشدة بأداء العبادات وشعائر الله بل حتى المستحبات ويتمظهرون بظاهر إيماني، لكنهم إذا ما ابتلوا بقضية مالية، تراهم ينسون كل شيء ويدعون الأوامر الالهية وقضايا الحق والعدل والإنسانية جانباً.

أما حول الأبناء الذين هم قرة عين الإنسان وبراعم حياته المتفتحة فإننا نرى الكثير من الناس المتمسكين بالدين والقضايا الانسانية والأخلاقية في ظاهر الأمر، عندما يرتبط موضوع ما بأبنائهم فكأن ستاراً يسدل على

أفكارهم فينسون كل هذه القضايا ويصير حبهم لأبنائهم سبباً ليُحلّوا الحرام ويحرموا الحلال. ومن أجل ضمان مستقبل أبنائهم يسحقون كل حق ويقدمون على كل منكر. فيجب علينا الاعتصام بالله العظيم في هذين المجالين العظيمين للاختبار، وأن نحذر بشدة، فكم من أناس انزلقت أقدامهم وسقطوا فيهما، وظلت لعنة التأريخ تلاحقهم أبداً. فإذا زلت لنا قدم يوماً فلابد لنا الإسراع لاستدراك الخطأ مثل (أبي لبابة).

وإذا كان المال هو السبب في الانحراف فعلينا بذله وإنفاقه في سبيل الله. وفي نهاية الآية بشارة كبرىٰ للذين يجتازون اختبارهم في هذين المجالين بنجاح، فتقول: ﴿وإن الله عندهُ أجرٌ عظيم﴾.

فمهما كان حب الأبناء جليلاً ومهما بلغ شأو الأموال وأهميتها وفتنتها فإن جزاء الله وثوابه أعلى وأعظم من كل ذلك.

وهنا تثار أسئلة كثيرة، منها: لماذا يختبر الله الناس مع إحاطته بكل شيء؟ ولماذا يكون الاختبار شاملاً للجميع حتى الأنبياء؟ وما هي مواد الاختبار الإلهي؟ وما هي السبل للنجاح فيها؟ وقد أجبنا على كل هذه الاسئلة في المجلد الأول من تفسير الأمثل[1].

الخيانة في لغة الروايات والأحاديث:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«اربع لا تدخل بيتاً واحدة منهن إلّا خرب ولم يعمر بالبركة: الخيانة والسرقة وشرب الخمر والزنا»[2].

قال الإمام الصادق عليه السلام:

١ـ تفسير الأمثل، المجلد (٥)، ذيل الآية.

٢ـ أمالي الشيخ الصدوق: ١٢/٣٢٥.

«يُجبَل المؤمن على كل طبيعة إلّا الخيانة والكذب»[1].

وعنه عليه السلام:

«بُنِيَ الإنسان على خصال فما بُني عليه فإنه لا يُبنىٰ على الخيانة والكذب»[2].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«ليس منا من خان بالأمانة»[3].

وقال أيضاً:

«ليس منا من خان مسلماً في أهله وماله»[4].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«المكر والخديعة والخيانة في النار»[5].

قال الإمام علي عليه السلام:

«الخيانة أخو الكذب»[6].

وقال أيضاً:

«الخيانة غدر»[7]

وعنه عليه السلام:

«الخيانة صنو الإفك»[8].

---

١ ـ الاختصاص، ٢٣١.

٢ ـ كشف الغمة: ٢/ ٣٧٥.

٣ ـ بحار الأنوار: ٧٥/ ١٧٢/ ١٤.

٤ ـ الاختصاص، ٢٤٨.

٥ ـ مستدرك الوسائل، ٩/ ٨٠/ ١٠٢٦٥.

٦ ـ مستدرك الوسائل، ١٤/ ١٤/ ١٥٩٧٤.

٧ ـ غرر الحكم، رقم (١٠٧).

٨ ـ غرر الحكم، رقم (٧٣٨).

وعنه عليه السلام:

«الخيانة رأس النفاق»[١].

وعنه عليه السلام:

«إياك والخيانة فإنها شر المعصية وإن الخائن لمُعَذَّب بالنار على خيانته»[٢].

وعنه عليه السلام:

«جانبوا الخيانة فإنها (الخيانة) مجانبة الإسلام»[٣].

وقال عليه السلام:

«رأس الكفر الخيانة»[٤].

وعن أبي ثمامة:

دخلت على أبي جعفر عليه السلام وقلت له: جعلت فداك إني رجل أريد أن أُلازم مكة وعليَّ دين للمُرجئة فما تقول؟ قال: ارجع إلى مؤدّىٰ دينك وانظر أن تلق الله تعالىٰ وليس عليك دين فإن المؤمن لا يخون»[٥].

قال الإمام علي عليه السلام:

«من استهان بالأمانة وقع في الخيانة»[٦].

وعنه عليه السلام:

«الخيانة دليل على قلة الورع وعدم الديانة»[٧].

١ـ غرر الحكم، (٩٦٩).

٢ـ غرر الحكم، (٢٦٦٧).

٣ـ غرر الحكم، (٤٧٤٢).

٤ـ غرر الحكم، (٥٢٦٠).

٥ـ علل الشرائع، ٥٢٨/٧.

٦ـ غرر الحكم، (٨٦١٦).

٧ـ غرر الحكم، رقم (١٤٣١).

وعنه عليه السلام:

«شر الناس من لا يعتقد الأمانة ولا يجتنب الخيانة»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام وهو يحاسب وكيلاً له والوكيل يكثر أن يقول: والله ما خنت والله ما خنت، أنه قال:

(يا هذا، خيانتك وتضييعك عليّ مالي سواء لأن الخيانة شرُّها عليك. ثم قال: قال رسول الله: لو أن أحدكم هرب من رزقه لتبعه حتى يدركه كما أنه إن هرب من أجله تبعه حتى يدركه من خان خيانة حُسِبت عليه من رزقه وكُتب عليه وزرها)[2].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«لا تخن من خانك فتكون مثله»[3].

وقال الإمام علي عليه السلام:

«لا تخن من ائتمنك وإن خانك ولا تُشن عدوك وإن شانك»[4].

روىٰ سليمان بن خالد:

سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل وقع لي عنده مال وكابرني عليه وحلف ثم وقع له عندي مال فآخذه مكان مالي الذي أخذه وأجحده وأحلف عليه كما صنع؟

فقال: إن خانك فلا تخنه فلا تدخل فيما عِبته عليه[5].

وعن معاوية بن عمار:

١ـ غرر الحكم، رقم (٥٧٣٤).

٢ـ الفروع من الكافي، ٥/٣٠٤/٢.

٣ـ بحار الأنوار، ١٠٣/١٧٥/٣.

٤ـ غرر الحكم، رقم (١٠٤١٨).

٥ـ نور الثقلين، ٢/١٤٤/٦٧.

(قلت لابي عبد الله عليه السلام: الرجل يكون لي عليه الحق فيجحدنيه ثم يستودعني مالاً إلى أن آخذ مالي عنده.

قال: لا، هذه خيانة)[1].

وعن الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم...﴾، أنه قال:

«فخيانة الله والرسول معصيتهما وأما خيانة الأمانة فكل إنسان مأمون على ما افترض الله عز وجل عليه»[2].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إفشاء سر أخيك خيانة فاجتنب ذلك»[3].

قال الإمام الجواد عليه السلام:

«كفىٰ بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة»[4].

قال الإمام الصادق عليه السلام لأبي هارون المكفوف:

«يا أبا هارون إن الله تبارك وتعالىٰ آلى على نفسه أن لا يجاوره خائن، قال: قلت: وما الخائن؟. قال: من ادّخر عن مؤمن درهماً أو حبس عنه شيئاً من أمر الدنيا[5]».

وعنه عليه السلام:

«أيما رجل من أصحابنا استعان به رجلٌ من إخوانه في حاجة فلم يبالغ

١ـ نور الثقلين، ٢ / ٦٨/١٤٤.

٢ـ نور الثقلين ٢ / ٦٦/١٤٤.

٣ـ بحار الأنوار، ٧٧/ ٣/٨٩.

٤ـ بحار الأنوار، ٤/٣٦٤/٧٨.

٥ـ الخصال: ١٨٥/١٥١.

فيها بكل جهده فقد خان الله ورسوله والمؤمنين[1]».

قال الإمام علي عليه السلام:

«الخائن من شغل نفسه بغير نفسه وكان يومه شراً من أمسه»[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«أمّا علامة الخائن فأربعة: عصيان الرحمٰن وأذىٰ الجيران وبُغض الأقران والقرب إلى الطغيان»[3].

وعن الإمام علي عليه السلام:

«غاية الخيانة خيانة الخِلِّ الودود ونقض العهود»[4].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«تناصحوا في العلم فإن خيانة أحدِكم في علمه أشدُّ من خيانته في ماله»[5].

وعن الإمام علي عليه السلام:

«من أفحش الخيانة خيانة الودائع»[6].

وعنه عليه السلام:

«إن أعظم الخيانة خيانة الأمة (الأَمنة) وأفظع الغش غش الائمة»[7].

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«شر الرِّجال التجار الخونة»[8].

١ـ بحار الأنوار، ٧٥، ٧/١٧٥.

٢ـ غرر الحكم، رقم (٢٠١٣).

٣ـ تحف العقول، (٢٢).

٤ـ غرر الحكم، رقم (٦٣٧٤).

٥ـ بحار الأنوار، ١٧/٦٨/٢.

٦ـ غرر الحكم، رقم (٩٣١٠).

٧ـ نهج البلاغة، الكتاب (٢٦).

٨ـ بحار الأنوار، ٥٥/١٠٣/١٠٣.

وعن الإمام علي عليه السلام أنه قال:

«الغدر أقبح الخيانتين»[1].

وعنه عليه السلام:

«إذا اظهرت الجنايات (الخيانات) ارتفعت البركات»[2].

وعنه عليه السلام:

«لربما خان النصيح المؤتمن ونصح المستخان»[3].

وعنه عليه السلام:

«من أمِن الزمان خانه»[4].

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إحذر من الناس ثلاثة، الخائن والظلوم والنمام لأن من خان لك خانك ومن ظلم لك سيظلمك ومن نَمَّ إليك سينم عليك»[5].

عنه عليه السلام:

«من ائتمن خائناً على أمانة لم يكن له على الله ضمان»[6].

وعنه عليه السلام:

«ليس لك أن تأتمن الخائن وقد جَرَّبتَه وليس لك أن تتهم من ائتمنت»[7].

قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام:

١ـ غرر الحكم، رقم (١٦٩٠).

٢ـ غرر الحكم، رقم (٤٠٣٠).

٣ـ غرر الحكم، رقم (٧٣٩١).

٤ـ نهج البلاغة، الكتاب (٣١).

٥ـ تحف العقول، ص ٣١٦.

٦ـ تحف العقول، ص ٣٦٠.

٧ـ تحف العقول، ص ٣٦٤.

«لم يخنك الأمين ولكن ائتمنت الخائن»[1].

عن يزيد الصايغ قال: قلت لأبي عبد الله (الصادق) عليه السلام: رجل على هذا الأمر إن حدّث كذب وإن وعد أخلف وإن ائتُمن خان ما منزلته قال: هي أدنىٰ المنازل من الكفر وليس بكافر[2].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«الغلول من جمر جهنم»[3].

وعن الإمام الباقر عليه السلام:

«من غلَّ شيئاً رآه يوم القيامة في النار ثم يُكَلَّف أن يدخل إليه فيخرجهُ من النار»[4].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«من خان أمانة في الدنيا ولم يَرُدَّها إلى أهلها ثم أدركه الموت مات على غير ملتي ويَلقى الله وهو عليه غضبان»[5].

قال النبي موسىٰ بن عمران عليه السلام:

إلهي، فما جزاء من ترك الخيانة حياء منك.

قال: يا موسىٰ! له الأمان يوم القيامة.

***

وحول خيانة الأمانة يكتب الشهيد آية الله عبد الحسين دستغيب في كتاب الذنوب الكبيرة، فصل الخيانة في الأمانة:

١ـ تحف العقول، ص ٤٤٢.

٢ـ الكافي، ص (٤٣٠).

٣ـ عن كتاب «درج گهر»، ص (١٠٥).

٤ـ تفسير الصافي، ذيل الآية (١٦٢) من سورة آل عمران.

٥ـ سفينة البحار، المجلد (١)، ص (٤٣٣).

من الذنوب التي تعتبر بحسب نص معتبر من الكبائر هو الغلول أي الخيانة كما جاء في صحيحة عبد العظيم الحسني عليه السلام نقلاً عن الإمام الجواد عن الرضا عن الكاظم عن الصادق عليهم السلام.

ويذهب بعض اللغويين إلى أن الغلول هو الخيانة في مال استحوذ عليه المسلمون من الكفار ولم يتم تقسيمه بعد.

والبعض الآخر يقول: الغلول هو الخيانة مطلقاً ومنها الخيانة في الغنائم قبل التقسيم.

والدليل على حرمة الخيانة بشكل عام هو رواية فضل بن شاذان عن الإمام الرضا عليه السلام وقد ذكرت فيها لفظة «الخيانة» بدلاً عن الغلول أي أن الخيانة من الكبائر[1]. كما جاء في رواية الأعمش نقلاً عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً قوله «والخيانة» في سياق ذكر بعض المحرمات.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«من خان من ائتمنه فأنا خصمُهُ»[2].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«أربع من أُعطيَ بهن فقد أُعطِيَ خير الدنيا والآخرة: لسان ذاكر وقلب شاكر وبدن على البلاء صابر وزوجة لا تبغيه خوناً في نفسها ولا ماله»[3].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«الأمانة تجلب الرزق والخيانة تجلب الفقر»[4].

***

١ـ ينقل الشيخ الصدوق (ره) هذه الرواية في عيون أخبار الرضا بنصوص ثلاثة. ويؤكد الشيخ الأنصاري في المكاسب بأن هذه الوثيقة لا تقل مصداقية عن الصحيحة.

٢ـ عقاب المحرمات.

٣ـ سفينة البحار، المجلد الأول.

٤ـ نهج الفصاحة، ص (٥٩٢).

وقف الإمام علي عليه السلام على خياط فقال:

«يا خياط! ثكلتك الثواكل صلب الخيوط ودقق الدروز وقارب الغرز فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: يحشر الله الخياط الخائن وعليه قميص ورداء مما خاط وخان فيه واحذروا السقاطات فإن صاحب الثوب أحق بهـن ولا تتخذ بها الأيادي تطلب المكافأة».

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«ردّوا المخيط والخياط فإنه من غَلَّ مخيطاً أو خياطاً كلف يوم القيامة إن يجيء به وليس يجاء»[1].

قال الإمام علي عليه السلام:

«لولا إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول إن المكر والخديعة والخيانة في النار لكنتُ أمكر العرب»[2].

قال الصادق عليه السلام:

فمن نال من رجل شيئاً من عرضٍ أو مال وَجب عليه الاستحلال من ذلك والانفصال من كل ما كان منه إليه وإن كان قد مات فلينفصل من المـال إلى ورثته وليتب إلى الله مما أتىٰ الله حتى يطلع عليه عز وجـل بـالندم والتـوبة والانفصال[3].

قال رسول الله عليه السلام:

«مَن كان مسلماً فلا يمكر ولا يخدع فإني سمعت جبرائيل يـقول أن المكـر والخديعة في النار ثم قال: ليس منا من غش مسلماً وليس منا من كان خائناً»[4].

---

١ ـ نهج الفصاحة.

٢ ـ الأصول من الكافي، المجلد (٥).

٣ ـ مستدرك الوسائل، ص (٣٤٣).

٤ ـ وسائل الشيعة، كتاب الوديعة، الباب (٣).

قال الإمام علي عليه السلام:

«إذاعة سِرّ أودعته، غدر»[1].

***

أعلن الملك الايراني «ناصر الدين شاه» ذات يوم أنه ينوي زيارة حديقة الحيوانات. ذعـر مدير الحديقة مخافة أن يشعر الملك بالامتعاض بسبب وفاة أسد الحديقة قبل فترة من ذلك. فألبسوا شخصاً فراء الأسد وقـالوا له: عـند قدوم الملك عليك أن تقطع القفص مجيئاً ورواحاً لا غير. فمن أين للـملك أن يفهـم أنك لست أسداً؟!. فقَبَل ذلك. وبعـد قدوم الملك أمـر أن يدخل الفهـد إلى قفص الأسـد. ولما دخل الفهد إلى قفص الأسد ارتعدت فرائص الأخـير وفجأة قال لـه الفهد: لا تخف فأنـا أيضاً «مزور» مثلك وقـد لبست فــروة الفهد.

حفظ الله المسلمين من مثل هذا وأبـعدنا مـن الاكـتفاء بـقشور الإسـلام والحرمان من الانتماء إلى زمرة المسلمين الحقيقيين؟

***

أوحىٰ الله تعالىٰ إلى نبيه موسىٰ بن عمران عليه السلام:

«يا موسىٰ! من كان ظاهره ازين من باطنه فهو عدوي حـقاً ومـن كـان ظاهـره وباطنه سواء فهو مؤمن حقاً ومن كان باطنه أزين من ظاهره فـهو وليي حقاً»[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

---

١ ـ غرر الحكم.

٢ ـ جامع الأخبار، ص ١٨٥.

«يـا أبا ذر! إتق الله ولا تُـري النـاس أنـك تـخشىٰ الله فـيكرموك وقـلبك فاجر»[1].

وعنه ﷺ أيضاً:

«ما زاد خشوع الجسد علىٰ ما في القلب فهو عندنا نفاق»[2].

١ ـ بحار الأنوار، المجلد (٧٧)، ص (٨١).

٢ ـ الأصول من الكافي، المجلد (٤)، ص (١١٣).

الفصل الثامن

السرقـــــة

حرمة السرقة:

من المصاديق الواضحة الأخرىٰ لاهتضام حقوق الناس هي سرقة أموال وممتلكات الغير. يعتبر الإسلام هذا العمل من الكبائر وقد عدّها الإمام الصادق هكذا في حديثه في سياق استبانة عدد من الكبائر، حيث قال:

«الكبائر محرمة وهي... السرقة»[1].

السرقة في القرآن الكريم:

قال الله تعالىٰ:

﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله. والله عزيزٌ حكيم﴾[2].

إشارات

يمكننا بناء على ما جاء في هذه الآية الشريفة أن نلفت الانتباه إلىٰ ملاحظات عدة[3]، وهي:

١ ـ إن هذه الآية قدمت الرجل السارق علىٰ المرأة السارقة بينما الآية التي تتطرق إلىٰ حد وعقوبة الزنا تذكر المرأة الزانية قبل الرجل الزاني. ولعل هذا

---

١ ـ بحار الأنوار، ١٠/ ٢٢٩ و ٣٥٩.

٢ ـ سورة المائدة، الآية (٣٨).

٣ ـ مقتبسة عن تفسير الأمثل، المجلد (٤)، ذيل الآية.

التباين يتأتىٰ من أن السرقة تصدر عادة عن الرجال. بينما تعتبر النساء المستهترات العامل والمحفز الأقوى لارتكاب الزنا.

٢ـ إن العقوبة والحد المحدد للسرقة إنما هو مردود عمل السارق نفسه وهو ما أوقع نفسه فيه.

٣ـ إن العقاب يهدف للحيلولة دون ارتكاب المعصية ولترسيخ أسس الحق والعدالة، لأن لفظة «النكال» تعني العقوبة المنصوص عليها بهدف تجنب المعصية وتركها وتعني هذه اللفظة أساساً: «اللجام» ولهذا تطلق علىٰ كل إجراء يستهدف الوقوف بوجه الانحراف.

نظرة الإسلام إلى السرقة وحرمتها:

أ ـ من القضايا التي تباحث الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم حولها مع النساء المسلمات إبان البيعة وأخذ منهن المواثيق بشأنه هو هذه القضية. وهذا ما توحي به الآية:

﴿يا ايها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين... فبايعهن واستغفر لهن الله﴾[١].

وحول نمط بيعة النسوة مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم اسمعن يا هؤلاء ابايعكنَّ على أن لا تشركن بالله شيئاً ولا تسرقن ولا تزنين»[٢].

ب ـ عندما بلغ النبي يعقوب عليه السلام نبأ اعتقال بنيامين بتهمة السرقة[٣]، بعث النبي يعقوب عليه السلام ـ بحسب رواية الإمام الباقر عليه السلام ـ كتاباً إلى ملك مصر كتب فيه:

١ـ سورة الممتحنة، الآية (١٢).

٢ـ بحار الأنوار، ٤/١١٧.

٣ـ راجع سورة يوسف، الآيات (٧٠ـ٨٠).

إني أُشهدك أني لم أسرق ولم أَلِد سارقاً»[1].

وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنه كتب إلى ملك مصر:

«إنا أهل بيت لم نسرق»[2].

فلسفة تحريم السرقة:

في مقام تبيين أسباب وحكمة بعض الأحكام الشرعية قال الإمام الرضا عليه السلام فيما يخص السرقة:

«وحرَّم السرقة لما فيها من فساد الأموال وقتل الأنفس لو كانت مباحة، ولما يأتي في التغاصب من القتل والتنازع والتحاسد وما يدعو إلى ترك التجارات والصناعات في المكاسب واقتناء الأموال إذا كان الشيء المقتنىٰ لا يكون أحدٌ أحق به من أحد[3]».

افرازات السرقة:

يترشح عن السرقة افرازات ووقائع سلبية كثيرة جاء بعضها في حديث الإمام الرضا عليه السلام ومنها:

١ـ تفشي الفساد الاقتصادي.

٢ـ تفشي جرائم القتل واراقة الدماء.

٣ـ انتشار المفاسد الاجتماعية وانعدام الأمن.

٤ـ انحباس الرزق وترك الارتزاق.

يروي الإمام علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

١ـ بحار الأنوار، ١٢/٢٦٩/ ح (٤٢).

٢ـ بحار الأنوار، المجلد ١، ص ٣١٥، ح ١٣٢.

٣ـ بحار الأنوار، ٦/ ١٠٢.

«لا سرق سارق شيئاً إلّا حُبِسَ من رزقه»[1].

٥ـ انقطاع البركة:

قال رسول الله عليه السلام:

«اربع لا يدخل بيتاً واحدة منهن إلّا خَرِبَ ولم يعمر بالبركة: الخيانة والسرقة وشرب الخمر والزنا»[2].

٦ـ استجلاب لعنة الله:

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«لعن الله السارق يسرق البيضة نتقطع يده ويسرق الحَبل فتقطع يده»[3].

٧ـ إزالة روح الإيمان عن قلب الإنسان:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن. إذاً شيئاً من ذلك خرج منه روح الإيمان»[4].

إشارات

١ـ مبتاع المسروقات شريك في الجريمة:

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«من اشترىٰ سرقة وهو يعلم فقد شرك في عارها وإثمها»[5].

٢ـ هل يتعرض السارق لقطع اليد لسرقة شيء بخس:

الجواب: ذكرنا في الإشارات التفسيرية أن: أولاً: هذه العقوبة أمر يستجلبها

١ـ مستدرك الوسائل، ١٨/١٠٥.

٢ـ آثار الصادقين، ٣/١٦٣.

٣ـ مستدرك الوسائل، ١٨/٢٠.

٤ـ المصدر نفسه، ١٨/١١٩.

٥ـ الكافي، ٥/٢٣٩.

السارق بنفسه. وثانياً: إن هذه العقوبة وجدت للحيلولة دون وقوع مثل هذه الأحداث. كما جاء في الآية: ﴿نكالاً من الله﴾[1]. وثالثاً: تستهدف هذه العقوبة اعتبار الناس منها.

ولهذا بين الإمام علي بن موسىٰ الرضا عليه السلام الحكمة من قطع اليد بقوله عليه السلام:

«وعلّة قطع اليمين من السارق لأنه يباشر الأشياء غالباً بيمينه وهي أفضل اعضائه وأنفعها له فجعل قَطعها نكالاً وعبرة للخلق لئلا يبتغوا غصب الأموال وأخذها من غير حلها لما فيه من أنواع الفساد»[2].

رابعاً: كتب المرحوم السيد المرتضى (وهو من كبار علماء الشيعة) رداً على هذا الاستفسار ببيت من الشعر هو:

عز الأمـانة أغـلاها وأرخـصها ذل الخيانة فافهم حكمة البارئ

٣ـ السرقة من غير أموال الأشخاص بل من الأموال العامة ومن بيت المال تحظىٰ بذات الحرمة والحد. حدث في عهد خلافة الإمام علي عليه السلام انه رفع إليه شخصين سرقا من بيت المال أحدهما عبد من مال الله والآخر من مال الناس، فقال:

«أما هذا فهو من مال الله فلا حد عليه. مال الله أكل بعضه بعضاً وأما الآخر فعليه الحد الشديد (فقطع يده)»[3].

٤ـ تنفيذ عقوبة السرقة: ينص المذهب الشيعي على تنفيذ عقوبة قطع أربعة من أصابع يد السارق بشروط معينة، فالسرقة بحد ذاتها لا توجب قطع الأصابع. وللاطلاع الوافي على هذه الشروط ينبغي مطالعة كتب الفقه والروايات والتفسير، ومنها: وسائل الشيعة (المجلد ١٨، كتاب الحدود)،

١ـ سورة المائدة، الآية (٣٨).

٢ـ بحار الأنوار، ١٠٢/٣.

٣ـ نهج البلاغة، الحكمة (٢٧١).

ومستدرك الوسائل (المجلد ١٨، الحدود في حد السرقة)، وتفسير الأمثل (المجلد ٣) و...

أبعاد السرقة:

للسرقة بحسب الأخبار والروايات أبعاد مختلفة سنتطرق إلى بعضها بإيجاز:

١ ـ سرقة الصلاة:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«ليس السارق من يسرق الناس ولكنه الذي يسرق الصلاة»[١].

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«أبصر علي بن أبي طالب رجلاً ينقر بصلاته فقال منذ كم صليت هذه الصلاة فقال له الرجل: منذ كذا وكذا. فقال: مثلك عند الله كمثل الغراب إذا ما نقر، لو مُتَّ مُتَّ على غير ملة أبي القاسم صلى الله عليه وآله وسلم: ثم قال: إن أسرق الناس من سرق صلاته[٢]».

قيل للرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: كيف يسرق صلاته؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يتم ركوعها وسجودها»[٣].

إن سرقة الصلاة وإن كانت لا تعد اعتداء على حقوق الناس ولكنها تهيئ الأجواء لاهمال حقوقهم. إن الإسلام ينهىٰ عن الاعتداء على حقوق الناس ولكنه يحث الدائن على التريث وإمهال المدين إن كان في عسر من أمره يتعذر عليه دفع الدين.

٢ ـ البوح بالأسرار الخفية للبلاد:

---

١ ـ بحار الأنوار، ٢٤٢/٨٤.

٢ ـ بحار الأنوار، ٢٤٢/٨٤.

٣ ـ مستدرك الوسائل، ١٨/ ١٥٠.

قال الإمام علي عليه السلام:

«أسرق السُراق من سرق من لسان الأمير»[١].

٣ـ منع الزكاة:

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«السُراق ثلاثة: مانع الزكاة ومستحل مهور النساء وكذلك من استدان ولم ينو قضاءه»[٢].

٤ـ استحلال مهور النساء:

قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام:

«من أمهر مهراً ثم لا ينوي قضاءه كان بمنزلة السارق»[٣].

لم يحدث قط أن ينكح أئمة أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم زوجة دون تحديد مهرها أو يتملصوا من دفع مهور زوجاتهم. ولهذا ذم مذهبهم من يتنكر لمهر الزوجة أو يماطل عن عمد في دفعه في الوقت المناسب أو عند مطالبة الزوجة به. روى الإمام الرضا عليه السلام عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«ان الله تعالىٰ غافر كل ذنب إلّا من جحد مهراً»[٤].

وعن الإمام الصادق صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«أقذر الذنوب ثلاثة... حبس مهر المرأة»[٥].

لا يخفىٰ أن المذهب الشيعي أكد وبشدة للحث علىٰ تحديد المهور غير

١ـ المصدر نفسه.

٢ـ بحار الأنوار، ١٠٣/١٤٦.

٣ـ الفروع من الكافي، ٥/٣٨٣.

٤ـ بحار الأنوار، ١٠٣/٣٥٠.

٥ـ بحار الأنوار، ١٠٣/٣٥١.

الباهضة أو أن تبرئ الزوجةنفسها ذمة الزوج من مهرها[1].

٥ ـ التهرب من دفع الديون:

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«من استدان ديناً ولم ينو قضاءه كان بمنزلة السارق»[2].

تؤكد الروايات الإسلامية العديدة على قضايا الدين والاقتراض وفضيلة تقديم الديون والتعجل في الإعادة. وهنا نكتفي بذكر حديثين حول المدينين الذين يأبون دفع الدين لصاحبه.

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

«يا يونس! من حبس حق المؤمن أقامه الله يوم القيامة خمس مائة عام علىٰ رجليه حتى يسيل من عرقه أودية وينادي مناد من عند الله هذا الظالم الذي حبس عن المؤمن حقه. قال: فيوبخ أربعين عاماً ثم يؤمر به إلى النار»[3].

وعنه عليه السلام:

«أما مؤمن حبس عن ماله وهو محتاج إليه لم يَذق والله من طعام الجنة ولا يشرب من الرحيق المختوم»[4].

---

١ ـ لمزيد من الاطلاع راجع مصادر الأحاديث والروايات مثل بحار الأنوار، باب المهور وأحكامها.

٢ ـ فروع الكافي، ٥/٩٩.

٣ ـ بحار الأنوار، ١٠٣/١٤٧.

٤ ـ المصدر نفسه.

الفصل التاسع

الرشوة وذمها

حرمة الرشوة:

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾[١].

هذه الآية الكريمة تنهى المسلمين عن ارتكاب إثم من أشنع الآثام وهو التصرف بأموال الآخرين وثرواتهم والحصول على المال عن طريق غير مشروع وتحذرهم من أكل أموال الآخرين بالباطل، ثم جرّهم إلى الحكام، وبعد ذلك منح قسم من تلك الأموال الى الحكام على شكل رشوة للحصول على بقية الأموال المغتصبة ظلماً وعدواناً، فهم بعملهم هذا يكونون قد ارتكبوا إثمين كبيرين: إثم سلب حق الآخرين، وإثم الرشوة.

والإسلام شدد على قضية الرشوة حتى قال الصادق عليه السلام: «وأما الرشا في الحكم فهو الكفر بالله العظيم»[٢].

وفي حديث مشهور عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «لعن الله الراشي والمرتشي والساعي بينهما».

وفي الآية (٢٩) من سورة النساء تحذير كالتحذير المذكور في الآية أعلاه، حيث قال سبحانه وتعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلّا أن تكون تجارة عن

---

١ ـ سورة البقرة، الآية (١٨٨).

٢ ـ الوسائل، المجلد (١٢)، الباب الخامس من أبواب ما يكتسب به.

تراض منكم﴾.

تؤكد الآية بوضوح أن الملكية لا تتحقق عن طريق حكم الحاكم المرتشي، فهذه الأموال التي حكم بها محرمة. فالحكم الظاهري الذي يصدره الحاكم الصالح لا يجعل الأموال المغصوبة حلالاً أيضاً. فلا يغدو أي شخص صاحب أموال الغير بحسب حكم قضائي جائر. وقد أكد رسول الله ﷺ على أن حكمه هو أيضاً لا يجعل المال حلالاً ما دام الطرفان المتنازعان يعلمان أن صاحب الحق هو غير الذي حكم النبي لصالحه.

«إنما أنا بشر وانكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي بنحو ما اسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فانما أقطع له قطعة من النار»[1].

وباء الرشوة:

من الأوبئة الاجتماعية التي ابتلي بها البشر منذ أقدم العصور وباء الارتشاء الآخذ بالتفشي في أيامنا هذه بوتيرة متصاعدة. وكانت هذه الظاهرة المرضية وما تزال من موانع إقامة العدالة الاجتماعية ومن عوامل جر القوانين لصالح الطبقات المتقدمة، بينما سُنّت القوانين لصيانة مصالح الفئات الضعيفة من تطاول الفئات القوية عليهم. الأقوياء قادرون بحكم قوتهم أن يدافعوا عن مصالحهم، بينما يكون الضعفاء بحاجة إلى دعم القانون لهم في سياق المحافظة على منافعهم، ولا يتحقق هذا الدعم في جو الارتشاء، لأن القوانين ستصبح ألعوبة بيد القادرين على دفع الرشوة، بغية مواصلة ظلمهم وجورهم وعدوانهم على حقوق الضعفاء.

ولهذا شدد الإسلام علىٰ قضية الرشوة وأدانها وقبّحها واعتبرها من الكبائر،

---

١ ـ المنار، المجلد (٥)، ص ٣٩٤ نقلاً عن صحيحي بخاري ومسلم. وفي ظلال القرآن، المجلد (١)، ص ٢٥٢.

فهي تفتت الكيان الاجتماعي، وتؤدي إلى تفشي الظلم والفساد والتمييز بين الأفراد في المجتمع الإنساني وتصادر العدالة من جميع مؤسساته.

جدير بالذكر أن قبح الرشوة قد يدفع الراشين والمرتشين ليغطوا رشوتهم بقناع من التسميات الأخرىٰ كالهدية ونظائرها، ولكن هذه التغطية لا تغير من ماهية العمل شيئاً، والأموال المستحصلة عن هذا الطريق محرّمة غير مشروعة.

وهذا «الأشعث بن قيس» يتشبث بهذه الطريقة، فيبعث حلوىٰ لذيذة إلى بيت أمير المؤمنين عليه السلام أملاً في ان يستعطف الإمام تجاه قضية رفعها إليه ويسمي ما قدّمه هدية، فيأتيه رد الإمام صارماً حيث قال:

«هبلتك الهبول، أعن دين الله أتيتني لتخدعني... والله لو أعطيت الأقاليم السبع تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جَلب شعيرة ما فعلته، وأن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها. ما لِعَلي ونعيم يفنىٰ ولذة لا تبقىٰ؟!...».

إن الإسلام أدان الرشوة بكل أشكالها، وفي السيرة أن واحداً ممن ولاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قَبِل رشوة قدمت إليه بشكل هدية. فقال له الرسول:

كيف تأخذ ما ليس لك بحق؟!

قال: كانت هدية يا رسول الله.

قال: أرايت لو قعد أحدكم في داره ولم نوّله عملاً كان الناس يهدونه شيئاً؟![1].

ومن أجل أن يصون الإسلام القضاة من الرشوة بكل اشكالها الخفية وغير المباشرة، أمر أن لا يذهب القاضي بنفسه إلى السوق للشراء، كي لا يؤثر فيه تخفيف بائع من الباعة من سعر البضاعة عفوياً فيكسب على أثره تأييد القاضي في المرافعة. ما أروع أن يستلهم المسلمون نهجهم من هذا الكتاب السماوي لعله

---

١ ـ الإمام علي (ع): المجلد الأول، ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

يتورع عن التضحية بكل ما لديه على أعتاب أطماع ربوية[1].

***

أحاديث حول الرشوة:

قال الإمام علي عليه السلام:

«إنما أهلك من كان قبلكم أنهم منعوا الناس الحق فاشتروه وأخذوهم بالباطل فاقتدوه»[2].

وعنه عليه السلام:

«وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل... ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع»[3].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«يا علي! من السحت: ثمن الميتة وثمن الكلب وثمن الخمر ومهر الزانية والرشوة في الحكم وأجر الكاهن»[4].

وعن الإمام علي عليه السلام أنه قال في قوله تعالى: «أكالون للسحت»:

«هو الرجل يقضي لأخيه الحاجة ثم يقبل هديته»[5].

قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام:

«مِن أكلِ السحت: الرشوة في الحكم»[6].

---

١ ـ تفسير الأمثل، ذيل الآية.

٢ ـ نهج البلاغة، الكتاب (٧٩).

٣ ـ نهج البلاغة، الخطبة (١٣١).

٤ ـ مكارم الأخلاق، ٢/٣٢٧.

٥ ـ بحار الأنوار، ١٠٤/٢٧٣/٥.

٦ ـ بحار الأنوار، ١٠٣/٥٣/٢٠.

وعنه عليه السلام:

«الرشىٰ في الحكم هو الكفر بالله»[1].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إياكم والرشوة فإنها محض الكفر ولا يشم صاحب الرشوة ريح الجنة»[2].

عن الإمام الصادق عليه السلام:

«فأما الرشوة يا عمار في الأحكام فإن ذلك الكفر بالله العظيم ورسوله»[3].

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«لعنة الله على الراشي والمرتشي»[4].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«لعن الله الراشي والمرتشي في الحكم»[5].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«لعن الله الراشي والمرتشي والرائش الذي يمشي بينهما»[6].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«انه لعن الراشي والمرتشي الذي يسعىٰ بينهما»[7].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

---

١ ـ الكافي، ٧/٤٠٩/٢.

٢ ـ بحار الأنوار، ١٠٤/٢٧٤/ ١٢.

٣ ـ معاني الأخبار، ٢١١/١.

٤ ـ كنز العمال، (١٥٠٧٨).

٥ ـ المصدر نفسه، (١٥٠٧٩).

٦ ـ المصدر نفسه، (١٥٠٨٠).

٧ ـ المصدر نفسه، (١٤٤٩٥).

«الراشي والمرتشي في النار»[1].

إطلالة على عالم الطرائف:

يقال أن رجلاً راجع دائرة الوثائق لاصلاح خطأ في صك عقار منزله فتعذر ذلك. ذات يوم ملأ وعاءين بمقدار من الطين وغطى أحدهما بطبقة من العسل والآخر بطبقة من الزبد ثم توجه إلى دائرة الوثائق وقدمهما إلى الموظف المسؤول فانجز عمله فوراً. ولما توجه الموظف بالوعائين إلى داره تنبه إلى أن جل ما فيهما طين دون ما يغطيهما من العسل والزبد. فطلب صاحب العقار وقال له: هناك خطأ في صك عقارك، اعطنيه لأصلحه.

فأجابه صاحب العقار قائلاً: الإشكال أينما كان فإنه في وعائي العسل والزبد وليس في صك العقار!

الرشوة أو الكلفة والحساب:

من أبشع الجرائم والمعاصي وأخبث أساليب سحق التعاليم الإلهية المقدسة هو تأطيرها بإطار مستساغ. فلا أدري منذ متى صارت الرشوة التي نبذها الدين الإسلامي وتنكر لها المسلمون إلى هذا الحد، كلفة وحساباً واجب الدفع. ما أعظم كلمتا الكلفة والحساب! ولكن الانتهازيين صبوا الرشوة في قالب جميل أخاذ بإطلاق اسم الكلفة والحساب المفروض الدفع عليه. فالمطالب بالرشوة يقول: يترتب عليك دفع الكلفة ويجيب المقابل: بالطبع. هكذا حاولوا تشويه الثقافة الإسلامية وتحويرها[2].

---

١ ـ كنز العمال، (١٥٠٧٧).

٢ ـ خواطر حجة الاسلام الشيخ فلسفي وتاريخه الجهادي، ص ٤٠٥.

الفصل العاشر

روايات حول الربا

نظرة الإسلام إلى الربا:

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«أخبث المكاسب كسب الربا»[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«شر الكسب كسب الربا»[2].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«إن الله عز وجل لعن آكل الربا وموكِلَه وكاتبه وشاهِدَيه»[3].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«الآخذ والمعطي سواء في الربا»[4].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«ليأتين على الناس زمان لا يبقىٰ أحد إلّا أكل الربا فإن لم يأكله أصابه من غباره»[5].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

---

١ ـ الكافي، ٥/١٤٧/١٢.

٢ ـ أمالي الشيخ الصدوق، ١/٣٩٥.

٣ ـ المصدر نفسه، ١/٣٤٦.

٤ ـ كنز العمال، (٩٧٦٠).

٥ ـ سنن أبي داود، (٣٣٣١).

«ثلاثة في حِرز الله عز وجل إلى أن يفرغ الله من الحساب: رجل لم يَهُمَّ بزنا قط ورجل لم يَشُب ماله بربا ورجل لم يسع فيهما قط»[1].

وعن الإمام الرضا عليه السلام:

«إعلم ـ يرحمك الله ـ إن الربا حرام سحتٌ من الكبائر ومما قد وعد الله عليه النار فنعوذ بالله منها وهو محرم على لسان كلِّ نبي وفي كل كتاب»[2].

قال الإمام الصادق (ع):

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لما أُسري بي إلى السماء رأيت قوماً يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر أن يقوم من عِظَم بطنه فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلّا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس»[3].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«انه رأىٰ ليلة أسري به رجالاً بطونهم كالبيت الطحم وهو على سابلة آل فرعون فإذا أحسو بهم قاموا ليعتزلوا عن طريقتهم فمال بكل واحد منهم بطنه فيسقط حتى يطأهم آل فرعون مقبلين ومدبرين فقلت لجبرئيل: من هؤلاء؟ قال: أكلة الربا»[4].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«أتيت ليلة أُسريَّ بي على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات تُرىٰ من خارج بطونهم. فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا»[5].

---

١ ـ الخصال، ١٠١/٥٥.

٢ ـ فقه الرضا (ع)، ٢٥٦.

٣ ـ تفسير القمي، ١/٩٣.

٤ ـ مستدرك الوسائل، ١٣/٣٣٢/١٥٥٠٨.

٥ ـ كنز العمال، (٣١٨٥٧).

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«آكل الربا لا يخرج من الدنيا حتى يتخبطه الشيطان»[1].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال:

«يقوم آكل الربا من قبره مكتوب بين عينيه: لا حجة له عند الله»[2].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«من أكل الربا ملأ الله عز وجل بطنه من نار جهنم بقدر ما أكل وإن اكتسب منه مالاً لا يقبل الله تعالى منه شيئاً من عمله ولم يزل في لعنة الله والملائكة ما كان عنده منه قيراط (واحد)»[3].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً﴾:

«تُحشر عشرة أصناف من أمتي أشتاتاً قد ميّزهم الله تعالىٰ من المسلمين... وبعضهم منكسون أرجلهم من فوق ووجوههم من تحت ثم يسحبون عليها... وأما المنكسون على رؤوسهم فأكلة الربا»[4].

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«درهم ربا أعظم عند الله من أربعين زنية»[5].

أما الإمام الصادق عليه السلام فقد قال:

«دِرهم ربا أعظم عند الله من ثلاثين زنية كلها بذات محرم مثل خالة وعمة»[6].

---

١ ـ تفسير العياشي، ١/١٥٢/(٥٠٣).

٢ ـ كنز العمال، (٤٣٩٥٨).

٣ ـ ثواب الأعمال، ١/٣٣٦.

٤ ـ مستدرك الوسائل، ١٣/٣٣٠/١٥٥٠٠.

٥ ـ بحار الأنوار، ١٠٣/١١٦/٦.

٦ ـ أمالي الشيخ الصدوق، ١٥٣/٧..

وعنه عليه السلام:

«درهم ربا أعظم عند الله من سبعين زنية بذات محرم في بيت الله الحرام»[1].

وعنه عليه السلام أيضاً:

«الربا سبعون جزءاً أيسره أن ينكح الرجل أُمَّهُ في بيت الله الحرام»[2].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«الربا ثلاثة وسبعون باباً أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه وإنَّ أربىٰ الربا عِرض الرجل المسلم»[3].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«الربا ثلاثة وسبعون باباً والشرك مثل ذلك»[4].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم:

«الربا سبعون حوباً وأيسرها كنكاح الرجل أمّه»[5].

قال الإمام الرضا عليه السلام في علة تحريم الربا:

«إنما نهىٰ الله عز وجل عنه لما فيه من فساد الأموال لأن الإنسان إذا اشترى الدرهم بالدرهمين كان ثمن الدرهم درهماً وثمن الآخر باطلاً فبيع الربا وشِراؤه وكسٌ[6] على كل حال على المشتري وعلى البائع. فحظر الله تبارك وتعالى على العباد الربا لعلة فساد الأموال[7].

١ـ نور الثقلين، ١/٢٩٥/١١١٧.

٢ـ بحار الأنوار، ١٠٣/١١٧/١٣.

٣ـ كنز العمال، (٩٧٥٤).

٤ـ كنز العمال، ٩٧٧٢.

٥ـ المصدر نفسه، ٩٧٧٣.

٦ـ الوكس: النقصان. وكس التاجر في تجارته: خسر فيها فذهب ماله.

٧ـ بحار الأنوار، ١٠٣/١١٩/٢٣.

وقال الإمام الصادق عليه السلام لما سُئِل عن علة تحريم الربا:

«لئلا يتمانع الناس المعروف»[1].

وقال الامام الباقر عليه السلام:

«إنما حرم الله عز وجل الربا لئلا يذهب المعروف»[2]

وعن الإمام الصادق عليه السلام لما سأله هشام بن الحكم عن علة تحريم الربا:

«إنه لو كان الربا حلالاً لترك الناس التجارات وما يحتاجون إليه فحرّم الله الربا لتَفِرَّ[3] الناس عن الحرام إلى التجارات وإلى البيع والشراء فـيتصل ذلك بينهم في القرض»[4].

وقال الإمام علي صلوات الله عليه:

«معاشر الناس! الفقه ثم المتجر. والله للربا في هذه الأمة أخفىٰ من دبيب النمل على الصفا»[5].

وعنه عليه السلام:

«من اتجر بغير فقه فقد ارتطم في الربا»[6].

وعنه عليه السلام أيضاً:

«من لم يتفقه في دينه ثم اتجر ارتطم في الربا ثم ارتطم»[7].

١ـ بحار الأنوار، ٣٢/٢٠١/٧٨.

٢ـ وسائل الشيعة، ١٨/ ١٢٠/ ١٠.

٣ـ جاء في وسائل الشيعة، ١٨/ / ٨: لتنفر الناس من الحرام إلى الحلال وإلى التجارات من البيع والشراء فيبق ذلك بينهم في القرض.

٤ـ بحار الأنوار، ٢٤/١١٩/١٠.

٥ـ بحار الأنوار، ١١٧/١٠٠/ح١٦.

٦ـ نهج البلاغة، الحكمة (٤٤٧).

٧ـ بحار الأنوار، ١٧/١١٨/١٠٣.

وعنه عليه السلام:

«لما أنزل الله سبحانه قوله: ﴿الم. أحسب الناس أن يتركوا...﴾ علمتُ أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين أظهرنا. فقلت: يا رسول الله، ما هذه الفتنة؟ قال: يا علي، إن القوم سيفتنون بأموالهم ويَمُنّون بدينهم على ربهم ويتمنون رحمته ويأمنون سطوته ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية فيستحلون الخمر بالنبيذ والسحت بالهدية والربا بالبيع[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام وقد قيل له: قد نرى الرجل يربي وماله يكثر، قال:

«يمحق الله دينه وان كان ماله يكثر»[2].

وعنه عليه السلام لما سُئِل عن قول الله عز وجل: ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾ وقد أرىٰ من يأكل الربا يربو ماله؟، أنه قال:

«فأي محق أمحق من درهم ربا يمحق الدين، فإن تاب منه ذهب ماله وافتقر»[3].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«ألا إنّ أربىٰ الربا شتم الأعراض وأشد الشتم الهجاء والراوية أحد الشاتمين»[4].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«أربى الربا تفضيل المرء على أخيه بالشتم»[5].

١ـ نهج البلاغة، الخطبة (١٥٦).

٢ـ بحار الأنوار، ١٠٣/١١٧/١٢.

٣ـ فقيه، ٣/٢٧٩/(٤٠٠٥).

٤ـ كنز العمال، (٨١٠٥).

٥ـ كنز العمال، (٨١٠٦).

وعنه ﷺ أيضاً:

«إن أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق»[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام لما بلغه أن رجلاً كان يأكل الربا ويسميه اللباء:

«لئن أمكنني الله عز وجل (منه) لاضربن عنقه»[2].

يذكر علي بن ابراهيم في تفسيره ـ في قوله تعالىٰ: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا﴾ ـ:

«فإنه كان سبب نزولها أنه لما نزّل الله ﴿الذين يأكلون الربا﴾ فقام خالد بن وليد إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ربا أبي في ثقيف وقد أوصاني عند موته بأخذه فانزل الله تعالى: ﴿يا أيّها الذين آموا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا...﴾ قال: من أخذ الربا وجب عليه القتل»[3].

الربا في القرآن الكريم:

﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون.

واتقوا النارَ التي أعدت للكافرين.

وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾[4].

***

حول الارتباط بين الآيات القرآنية:

الآيات السابقة ـ كما عرفت ـ تحدثت عن معركة «أُحد» وحوادثها ووقائعها، والدروس والعبر المختلفة التي تعلمها منها المسلمون، غير أن هذه

---

١ ـ كنز العمال، (٨١٠٧).

٢ ـ الفروع من الكافي، ٥/١٤٧/١١.

٣ ـ مستدرك الوسائل، ١٣/٣٣٤/١٥٥١٩.

٤ ـ سورة آل عمران، الآيات (١٣٠ ـ ١٣٢).

الآيات الثلاث والآيات الست اللاحقة بها تحتوي على مجموعة من البرامج الاقتصادية، والاجتماعية، والتربوية ثم يستأنف القرآن بعد هذه الآيات التسع، حديثه حول معركة «أحد» ووقائعها.

يمكن أن يكون هذا النوع من الحديث والبيان مدعاة استغراب ودهشة البعض، إلّا أن الانتباه إلى مبدأ أساسي يوضح حقيقة هذا الأمر، ويكشف الغطاء عن سر هذا الاسلوب.

وذلك المبدأ هو:

أن القرآن ليس كتاباً تقليدياً يعتمد نظام الفصول والأبواب الخاصة، بل هو كتاب نزل بصورة تدريجية طوال ثلاثة وعشرين عاماً، وذلك طبقاً للاحتياجات التربوية المختلفة، وفي أماكن وأزمنة مختلفة، فيوم حدثت معركة أحد ووقائعها كانت تنزل آيات عديدة تعلن عن مناهج وقضايا حربية مختلفة ويوم تتبلور الحاجة إلى بيان بعض البرامج والتعاليم الاقتصادية كالموقف من الربا، أو من بعص القضايا الحقوقية كأحكام الزوجية أو قضية تربوية وأخلاقية كالتوبة كانت تنزل الآيات التي تتناول هذه الأمور.

فيستنتج من هذا أنه قد لا يوجد أي ارتباط خاص بين بعض الآيات وبين ما قبلها أو ما بعدها، وليس من الضروري أن نبحث عن مثل هذا الارتباط ـ كما يحاول بعض المفسرين ذلك ـ أو أن نتكلف افتعال ذلك بين قضايا لم يرد الله سبحانه وتعالى الاتصال والارتباط بينها، لأن مثل هذا العمل لا يتفق مع روح القرآن وكيفية نزوله في الحوادث المختلفة والمناسبات المتنوعة وحسب الاحتياجات والظروف المنفصلة.

على أنه لا ريب في ان جميع السور والآيات القرآنية مرتبطة ومترابطة ـ على وجه ـ وهو أن جميعها تؤلف برنامجاً كاملاً ومنهاجاً متكاملاً مترابطاً لبناء الإنسان وتنشئته بأفضل تنشئة وصياغة وأسماها. كما أنها بمجموعها نزلت لإيجاد مجتمع فاضل، واع، آمن ومتقدم في جميع الأبعاد والجوانب المادية

والمعنوية.

وبما قلناه يعلل عدم ارتباط الآيات التسع التي أشرنا إليها مع ما تقدمها أو يلحقها من الآيات في هذه السورة المباركة.

تحريم الربا في مراحل:

كلنا يعرف أن أسلوب القرآن في مكافحة الانحرافات الاجتماعية المتجذرة في حياة الناس يعتمد معالجة الأمور خطوة فخطوة فهو أولاً يهيئ الأرضية المناسبة ويطلع الرأي العام على مفاسدها ثم بعد اعداد النفوس لتقبل التحريم النهائي يعلن بوضوح عن التحريم في صيغته القانونية النهائية (ويتبع هذا الأسلوب خاصة إذا كان ذلك الأمر المنحرف مما استشرئ في المجتمع، وكانت رقعة انتشاره واسعة).

كما أننا نعلم أيضاً أن المجتمع العربي وفي العهد الجاهلي كان مصاباً ـ بشدة ـ بداء الربا، حيث كانت الساحة العربية (وخاصة مكة) مسرحاً للمرابين. وقد كان هذا العمل القبيح وهذه الفعلة الظالمة مبعثاً للكثير من المآسي الاجتماعية. ولهذا وذاك استخدم القرآن في تحريم هذه الفعلة النكراء أسلوب التدريج، فحرم الربا في مراحل أربع:

١ ـ يكتفي في الآية (٣٩) من سورة الروم بتوجيه نصح أخلاقي حول الربا إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿**وما أُوتيتُم من رباً ليربوا في اموال الناس فلا يربوا عند الله وما أُتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاولئك هم المضعفون**﴾.

وبهذا كشف أن السذج هم الذين يتصورون أن الربا يزيد من ثرواتهم، في حين أن اعطاء الزكاة والإنفاق في سبيل الله هو الذي يضاعف الثروة.

٢ ـ يشير ـ ضمن انتقاد عادات اليهود وتقاليدهم الخاطئة المنحرفة ـ إلى الربا كعادة سيئة من تلك العادات إذ يقول في الآية (١٦١) من سورة النساء: ﴿**وأخذهم الربا وقد نهوا عنه**﴾.

٣ـ يذكر في الآية محل البحث ـ كما سيأتي تفسيرها المفصل ـ حكم التحريم بوضوح ولكنه يشير إلى نوع واحد من أنواع الربا وهو النوع الشديد والفاحش منه فقط.

٤ـ وأخيراً أعلن في الآيات (٢٧٥ـ٢٧٩) من سورة البقرة عن المنع الشامل والشديد عن جميع أنواع الربا، واعتباره بمنزلة إعلان الحرب على الله سبحانه وتعالىٰ:

﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلّا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم.

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين.

فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله فإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلَمون﴾.

التحريم في الآية محل البحث:

قلنا أن الآية محل البحث إشارة إلى الربا الفاحش معبرة عن ذلك بقوله: ﴿أضعافاً مضاعفة﴾.

والمقصود من «الربا الفاحش» هو أن تكون الزيادة الربوية تصاعدية بمعنى أن تضاف الزيادة المفروضة أولاً على رأس المال ثم يصبح المجموع مورداً للربا بمعنىٰ أن الزيادة ثانياً تقاس بمجموع المبلغ (الذي هو عبارة عن رأس المال والزيادة المفروضة في المرة الأولى) ثم تضاف الزيادة المفروضة ثانياً إلى ذلك

المبلغ وتفرض زيادة ثالثاً بالنسبة إلى المجموع.

وهكذا يصبح مجموع رأس المال والزيادة في كل مرة رأس مال جديد تضاف عليه زيادة جديدة بالنسبة، وبهذا يبلغ الدين أضعاف المبلغ الأصلي المدفوع للمديون حتى يفني عجزه عن النهوض أمام أعباء هذه المسؤولية حياته.

ولهذا قال القرآن الكريم: ﴿يا ايّها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾.

ويستفاد من الأخبار والروايات أن الرجل ـ في الجاهلية ـ إذا كان يتخلف عن أداء دينه عند الموعد المقرر طلب من الدائن أن يضيف الزيادة على المبلغ ثم يؤخره إلى أجل آخر.

وهذا هو النهج السائد بعينه في عصرنا الحالي ويتبعه كبار المرابين دون رحمة.

ولا شك أن مثل هذا الفعل يدر على أصحاب الأموال مبالغ ضخمة دون عناء. فلا يمكن الارتداع عنه إلّا بتقوى الله، ولهذا عقب سبحانه نهيه عن مثل هذا الربا الجائر بقوله: ﴿واتقوا الله لعلكم تُفلحون﴾.

ولكن هل يكفي الأمر بتقوى الله والترغيب في الفلاح في صورة ترك الربا؟ أم لابد من التلويح بالعذاب الأخروي للمرابين؟ ولهذا قال سبحانه في الآية الثانية: ﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾، فهذه الآية تأكيد لحكم التقوىٰ الذي مر في الآية السابقة.

ويوحي التعبير بـ«الكافرين» أن أخذ الربا لا يتفق أساساً مع روح الإيمان، ولهذا ينتظر المرابين ما ينتظر الكافرين من النار والعذاب.

كما يستفاد من ذلك أن النار أعدت أساساً للكافرين، وينال العصاة والمذنبون من هذه النار بقدر تمثلهم بالكافرين وانسجامهم معهم.

ثم أنه سبحانه يمزج هذا التهديد بشيء من التشجيع والترغيب للمطيعين

والمتمثلين لأوامره تعالىٰ، إذ يقول: ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾[1].

يكتب الشهيد آية الله دستغيب حول الربا في كتاب الكبائر:

من الفواحش التي تم التصريح بكونها من الكبائر هي الربا. وقد صرح الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، أمير المؤمنين علي عليه السلام، الإمام الصادق عليه السلام، والإمامان الكاظم والجواد عليهما السلام بذلك في رواياتهم وأحاديثهم. والربا من المعاصي التي توعدها القرآن الكريم بالعذاب بل قرر لها عذاباً أشد من عقوبة الكثير من الكبائر.

---

١ ـ تفسير الأمثل، ذيل الآيتين.

الفصل الحادي عشر

الشراب وذمــه

ذم الخمر:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«لعن الله الخمر وعاصرها وغارسها وشاربها وساقيها وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها وحاملها والمحمولة إليه»[1].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«إن الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها»[2].

وكذلك عنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«لا تُجمَع الخمر والإيمان في جوف أو قلب رجل أبداً»[3].

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«ما بعث الله نبياً قط إلّا وقد علم الله أنه إذا أكمل له دينه كان فيه تحريم الخمر ولم تزل الخمر حراماً. ان الدين انما يُحوِّل من خصلة ثم أخرىٰ فلو كان ذلك جملة قطع بهم (بالناس) دون الدين»[4].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

١ـ أمالي الشيخ الصدوق، ١/٣٤٦.

٢ـ كنز العمال، (١٣١٩١).

٣ـ بحار الأنوار، المجلد (٧٦)، ص ٦٤/١٥٢.

٤ـ وسائل الشيعة، ١/٢٩٦/٢٥.

«الخمر أم الفواحش والكبائر»[1].

وعنه ﷺ: «الخمر أم الفواحش واكبر الكبائر»[2]

وعنه ﷺ:

«الخمر أم الخبائث»[3].

وقال ﷺ أيضاً:

«الخمر جماعُ الإثم وأم الخبائث ومفتاح الشر»[4].

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«شُرب الخمر مفتاح كُلِّ شر وشارب الخمر مكذب بكتاب الله عز وجل ولو صدق كتاب الله حرَّم حرامه»[5].

قال رسول الله ﷺ:

«جُمِعَ الشر كله في بيت وجُعل مفتاحه شرب الخمر»[6].

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إن الله عز وجل جعل للشر أقفالاً وجعل مفاتيح كل الأقفال الشراب وأشر من الشراب الكذب»[7].

قال الإمام علي عليه السلام:

«لا تجلسوا على مائدة يشرب عليها الخمر فإن العبد لا يدري متى

---

١ ـ كنز العمال، (١٣١٨١).

٢ ـ المصدر نفسه، (١٣١٨٢).

٣ ـ بحار الأنوار، ج ٧٦، ص (١٤٨).

٤ ـ بحار الأنوار، ١٤٨/٧٦.

٥ ـ بحار الأنوار، ٧٦/ ١٤٠/ ٤٨.

٦ ـ بحار الأنوار، ٥٨/١٤٨/٧٦.

٧ ـ ثواب الأعمال، ٢٤٤.

يؤخذ»[1].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر»[2].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«ملعون ملعون من جلس طائعاً على مائدة يشرب عليها الخمر»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام، عندما سأله المُفَضَّل عن علة تحريم الخمر، أنه قال:

«حرم الله الخمر لفعلها وفسادها لأن مدمن الخمر تورثه الارتعاش وتذهب بنوره وتهدم مروته وتحمله على أن يجترئ على ارتكاب المحارم وسفك الدماء وركوب الزنا ولا يؤمن إذا سكر أن يثب على حُرمه ولا يعقل ذلك ولا يزيد شاربها إلّا كل شر»[4].

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«إن الله حرم الخمر لفعلها وفسادها»[5].

وعنه عليه السلام:

«أفاعيل الخمر تعلوا على كل ذنب كما تعلو شجرتها على كل شجرة»[6].

قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام:

١ـ الخصال، ١٠/٦١٩ (يؤخذ: تفيض روحه فيقضي حتفه).

٢ـ الخصال، ٢١٥/١٦٤.

٣ـ بحار الأنوار، ٥٣/١٤١/٧٩.

٤ـ علل الشرائع، المجلد (٢)، ص ٢/٤٧٦.

٥ـ بحار الأنوار، ٣٣/١٣٦/٧٩.

٦ـ بحار الأنوار، ٥٠/١٤٠/٧٦.

«حرّم الله الخمر لما فيها من الفساد ومن تغييرها عقول شاربيها وحملها إياهم علىٰ إنكار الله عز وجل والفرية[1] عليه وعلى رُسله وسائر ما يكون منهم من الفساد والقتل»[2].

قال الإمام علي عليه السلام:

«فرض الله... ترك شرب الخمر تحصيناً للعقل»[3].

وعنه عليه السلام:

«من شرب الخمر وهو يعلم أنها حرام سقاه الله من طينة خَبال»[4].

وعنه:

«من شرب المُسكر لم تقبل صلاته أربعين يوماً وليلة»[5].

وعنه عليه السلام:

«مدمن الخمر يلق الله عز وجل حين يلقاه كعابد وثَن فقال حجرُ بن عدي: يا أمير المؤمنين ما المدمن؟ قال: الذي إذا وجدها شربها»[6].

قال الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم:

«من شرب الخمر لم يقبل منه صلاة أربعين ليلة فإن عاد فأربعين ليلة من يوم شربها فإن مات في تلك الأربعين من غير توبة سقاه الله يوم القيامة من طينة خَبال»[7].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

١ـ الفرية: الكذبة أو الرواية المؤذية المختلقة. (معجم لاروس).

٢ـ عيون أخبار الرضا (ع)، ٢/٩٨/٢.

٣ـ نهج البلاغة، الحكمة (٢٥٢).

٤ـ الخصال، ١٠/٦٢١.

٥ـ الخصال، ١٠/٦٣٢.

٦ـ الخصال، ١٠/٦٣٢.

٧ـ بحار الأنوار، ٢٠/١٣١/٧٦.

«شارب الخمر لا تصدقوه إذا حدَّث ولا تزوجوه إذا خطب ولا تعودَوه إذا مرض ولا تحضروه إذا مات ولا تأمنوه على أمانة»[1].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«لا تجالسوا مع شارب الخمر ولا تعودوا مرضاهم ولا تشيعوا جنائزهم ولا تصلوا على أمواتهم فإنهم كِلاب أهل النار كما قال الله: اخسؤوا فيها ولا تكلمون»[2].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«مثل شارب الخمر كمثل الكبريت فاحذروه لا ينتنكم كما ينتن الكبريت. وإنَّ شارب الخمر يصبح ويمسي في سخط الله وما من أحد يبيت سكران إلّا كان للشيطان عروساً إلى الصباح فإذا أصبح وَجَب عليه أن يغتسل كما يغتسل من الجنابة»[3].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«من بات سكران بات عروساً للشيطان»[4].

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إن أهل الري في الدنيا من المسكر يموتون عِطاشاً ويُحشرون عِطاشاً ويدخلون النار عِطاشاً»[5].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«يجيئ مدمن الخمر يوم القيامة مزرقة عيناه مسوداً وجهه مائلاً شِقُّهُ يسيل

---

١ ـ بحار الأنوار، ٧٦/١٢٧/٧.

٢ ـ بحار الأنوار، ٧٦/١٤٨/٥٨.

٣ ـ بحار الأنوار، ٧٦/١٥٠/٦٤.

٤ ـ بحار الأنوار، ٧٦/١٤٨/٦٤.

٥ ـ ثواب الأعمال، ٢٤٣.

لعابه»[1].

وعنه ﷺ:

«يخرج الخمار من قبره مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله»[2].

وعنه ﷺ:

«والذي بعثني بالحق نبياً إن شارب الخمر يأتي يوم القيامة مسوداً وجهه يضرب برأسه الأرض وينادي: واعطشاه»[3].

وعنه ﷺ:

«من ترك الخمر لغير الله سقاه الله من الرحيق المختوم فقال علي (ع): لغير الله؟ قال: نعم، والله صيانة لنفسه»[4].

قال الإمام الكاظم عليه السلام:

«إن الله عز وجل لم يحرم الخمر لاسمها ولكنه حرمها لعاقبتها فما كان عاقبته عاقبة الخمر فهو خمر»[5].

الآيات القرآنية وشرب الخمر:

﴿يا ايها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطانِ فاجتنبوهُ لعلكُم تفلحون.

إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون.

وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا

---

١ ـ المصدر السابق، ص (٢٤٣).

٢ ـ المصدر نفسه.

٣ ـ مجموعة ورام، المجلد (٢)، ص (١١٥).

٤ ـ بحار الأنوار، ٧٦/١٥٠/٦٤.

٥ ـ الكافي، ٦/٤١٢/٢.

البلاغ المبين﴾[1].

ورد تفسير هذه الآيات في المجلد الأول من كتاب مفاسد الحرام من المال والطعام. ولمزيد من الاطلاع حول هذه الآيات راجع تفسير الأمثل، ذيل الآيات.

طرفة:

قيل ان رجلاً ثمل إثر شرب الخمر ثم ارتاد مكاناً تناول فيه شيئاً من الكبد المشوي وبعد الفراغ من تناوله ترك المكان في حال غير طبيعية. وفي الطريق أصابه الغثيان فتقيأ كل ما تناوله ومنه الكبد المشوي. سارعت قطة كانت بالقرب منه إلى تناول الكبد المرمىٰ على الأرض. ولما أبصرها الرجل وقد فقد رجحان عقله، قال: أذكر أنني تناولت كبداً مشوياً ولكنني لا أذكر متى تناولت هذه القطة التي تقيأتها.

مما يؤسف له أن المعتاد على اتيان عمل ما يرجح دوماً حكم الاعتياد عند تقاطع حكم العقل والاعتياد. فعلى سبيل المثال ينهى العقل عن تعاطي الترياق أو عصارته بينما الاعتياد والإدمان يفرضه، في مثل هذه الحالة، فرضاً يغلب فيه العقل. وهكذا عند تضارب حكم الشرع مع الطبع هنالك من يتهافت وراء الطبع تاركاً حكم الشرع وراء ظهره[2].

---

١ ـ سورة المائدة، الآية (٩٠ ـ ٩٢).

٢ ـ راجع الكلام يجر الكلام، آية الله الزنجاني، المجلد (١)، ص (١١).

الفصل الثاني عشر

الدّين والمماطلة في إيفائه

الدين في القرآن والسنة:

قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدينٍ إلى أجلٍ مسمىً فاكتبوه. فإن أمِنَ بعضُكم بعضاً فليؤدِّ الذي اؤتمن أمانتهُ وليتقِ اللهَ ربه﴾[1].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إياكم والدين فإنه همٌّ بالليل وذلٌ بالنّهار»[2].

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«الدين غم بالليل وذل بالنهار»[3].

قال الإمام علي عليه السلام:

«الدين أحد الرقين»[4].

وعنه عليه السلام:

«كثرة الدين تُصيّر الصادق كاذباً والمنجز مخلفاً»[5].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما سمعه أبو سعيد الخدري:

«اعوذ بالله من الكفر والدين. قيل يا رسول الله: أيعدل الدين بالكفر؟

١ـ سورة البقرة، الآيتان (٢٨٢ و ٢٨٣).

٢ـ بحار الأنوار، ١٠٢/١٤١/٤.

٣ـ تحف العقول، (٣٥٩).

٤ـ غرر الحكم، (١٦٨٧).

٥ـ غرر الحكم، (٧١٠٥).

فقال ﷺ: نعم»[1].

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«خففوا الدَين فإن في خفة الدين زيادة العمر»[2].

قال الإمام الكاظم عليه السلام:

«من طلب هذا الرزق من حله ليعود به على نفسه وعياله كان كالمجاهد في سبيل الله عز وجل فإن غلب عليه فليستدن على الله وعلى رسوله ﷺ ما يقوت به عياله»[3].

عن معاوية بن وهب: قلت لأبي عبد الله (الصادق) عليه السلام أنه ذُكر لنا أن رجلاً من الأنصار مات وعليه ديناران ديناً فلم يصل عليه النبي ﷺ وقال: صلوا على صاحبكم حتى ضمنهما (عنه) بعض قرابته.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: ذلك الحق. ثم قال: إن رسول الله ﷺ إنما فعل ذلك ليتعظوا وليَرُدَّ بعضهم على بعض ولئلا يستخفوا بالدين وقد مات رسول الله ﷺ وعليه دين ومات الحسن عليه السلام وعليه دين وقتل الحسين عليه السلام وعليه دين»[4].

قال رسول الله ﷺ:

«أصناف لا يستجاب لهم، منهم من أدان رجلاً ديناً إلى أجل فلم يكتب عليه كتاباً ولم يشهد عليه شهوداً»[5].

١ـ الخصال، ٣٩/٤٤.

٢ـ بحار الأنوار، ٢١/١٤٥/١٠٣.

٣ـ الفروع من الكافي، ٣/٩٣/٥. (غلب عليه: أصابه الفقر والعيلة).

٤ـ الفروع من الكافي: ٢/٩٣/٥ (يذكر الكليني في هامش الرواية أن المتوفى لعله كان مستخفاً بالدين ولا ينوي قضاءه أو لم يكن له وجه الدين أو من يؤدي عنه كما يدل عليه آخر الخبر).

٥ـ بحار الأنوار، ١/٣٠١/١٠٤.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«من ذهب حقه على غير بينة لم يؤجر»[1].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«من يمطل على ذي حق حقه وهو يقدر علىٰ أداء حقه فعليه كل يوم خطيئة عَشّار»[2].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«الدين على ثلاثة وجوه: رجل إذا كان له فانظروا إذا كان عليه أعطىٰ ولم يماطل فذلك له ولا عليه، ورجل إذا كان له استوفىٰ وإن كان عليه أوفىٰ فذلك لا له ولا عليه، ورجلٌ إذا كان له استوفىٰ وإذا كان عليه مطل فذلك عليه ولا له»[3].

قال الإمام علي عليه السلام:

«أبخل الناس بعَرَضه أسخاهم بعِرضِه»[4].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«مَطلُ الغني ظلم»[5].

طرفة:

استدان شخص مبلغاً من المال ثم راح يماطل في دفع ما عليه كل ما استوفاه صاحب الدين. قال المدين: انني لم أهمل دينك فقد زرعت شوكاً في الصحراء لتلتصق به أوبار ما تحت بطون الخراف وهي تمر بها.. سأجمع الوبر وأغزله وأصنع منه خيطاً أبيعه وأسدد بثمنه دينك وبهذا تستوفي مالك.

---

١ ـ الفروع من الكافي، ٣/٢٩٨/٥.

٢ ـ بحار الأنوار، ٣/١٤٦/١٠٣.

٣ ـ الخصال، ٢٩/٩٠.

٤ ـ غرر الحكم، (٣١٩٠).

٥ ـ مستدرك الوسائل، ١٥٧١٣/٣٩٧/١٣.

اندهش الدائن لسماع هذا الكلام ولم يتمالك نفسه فضحك تهكماً به.

عندها قال المدين: إن شئت فاضحك فأنا أيضاً سأضحك بدوري مبتهجاً لسهولة قضاء ديني...

مما يؤسف له بشدة في أيامنا هذه هو خروج أخلاق وسلوكيات بعض المسلمين في هذا السياق عن جادة الصواب والسواء فيهمل بعضهم حق بعض وكأنهم لا يروق لهم تبادل الاحترام بينهم.

اهتمام الإمام الحسين (ع) باحقاق الحقوق:

عن موسىٰ بن عمير، عن أبيه، قال: أمرني الحسين بن علي عليه السلام، قال: نادِ أن لا يقتل معي رجل عليه دين وناد بها في الموالي فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من مات وعليه دين أخذ من حسناته يوم القيامة[1].

---

١ ـ إحقاق الحق، المجلد (١٩)، ص (٤٢٩).

الفصل الثالث عشر

جزاء حبس الزكاة

الزكاة في الروايات

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«الزكاة قنطرة الإسلام فمن أداها جاز القنطرة ومن منعها احتبس دونها وهي تطفئ غضب الرب»[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«ما فرض الله عز ذكره على هذه الأمة أشد عليهم من الزكاة وما تهلك عامتهم إلّا فيها»[2].

وعنه عليه السلام:

«لا صلاة لمن لا زكاة له، ولا زكاة لمن لا ورع له»[3].

قال الإمام الرضا عليه السلام:

«إن علة الزكاة من أجل قوت الفقراء وتحصين أموال الأغنياء لأن الله عز وجل كلَّف أهل الصحة القيام بشأن أهل الزمانة والبلوىٰ كما قال الله تبارك وتعالى: لتبلونَّ في أموالكم وأنفسكم، في اموالكم: إخراج الزكاة وفي أنفسكم توطين الأنفس على الصبر. مع ما في ذلك من أداء شكر نعم الله عز وجل والطمع في الزيادة مع ما فيه من الزيادة والرأفة والرحمة لأهل الضعف والعطف

١ـ أمالي الطوسي، ١١٥٧/٥٢٢.

٢ـ المصدر نفسه، ١٤٧٤/٦٩٣.

٣ـ مشكاة الأنوار، ٤٦.

على أهل المسكنة والحث لهم على المواساة وتقوية الفقراء والمعونة لهم على أمر الدين وهو عِظة لأهل الغنىٰ وعبرة لهم ليستدلوا على فقراء الآخرة بهم»[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«إن الله عز وجل فرض للفقراء في أموال الأغنياء مما يكتفون به ولو عَلِم الله أن الذي فرض لهم لم يكفهم لزادهم فانما يؤتى الفقراء فيما أوتوا من منع من منعهم حقوقهم لا من الفريضة»[2].

وعنه عليه السلام أيضاً:

«إن الله خلق الخلق كلهم فعَلِم صغيرهم وكبيرهم وعلم غنيهم وفقيرهم فجعل من كل ألف إنسان خمسة وعشرين مسكيناً فلو علم أن ذلك لا يسعهم لزادهم لأنه خالقهم وهو أعلم بهم»[3].

قال الإمام علي عليه السلام:

«إن الله فرض علىٰ أغنياء الناس في أموالهم قدر الذي يسع فقراءهم فإن ضاع الفقير أو أجهد أو عَري فبما يمنع الغني وأن الله عز وجل محاسب الأغنياء في ذلك يوم القيامة ومُعذبهم عذاباً أليماً»[4].

قال الإمام الكاظم عليه السلام:

«إنما وُضعت الزكاة قوتاً للفقراء وتوفيراً لأموال الأغنياء»[5].

قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام:

«إنما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء ومعونة للفقراء ولو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً ولاستغنىٰ بما فرض الله عز وجل له وأن

---

١ ـ الفقيه: ١٥٨٠/٨/٢.

٢ ـ علل الشرائع، ٢/٣٦٩.

٣ ـ المصدر نفسه: ١/٣٦٩.

٤ ـ علل الشرائع، ١/٣٦٨.

٥ ـ علل الشرائع، ١/٣٦٨.

الناس ما افتقروا ولا احتاجوا ولا جاعوا ولا عروا إلّا بذنوب الأغنياء»[1].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إذا أردت أن يثري الله مالك فزَكِّه»[2].

وقال الإمام الباقر عليه السلام:

«الزكاة تزيد في الرزق»[3].

وعن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام:

«فرض الله... الزكاة تسبيباً للرزق»[4].

وعن الإمام الحسن عليه السلام:

«ما نقصت زكاة من مال قط»[5].

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«يا مُفَضَّل! قل لأصحابك يضعون الزكاة في أهلها وإني ضامن لما ذهب لهم»[6].

قال الإمام الكاظم عليه السلام:

«إن الله عز وجل وضع الزكاة قوتاً للفقراء وتوفيراً لأموالكم»[7].

وعن الإمام الباقر عليه السلام، أنه قال في قوله تعالى ﴿فأما من اعطىٰ واتقى وصدَّق بالحسنىٰ﴾:

إن الله يعطي بالواحدة عشرة إلى مائة الف فما زاد، ﴿فسنيسره لليسرىٰ﴾: لا

---

١ ـ الفقيه، ٢/٧/١٥٧٩.

٢ ـ بحار الأنوار، ٩٦/٢٣/٥٤.

٣ ـ بحار الأنوار، ٧٨/١٨٣/٨.

٤ ـ نهج البلاغة، الحكمة (٢٥٢).

٥ ـ بحار الأنوار، ٩٦/٢٣/٥٦.

٦ ـ بحار الأنوار، ٧٨/٣٨١/١.

٧ ـ الكافي، ٣/٤٩٨/٦.

يريد شيئاً من الخير إلّا يسره الله له[1].

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«ما ضاع مال في بر ولا بحر إلّا بتضييع الزكاة فحصنوا أموالكم بالزكاة»[2].

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«ما نقصت زكاة من مال قط ولا هلك مال في بر أو بحر أديت زكاته»[3].

وعنه عليه السلام أيضاً:

وجدنا في كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا منعوا الزكاة منعت الأرض بركتها من الزرع والثمار والمعادن كلها»[4]

وعن الإمام الرضا عليه السلام:

«إذا حُبِست الزكاة ماتت المواشي»[5].

قال الإمام علي عليه السلام:

«حصنوا أموالكم بالزكاة»[6].

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«من منع الزكاة سأل الرجعة عند الموت وهو قول الله عز وجل: حتى إذا جاء أحدكم الموت قال رب ارجعون، لعلي اعمل صالحاً فيما تركت[7]».

وعنه عليه السلام:

١ـ وسائل الشيعة، ٥/٢٥٦/٦.

٢ـ بحار الأنوار، ٧٣ /٣٩٣/٦٩.

٣ـ بحار الأنوار، ٥٧/٢٨/٩٦.

٤ـ الكافي، ٢/٣٧٤/٢.

٥ـ بحار الأنوار، ٨/٣٧٣/٩٦.

٦ـ بحار الأنوار، ٥٧/٢٨/٩٦.

٧ـ بحار الأنوار، ٥٠/٢١/٩٦.

«السُّراق ثلاثة: مانع الزكاة ومستحل مهور النساء وكذلك من استدان ولم ينو قضاءه»[1].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما سئل عن قول الله عز وجل: ﴿ويل للمشركين، الذين لا يؤتون الزكاة﴾:

لا يعاتب المشركين أم سمعت قوله: ﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون﴾؟! ألا أن الماعون الزكاة. ثم قال: والذي نفس محمد بيده ما خان الله أحدٌ شيئاً من زكاة ماله إلّا مشرك بالله»[2].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً:

«يا علي! كفر بالله العظيم من هذه الأمة عشرة... ومانع الزكاة»[3].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم:

«من منع قيراطاً من زكاة ماله فليس هو بمؤمن ولا مسلم ولا كرامة»[4].

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«من منع قيراطاً من الزكاة فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً»[5].

وعن الإمام الباقر عليه السلام:

«الذي يمنع الزكاة يحول الله ماله يوم القيامة شُجاعاً من نار له ريمتان فيطوقه إياه ثم يقال له: إلزمه كما لزمك في الدنيا وهو قول الله: سيطوقون ما بخلوا به»[6].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

١ـ بحار الأنوار، ١٥/١٢/٩٦.

٢ـ بحار الأنوار، ٥٧/٢٩/٩٦.

٣ـ الخصال، ٥٦/٤٥١.

٤ـ بحار الأنوار، ٣/٥٨/٧٧.

٥ـ ثواب الأعمال، ٧/٢٨١.

٦ـ بحار الأنوار، ٣/٨/٩٦.

«مانع الزكاة يُجَرُّ قصبه في النار ـ يعني امعاءه في النار ـ ومُثِّل له ماله في النار في صورة شُجاع أقرع له زبيبان أو زبيبتان يَفِرُّ الإنسان منه وهو يتبعه حتى يقضمه كما يقضم الفُجل ويقول: أنا مالك الذي بخلت بي»[1].

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«إن الله عز وجل يبعث يوم القيامة ناساً من قبورهم مشدودة ايديهم إلى أعناقهم...، معهم ملائكة يعيرونهم تعييراً شديداً يقولون: هؤلاء الذين منعوا خيراً قليلاً من خير كثير، هؤلاء الذين أعطاهم الله عز وجل فمنعوا حق الله عز وجل في أموالهم»[2].

قال الإمام علي عليه السلام:

«إن الزكاة جعلت مع الصلاة قرباناً لأهل الإسلام فمن أعطاها طيِّبَ النفس بها فانها تُجعل له كفارة ومن النار حجازاً (حجاباً) ووقاية فلا يتبعنها أحد نفسه ولا يكثرن عليها لهفه فإنَّ من أعطاها غير طيب النفس بها يرجو بها ما هو أفضل منها فهو جاهل بالسُّنّة مغبون الاجر ضالُ العمل، طويل الندم»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام:

«ان من تمام الصوم اعطاء الزكاة ـ يعني الفطرة ـ كما أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم من تمام الصلاة لأنه من صام ولم يؤد الزكاة فلا صوم له إذا تركها متعمداً»[4].

قال الإمام علي عليه السلام:

«من أدىٰ زكاة الفطرة تمم الله له بها ما نقص من زكاة ماله»[5].

---

١ ـ بحار الأنوار، ٩٦/١٥/٢٩. (شجاع: أفعىٰ).

٢ ـ بحار الأنوار، ٩٦/٢١/٤٩.

٣ ـ نهج البلاغة، الخطبة (١٩٩).

٤ ـ الفقيه، ٢٠٨٥/١٨٣.

٥ ـ وسائل الشيعة، ٦/٢٢٠/٤.

يذكر النوري (ره) في كتابه «الكلمة الطيبة» أربعين حكاية تدور حول بركة الصدقة والإنفاق في سبيل الله. ومنها:

إن العالم الرباني الملا فتحعلي يروي عن أحد ثقاة أقاربه أنه ذات سنة وفي بحبوحة تفشي الغلاء كان له حقل يزرع فيه الشعير وقد أينع في تلك السنة وأثمر ونضج محصولها أكثر من سواه. وكان الناس على اختلاف طبقاتهم يعانون من الجوع فرثىٰ لحالهم وغض النظر عن منفعته منه فقصد المسجد وأعلن أنه قد كرس منتوج شعير ذلك الحقل للناس على أن لا ينال غير الفقير شيئاً منه ولا الفقير أكثر من قوت أهله وعياله حتى يتم الحصاد. سارع الفقراء إلى حيث وجههم فكانوا ينالون منه يومياً ما يكفيهم دون إشراف من صاحب الحقل فقد تنازل لهم عنه ولم يعد يأمل في نفع منه حتى تم الحصاد وكانت أمور الناس قد سارت إلى رخاء نسبي. عندئذ أمر معتمديه أن يجمعوا التبن وما أهمل فيها من الشعير من ذلك الحقل ففعلوا وحصدوها. وبعد الطحن والتنقية تنبهوا إلى أن المتبقي من القمح يضاهي ضعف ما أثمرته بقية الحقول فلم ينتقص المحصول بما ناله منه الفقراء بل ازداد عما هو مألوف بينما كان المتوقع أن لا يبقىٰ منه في مثل تلك الظروف حتى سنبلة واحدة. والأكثر إثارة للعجب أنه مع حلول فصل الخريف يفترض ترك حقوق الشعير لسنة كاملة دون زراعة لتستعيد التربة قدرتها على الإثمارفترك صاحب الحقل أرضه دون أن يحرثها أو ينثر فيها البذور. وعند حلول الربيع وذوبان الثلوج وانزياحها عن الحقول اينع الحقل وأثمر أكثر وأفضل من سائر الحقول الأخرىٰ رغم عدم حرثها وبذرها. فاندهش صاحبه حتى خيل إليه أنه أخطأ المكان. ومع نضوج المحاصيل وحصادها فطن الرجل إلى أن محصول الحقل يضاهي اضعاف ما حصد من بقية الحقول ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾.

ويروي (ره) أنه كان يملك بستان عنب على قارعة الطريق العام وما أن بدأ المحصول مرحلة النضوج أخبر حارس البستان أن يغض النظر عن القسم

المطل على الشارع ليتناول منه المارة. ومنذ تلك الأوان وحتى انتهاء موسم حصاد العنب لم يتعرض أحد للمارة مهما تناولوا منه. وبعد الفراغ من حصاد العنب في نهاية الخريف عرجوا على ذلك القسم للبحث عما يكون قد خفي عن أعين المارة بين الأوراق فاستجمع منه أضعاف ما استجمع من باقي الأقسام فلم ينتقص محصوله رغم كثرة ما اقتطفه المارة.

ويروي أيضاً أنه كان ينقل القمح بعد تنقيته إلى الدار ثم يدفع عنه الزكاة. ذات سنة فكر بعد تنقية المحصول وقبل نقله إلى الدار أن تأخير الزكاة عن محلها غير مستساغ، فالقمح مهيأ للتوزيع والفقراء مستعدون للاستلام، فبعث في طلب الفقراء ممن يعرفهم واحتسب مقدار القمح فعزل حق الفقراء منه. وقسمه عليهم ثم نقل ما تبقىٰ منه إلى الدار واختزنها في أوعية كانت له في الدار وهو يعلم مقدار ما يستوعبه كل منها. وبعد انتهائه من خزنها فطن إلى أن القمح لم ينتقص عما حصده تماماً قبل دفع الزكاة منه.

ويروي في الكتاب نفسه عن المرحوم الحاج مهدي سلطان آبادي أنه في سنة من السنين كالوا القمح بعد حصاده ودفعوا الزكاة عنه في محله. فتركوه حوالي الشهر في محله. فنالت منه الحيوانات والفئران ما شاءت. ثم كالوا القمح ثانية فوافق ما كان عليه يوم حصاده ولم ينتقص بما دفع منه للزكاة أو تعرض للتلف بسبب الحيوانات[1].

---

١ ـ عن كتاب «الذنوب الكبيرة» للشهيد آية الله عبد الحسين دستغيب، المجلد (٢)، ص١٨٦.

الفصل الرابع عشر

أهمية دفع الخمس وطلب الحلال

«شر الأموال ما لم يخرج منه حق الله سبحانه»

غرر الحكم

وجوب الخمس:

يعتبر الخمس من أهم الفرائض الالهية بعد الزكاة وهو حق أقره الله عز وجل للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولذريته عوضاً عما حرمه عليهم من الزكاة. فمن يغبن الخمس درهماً واحداً أو أقل منه ينتمي إلى زمرة ظلمة آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومغتصبي حقهم بل يعد المستحل له ومنكر وجوبه كافراً. وقد أجمع المسلمون عامة على وجوبه وأكده القرآن الكريم بنصوص واضحة بل حسبه من شروط الإيمان بالله حيث نقرأ في سورة الأنفال (الآية ٤١):

﴿واعلموا أنما غنمتُم من شيءٍ فأنَّ لله خُمُسَهُ وللرسولِ ولذي القربىٰ واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتُم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، والله على كل شيءٍ قدير﴾.

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«إن الله لا إله إلّا هو لما حرّم علينا الصدقة أنزل لنا الخمس، والصدقة علينا حرام والخمس لنا فريضة والكرامة أمر لنا حلال»[1].

أما الإمام الباقر عليه السلام فقد قال:

«لا يحل لأحد أن يشتري من الخمس شيئاً حتى يصل إلينا حقنا».

وعنه عليه السلام:

«إن أشد ما فيه الناس يوم القيامة أن يقوم صاحب الخمس فيقول: ربِّ!

---

١ ـ مستدرك الوسائل، المجلد (٧)، ص ٨٨٨

خمسي، وقد طيبنا ذلك لشيعتنا لتطيب ولادتهم وليزكّوا أولادهم»[1].

***

كتب رجل من تجار فارس من بعض موالي أبي الحسن الرضاعليه السلام يسأله الإذن في الخمس.

فكتب إليه:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم، إن الله واسع كريم ضمن على العمل الثواب وعلى الضيق الهم لا يحل مال إلّا من وجه أحلَّه الله وإن الخمس عوننا على ديننا وعلى عيالاتنا وعلى موالينا وما نبذله ونشتري من أعراضنا ممن نخاف سطوته فلا تزووه عنا ولا تحرموا أنفسكم دعاءنا ما قدرتم عليه، فإن إخراجه مفتاح رزقكم وتمحيص ذنوبكم وما تمهدون لأنفسكم ليوم فاقتكم والمسلم من يفي لله بما عهد إليه وليس المسلم من أجاب باللسان وخالف بالقلب. والسلام»[2].

***

ورد على أبي الحسن الأسدي توقيع من الشيخ محمد بن عثمان ابتداء لم يتقدمه سؤال:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم، لعنة الله والملائكة والناس أجمعين على من استحل من أموالنا درهماً».

قال أبو الحسن الأسدي (ره) فوقع في نفسي أن ذلك فيمن استحل من مال الناحية درهماً دون من أكل منه غير مستحل له. وقلت في نفسي: إن ذلك في جميع من استحل محرماً فأي فضل في ذلك للحجةعليه السلام على غيره. قال: فوالذي بعث محمداً بالحق بشيراً لقد نظرت بعد ذلك في التوقيع فوجدته قد انقلب إلى

---

١ ـ التهذيب، المجلد (٤)، ص ١٣٦.

٢ ـ أصول الكافي، المجلد (١)، ص ٥٤٧.

ما كان في نفسي: بسم الله الرحمٰن الرحيم، لعنة الله والملائكة والناس أجمـعين على من أكل من مالنا درهماً حراماً».

قصة الحاج علي البغدادي وتشرفه بلقاء إمام العصر والزمان (عج):

نقرأ في كتاب «مفاتيح الجنان» الجليل عن السيد الرضي (رض):

«مما يناسب المقام قصة السعيد الصالح الصفي المتقي الحاج علي البغدادي التي أوردها شيخنا في جنة المأوى والنجم الثاقب. وقال في كتاب النجم الثاقب أنه لو لم يكن في هذا الكتاب سوىٰ هذه القصة المتقنة الصحيحة الحاوية على فوائد جمة الحادثة في عصرنا لكفاه شرفاً ونفساً. ثم قال بعدما مهد من المـقدمات: حكى الحاج علي ايده الله قائلاً: تراكم في ذمتي من سهم الإمـام(عـج) مـن الخمس مبلغ ثمانين توماناً فرحلت إلى النجف الأشرف ودفعت منها إلى علم الهدى والتقى حضرة الشيخ مرتضىٰ أعـلى الله مـقامه عـشرين تـوماناً وإلى حضرة الشيخ محمد حسين المجتهد الكـاظمي عـشرين تـوماناً وإلى حـضرة الشيخ محمد الشروقي عشرين توماناً ولم يبق عليّ سوى عشرين توماناً كنت أروم أن أقدمها إذا قفلت من النـجف إلى الشـيخ محـمد حسـين آل يـاسين الكاظمي أيده الله. ووددت لما وافيت بغداد أن أبادر إلى أداء ما ستمر علي من السهم فتوجهت إلى الكاظمية وكان اليـوم يـوم الخـميس فـزرت الإمـامين الهمامين الكاظمين عليهما السلام ثم وافيت حضرة الشيخ سلمه الله فنقدته شطراً مـن العشرين توماناً وأوعدته بأن أودي الباقي إذا بعت بعض البضائع بأن ابذله إلى مستحقه حسب ما يحيله علي بالتدريج ثم أزمـعت عـلى مـغادرة الكـاظمية ورفضت ما ألح فيه حضرة الشيخ من البقاء معتذراً بأن عـليَّ أن أوفي عـمال معمل النسيج أجورهم حسب ما قررت عليه من بذل أجر عمل الأسبوع في يوم الخميس عصراً فأخذت أسلك طريقي إلى بغداد فلما قاربت ثلث الطريق إذا أنا بسيد جليل من السادة يعرج عليّ في طريقه إلى الكاظمية فـدنىٰ مـني وسلّم علي وبسط يده للمصافحة والمعانقة ورحب بي قـائلاً: أهـلاً وسهـلاً.

وضمني إلى صدره وتلاثمنا وكان قد تعمم بعمامة خضراء وزاهرة وفي وجـهه الشريف شامة كبيرة سوداء فتوقف وقـال عـلى خـير.. فـاجبته: قـد زرت الكاظمينعليهما السلام وأنا الآن ماض إلى بغداد فقال لي: عد إلى الكاظمين فهذه ليلة الجمعة. قلت: لا يسعني العودة. فأجاب ذلك في وسعك. عد كي أشهد لك بأنك من الموالين لجدي أمير المؤمنين ولنـا ويـشهد لك الشـيخ فـقد قـال تـعالى: واستشهدوا شهيدين، وكان هذا تلميحاً إلى ما كنت أتوخيه من التماس الشيخ أن يمنحني رقعة أجـعلها في كـفني يـشهد لي فـيها بأني مـن المـوالين لأهـل البيتعليهم السلام. فسألته: من أين عرفتني وكيف تشهد لي؟. فأجـاب: وكـيف لا يعرف المرء من وافاه حقه. قلت: وأي حق هذا الذي تعنيه. فأجاب: ما بذلته لوكيلي. قلت: ومن هو: قال: الشيخ محمد حسين. فقلت: أهو وكيلك؟ أجاب: هو وكيلي وكذلك السيد محمد. قال الحاج «علي» ما كنت أعرف صاحبي هذا ولكنه كان قد دعاني باسمي فاحتملت أن يكون بيننا معرفة سابقة وقلت أيضاً في نفسي: إنـه يـطالبني بـشيء مـن الخـمس. ووددت ان أبـذله مـن سهـم الإمام(عج) فقلت: يا أيها السيد. إنه قد بقىٰ في ذمتي من حقكم شيء (أي حق السادة) وقد راجعت في ذلك حضرة الشيخ محمد حسن كي أؤديه إليكم بإذنه فتبسم في وجهي، قائلاً: نعم قد ابلغت شطراً من حقنا إلى وكلائنا في النـجف الأشرف. فقلت: هل قبل ما أديته؟ قال: نعم ثم انتبهت إلى أن صاحبي هـذا يعبر عن أعاظم العلماء وبكلمة وكلائي فاستكبرت ذلك. ثم قـلت في نـفسي العلماء وكلاء السادة في قبض حقوقهم. ثم اعترضتني الغفلة.

ثم قال لي: عد إلى زيارة جدي فطاوعته وعدت معه وكنت قابضاً على يده اليمنىٰ بيدي اليسرىٰ فلما استأنفنا المسير وجدت نهراً إلى جانبنا الأيمن يجري بماء زلال ووجدت أشجار الليمون والرارنج والعنب والرمان وغيرها تظلنا من فوق رؤوسنا وكلها مثمرة معاً في غير مواسمها. فسألته عن النهر والأشـجار، فقال: إنها تصاحب كل موال من موالينا إذا زار جدنا وزارنا. فقلت له: مسألة أريد سؤالها. قال: سل: قلت: أن الشيخ عبد الرزاق رحمه الله كان ممن يـزاول

التدريس وقد وافيته يوماً فسمعته يقول (من دأب في حياته على صيام النهار وقيام الليل وحج أربعين حجة واعتمر أربعين عمرة ثم وافته المنون وهو بين الصفا والمروة ولم يكن هو من الموالين لأمير المؤمنين عليه السلام ما كان له شيء من الأجر) فأجاب (نعم) والله ما كان له شيء. ثم سألته عن بعض أقربائي هل هم من الموالين لأمير المؤمنين عليه السلام فأجاب: نعم هو ومن يتصل بك. ثم قلت: سيدنا مسألة. قال: سل. قلت: يقول خطباء مأتم الحسين عليه السلام: أن سليمان الأعمش أتىٰ رجلاً يسأله عن زيارة سيد الشهداء عليه السلام فأجابه الرجل: أنها بدعة. ثم رأىٰ في المنام هودجاً بين السماء والأرض. فسأل عن الهودج. فاجيب بان فيه فاطمة الزهراء وخديجة الكبرى عليهما السلام. فسأل أين تذهبان؟ فأجيب إلى زيارة الحسين عليه السلام في هذه الليلة وهي ليلة الجمعة. وشاهد رقعاً تتساقط إلى الأرض من ذلك الهودج كتب فيها أمانٌ من النار لزوار الحسين عليه السلام في ليلة الجمعة. أمان من النار يوم القيامة. فهل صحيح هذا الحديث؟ قال: نعم تام صحيح. قلت: سيدنا أصحيح ما يقال من أن من زار الحسين عليه السلام ليلة الجمعة كان آمناً. قال: نعم ودمعت عيناه وبكىٰ. قلت: سيدنا مسألة. قال: سل. قلت: قد زرنا الرضا عليه السلام سنة ألف ومائتين وتسع وستين فصادفنا في بلدة درود أحد الشروقيين (وهم قوم من العرب يسكنون البادية الشرقية للنجف الأشرف) فاضفناه وسألناه عن ولاية الرضا عليه السلام. فقال: هي الجنة. وقال هذا هو الخامس عشر من أيام اقتات فيها بطعام الرضا عليه السلام فكيف يجرأ منكر ونكير أن يدنوا مني في قبري. إنه قد نبت لحمي وعظمي من طعام الرضا عليه السلام في دار ضيافته. فهل صحيح أن الرضا يوافيه في قبره وينجيه من منكر ونكير. فأجاب: نعم، والله أن جدي الضامن. قلت: سيدنا مسألة قصيرة شئت أسألها. قال: سل. قلت: زيارتي للرضا عليه السلام هل هي مقبولة. أجاب: مقبولة إن شاء الله. قلت: سيدنا مسألة. قال: سل، بسم الله قلت: وهل قبلت زيارة الحاج محمد حسين البزاز (بزاز باشي) ابن المرحوم الحاج أحمد البزاز. وقد وافقته في طريقي إلى مشهد الرضا عليه السلام فكنا شريكين في النفقة. قال: زيارة العبد الصالح مقبولة.

قلت: سيدنا مسألة. قال: سل بسم الله. قلت: وهل قبلت زيارة فلان من أهالي بغداد وكان معنا في طريقنا إلى خراسان فسكت ولم يجب. قلت: سيدنا مسألة. قال: سل بسم الله. قلت: هل سمعت مسألتي السابقة: هل قبلت زيارة الرجل؟ فم يجبني. قال الحاج علي: إن الرجل كان هو وأخلاؤه في الطريق من أهـالي بغداد المترفين وكانوا في رحلتهم هذه يدأبون في اللعب واللهو. وكان هو قاتل أمه ثم بلغنا متسعاً من الطريق يواجه مدينة الكاظمين عليهما السلام محاطاً بالبساتين من الجانبين وكان شطر من هذه الجادة يقع على يمين القادم من بـغداد مـلكاً لبعض الأيتام من السادة وقد اغتصبته الحكومة فجعلته جزءاً من الطريق العام فكان الورع التقي من أهالي بغداد والكاظمية يحذر المسير في هذا الشطر من الجادة فرأيت صاحبي هذا لا يأبىٰ الجري عليه. فقلت له: سيدي هذا الموضع ملك لبعض الايتام من السادة ولا ينبغي التصرف فيه. فأجاب هو لجدي أمير المؤمنين وذريته وأولادنا ويحل التصرف فيه لموالينا وكان على الجانب الأيمن قرب هذا الموضع بستان لرجل يدعى الحاج ميرزا هادي وكان ثرياً من أثرياء العجم المشهورين وكان يسكن بغداد. فقلت سيدنا هل صحيح ما يقال أن هذا البستان أرضه للإمام موسىٰ بن جعفر عليهما السلام. قال: ما شأنك وهذا. وأعـرض عن الجواب ثم بلغنا ساقية مدّت من نهر دجلة لري المزارع والبساتين وهي تقطع الجادة فتتشعب هناك المسلك إلى المدينة شعبتين هما الشارع السلطاني وشارع السادة فتوجه صاحبي إلى شارع السادة فدعوته إلى الشارع السلطاني فرفض. وقال لنسري في شارعنا هذا فما خطونا خطوات إلّا وجدنا أنفسنا في الصحن المقدس عند منزع الأحذية من دون أن نمر بسوق أو زقاق فـدخلنا الأبواب من جانب باب المراد شرقـاً ممـا يـلي الرجـل. فـلم يمكث صـاحبي للاستئذان لدخول الرواق الطاهر وورد من دون الاستئذان ثم وقف على باب الحرم الشريف فخاطبني وقال. زر. قلت إني لا أعرف القراءة. قال: فأقرأ لك الزيارة. قلت: نعم. فقال: ءأدخل ياالله. السلام عليك يـا رسـول الله، السـلام عليك يا أمير المؤمنين وسلّم على الائمة واحـداً فـواحـداً حـتى بـلغ الإمـام

العسكري عليه السلام فقال السلام عليك يا ابا محمد الحسن العسكري ثم خاطبني قائلاً أتعرف إمام عصرك؟ أجبت: وكيف لا أعرفه. قال: فسلم عليه. فقلت: السلام عليك يا حجة الله يا صاحب الزمان يابن الحسن. فتبسم وقال: عليك السلام ورحمة الله وبركاته. فدخلنا الحرم الطاهر وانكببنا على الضريح المقدس. وقبّلناه ثم قال لي: زر. قلت: لا أعرف القراءة، قال: فأقرأ لك الزيارة. قلت نعم: قال: في اي الزيارات ترغب؟ قلت: إقرأ ما هو (أفضل الزيارات. فقال زيارة أمين الله هي الفضلىٰ). ثم أخذ يزور بها قائلاً: السلام عليكما يا أميني الله في أرضه وحجتيه على عباده، إلخ. وأُججت حينئذ مصابيح الحرم الشريف. فشاهدت الشموع لا تؤثر ضياء في تلك البقعة الشريفة فكأنها مشرقة بنور الشمس والشموع تبدو كما لو اججت في وضح النهار. هذا وأنا ذاهل عن هذه الآيات فلا انتبه إليها فلما انتهىٰ من الزيارة دار من سمت الرجل إلى خلف القبر الشريف فوقف في الجانب الشرقي. وقال: هل تزور جدي الحسين عليه السلام. قلت: نعم، أزوره عليه السلام فهذه ليلة الجمعة فزاره عليه السلام بزيارة وارث وانتهى المؤذن حينئذ من أذان المغرب، فقال لي صاحبي. صل والتحق بالجماعة. فأتى المسجد الواقع خلف القبر الشريف وقد اقيمت هنالك صلاة الجماعة ووقف هو منفرداً إلى يمين الإمام محاذياً له. أما أنا فوجدت مكاناً في الصف الأول ووقفت هناك مصلياً مع الجماعة فلما فرغت من الصلاة لم أجد صاحبي فخرجت من المسجد وفتشت عنه الحرم الشريف فلم أجده وكنت أنوي أن أبذل له عدة قرانات أو استضيفه تلك الليلة وإذا أنا أفيق من غفلتي وانتبه فاشخّص السيد الذي صحبني فتتوالىٰ في خاطري الآيات والمعجزات التي مرت بي فقد انقادت له نفسي فعدت معه إلى الكاظمين عليهما السلام غير مبال بما كان يصدني عن ذلك من الأمر الهام في بغداد. وقد دعاني باسمي ولم أكن قد رأيته من قبل وقد عبّر بكلمة الموالين لنا وقال أيضاً: أنا أشهد لك. وقد أبدىٰ لي النهر الجاري والأشجار المثمرة في غير مواسمها فهذه الشواهد الواضحة وغيرها مما شاهدت تورث لي القطع واليقين بأنه هو الإمام المهدي ولا سيما أنه سألني: هل تعرف

إمام زمانك؟ قلت: نعم. فقال سلّم عليه فلما سلمت تبسم وردّ هو علي السلام. ثم أتيت حافظ الأحذية، وسألته عن صاحبي فأجاب: قد خرج وسألني: أكان هو صاحبك؟ قلت: نعم. ثم اويت الى البيت الذي كنت أحل به ضيفاً فبتّ فيه ليلتي. فلما أصبح الصباح وجهت إلى حضرة الشيخ محمد حسن وقصصت له قصتي فوضع يده على فيه ونهاني عن إفشاء القصة. وقال لي: وفقك الله فكنت أكتمها ولا انبئ بها أحداً. وبعد شهر من حدوثها شاهدت يوماً في الحرم الطاهر سيداً جليلاً يدنو مني ويسألني ماذا حدث لك ويلمح إلى القصة فأنكرتها قائلاً: لم يحدث لي شيء فأعاد عليّ كلامه فاشتد انكاري لها ثم غاب عن بصري ولم أره بعد[١].

أكل الحلال مصدر كل خير

يعتبر أكل الحلال مصدر الخيرات والمبرات جميعاً مثلما يحتسب الطعام الحرام مدعاة كل شر وفساد. وقد أكدت الروايات والأحاديث الكثيرة الفضيلة الكبرىٰ لطلب الحلال، نقتصر منها على ذكر الأحاديث النبوية الشريفة التالية:

ـ العبادة سبعون جزءاً، أفضلها جزء طلب الحلال[٢].
ـ من أكل الحلال قام على رأسه ملك يستغفر له حتى يفرغ من أكله[٣].
ـ من يأت كالاً من طلب الحلال بات مغفوراً له[٤].
ـ من أكل من كد يده حلالاً فتح له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء[٥].

١ـ مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، طبعة دار الزهراء، ص ٤٨٤ـ٤٨٨.
٢ـ بحار الأنوار، المجلد (١٠٠)، ص (٧).
٣ـ بحار الأنوار، المجلد (٦٣)، ص ٣١٤؛ وسفينة البحار، المجلد ١، ص ٢٩٨.
٤ـ سفينة البحار، المجلد (١)، ص ٢٨٩.
٥ـ بحار الأنوار، المجلد ١٠٠، ص ٩ـ١١.

ـ من أكل من كد يده كان يوم القيامة في عداد الأنبياء ويأخذ ثواب الأنبياء[١].

ـ قال الله عز وجل، من لم يبال من أي باب اكتسب الدينار والدرهم لم أبال يوم القيامة من أي باب من أبواب النار أدخلته.

ـ لا يكتسب العبد مالاً حراماً ويتصدق منه فيؤجر عليه ولا ينفق منه ولا يتركه خلف ظهره إلّا كان زاده إلى النار[٢].

لا يقسم الله الأرزاق حراماً بين خلقه

يخيل للمتهافتين على مال الحرام عادة أن حياتهم ستتعثر وأنهم سيواجهون الفقر والفاقة فيما لو غضوا النظر عن مثل هذه الأموال. ولهذا تقتضي الضرورة ان ننوه إلى أن هذه الأفكار مجرد هلوسات نفسية ووساوس شيطانية، لأن المنطق السليم ونفثات العقل الواضحة والوعود الالهية الصادقة التي أطلقها سبحانه وتعالىٰ في القرآن المجيد وعلى لسان أهل بيت رسول الله ﷺ من خلال الروايات الواردة عنهم، كلها تؤكد أن الله قد ضمن لكل كائن حي رزقه من حله إن لم يتعجل في طلبه بكسب الحرام، فما عليه إلّا أن يتحلىٰ بالصبر والقناعة حتى ينال ما قدر له من رزق حلال. ولكن قد يسيء المرء السلوك فينقاد إلى رزق الحرام فيحرم نفسه بذلك من رزقه الحلال المقدر له من قبل الله عز وجل. والأخبار المروية في هذا السياق كثيرة نكتفي بذكر مثالين نختم بهما بحثنا:

ـ قال رسول الله ﷺ يخاطب المسلمين في حجة الوداع:

«أيُّها الناس! ما اعلم عملاً يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار إلّا وقد نبأتكم به وحثثتكم على العمل به. وما من عمل يقربكم من النار ويباعدكم من

---

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ المصدر السابق، ص ١٤.

الجنة إلّا وقد حذرتكموه ونهيتكم عنه.

ألا وأن روح الأمين نفث في روعي أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق أن تطلبوه بمعصية الله. إن الله قسم الأرزاق بين خلقه حلالاً، ولا يقسم حراماً. فمن أبقىٰ وصبر أتاه رزق الله، ومن هتك حجاب التستر وعجل فأخذه من غير حله قوصص به من رزقه الحلال وحوسب به يوم القيامة»[١].

ـ دخل الإمام علي عليه السلام المسجد وقال لرجل: أمسك عليّ بغلتي. فخلع لجامها وذهب.

فخرج علي عليه السلام بعدما قضىٰ صلاته وبيده درهمان ليدفعهما إليه مكافأة له فوجد البغلة عطلاً فدفع إلى أحد غلمانه الدرهمين ليشتري بهما لجاماً. فصادف الغلام اللجام المسروق في السوق قد باعه الرجل بدرهمين فأخذه بالدرهمين وعاد إلى مولاه.

فقال علي عليه السلام: «إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ولا يزاد عليه ما قدر له»[٢].

إن خمس المال الذي يحبس صاحبه ما يترتب دفعه ضمن هذه الفريضة الالهية يعتبر مالاً مغصوباً من حق الناس. وهو كما قال إمام العصر والزمان(عج):

«من أكل من أموالنا شيئاً فإنما يأكل في بطنه ناراً وسيصلىٰ سعيراً»[٣].

إذاً، لا يصح البيع والشراء بمال لم يدفع عنه الخمس. قال الإمام الصادق عليه السلام:

---

١ ـ عدة الداعي، ص ٨٣

٢ ـ شرح نهج البلاغة، المجلد (٣)، ص ١٦١.

٣ ـ بحار الأنوار، ١٠٣/ ١٨٢.

«لا يحل لأحد أن يشتري من الخمس شيئاً حتى يصل إلينا حقنا»[1].

وعنه عليه السلام في رواية أخرى:

«حتى يأذن له أهلُ الخمس»[2].

يقول أحمد بن عيسىٰ: قيل للإمام الصادق عليه السلام:

«الرجل يخرج ثم يقدم علينا وقد أفاد المال الكثير لا ندري أكتسبه من حلال أو حرام؟ فقال عليه السلام: إذا كان ذلك فانظر في اي وجه يخرج نفقاته فإن كان ينفق فيما لا ينبغي مما يأثم عليه فهو حرام»[3].

وعنه عليه السلام أيضاً:

«إذا رأيت الرجل يخرج من ماله في طاعة الله عز وجل فاعلم أنه أصابه من حلال وإذا أخرجه في معصية الله عز وجل فاعلم أنه اصابه من حرام»[4].

قال الإمام علي عليه السلام:

«من أَحَبَّ المكارم اجتنب المحارم»[5].

وعنه عليه السلام أيضاً:

«الكريم من يجتنب الحرام»[6].

وقال عليه السلام أيضاً:

«من شرائط المروة التنزه عن الحرام»[7].

قال الإمام الباقر عليه السلام:

---

١ ـ بحار الأنوار، ٦/٣٢٧.

٢ ـ وسائل الشيعة، ٤/٢٧٨.

٣ ـ الفروع من الكافي، ٥/٣١١/٣٤.

٤ ـ المصدر نفسه.

٥ ـ آثار الصادقين، ٣/٢٧٣.

٦ ـ غرر الحكم، ٢/٣٧٦.

٧ ـ غرر الحكم، ١/٢٤٠.

«يقول الله تعالىٰ: يابن آدم! اجتنب ما حرَّمتُ عليك تكن من أورع الناس»[1].

ويروىٰ عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«الشكر للنعم اجتناب المحارم»[2].

إن التعاليم الإسلامية وإلى جانب نهيها عن أكل الحرام تؤكد وبشدة على فضيلة كسب الحلال وآثاره الطيبة أيضاً. ومن ذلك:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«من بات كالاً من طلب الحلال بات مغفوراً له»[3].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم:

«العبادة سبعون جزءاً أفضلها جزءاً طلب الحلال»[4].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم كذلك:

«من أكل الحلال أربعين يوماً نور الله قلبه»[5].

ـ سئل سلمان الفارسي:

أي الأعمال أفضل؟ قال: الايمان بالله وخبزٌ حلالٌ[6].

ومن الآثار السلبية لأكل الحرام كما أشارت إليها الروايات والأحاديث:

١ـ انقطاع الخير والبركة في المال وفي معيشة الإنسان.

كتب أحد الشيعة للإمام الحسن عليه السلام:

---

١ ـ تحف العقول.

٢ ـ جامع أحاديث الشيعة، ٣٢٣/١٣.

٣ ـ بحار الأنوار (طبعة ايران)، ٢/١٠٣.

٤ ـ المصدر السابق، ٧ و ٩.

٥ ـ المصدر نفسه، ١٦/ ح ٧١.

٦ ـ المصدر السابق / ١٦.

«رجل اشترى ضيعة بمال من قطع الطريق أو من سرقة هل يحل له؟ فوقع عليه السلام: لا خير في شيء أصله حرام ولا يحل استعماله»[1].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«اتقوا الحَجَر الحرام في البنيان فإنه أساس الخراب»[2].

٢ـ آكل الحرام ملعون:

قال الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم:

«إذا وقعت اللقمة من حرام في جوف العبد لعنه كل مَلَك في السموات وفي الأرض»[3].

٣ـ مال الحرام يسخر صاحبه:

رغم أن الهدف من المال وفلسفة التملك تقضي أن يأمن به الإنسان رفاهه ويسخره لتسيير شؤون معيشته إلّا أن المال إن كان من حرام يسخر الإنسان ويسلب راحته.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«من كسب مالاً من غير حله سلط الله عليه البناء والماء والطين»[4].

٤ـ استجلاب الفقر والفاقة:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«من كسب مالاً من غير حله أفقره الله»[5].

١ـ الفروع من الكافي: ٨/١٢٥/٥.

٢ـ كنز العمال: ٤٠٥/١٥.

٣ـ بحار الأنوار (طبعة ايران): ٥٢/١٢/١٠٣.

٤ـ بحار الأنوار، ٨/٤/١٠٣.

٥ـ المصدر نفسه، ٥.

٥ ـ مال الحرام ينفق في المعصية:

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

«من جمع مالاً من مهاوش، أذهبه الله في نهابر»[١].

٦ـ مال الحرام يوقع المرء في الإثم والمعصية:

إن مال الحرام وإضافة إلى كونه ينفق في غير رضا الله، يجر الإنسان نحـو اقتراف الآثام وارتكاب المعاصي وحكاية شريك بن عبد الله بن سنان بن أنس النخعي في هذا السياق، وردت في أكثر من محل في هذا الكتاب.

٧ـ مال الحرام يوجب عذاب الآخرة:

قال تعالىٰ:

«من لم يبال من أي باب اكتسب الدينار والدرهم لم أبال يوم القيامة من أي أبواب النار أدخلته»[٢].

وقال عز وجل:

«من اكتسب مالاً من غير حله كان زاده إلى النار»[٣].

٨ـ مال الحرام يمنع قبول العبادات:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن لله ملكاً ينادي على بيت المقدس كل ليلة من أكل حراماً لم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً»[٤].

في تفسير هذه الرواية يذكر ان الصرف هو الصلاة المستحبة والعدل الصلاة

---

١ ـ بحار الأنوار. (المهاوش: ما نهب وغصب من مال وغيره والنهابر: الحفر الكبيرة في الطريق أي المهالك).

٢ ـ بحار الأنوار، ١٠٣/١/٦.

٣ ـ المصدر نفسه، ٤٥.

٤ ـ بحار الأنوار، ١٦/ ح ٧٢.

الواجبة.

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «من أكل لقمة من حرام لم تقبل منه صلاة أربعين ليلة»[1].

قال الإمام علي عليه السلام:

«يا كميل! إن اللسان يبوح من القلب والقلب يقوم من الغذاء فانظر فيما تغذي قلبك وجسمك فإن لم يكن ذلك حلالاً لم يقبل الله تعالى تسبيحك ولا شكرك»[2].

٩ـ مال الحرام يفسد التربية:

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«إن الرجل إذا أصاب مالاً من حرام لم يقبل الله منه حج ولا عمرة ولا صلة رحم حتى أنه يفسد فيه الفرج»[3].

١٠ـ آكل الحرام مطرود من ساحة القرب الإلهي:

ينقل المرحوم الشيخ عباس القمي في سفينة البحار عبارات رائعة على لسان أحد العارفين، فيكتب:

حكي عن بعض العارفين أنه قال: آكل الحرام والشبهة مطرود عن الباب بغير شبهة الا ترىٰ أن الجنب ممنوع عن دخول بيته والمُحدث مُحرَّم عليه مس كتابه مع أن الجنابة والحدث أمران مباحان فكيف بمن هو منغمس في قذر الحرام وخبث الشبهات لا جَرَم أنه ايضاً مطرود عن ساحة القرب غير مأذون له في دخول الحرم[4].

الجدير بالذكر أن هذه الأحاديث توحي بعدة أمور لابد من التنبه لها ومنها:

١ـ ميزان الحكمة (طبعة دار الحديث)، ١/٥١٧.

٢ـ بحار الأنوار، ٧٧/٢٧٣.

٣ـ سفينة البحار، ٢/١٥٧.

٤ـ سفينة البحار، ٢/١٥٦.

١ـ إن أكل الحرام يمتاز بفاعليته الذميمة وإن تحدد بلقمة واحدة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«كل لحم تنبته الحرام فالنار أولىٰ به وأن اللقمة الواحدة تنبت اللحم».

٢ـ ينبغي على الإنسان بذل الجهد للحيلولة دون إقحام مال الحرام في معيشته وأن يسعىٰ حثيثاً لنبذ كل ما يرد عيشه منها حتى بمقدار يسير.

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«لرد دانق من حرام يعدل عند الله تعالىٰ سبعين ألف حجة مبرورة»[1].

٣ـ أن نضع نصب أعيننا أن استرزاق الحلال أمر شاق يتيسر اجتذابه بأداء الفرائض والتناهي عن المحرمات.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«طلب الحلال مثل مقارعة الأبطال في سبيل الله»**[2].

٤ـ إن الكثير من المآسي والبلايا التي نعاني منها نحن والمجتمع الإسلامي بأسره هي مردودات وانعكاسات لتفشي المعاصي ومنها أكل الحرام. وهذا ما تشير إليه الآية: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾[3].

إذاً، هذا هو سبب احتجاب الاستجابة عن بعض أدعيتنا. وقد روي أن موسىٰ عليه السلام رأى رجلاً يتضرع تضرعاً قوياً ويدعو رافعاً يديه ويبتهل. فأوحىٰ الله تعالىٰ إلى موسى: لو فعل كذا وكذا لما استجبت دعاءه لأن في بطنه حراماً وعلى ظهره حراماً وفي بيته حراماً[4].

جاء رجل النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وقال: أحب ان يستجاب دعائي. قال له صلى الله عليه وآله وسلم: **«طهر مأكلك ولا تدخل بطنك الحرام»**[5].

١ـ سفينة البحار، طبعة دار «أسوة»، ٥٦/٣.

٢ـ كنز العمال، ٨/٤.

٣ـ سورة الروم، الآية ٤١.

٤ـ راجع سفينة البحار، طبعة «اسوة»، مادة «دعو».

٥ـ المصدر السابق.

إن جميع المعاصي مستقبحة وتبعاتها مستهجنة، إلّا أن أكل الحرام أبشعها انعكاساً وأفظعها مردوداً ولهذا يقول الإمام محمد الباقر عليه السلام:

«الذنوب كلها شديدة وأشرها ما نبت عليه اللحم»[1].

وفي مضمار استعراض شروط التوبة، قال الإمام علي عليه السلام:

«أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة»[2].

ويتيسر ذلك عندما يعلم المرء أصحاب المال. وهذا ما أوصىٰ به الإمام الصادق عليه السلام صاحبه علي بن حمزة حيث قال:

«فمن عرفت منهم رددت عليه.. ومن لم تعرف تصدَّقت به»[3].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من كانت له مظلمة لأحد فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون ديناراً ولا درهماً»[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام:

«من ظلم أحداً، وفاته فليستغفر الله فإنه كفارة له»[5].

ويستحب لمن يحتمل له حقاً في ذمة غيره أن يحلله إن كان قد قضى حتفه. فعن حسن بن خنيس أنه قال:

قلت لأبي عبد الله (الصادق) عليه السلام: ان لعبد الرحمٰن بن سيابة ديناً على رجل قد مات وكلمناه أن يحلله فأبىٰ. فقال: ويحه أما يعلم أن له بكل درهم عشرة إذا حلله فإذا لم يحلله فإنما له درهم بدل درهم[6].

لم يكتف الإمام الصادق عليه السلام بالحث على العفو والتسامح بل كان يتوسط

---

١ ـ بحار الأنوار، ٣١٧/٧٣.

٢ ـ نهج البلاغة، الحكمة (٤١٧).

٣ ـ الفروع من الكافي، ١٠٦/٥.

٤ ـ مدينة البلاغ، ٢٢/٢.

٥ ـ وسائل الشيعة، ٣٤٣/١١.

٦ ـ وسائل الشيعة، ٥٤٨/١١.

بنفسه لمثل هذا. يروىٰ أنه:

«دخل محمد بن بشر الوشاء على أبي عبد الله، فسأله أن يكلم شهاباً أن يخفف عنه حتى ينقضي الموسم وكانت له عليه ألف دينار فأرسل إليه فأتاه، فقال له:

قد عرفت حال محمد وانقطاعه إلينا وقد ذكر... فأنا أحب ان تجعله في حل... فقال: هو في حل[1].

وكان الائمة عليهم السلام في بعض المواقف والحالات يغضون النظر عن حقوقهم في ذمة الآخرين فيعفون عنهم ويحللونهم. والروايات العديدة تتطرق لمثل هذه المبادرة عنهم كما جاء في روايات عديدة عن الإمام السجاد عليه السلام[2].

وها هو الإمام علي عليه السلام يتطرق إلى فضيلة هذا العمل المستحب بقوله:

«اعط الناس من عفوك وصفحك مثل ما تحب أن يعطيك الله سبحانه، وعلى عفوٍ فلا تندم»[3].

مع حق الناس في عالم الروايات والأخبار:

من الحقوق المتعلقة بالناس والتي يتعرض المرء جراءها في يوم القيامة للعتاب والمؤاخذة الشديدة إن هو استهان بها في دنياه هو قضية الديون المالية واشتغال ذمة الأشخاص ببعض سواء كان ذلك في سياق مشروع مثل الدين والنسيئة وما إليها أو في سياق غير مشروع مثل السرقة والتطفيف وغيرها. إن الله لا يغفر لعبده غبن حقوق الغير ما لم يعفو أصحاب الحق عنه بعد تصفية الحسابات المالية معهم.

عن أبي جعفر الباقر قال:

---

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ راجع الارشاد للشيخ المفيد، المجلد (٢).

٣ ـ غرر الحكم، (طبعة ايران)، ٢/ ١٣٢.

«كل ذنب يكفِّرَه القتل في سبيل الله إلّا الدين فإنه لا كفارة له إلّا أداءه أو يقضي صاحبه أو يعفو الذي له الحق»[1].

وعن الإمام علي عليه السلام، قال:

«لقد صلى رسول الله باصحابه ذات يوم فقال: ما ههنا من بني النجار أحد وصاحبهم محتبس على باب الجنة بثلاثة دراهم لفلان اليهودي، وكان شهيداً».

قال الإمام الصادق عليه السلام:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيما مؤمن أو مسلم مات وترك دَيناً لم يكن في فساد ولا إسراف فعلى الإمام أن يقضيه»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إن الله تعالىٰ آلىٰ على نفسه أن لا يُسكِن جنته أصنافاً ثلاثة: رادّ على الله عز وجل أو راد على إمام هدى أو من حبس حق امرىءٍ مسلم»[3].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سياق حديثه الشريف عن أحوال الموتى بعد رحيلهم:

«.. ينادي يا أهلي ويا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي فجمعت المال من حلّه خلَّفته لغيري فالمهنا له والتبعة عليَّ، فاحذروا مثل ما حلّ بي»[4].

اللهم اجعلني ممن يحل حلالك ويحرِّم حرامك

السيد اسماعيل جوهري

٢٤/ربيع الثاني ١٤٢٣هـ.ق

المصادف ٦/٧/٢٠٠٢م.

١ـ وسائل الشيعة، كتاب التجارة، باب وجوب قضاء الدين، ص ١٩٠.

٢ـ الكافي، ٤٠٧/١.

٣ـ بحار الأنوار، ١٢٩/١.

٤ـ بحار الأنوار، ١٣٦/٣.

محتويات الجزء الأول

الفصل الثاني: الإنفاق من السحت

الفصل الثالث: الإنسان والسحت (في يوم القيامة)

محتويات الجزء الثاني

الفصل الاول: مفاسد الحرام في المال والطعام

الفصل الثاني: حق الناس

الفصل الثالث: عاقبة التطفيف

الفصل الرابع: الغش وتبعاته